

جان بول سارتر

سین الرشد

دروپ اکرینیہ - ۱-

تقدیم عن الفنیة

الدکتور سیتیل دینس

مشورات دار الآداب بیروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية : كانون الثاني ١٩٦٢

- في وسط شارع « فرسينجيتوري » ، أمسك رجل طويل بذراع ماتيو ؛ وكان ثمة شرطي يذرع الرصيف الآخر .
- اعطني شيئاً يا معلم ؛ انني جائع .
- وكانت عيناه متقاربتين وشفته غليظتين . وكانت تنبعث منه رائحة الخمر ، فسأله ماتيو :
- اليس الأمر انك - بالاحرى - عطشان ؟
- فقال الرجل بجهد :
- أقسم لك ، يا صاحبي ، أقسم لك .
- وكان ماتيو قد عثر في جيبه على قطعة من ذات الفرنكات الخمسة ، فقال له :
- الأمر عندي سواء ؛ فانما سألتك لأتحدث فقط .
- وأعطاه الفرنكات الخمسة . فقال الرجل وهو يستند الى الجدار :
- إن ما فعلته الآن حسن ؛ وبالمقابل ، سأتمنى لك شيئاً عظيماً ..
- ماذا تراني سأتمنى لك ؟
- وأخذوا يفكران معاً ؛ وقال ماتيو :
- ما تشاء .

فقال الرجل :

— حسناً ؛ اني اتمنى لك السعادة . هذا ما اتمناه لك .
وضحك ضحكة انتصار . ورأى ماتيو ان الشرطي كان يقرب
منهما فخاف على الرجل وقال :

— طيب . مع السلامة .

وأراد ان يتعد ، ولكن الرجل امسك به وهو يقول بصوت مائع :

— ليس هذا كافياً ، ليس كافياً .

— إذن ما الذي يلزمك ؟

— اودّ ان اعطيك شيئاً ما ...

وقال الشرطي :

— سوف أقبض عليك بتهمة الاستعطاء .

وكان شاباً ذا خدين احمرين ، وكان يحاول ان يتظاهر بالقسوة .
وقد أضاف من غير تأكيد :

— مضى عليك نصف ساعة وأنت تزعج المارة .

فسارع ماتيو يقول بحوية :

— إنه لا يستعطي . وإنما نحن نتحدث .

فهزّ الشرطي كتفيه وتابع طريقه . وكان الرجل يترنح بطريقة
مقلقة . بل لقد يبدو عليه انه قد رأى الشرطي .

— وجدت ما سوف اعطيك إياه . سأعطيك طابعاً من مدريد .

وأخرج من جيبه مستطيلاً من الورق المقوى الاخضر وبسطه لماتيو .
وقرأ ماتيو :

« س . ن . ت . دياريو كونفيديرال . ايجاميلار ٢ . فرنسا .
اللجنة النقابية الفوضوية ، ٤١ شارع بلفيل ، باريس ١٩ . » وكان
ثمة طابع قد الصق تحت العنوان . وكان الطابع اخضر هو ايضاً ، وكان
يحمل ختم مدريد . ومدّ ماتيو يده :

— شكراً جزيلاً .

فقال الرجل غاضباً :

— ولكن حذار ! انها ... انها مدريد !

فنظر اليه ماتيو : كان الانفعال بادياً على الرجل ، وكان يبذل جهوداً عنيفة ليعبر عن فكرته ، ولكنه عدل واكتفى بالقول :

— مدريد .

— نعم .

— أقسم لك اني كنت اريد ان اسافر اليها . ولكن ذلك لم يتيسر لي .

وغدا مغموماً كثيراً ، وقال « إنتظر » ثم أمره اصبعه على مهل

فوق الطابع وأضاف :

— حسناً . تستطيع ان تأخذه .

— شكراً .

وخطا ماتيو بضع خطوات ، ولكن الرجل ناداه :

— ايه !

فقال ماتيو :

— ايه ؟

فاذا الرجل يشير اليه عن بعد بقطعة الفرناكات الخمسة :

— هناك شخص أعطاني خمسة فرناكات اخرى . فأنا ادعوك الى قدح

من « الروم » .

— ليس هذا المساء .

وابتعد ماتيو بأسف غامض . لقد قضى عهداً من حياته كان فيه

يتسكع في الشوارع والحانات مع الجميع ، وكان اول قادم يستطيع ان

يدعوه . اما الآن ، فقد انتهى ذلك : ان تلك الأساليب لم تكن تجدي

شيئاً ، وان كانت مدعاة تسلية ومرح . لقد رغب في الذهاب الى اسبانيا

للقتال . وحث ماتيو خطاه ، وفكر في ضيق : « مهما يكن من أمر ،

فلم يكن لأحدنا ما يقوله للآخر ، وأخرج من جيبي البطاقة الخضراء .
« ان مصدرها مدريد ، ولكنها ليست مرسلّة اليه . لا بدّ ان احداً
قد اعطاه إياها . وقد لمسها مرات قبل ان يعطيني إياها ، لأن مصدرها
مدريد . » وكان يتذكّر وجه الرجل والهيئة التي بدا عليها اذ نظر الى الطابع
نظرة مشغوفة : ونظر ماثيو الى الطابع بدوره من غير ان يكفّ عن
السير ، ثم أعاد قطعة الورق المقوّى الى جيبي . وصفر قطار ، وفكّر
ماثيو : « اني عجوز » .

وكانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين ؛ لقد وصل ماثيو قبل
الأوان . ومرّ من غير ان يتوقف ، بل هو لم يلفت رأسه الى البيت
الصغير الازرق . ولكنه كان يرمقه بجانب عينه . كانت جميع النوافذ
سوداء ، الا نافذة السيدة « دوفيه » . انه لم يُتيح له « مارسيل » بعد
ان تفتح باب الدخول : لقد كانت منحنية على امها ، وكانت تحيطها
بحركات رجولية وهي في سريرها الكبير ذي المظلة . وظلّ ماثيو
مغمّماً ، وكان يفكر : « خمسمئة فرنك للذهاب الى ٢٩ ، يعني ثلاثين
فرنكاً في اليوم ، او أقلّ من ذلك . فاذا تراني افعل ؟ » واستدار
ثم عاد على عقبيه .

وكان الضوء قد انطفأ في غرفة السيدة دوفيه . وبعد لحظة ، اضيئت
نافذة مارسيل ، وعبر ماثيو المرتفع ، وحاذى حانوت السمّان وهو
يتجنّب ان يقطع نعليه الجديدين . وكان الباب مشقوقاً ، فدفعه
على مهل فصرّ : « سآتي يوم الاربعاء بقنينتي وأضع قليلاً من الزيت
في الرزّات . » ودخل وأغلق الباب ، ثم خلع نعليه في الظلام . وطقن
الدرج قليلاً وهو يصعده ، وحذاؤه في يده ؛ وكان يلامس باهامه
كل درجة قبل ان يضع عليها قدمه . وفكر : « أية مهزلة ! »
وفتحت مارسيل الباب قبل ان يبلغ سطح الدرج . وانبعث من
غرفتها غبار ورديّ فيه رائحة السوسن وانتشر على الدرج . وكانت قد

ارتدت قبصها الاخضر . فاستشف منه ماتيو ثنية خاصرتها الرقيقة الريانة .
ودخل ، وكان يجتعل اليه دائماً انه يدخل محارة . وأقفلت مارسيل
الباب بالمفتاح : واتجه ماتيو الى الخزانة الكبيرة المحفورة في الجدار ،
ففتحها ووضع فيها حذاءه ، ثم نظر الى مارسيل فرأى انها تشكو شيئاً
ما ، فسألها بصوت منخفض :

— ما الذي تشكين ؟

فقالت مارسيل بصوت منخفض :

— لا شيء . وانت ، يا عزيزي ؟

— اني بلا درهم واحد . اما ما عدا ذلك ، فلا بأس .
وقبلها في عنقها وفي فمها . وكانت تنبعث من العنق رائحة عنبر ،
ومن الفم تبغ مبتذل . وجلست مارسيل على حافة السرير ، وأخذت
تنظر الى ساقها ، بينما كان ماتيو ينزع ثيابه .

وسألها ماتيو : — ماذا هناك !

وكان على المدخنة صورة لم يكن يعرفها . واقرب فرأى فتاة هزيلة
ترتدي ثوب الصبيان وتضحك ضحكة قاسية حيية . وكانت ترتدي
سترة رجل وحذاء ذا كعب مسطح . وقالت مارسيل من غير ان ترفع
رأسها :

— هذه انا .

والثفت ماتيو : فاذا مارسيل مشمرة قبصها عن فخذيها المثلثين ؛
وكانت تنحني الى أمام فيستشعر ماتيو تحت القميص هشاشة صدرها
الثقيل .

— اين عثرت عليها ؟

— في مجموعة . ان تاريخها هو صيف ٢٨ .

وطوى ماتيو سترته بعناية ودفعها الى الخزانة الى جانب الحذاء . ثم

سأل :

— أصبحت الآن تتفرجين على مجموعات العائلة ؟

— لا ، ولكن لا ادري ، لقد اخذتني الرغبة اليوم في ان استعيد
اشياء من حياتي ، كيف كنت قبل ان اعرفك ، حين كنت ممتلئة
بالعافية . أعطني إياها .

فأتاها ماتيو بالصورة ، فانتزعتها من بين يديه. وجلس الى قربها ،
فارتعشت وابتعدت قليلاً . وكانت تنظر الى الصورة ببسمة غامضة ،
وقالت :

— لقد كنت ظريفة .

كانت الفتاة واقفة متصلبة ، مستندة الى حاجز حديقة . وكانت
تفتح فمها ، فكأنها هي ايضاً تقول « ان هذا ظريف » ، تقوله بالطلاقة
المرتبكة نفسها ، والجرأة القلقة ذاتها . بيد انها كانت شابة وهزيلة .
وهزت مارسيل رأسها :

— ظريف ! ظريف ! لقد رافقها الى حديقة الكسمبورغ طالب
في الصيدلة . أترى القميص الذي كنت ألبسه؟ لقد اشتريته في اليوم نفسه ،
اذا كان المفروض ان تقوم يوم الاحد التالي بنزهة كبيرة في «فونتابلو» .
يا إلهي ! ...

كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فانه لم يسبق لحركاتها ان كانت
على مثل هذه الفجاءة ، ولا لصوتها ان كان خشناً ، رجولياً ، كما
هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا
دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة
الوردية ؛ وكان يشقّ على المرء ان يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ،
بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كتفها
وجذبها اليه :

— انك آسفة على ذلك الزمن ؟

فقالت مارسيل بجفاف :

— ذلك الزمن ، كلا : بل انا آسفة على الحياة التي كان يمكن ان احيها .

وكانت قد بدأت دراسة الكيمياء فقطعها المرض . وفكر ماتيو :
« لكأنا حاقدة عليّ » . وفتح فمه ليسألها . ولكنه رأى عينيها فصمت ،
وكانت تنظر الى الصورة نظرة حزينة متوترة .
— لقد سمعت ، أليس كذلك ؟

— نعم .
فهزت كفيها ورمت بالصورة على السرير . وفكر ماتيو : « إن
لها حقاً حياة كثيفة » وأراد ان يقبلها في خدّها ، ولكنها تخلصت بلا
عنف ، وبضحكة صغيرة عصبية . وقالت :
— كان ذلك منذ عشر سنوات .

وفكر ماتيو : « انني لا امنحها شيئاً » . كان يأتي لرؤيتها اربع
ليال في الاسبوع ؛ وكان يروي لها بالتفصيل كل ما قام به ، وكانت
تمنحه النصائح بصوت جاد لا يخلو من تسلط ؛ وكانت غالباً تقول :
« انني اعيش بالوكالة » وسألها :

— ماذا فعلت امس ؟ هل خرجت ؟
فصدرت عن مارسيل حركة ضجرة مستديرة :
— لا ، فقد كنت متعبة . لقد قرأت قليلاً ، ولكن امي كانت
تضايقي طوال الوقت من اجل الحانوت .

— واليوم ؟
فقالت بلهجة شرسة :

— لقد خرجت اليوم . شعرت بحاجة الى تنشق الهواء ، والى محاذاة
الناس . وقد هبطت حتى شارع « دولاغيتيه » وكان هذا يسليني . ثم
انني كنت اريد ان ارى « اندريه » .
— وهل رأيتها ؟

- اجل ، خمس دقائق . وحين خرجت من بيتها ، بدأت السماء تمطر . إنه لشهر حزيران عجيب ، ثم ان الناس كانوا ذوي سحن لثيمة . فاستقلت سيارة وعدت .

وسألت برخاوة :

- وانت ؟

ولم تكن لماتيو رغبة في السرد فقال :

- كنت امس في الليسيه لاعطاء آخر دروسي . وقد تعشيت في مطعم « جاك » ، وكان ذلك مميتاً كالعادة . وفي هذا الصباح ، قصدت المحاسب لأرى ان كانوا يستطيعون ان يسلفوني شيئاً ؛ ويبدو ان هذا امرٌ لا يُفعل . ومع ذلك فقد كنت اتدبر امرى في « بوفيه » مع المحاسب . ثم رأيت « ايفيش » .

ورفعت مارسيل حاجبيها ونظرت اليه : ولم يكن يجب ان يحدثها عن ايفيش . وأضاف :

- انها الآن مكشّرة ، يائسة .

- وما السبب ؟

وكان صوت مارسيل قد اشتد ، واتخذ وجهها تعبيراً رجولياً وصبيناً ؛ كانت تشبه شرقياً سميناً . وقال ماتيو بطرف شفتيه :

- ستسقط في الامتحان . /

- لقد سبق ان قلت لي إنها كانت تدرس .

- نعم ... على طريقتها ، اي ان عليها ان تبقى ساعات بطولها تجاه كتاب ، من غير ان تقوم بحركة . ولكن تعرفين طبعها : ان لها بديهيات ، وشأنها في ذلك شأن المجنونات . كانت في دورة تشرين الاول قد درست علم النبات ، وكان الممتحن مسروراً ؛ ثم رأت نفسها فجأة تجاه رجل اصلع يتحدث عن مجوفات البطن ، فبدا لها ذلك مضحكاً ، وفكرت « طنز في مجوفات البطن ! » ، ولم يستطع الرجل ان يتنزع

منها اية كلمة .

وقالت مارسيل وهي تحلم :

— عجيبة هذه الفتاة الصغيرة الطيبة .

وقال ماتيو :

— أخشى على اي حال ان تقع هذه المرة ايضاً فيها وقعت فيه ، او

ان تخترع شيئاً آخر . ستزين .

هذه اللهجة ، لهجة التجرد الحامي ، ألم تكن كذبة ؟ لقد كان يقول كل ما يمكن ان يُعبر عنه بالكلمات . « ولكن هناك شيء آخر

غير الكلمات ! » .

وتردد لحظة ، ثم خفض رأسه ، ثابط الهمة : ان مارسيل لم تكن

تجهل شيئاً من عاطفته لإيفيش ، بل لعلمها كانت تقبل ان يحبها . وهي

على العموم لم تكن تطلب إلا امرأ واحداً : ان يتحدث عن إيفيش بهذه

اللهجة بالذات . ولم يكن ماتيو قد كف عن ملامسة ظهر مارسيل ،

وكانت مارسيل قد بدأت تخفق جفونها ، كانت تحب ان يلامس ظهرها ،

ولا سيما عند منبت الصلب وبين الراسلين . ولكنها تفلتت فجأة وتلبس

وجهها القسوة . فقال لها ماتيو :

— اسمعي يا مارسيل ، انه سيان عندي ان تنجح إيفيش او تسقط ،

فليست هي مصنوعة للطب أكثر مما انا مصنوع له . وأياً ما كان ، وحتى

لو اجتازت امتحان « شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة » ، فستصاب

بالاغماء عند اول تشريح في العام القادم ، ولن تضع بعد ذلك قدميها

في المعهد . ولكن اذا لم تنجح هذه المرة ، فلا بد ان ترتكب حماقة ما .

ذلك ان اسرتها لا تود ان تسمح لها ، في حالة السقوط ، ان تعود

الى الدراسة .

فسألته مارسيل بصوت رقيق :

— اي نوع من الحماقات تقصد على الضبط ؟

فقال مضطرباً :

— لست ادري .

— آه ! اني اعرفك جيداً يا عزيزي المسكين . انت لا تجرؤ على الاعتراف بأنك نخشى ان تطلق على نفسها رصاصة تحترق جلدها . وانت تزعم مع ذلك انك تكره الاحداث الروائية . ولكن قل لي : لكأنك لم ترها قط ، بشرتها ؟ اني سأصاب بالهلع اذا جرحتُ بشرتي ، ولو لم يتجاوز الأمر ان أمرتُ فوقها اصبعي . وانت تتصور بعد ذلك ان الدمى التي تملك مثل تلك البشرة سوف تتلف نفسها برصاص المسدس ؟ اني أستطيع بكل سهولة ان أمثلها مسترخية فوق كرسي ، وقد غطي شعرها وجهها ، بينما هي تتأمل مسحورة في مسدس صغير لطيف موضوع أمامها ، إن هذه صورة روسية جداً . أما ان أتصور شيئاً آخر ، فكلا ، ثم كلا ، ثم كلا ! ان المسدس ، يا صاحبي ، انما جعل لمثل جلودنا التمساحية .

وأسندت ذراعها الى ذراع ماتيو ، وكانت بشرته أشدّ بياضاً من بشرة مارسيل .

— انظر الى هذا ، يا عزيزي ، ولا سيما الى جلدي ، فكأنه جلد ماعز مدموغ .

واخذت تضحك :

— الا ترى اني املك كل ما يلزم لصنع مرغاة ؟ اني اتمثل ثقباً صغيراً جميلاً تحت ثديي الأيسر ، ذا أطراف نظيفة محمّرة . إن ذلك لن يكون بشعاً ...

وكانت ما تزال تضحك . ووضع ماتيو يده على فمها :

— اسكبي . سوف توقظين العجوز .

فصمتت وقال لها :

— كم انت عصبية !

فلم تجب . ووضع ماتيو يده على فخذ مارسيل وجعل يلامسها برفق .
كان يحب تلك البشرة الزبدية بزغبتها الذي يُشعر لسه بالعدوية ، كآلف
رعدة دقيقة . ولم تتحرك مارسيل : كانت تنظر الى يد ماتيو . وانتهى
الأمر بماتيو الى ان يرفع يده . وقال :
- انظري إليّ .

ورأى لحظةً عينها المحاطين بدائرة مزرقّة ، فترةً نظرةً متعاليةً
ياثسة .

- ما بك ؟

فقالته وهي تصرف رأسها : ليس بي شيء .
كان الأمر معها دائماً كذلك : كانت كسيحة . انها لن تستطيع
بعد لحظة ان تتمالك نفسها : وستنفجر . ولم يكن ثمة ما يفعل ، إلا
قتل الوقت حتى تلك اللحظة . وكان ماتيو يخشى انفجاراتها الصامتة :
فقد كانت العاطفة في هذه الغرفة المحارة امرأ لا يحتمل ، اذ كان
ينبغي التعبير عنها بصوت منخفض وبلا حركة خشية ايقاظ السيدة دوفيه .
ونفض ماتيو ، فشى حتى الخزانة وتناول من جيب سترته البطاقة :
- خذي انظري .

- ما هذا ؟

- لقد اعطاني إياها شخص لقيته الساعة في الطريق . كان ذا هيئة
محببة ، وقد اعطيته بعض المال .

فاخذت مارسيل البطاقة بلا اكتراث . واحسّ ماتيو انه مرتبط الى
الرجل بنوع من الاشتراك في ذنب . واطاف :

- إن هذا ، لو تعلمين ، يمثل لديه شيئاً ما .

- وهل هو فوضوي ؟

- لا ادري . لقد اراد ان يقدم لي قدحاً .

- وهل رفضت ؟

- نعم .

فسألته مارسيل بأهمال : لماذا ؟ لعل ذلك يكون مسلياً .

فقال ماتيو : - ربما !

وعادت مارسيل ترفع رأسها ، ونظرت الى الساعة نظيرة حسيرة
مرحة . وقالت :

- إن هذا غريب . فانه يضايقي دائماً ان تروي لي مثل هذه
الامور ، والله اعلم كم هي الآن كثيرة . ان حياتك مليئة بالفرص
الفائتة .

- اتدعين هذه فرصة فائتة ؟

- اجل . فقد كنت في الماضي تفعل اي شيء لتخلق هذا النوع

من اللقاءات .

فقال ماتيو باقتناع واقرار : - ربما اكون قد تغيرت قليلاً . فإذا

تظنين ؟ أتظنين اني شخت ؟

فقال مارسيل ببساطة : - انت في الرابعة والثلاثين .

في الرابعة والثلاثين . وفكر ماتيو بإيفيش ، فاعترتة انتفاضة استياء

صغيرة .

- اجل ... اسمعي . لا احسب ان الأمر هكذا ، وانما كان ذلك

بدافع من قلق ووسواس . فانت تدركين انه ما كان لي ان اشارك

في الأمر .

فقال مارسيل - إنه يندر جداً الآن ، ان تشارك في الأمر .

فأضاف ماتيو بحبوية :

- وهو كذلك ، ما كان له ان يشارك فيه : فان المرء اذ يكون

ثملاً يقوم بما يعطف النفس . وهذا ما كنت اود ان اتحاشاه .

وفكّر : « ليس هذا صحيحاً تماماً ، فأنا لم أفكر كل هذا التفكير . »

لقد أراد ان يقوم بجهد صدقٍ وصراحة . وكان قد سبق لماتيو ومارسيل

ان تعاهدا على ان يتكاشفا كل شيء . وقال :
- ذلك انه ...

ولكن مارسيل كانت قد انخرطت في الضحك ، في هدبل منخفض
عذب ، شأنها اذ تلامس شعره وهي تقول له « يا عزيزي المسكين . »
على انها لم تكن تبدو عليها الرقة وقالت :
- اني اعرفك في هذا جيداً . فكم انت تخاف مما يعطّف النفس !
وبعد ذلك ؟ حتى ولو تبادلت قليلاً مما يعطّف النفس مع هذا الفتى
المسكين ، فأني بأس في ذلك ؟

فسألها ماتيو : - وماذا كان ذلك يجديني ؟
انما كان حقاً يدافع عن نفسه ضد نفسه .

وابتسمت مارسيل بسمة لا ودّ فيها : ففكّر ماتيو ممتعضاً « انها
تبحث عني » . وكان يشعر بأنه مسالم ، وانه مخبّل بعض الشيء ،
وانه بالاجال في مزاج طيب ، ولم تكن به رغبة في النقاش فقال :
- اسمعي ، انت على خطأ بأن تجعلي من هذه الحكاية وليمة . فأنا
اولاً لم تكن لي سعة من الوقت : كنت قادماً اليك .
فقالت مارسيل : انت على حق تماماً . فليس هذا بزدي بال ، ليس
هناك ما يستدعي ضرب قطر بالسوط ... على انه مع ذلك عارض
ينذر بشيء ما ...
فانتفض ماتيو : حبّذا لو انها لا تستعمل مثل هذه الكلمات المنفرة .
وقال :

- حسناً . ما الذي تريه في ذلك مثيراً للاهتمام الى هذا الحد ؟
فقالت : - انه دائماً صفاء ذهنك المعهود . انك طريف يا عزيزي .
فانت لشدة هلعك من ان تخدع نفسك ، تفضل ان ترفض اجمل مغامرة
في الدنيا على ان تخاطر بالكذب على نفسك .
فقال ماتيو : - هذا صحيح ، وانت تعرفينه جيداً .

وكان يجدها ظلمة . ان « صفاء الذهن » هذا (وكان يكره هذه العبارة ، ولكن مارسيل كانت قد تبنتها منذ حين . وكانت عبارة السنة الماضية « الاستعجال » . ولم تكن الكلمات تعيش لديها اكثر من فصل واحد) صفاء الذهن هذا قد اعتادا عليه معاً ، وكانا مسؤولين عنه ، واحدهما تجاه الآخر ، وما كان شيئاً اقل من المعنى العميق لحبها . فحين اخذ مانيو عهوده تجاه مارسيل ، كان قد انصرف نهائياً عن افكار الوحدة ، عن الأفكار النضرة المضللة الحيية التي كانت تنزلق اليه في الماضي بمثل حيوية السمك الهارب . إنه لم يكن يستطيع ان يحب مارسيل إلا في الصفاء والوضوح ، لقد كانت هي صفاءه ، ورفيقه ، وشاهده ، وناصحه وحكّمه . وقال :

— اذا كنت اكذب على نفسي ، فسأشعر اني اكذب عليك في الوقت نفسه . وسيكون ذلك امراً لا يستطيع احتماله .

قالت مارسيل : — نعم .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة تماماً .

— لا يبدو عليك انك مقتنعة تماماً ؟

فقالت برخاوة : — بلى .

— أتظنين اني اكذب على نفسي ؟

— لا . . . الحقيقة ان الانسان لا يمكنه ابداً ان يعرف . غير اني لا

أظن ذلك . ولكن ، أتدري ما الذي أظنه ؟ أظن انك تعقم نفسك

قليلاً . لقد فكرت بهذا اليوم . اوه ! ان كل شيء واضح ونظيف

لديك ، انه يبعث رائحة الغسيل ، كما لو انك مررت بألة التجفيف .

على ان ما ينقص ذلك ، انما هو الظل . ليس هناك بعداً ما لا جدوى

منه ، وليس هناك ما هو متردد ولا ملتبس . إن ذلك لشديد الحرارة .

ولا تقل الآن انك انما تفعل ذلك من اجلي : فأنت تعرف منحدرك ،

إنك تحب ان تحلّل نفسك .

وكان ماتيو ممتعضاً . كانت مارسيل تبدو قاسية بما فيه الكفاية غالباً ، وكانت تظلّ دائماً على حذر ، وتتدرّج بالهجوم والاحتراس ، وإذا لم يكن ماتيو من رأيها ، كانت تظنّ غالباً انه يريد السيطرة عليها . بيد انه نادراً ما احسنّ لديها هذه الإرادة العازمة بأن لا تروق له . وبعد ذلك ، كانت تمة تلك الصورة على السرير ... ونظر الى وجه مارسيل في قلق : لم تحن بعد اللحظة التي تعزم فيها على الكلام .

وقال ببساطة : - انه لا يهمني الى هذا الحدّ ان اعرف نفسي .

فقالت مارسيل : - اعرف ، فليس ذلك غاية ، وانما هو وسيلة . لانه من اجل ان تتحرّر من نفسك ، ان تنظر الى نفسك ، ان تحكم على نفسك : ذلك هو موقفك المفضل . انك تتصور ، اذ تنظر الى نفسك ، انك لست ما تنظر اليه ، وانك لست شيئاً . والحق ان هذا هو مثلك الأعلى : ان لا تكون شيئاً .

فردد ماتيو على مهل - ؛ ان لا اكون شيئاً ؟ كلا . ليس الأمر كذلك . اسمعي : اني ... اني اريد ألا اكون متوقفاً إلا على نفسي .

- نعم . ان تكون حراً . حراً حرية كاملة : هذا هو عيبك .

قال ماتيو : - ليس هذا عيباً .. انه ... ماذا تريد ان يفعل

المرء غير ذلك ؟

وكان في ضيق : لقد شرح هذا كله مرة لمارسيل ، وكانت تعلم ان هذا هو اشدّ ما كان يشقّ عليه .

- اذا ... اذا لم احاول ان استردّ وجودي لحسابي ، فسيبدو لي

عيباً جداً ان اوجد .

وكانت مارسيل قد اتخذت هيئة ضاحكة ، مصرة :

- نعم ، نعم ... ذلك هو عيبك .

وفكر ماتيو : « انها تثير اعصابي حين تصطنع الكياسة والدهاء . »

ولكنه ندم على تفكيره وقال بلطف :

- ليس هو عيباً : وإنما هكذا أنا .
- لماذا لا يكون الآخرون كذلك ، اذا لم يكن هذا عيباً ؟
- انهم لكذلك ، ولكنهم لا يعون هذا .
وكانت مارسيل قد كفتت عن الضحك ، وكانت قد ارتسمت عند زاوية شفيتها ثنية قاسية حزينة . وقالت :
- اما انا فليست حاجتي لأن اكون حرّة شديدة لهذا الحد .
ونظر ماتيو الى رقبتها المنحنية ، وأحس انه غير مرتاح : كان أبدأ ذلك الندم ، ذلك الندم اللامعقول ، الذي كان يستولي عليه كلما كان في صحبتها . وفكر بأنه لم يكن يضع نفسه قطّ في موضع مارسيل : « ان الحرية التي احدثها عنها هي حرية انسان مكتمل الصحة . » ووضع يده على عنقها ، وشدّ برقة بين اصابعه ذلك اللحم الدُهني الذي ادركه بعض الوهن .

- مارسيل ! هل انت متزعجة ؟
فأدارت عينين كدرتين بعض الشيء :
- كلا .

وصمتا . وكان ماتيو يشعر باللذة على اطراف اصابعه . على اطراف اصابعه فقط . وزلق يده على مهل في ظهر مارسيل ، فأسبلت مارسيل جفنيها . ورأى اهدابها الطويلة السوداء . وجذبها اليه : لم تكن له رغبة بها تماماً في تلك اللحظة ، وإنما كانت رغبته ان يرى هذا الفكر الحرون المقرّن يذوب كما يذوب عرق من الثلج تحت حرارة الشمس . وتركت مارسيل رأسها يسقط على عنق ماتيو ، فرأى عن كشب بشرتها السمراء ودوائرها المزرقّة والمصبّبة . وفكر : « يا إلهي ! كم هي تشيخ ! » وفكر ايضاً بأنه كان شيخاً . وانحنى عليها بشعور من الضيق : كان يودّ لو ينسى نفسه وينساها . ولكن مضى عليه وقت طويل وهو لا ينسى نفسه إذ يضاجمها . وقبلها في فمها ؛ وكان لها فمّ جميل صارم .

وانقلبت على مهل الى خلف ، واستلقت على السرير ، مغمضة العينين ،
متناقلة ، شاحبة ، ونهض ماتيو ، فنزع بنظونه وقيصه ووضعها مطويين
عند أسفل السرير ، ثم تمدد تجاهها . ولكنه رأى ان عينيها كانتا
مفتوحتين على سعتها ، حادثين ، تنظران الى السقف ، وكانت يداها
مشتبكتين تحت رأسها .

وقال ماتيو : - مارسيل !

فلم تجب . كانت مقطبة السحنة ؛ ثم اذا هي فجأة تنهض . وعاد
هو يجلس على طرف السرير ، وقد ازعجه ان يشعر بعريه . وقال جازماً :
- ستقولين لي الآن ماذا هناك .

فقالت بصوت رخو :

- لا شيء .

فقال بحنان : - بلى ، هناك شيء ينكدك . ألم نتعاهد يا مارسيل على

ان نتصارع بكل شيء ؟

- لا حيلة لك في الامر ، وهو سيزعجك .

فأخذ يداعب شعرها على مهل :

- قولي ، مع ذلك .

- حسناً : لقد وقع الامر .

- ماذا ؟ ما الذي وقع ؟

- لقد وقع الامر .

فتغصن وجه ماتيو :

- هل انت متأكدة ؟

- كل التأكد . انت تعرف اني لا أجنّ قطّ : فقد تأخر الامر

شهرين .

فقال ماتيو - تفه !

وكان يفكر : « كان عليها ان تقول لي ذلك منذ ثلاثة اسابيع على

الأقل . « وكانت به رغبة لان يفعل شيئاً ما بيديه : كأن يحشو غليونه مثلاً ؛ ولكن غليونه كان في الخزانة مع سترته . وتناول سيكارة مرمي على طاولة الليل ، وما لبث ان اعادها الى مكانها .
قالت مارسيل : - تلك هي القصة ! انت تعلم الآن ما هناك .
فماذا نفعل ؟

- سوف ... سوف نجهضه ، اليس كذلك ؟

قالت مارسيل : - حسناً . إن عندي عنواناً .

- من اعطاك إياه ؟

- اندريه . ولقد قصدته هي ذات مرة .

- أأتكون تلك المرأة التي وسختها في العام الماضي ؟ ولكن اسمي :

لقد قضت ستة أشهر قبل ان تشفى . اني لا اريد .

- وإذن ؟ هل تريد ان تكون أباً ؟

وتخلّصت منه ، وعادت تجلس على بعد يسير عنه . وكانت تبدو

عاسية المظهر ، ولكنه ليس مظهر رجل . وكانت قد وضعت يديها

مبسوطتين على فخذها ، فكانت ذراعاها تشبهان عروتين من الطين الطيبخ .

ولاحظ ماتيو ان وجهها كان قد أصبح رمادياً . وكان الهواء وردياً

مسكراً ، فكانا يستنشقان الورد ، ويأكلان منه : ثم كان هناك هذا

الوجه الرمادي ، وتلك النظرة الثابتة ، فكأنما كانت تمتنع عن السعال .

قال ماتيو : - انتظري . انت تقولين لي هذا ، هكذا ، فجأة :

سوف نفكر .

وبدأت يدا مارسيل ترتجفان ، وقالت بحاسة مفاجئة :

- لا حاجة بي الى ان نفكر ؛ فليس عليك انت ان تفكر .

وكانت قد ادارت رأسها نحوه ، وكانت تنظر اليه . نظرت الى عنق

ماتيو ، والى كتفيه والى خادرتيه ، ثم استمرت نظرها في هبوطه . وكانت

تبدو عليها الدهشة . واحمر ماتيو احمراراً عنيفاً وضم ساقيه . ورددت

مارسيل :

— لا حيلة لك في الامر .

ثم أضاف بسخرية شاقّة : « انها الآن قضية نسائية . »

وانقبض فيها لدى نطقت بالكلمات الاخيرة : فمّ مبرنق ذو انعكاسات
بنفسجية ، حشرة قرمزية منهمكة في افتراس هذا الوجه المرمد . وفكّر
ماتيو « انها مهانة . وهي تكرهني . » وكانت به رغبة لأن يقيء .
وكان يبدو ان الغرفة قد أخليت فجأة من دخانها الوردى ؛ وكان بين
الاشياء فراغات كثيرة . وفكّر ماتيو : « لقد فعلتُ لها « ذلك ! »
وفجأة بدا له المصباح والمرآة بانعكاساتها الرصاصية ، والساعة ، والمقعد
الموسد ، والخزانة الفاخرة الفم ، هذه كلها بدت له آليات مريعة :
أديرت فدرجت في الفضاء حيواتها الدقيقة بعناد صلب ، كظواهر صحفة
موسيقية يُصرّ على ان يعزف لازمته المكررة . واهتزّ ماتيو ، دون ان
يتمكن من انتزاع نفسه من هذا العالم الكئيب المزّ . ولم تكن مارسيل
قد تحركت ، وكانت ما تزال تنظر الى بطن ماتيو ، والى تلك الزهرة
المجرمة التي كانت تستريح بتنعم فوق فخذه بهيئة من البراءة ماجنة .
وكان يعلم انها كانت راغبة في ان تصرخ وتبكي ، ولكنها لن تفعل
ذلك ، خشية ان توقظ السيدة دوفيه . وقبض فجأة على مارسيل من
قامتها وجذبها اليه ، فانهارت على كتفه ، ونشقت ثلاث مرات او اربعاً ،
بلا دموع . وكان هذا كل ما تستطيع ان تسمح به لنفسها : عاصفة
بيضاء .

وحين رفعت رأسها ثانية ، كان روعها قد هدأ . وقالت بصوت

الاجابى :

— اعذرني يا عزيزي ، فقد كنت بحاجة الى تفريج ، اذ اني

مناسكة منذ الصباح . وانا بالطبع لا ألومك في شيء .

فقال ماتيو : — ستكونين على حق في ذلك . اني لست فخوراً ،

فهذه المرة الاولى ... واية قذارة يا الّهي ! لقد قمت بحاقة تدفعين انت
ثمّنها . على اي حال ، لا بأس ، لا بأس . اسمعي ، من تكون هذه
المرأة الطيبة ؟ وأين تسكن ؟

- شارع مورير رقم ٢٤ . يبدو انها امرأة طيبة الى حد غريب .
- ارى ذلك . تقولين ان اندريه هي التي ارشدتك اليها ؟
- نعم ، انها لا تأخذ إلاّ اربعمئة فرنك .
- وأضاف مارسيل بصوت متعقل :
- ترى انه سعرٌ مضحك كما يبدو .
- نعم ، ارى ذلك .
- قالها ماتيو بمرارة ، ثمّ أضاف :
- انها على العموم فرصة مناسبة .

وكان يشعر بالارتباك ، كأنه عريس . رجل طويل مرتبك ، عار
تماماً ، قد ارتكب سوءاً وكان يتسم بلطف ليحمل الناس على نسيانه .
ولكنها لم تكن تستطيع ان تنساه : كانت ترى فخذه البيضاوين ، القصيرتين
بعض الشيء ، وعريه الراضي الجازم . كان كابوساً غريباً . « لو كنتُ
إيّاها لأخذتني الرغبة في ان أصفع هذا اللحم والشحم كلّهُ . » وقال :

- وهذا هو ما يقلقني حقاً : انها لا تأخذ مبلغاً كافياً .

فقالت مارسيل : - الحمد لله انها تطلب هذا المبلغ القليل : فانا
املكها ، هذه الفرنكات الاربعمئة ، وكانت لحيّاطي ، ولكنها ستنتظر .
وأضافت بقوة : - انا على يقين ، لو تعلم ، بأنها ستعنى بي كما
يعنون بالنساء في احدى العيادات السريّة التي يسلبونك فيها اربعة آلاف
فرنك كما لو كانوا يأخذون منك درهماً واحداً . ثمّ اننا ليس لنا الخيار .
فردّد ماتيو : - ليس لنا الخيار . متى ستذهبين ؟

- غداً ، حوالى منتصف الليل . يبدو انها لا تستقبل إلاّ ليلاً . هذا
طريف ، أليس كذلك ؟ اظنّ انها مجنونة بعض الشيء . ولكن ذلك

يناسبني ، بسبب امي . انها تدير في النهار حانوت خروضات ؛ وهي لا تكاد تنام قط . انك تدخل ساحة ، فترى ضوءاً تحت باب . هناك بيتها . فقال ماتيو : - حسناً . انني ذاهب اليها .

فنظرت اليه مارسيل مدعورة :

- أأتكون مجنوناً ؟ انها ستطردك ، اذ ستعتبرك من رجال الشرطة .

فردّ ماتيو : - انني ذاهب اليها .

- ولكن لماذا ؟ ما عساك ستقول لها ؟

- اريد ان استخبر ، وان ارى ما يكون شأنها . فاذا لم يرقني ذلك ،

فلن تذهبي . فانا لا اودّ ان تدّعي لمجنونة عجوز ان تمزق لحملك .

سأقول اني قادمٌ من قبيل اندريه ، وان لي صديقة واقعة في مأزق

ولكنها الآن مريضة ، او اقول شيئاً من هذا القبيل .

- وبعد ذلك ، اين اذهب اذا لم يرق لك ذلك ؟

- اعتقد ان لدينا يومين نتقلب فيها ، أليس كذلك ؟ سوف اقصد

« ساره » غداً ، ولا بدّ انها تعرف احداً . فانت تذكرين انها وزوجها

لم يكونا راغبين ، اول الامر ، في الاولاد .

فبدا على مارسيل انها قد استراحت بعض الشيء . ولامست رقبته

تقول :

- انك لطيف ، يا عزيزي ؛ انني لا اعلم ما الذي تنوي ان تصنعه ،

ولكنني واثقة من انك تود ان تفعل شيئاً ؛ تودّ لو انهم يجرون لك

العملية بدلاً مني ...

وأحاطت بذراعيها الجميلتين عنقه ، وأضافت بلهجة استسلام هزلية :

- اذا سألت « ساره » في الامر ، فسترشدك حمياً الى يهودي .

وقبلها ماتيو ، فتراحت كلياً . وقالت :

- يا حبيبي ، يا حبيبي .

- إخلعي قبيلك .

فاستجابت ، وقلبها فوق السرير ، وداعب نهديها ، وكان يحب
برعيمها الجلديين العريضين ، تحيط بهما تورمات محموعة. وكانت مارسيل
تتنهد ، مغمضة العينين ، جامدة ، نومة . ولكن جفنيها كانا يتشنجان .
وتلبث الاضطراب هنيهة ، وقد حطّ على ماتيو كأنه يدّ دافئة . ثم
فكّر ماتيو فجأة : « انها حامل » فعاد الى الجلوس . وكان رأسه ما
يزال يطنّ بموسيقى حامية .

— اسمعي يا مارسيل . إن الامر غير مناسب اليوم . اننا ، كلينا ،
ناثر الاعصاب اكثر مما ينبغي . ساحيني .
فندت عن مارسيل هممة صغيرة ناعسة ، ثم نهضت فجأة ، واخذت
تحلّل اصابعها في شعرها ، وقالت ببرودة :

— كما تريد .

ثم اضافت بلهجة اكثر ودأ :

— انت على حق ، آخر الامر . فكلانا ناثر الاعصاب . كنت اشتهي
مداعباتك ولكن كان بي خوف .
فقال ماتيو : — مع الاسف . لقد وقع الشر ، فليس لنا ان نخشى
شيئاً بعد .

— ادري ذلك ، ولكن هذا لم يكن امراً عاقلاً . اني لا ادري ما
اقول لك : فانت تخيفني بعض الشيء يا عزيزي .
ونهض ماتيو :

— حسناً ، انا ذاهب لأرى تلك العجوز .

— نعم . وستصل بي غداً بالتلفون لتخبرني حقيقة الامر .

— ألا تستطيع ان أراك غداً مساء ؟ سيكون ذلك أسهل .

— لا . لا مساء الغد . بعد غد اذا شئت .

وكان ماتيو قد ارتدى قبضه وبنطلونه . وقبل مارسيل في عينها :
— انك لست عاتبة عليّ ؟

— ليست هي غلطتك . لقد حدث ذلك مرة طوال سبع سنوات ،
فليس لك ما تلوم نفسك عليه . واتمنى ألا تنفر مني بدورك ؟
— انك مجنونة .

— اني اشمئز من نفسي قليلاً لو كنت تعلم ، وأشعر كما لو اني
ركام من الطعام ...
فقال ماتيو بحنان :

— يا صغيرتي ، يا صغيرتي المسكينة . اني اعدك بان ينتهي كل
شيء قبل ثمانية ايام .

وفتح الباب بلا ضجة ، فتسلل الى الخارج وهو يمسك نعليه بيده .
وفي اعلى الدرج ، التفت : كانت مارسيل ما تزال مضطجعة على السرير .
وكانت تبتم له ، ولكن ماتيو شعر بأنها كانت تكن له بعض الضغينة .

* * *

انفصل شيء ما في عينيها الثابتين ، فتدحرجتا بيسر في محجريهما .
ولم تكن تنظر اليه بعد ، وما كان عليه بعد ان يؤدي لها حساباً عن
نظراته . لقد كان جسمها المذنب ، اذ كانت محتبئة بثياها الداكنة
وبالليل ، يُحس انه في منجى ، وكانت تسترد شيئاً فشيئاً دفنه وبراءته ،
وكانت تعود لتفتتح تحت القماش . كيف لي ان أذكّر القنينة ، القنينة
التي ينبغي ان آتي بها بعد غد ؟ كان وحيداً .

وتوقف مضطرباً : لم يكن ذلك صحيحاً ، فهو ليس وحيداً ، ولم
تتركه مارسيل ؛ بل كانت تفكر فيه ، كانت تفكر : « القدر !
لقد فعل لي هذا ! لقد نسي نفسه وهو في » ، كالطفل الذي يغوّط في
لفائفه . « وكان بوسعه ان يخطو خطى واسعة في الطريق الحالية ، السوداء
المغلقة ، وهو غارق في ثيابه حتى العنق ، ولكنه لن يفلت منها . لقد
كان وجدان مارسيل باقياً هناك ، مليئاً بالمصائب والصراخ ، ولم يتركه

ماتيو : لقد كان هناك ، في الغرفة الوردية ، عارياً وبلا سلاح ، امام تلك الشفافية الثقيلة التي هي أشدّ ازعاجاً من النظر . « مرة واحدة » قال ذلك لنفسه غاضباً . وردّد بصوت منخفض ليقنع مارسيل « مرة واحدة ، في سبع سنوات ! » ولكن مارسيل لم تكن لتقتنع : لقد كانت باقية في الغرفة ، وكانت تفكر في ماتيو . وكان شيئاً لا يُحتمل ان يُحكّم عليه هكذا ، وان يُحقد عليه . هناك ، في الصمت . من غير ان يستطيع الدفاع عن نفسه ، حتى ولا اخفاء عورته بيديه . ليته في تلك اللحظة نفسها قد استطاع ان يُوجدَ بالنسبة لآخرين ، بمثل هذه القوة .. ولكن جاك واوديت كانا نائمين ؛ اما دانيال ، فكان ثملاً او محبولاً . واما ايفيش فكانت لا تفكر قطّ بالغايبين . ربما كان بوريس... ولكن وجدان بوريس لم يكن إلاّ لمعة صغيرة مغتلمة ، وما كان بوسعه ان يصمد لهذا الصفاء الوحشي الجامد الذي كان يبهز ماتيو على البعد . كان الليل قد كفنّ معظم الوجدانات : وكان ماتيو وحيداً مع مارسيل في الليل .

وكان ثمة ضوء في مقهى كامو . وكان المعلم يراكم الكراسي ، وكانت الخادمة تثبت مصراعاً خشبياً على احد عارضيّ الباب . ودفع ماتيو المصراع الآخر ودخل . وكانت به رغبةٌ لأن يرى بكل بساطة . وارتفق المشرب :

— عتم مساءً جميعاً !

فنظر اليه المعلم . وكان ثمة ايضاً احد موظفي شركة السكك الحديدية يشرب الخمر وقبعته على عينيه . وجدانات . وجدانات . انيسة شاردة . ورفع موظف السكك قبعته الى خلف ، بطرف سبابته ، ونظر الى ماتيو . وترأخى وجدان مارسيل ثم ذاب في الليل .

— أعطني قذح بيرة .

فقال المعلم — إن مجيئك اصبح نادراً .

– ومع هذا ، فليس السبب اني غير عطشان .
قال الموظف – صحيح ان الحر شديد يدعو الى العطش . فكأننا
في ايام الصيف .

وصمتا . كان المعلم يغسل الاقداح ، وكان الموظف يصفى . وكان
ماتيو مسروراً لأنها كانا ينظران اليه بين حين وآخر . ورأى رأسه في
المرآة ، وكان ينبعث مصفراً مستديراً من بحر من الفضة : كان رواد
مقهى كامو يخيّل اليهم دائماً انها الساعة الرابعة صباحاً بسبب النور، اذ
كان بخار فضي يوسع العيون ويبيض الوجوه والأيدي والأفكار .
وشرب . وفكّر : « انها حامل . هذا طريف : ليس لدي شعور بأن
هذا صحيح . » كان ذلك يبدو له مزعجاً ومضحكاً، كما لو ان احداً
يرى رجلاً عجوزاً وامرأة عجوزاً يتبادلان قبلة على الفم : ان مثل هذه
الاعمال ينبغي ألا تحدث بعد سبع سنوات . « انها حامل . » كان في
بطنها كتلة زجاجية صغيرة تنتفخ وريداً، وستشبه آخر الأمر عيناً : « انها
تنتفخ وسط القذارات الثاوية في بطنها . انها حية . » ورأى دبوساً
كان يقرب متردداً في الظل . وحدث صوت مائع وانفجرت العين :
ولم يبق بعد الا غطاء كثيف جاف . « سوف تذهب الى تلك العجوز ؛
وسوف تدعها تمزقها . » وكان يحس انه سام . « حسناً . » وانتفض :
تلك كانت افكاراً كالحة ، افكار الساعة الرابعة صباحاً .

– تصبحون على خير .

ودفع وخرج .

« ما الذي فعلته ؟ » كان يمشي على مهل ، محاولاً ان يتذكر :
« منذ شهرين ... » ولم يكن يتذكر شيئاً على الاطلاق ، الا ان يكون
ذلك قد حدث عقب عطلة الفصح . لقد أخذ مارسيل بين ذراعيه
كالعادة ، بدافع من حنان ، من غير شك ، بدافع من حنان لا بدافع
من رغبة ؛ اما الآن ... فلقد تُخدع . « طفلس . كنت أحسب اني

كنت اعطيها اللذة ، وهأنذا قد صنعت لها طفلاً . انني لم افهم شيئاً مما كنت افعله . وعليّ الآن ان اعطي تلك العجوز اربعمئة فرنك ، وهي سوف تُدخل آلها بين فخذي مارسيل وتضربها ؛ فتمضي الحياة كما جاءت . وإذا اهدم هذه الحياة لا اكون اكثر علماً بما أفعل مما كنت حين خلقتها . « وضحك ضحكة صغيرة جافة : « والآخرون ؟ اولئك الذين اعتزموا برصانة وجدّ ان يكونوا آباء ويشعرون بأنهم والدون ، أتراهم حين ينظرون الى بطون زوجاتهم يفهمون خيراً مما افهم ؟ لقد خبطوا خبط عشواء ، بثلاث ضربات من فروجهم . اما الباقي ، فهو عمل في الغرفة السوداء وفي العصير الهلامي ، كما هو الشأن في الصورة الفوتوغرافية . انه شيء يتمّ بدونهم . « ودخل باحة بيت ، ورأى نوراً تحت باب : « هذا بيتها » وشعر بالحجل . وطرق ماتيو الباب ، فقال صوت :

— من هناك ؟

— أودّ ان اكلّمك .

— ليست هذه ساعة يُزار فيها الناس .

— اني آت من قبل اندريه باسنيه .

فشقّ الباب . ورأى ماتيو خصلة من الشعر الاصفر وأنفاً كبيراً .

— ماذا تريد ؟ انه لا يجديك ان تقوم بعمل البوليس ، فاني لا

أخالف القانون . ان لي الحق بأن يكون عندي ضوء طوال الليل ، اذا

شئت ذلك . فاذا كنت مفتشاً فما عليك الا ان تبرز لي اوراقك .

قال ماتيو — لست من البوليس ، وانما لدي مشكلة ، وقد قيل لي

ان بوسعي ان اتوجه اليك .

— ادخل .

فدخل ماتيو . وكانت العجوز ترتدي بنطال رجل وقيصاً ذا سعاب

وكانت شديدة الهزال ، ذات عينين ثابتتين قاسيتين .

— هل تعرف اندريه باسنيه ؟
وكانت تحدجه بنظرة غاضبة ، فقال ماتيو :
— نعم . لقد جاءتك في السنة الماضية حوالي عيد الميلاد لأنها كانت متضايقه ، وشبه مريضة ، وقد ذهبت اربع مرات لمعالجتها .
— وبعد ذلك ؟

وكان ماتيو ينظر الى يدي العجوز . كانتا يدي رجل ، يدي انسان يختنق . . وكانتا مشقتين ، معلقتين ، بأظافر محفوفة سوداء وندوب وشقوق . . وكان يظهر على السلامي الاولي للابهام الأيسر ارتشاح دموي بنفسجي وقشرة كثيفة سوداء . وارتعش ماتيو وهو يفكر ببشرة مارسيل الرقيقة السمراء . وقال :

— لست قادماً من أجلها ، بل من اجل صديقه لها .
فضحكت المرأة ضحكة جافة :

— هذه هي المرة الاولي التي يجرؤ فيها رجل على المجيء لاستعراض نفسه امامي . إنني لا اريد ان يكون لي علاقة بالرجال ، هل تفهم ذلك ؟ وكانت القاعة قدرة مبعثرة الاثاث . كانت الصناديق مثورة في كل مكان . وكان على الارض المربعة قش . ورأى ماتيو على طاولة زجاجة من الروم وقدحاً ممتلئاً الى النصف .
— لقد أتيت لأن صديقتي ارسلتني . انها لا تستطيع ان تأتي اليوم ، وقد رجنتي ان اتفاهم معك .

وكان قد شق باب في جوف القاعة . وكان بوسع ماتيو ان يقسم أنه كان ثمة احد خلف هذا الباب . وقالت له العجوز :
— الحق ان هؤلاء الفتيات الصغيرات بلهاوات . انه يكفيهن ان ينظرن اليك ليرين انك من اولئك الذين تخلقوا نخلق المصائب او قلب الاقداح او تحطيم المرايا . وبالرغم من ذلك تراهن يودعنك أثنى ما لديهن .
انهن ، في آخر المطاف ، يستحقن ذلك .

وظل ماتيو مؤدباً :

— وددت لو أرى اين تقومين بالعمليات .

فقدفته العجوز بنظرة كره وتحدت :

— هكذا اذن ؟ من قال لك اني اقوم بالعمليات ؟ وعن اي شيء
تتحدث ؟ ولماذا تتدخل في ذلك ؟ اذا كانت صديقتك تريد ان تقابلني ،
فلتأت اليّ .. اني اريد ان اتفاهم معها وحدها . لقد كنت تريد ان
تأخذ فكرة ، أليس كذلك ! أتراها قد سألتك ان تأخذ فكرة حين
جلست بين فخذيك ؟ لقد ارتكبت مصيبة . حسناً . كل ما استطيع ان
اقوله لك هو ان تمنى ان اكون ابرع منك . وداعاً .

فقال ماتيو :

— الى اللقاء ، يا سيدتي .

وخرج . وكان يحس انه تحرر . وانفتل على مهل الى جادة «اورليان» .
كان بوسعها ان يفكر بمارسيل ، للمرة الاولى منذ ان غادرها ، بلا ضيق
ولا جزع ، بل بحزن عطوف . وفكر « سأقصد ساره غداً . » :

كان بوريس ينظر الى الخوان ذي المربعات الحمراء ويفكر بما تيسر
دولارو . كان يفكر : « إن هذا الشخص عظيم . » وكانت الجوقة
قد صمتت ، وكان الهواء شديد الزرقة ، وكان الناس يتحدثون فيما
بينهم . وكان بوريس يعرف الجميع في القاعة الضيقة الصغيرة : ولم
يكونوا اشخاصاً قد قدموا للهزل والمجون ؛ وانما كانوا يجيئون بعد
الفرغ من عملهم ، جادين جاثعين . اما الزنجي الذي كان يواجه
« لولا » ، فهو مغني « الباراديز » ؛ واما الاشخاص الستة الجالسون
في الداخل مع نساءهم ، فهم موسيقيو « نينيت » ، ولا ريب في انهم
قد حدث لهم شيء ، سعادة غير منتظرة ، وربما عقد للصيف (لقد
تحدثوا عشية الامس حديثاً مبهماً عن مربع في القسطنطينية) لأنهم كانوا
قد طلبوا شبنانيا ، وكانوا في العادة اقرب الى البخل . ورأى بوريس
كذلك الشقراء التي كانت ترقص رقصة « جاوى » وهي بثوب البحارة .
اما ذلك الطويل الهزيل ذو النظارات الذي كان يدخن سيكاراً ، فقد
كان مدير ملهى في شارع تولوزيه أغلقته دائرة الشرطة منذ حين .
وكان يقول انه سيعاد فتحه عما قريب ، لأنه كان مدعوماً من المراجع
العليا . وكان بوريس يأسف بمرارة لأنه لم يقصده ، وسوف يقصده بالتأكيد اذا
فتح مرة اخرى . وكان الرجل مع فتى صغير يبدو من بعيد جذاباً ، وهو

أشقر ذو وجه دقيق ، فيه جمال ، وهو لا يأتي بكثير من الحركات المصطنعة . ولم يكن بوريس يطبق اللواطين كثيراً ، لأنهم كانوا يلاحقونه طوال الوقت ، ولكن ايفيش كانت تقدرهم وتقول : « ان هؤلاء مجرؤون ، على الاقل ، على ألا يكونوا كسائر الناس . » وكان بوريس ممتلئ التقدير لآراء اخته ، وكان يبذل جهوداً كثيرة ليحترم العتات . وكان الزنجي يأكل الكرنب . وفكر بوريس : « اني لا احب الكرنب » وكان يود لو يعرف اسم الطعام الذي قدّم لراقصة « جاوى » : طعام اسمر كان يبدو انه لذيد . وكان على الخوان لطخة من الخمر الاحمر . لطخة جميلة ، حتى لكأن الخوان كان ، في ذلك المكان ، من الحرير الاطلس . وكانت لولا قد نثرت بعض الملح على اللطخة ، لأنها كانت تحب الترتيب . وكان الملح وردياً . وليس صحيحاً ان الملح يشرب اللطحات . وأوشك ان يقول لولا ان الملح لم يكن ليشرب اللطحات . ولكن ذلك كان يقتضيه ان يتكلم : وكان بوريس يشعر بأنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . وكانت لولا بالقرب منه ، متعبه حارة ، ولم يكن بوريس يستطيع ان ينتزع من نفسه ادنى كلمة ، فقد كان صوته ميتاً . سأكون كذلك لو كنت أبكم . كان لذيداً ان صوته كان يخفق في داخل حنجرته ، رقيقاً كالقطن ، ولم يكن يستطيع مع ذلك ان يخرج . كان ميتاً . وفكر بوريس : « احب كثيراً دولارو » واغبط . وقد كان اغتباطه يزداد لو لم يكن يشعر ، بجانبه الايسر كله ، من الصدغ حتى الخاصرة ، أن لو كانت تنظر اليه . لا ريب في انها كانت نظرة مشغوفة ، فان لولا لم تكن تستطيع قط ان تنظر اليه على نحو آخر . وكان ذلك مزعجاً بعض الشيء لأن النظرات المشغوفة تستدعي بالمقابل حركات ودية او بسمات ؛ وما كان بوريس ليستطيع القيام بأية حركة . وكان مشلولاً . غير ان ذلك لم يكن عظيم الأهمية : فانه لم يكن مفروضاً فيه ان يرى نظرة لولا : كان يحزرها

ولكن ذلك كان شأنه . كان هناك مديراً ظهره ، وشعره في عينيه ، فلم يكن يرى ادنى طرفٍ من لولا ، وكان بوسعه ان يفترض بأنها كانت تنظر القاعة والناس . ولم يكن بوريس ناعساً ، بل كان مرتاحاً ، لأنه كان يعرف جميع الناس في القاعة ؛ ورأى لسان الزنجي الوردي ؛ وكان بوريس يحترم هذا الزنجي : فحين خلع الزنجي حذاءه اخذ عليه من الثقباب بين اصابع قدميه ، ففتحتها وأخرج منها عوداً فأشعله ، كل ذلك بقدميه . وفكر بوريس باعجاب : « هذه عملية عظيمة . ان على الجميع ان يحسنوا استعمال اقدمهم كأيديهم . » وكان جانبه الايسر يؤلمه لفرط ما نظر اليه ، وكان يعلم انها تقترب ، تلك اللحظة التي ستسأله فيها لولا : « بم تفكر ؟ » فقد كان من المستحيل اطلاقاً تأخير هذا السؤال . ان ذلك لم يكن يتوقف عليه : فان لولا ستطرحه في اوانه ، بلون من القدرية . وكان بوريس يشعر بأنه ينعم بردح قصير من الزمن ، ثمين جداً . وفي الحقيقة ، كان ذلك لذيذاً : كان بوريس يرى الحوان ، وكان يرى قدح لولا (كانت لولا قد تناولت طعاماً بسيطاً ، لأنها لم تكن تتعشى قط قبل دورها الغنائي) وكانت قد شربت قدحاً من « شاتوغرويو » ، وكانت شديدة العناية بنفسها ، وكانت تستجيب لطائفة من الهوايات الصغيرة ، لأنها كانت شديدة اليأس من الشيخوخة . وكان قد بقي بعض الحمرة في القدح ، فكانه دم مغبير . وبدأ الجاز يعزف : « اذا اصبح لون القمر اخضر . » فتساءل بوريس : « اتراني احسن غناء هذا اللحن ؟ » كم كان يكون عظيماً لو تمخطر في شارع بيغال ، تحت ضوء القمر ، وهو يصفر لحناً صغيراً . كان دولارو قد قال له « انك تصفر كالحزير » وأخذ بوريس يضحك في داخله ، وفكر : « ذلك الحمار ! » وكان يفيض وداً لماتيو . وألقى نظرة سريعة الى جانب ، من غير ان يحرك رأسه ، فرأى عيني لولا الثقيلتين تحت خصلة رائحة من الشعر الاحمر . والحق

ان بإمكان المرء ان يحتمل نظرة ما . بحسبك ان تعتاد هذه الحرارة الخاصة التي تلهب وجهك حين تشعر بأن احداً يراقبك بشغف . وكان بوريس يُسلم نظرات لولا جسمه ورقبته الهزيلة وهذا الجانب من وجهه الذي كانت تحبه كثيراً . وبهذا الثمن ، كان بوسعه ان يتغلغل عميقاً في نفسه ، ويشغل ذاته بأفكار صغيرة مستحبة كانت تخطر له .

وسألته لولا : - بمَ تفكر ؟

- بلا شيء

- إن الانسان يفكر دائماً بشيء ما .

فقال بوريس : - كنت افكر بلا شيء .

- حتى ولا انك تحب اللحن الذي يعزفونه ، او تود ان تتعلم استعمال

المصفتقات ؟

- مثل هذا ، بلى .

- اترى اذن ؟ لماذا تقول لي ذلك ؟ اود ان اعرف جميع ما

تفكر به .

- إن هذا لا يُقال ولا اهمية له .

- لا اهمية له ! يُخيّل اليّ انك لم تعطَ لساناً الا لتتحدث في الفلسفة

مع استاذك .

فنظر اليها وابتسم : « احبها كثيراً لأنها صهباء ، ولأنها تبدو مسنة . »

وقالت لولا : « اي طفل عجيب ! »

وعمز بوريس بعينه واتخذ موقف الابتهاال . انه لم يكن يجب ان

يحدثوه عن نفسه ، فقد كان ذلك شديد التعقيد بحيث انه كان يضع

فيه . وكان يبدو على لولا انها غاضبة ، ولكن ذلك يعود بكل بساطة

الى انها كانت تحبه بشغف ، وانها كانت تتألم بسببه . كانت تمر لحظات

كعده تشعر فيها انه قد أسقط يدها ، فكانت تعذب نفسها بلا سبب ،

وكانت تنظر الى بورييس بشرود . وتكف عن ان تعرف ما عساها
تفعل به ، وكانت يداها تضطربان وحدهما . وكان بورييس في أول
الأمر يدهش لذلك ، ولكنه قد اعتاده الآن . ووضعت لولا يدها على
رأس بورييس وقالت :

— أتساءل عما في داخل رأسك . إن هذا يخيفني .
فقال بورييس ضاحكاً : — لماذا ؟ اقسام لك ان الأمر بريء .
— نعم ، ولكني لا استطيع ان اقول لك .. انه يأتي من تلقاء
نفسه ، فكل فكرة من افكارك فراراً صغيراً ..
وأشعثت شعره فقال بورييس :
— لا ترفعي خصلي ، فانا لا احب ان يرى الناس جيبني .
وتناول يدها ، فلامسها قليلاً . ثم اراحها على الطاولة . وقالت لولا :
— انت هنا ، رقيق لطيف ، واعتقد انك مرتاح معي . وفجأة، لا
يبقى ثمة احد ، فأتساءل : اين عساك قد ذهبت ؟
— اني هنا .

وكانت لولا تنظر اليه عن كذب ، وكانت قد شوّهت وجهها الباهت
بمحاة حزينة ، وكانت تلك هي الهيئة نفسها التي اتخذها حين تقني
اغنية « المسلوخين » . كانت تمد شفثيها ، هاتين الشفتين الغليظتين
بزواياهما المرتخية ، اللتين احبهما في البدء . ومنذ احس بهما على فمه ،
كان يستشعر عرباً لزجاً محموماً وسط قناع من الجبس . وكان الآن يفضل
بشرة لولا التي بلغ من بياضها ان توهم بأنها غير حقيقية .
وسألته لولا بخجل :

— هل ... تشعر بالانزعاج معي ؟
— لا اشعر ابداً بالانزعاج .
وتنهدت لولا ، وفكر بورييس برضى : عجيب ان تبدو مسنة الى
هذا الحد ، انها لا تعلن عن عمرها ، ولكنها بكل تأكيد في حبلود

الأربعين . وكان يجب كثيراً ان يبدو الأشخاص الذين يرتبطون به مسنين .
اذ كان يجد ذلك مدعاة للاطمئنان . وبالإضافة الى ذلك ، كان هذا
يكسبهم نوعاً من المشاشة مريباً بعض الشيء ، لا يظهر للوهلة الأولى ،
لأنهم كانوا ، ليكون جميعاً إهاباً مدبوغاً كأنه الجلد . واخذته الرغبة في
ان يقبل وجه لولا المضطرب ، وفكر بأنها متلاشيشة القوى ، وانها
قد ضيقت حياتها ، وانها كانت وحيدة ، بل ربما كانت اشد وحدة
منذ بدأت تحبه . وفكر باستسلام : « اني لا املك شيئاً لها . » وفي
تلك اللحظة ، كان يجدها لطيفة الى حد بعيد .

وقالت لولا : - اشعر بنجمل .

وكان صوتها ثقيلاً مظلماً كأنه بساط من القطيفة الحمراء .

- لماذا ؟

- لأنك طفل .

وقال :

- اني اغتبط اذ تقولين : طفل . إنها كلمة جميلة بالنسبة لصوتك .

انت تقولين « طفل » مرتين في « المسلوخين » ، وهذا وحده كاف
لحملي على الذهاب للاستماع اليك . هل كان الحضور وافرين ، ذلك
المساء ؟

- كانوا من الطغمة . لا ادري من اين جاءوا . وكانوا يثرثرون .
وكانت رغبتهم في الاستماع إلي مثل رغبتهم في ان يُسْتَفْتوا . وقد اضطرب
سارونيان الى اسكاتهم ، وقد تضايقت جداً ، لو تعلم ، وشعرت بأني
مبتذلة . على انهم مع ذلك قد صفقوا حين دخلت .
- هذا طبيعي .

فقال لولا : - لقد مللت . اني انفر من الغناء لهؤلاء الحيوانات .
أشخاص جاءوا لأنه كان عليهم ان يردوا الدعوة لزوجين . ليتك رأيتهم
قادمين جميعاً وهم يتسمون ، وينحنون ويمسكون كرسي المرأة إذ تجاس .

وانت بالطبع ستضايقهم حين تأتي ، فينظرون اليك من فوق الى تحت .
(وقالت لولا فجأة) اني يا بوريس اغني لأعيش .
- طبعاً .

- لو كنت فكرت ان الأمر سينتهي بي هكذا ، لما بدأت قط .
- مهما يكن مع امر ، فقد كنت تعيشين ايضاً من الغناء ، حين
كنت تغنين في الموزيك هول .
- لم يكن الأمر كذلك .

وساد صحت ، ثم اسرعت لولا تضيف :
- إسمع : الشخص القصير الذي يعني بعدي ، الشخص الجديد ،
لقد حدثته هذا المساء . انه لطيف ، ولكنه ليس روسياً اكثر مني .
وفكر بوريس : « تظن انها تضجرتني » وعزم على ان يقول لها
مرة اولى واخيرة انها لا تضجره قط . ولكن ذلك سيكون فيما بعد ،
لا اليوم .

- لعله قد تعلم الروسية ؟
فقال لولا : - نعم ، وعليك ان تقول لي ان كانت لهجته جيدة .
- لقد ترك اهلي روسيا عام ١٧ ، وكان عمري ثلاثة اشهر .
فانتهت لولا الى القول : - انه مضحك ألا تعرف الروسية .
وفكر بوريس بأنها طريفة ، وانها تخجل من ان تحبني لأنها أسنّ
مني . اما انا ، فأجد ذلك طبيعياً ، اذ لا بد من ان يكون هناك من
هو اكبر من الآخر . خصوصاً وان ذلك اكثر اخلاقية ، فان بوريس
ما كان ليعرف ان يحب فتاةً في مثل سنه . فاذا كان الاثنان في عمر
الشباب ، فانهما لا يحسان التصرف ، بحيث ان الأمر يضطرب ، كما
لو انهما يلعبان او يعبان . فايس الأمر كذلك مع الأشخاص الناضجين .
انهم اشداء ، وهم يقودونك ، ثم ان لحبهم وزناً . وحين يكون بوريس
يرفقة لولا ، فانه يشعر برضى الضمير ، ويحس انه مبرّر . لقد كان

بالطبع يؤثر صحبة ماتيو ، لأن ماتيو لم يكن امرأة ، والرجل أطرف .
ثم ان ماتيو كان يشرح له بعض الغوامض . غير ان بوريس كان غالباً
ما يتساءل عما اذا كان ماتيو يكن له الصداقة . فقد كان ماتيو قاسياً ،
لامبالياً . صحيح انه ينبغي ألا يكون الاصدقاء فيما بينهم أرقاء ، ولكن
هناك الف طريقة أخرى ليظهر المرء انه حريص على شخص آخر ، وكان
بوريس يجد انه كان بوسع ماتيو بين الفينة والفينة ان يقول كلمة او
يظهر حركة تم عن وده . لقد كان ماتيو يسلك مع ايفيش مسلكاً مختلفاً
جداً . واستعاد بوريس فجأة صورة وجه ماتيو اذ كان يوماً يساعد
ايفيش على ارتداء معطفها ، فأحس في قلبه بانقباض مزعج . بسمة ماتيو :
على ذلك الفم المر الذي كان بوريس يحبه كثيراً ، تلك البسمة الرقيقة
الحجول . ولكن سرعان ما امتلأ صدر بوريس بالدخان . ولم يعد يفكر
بشيء . وقالت لولا :

- هوذا يذهب مرة اخرى .
- وكانت تنظر اليه بضيق .
- بم كنت تفكر ؟
- قال بوريس على مضض :
- كنت افكر بدولارو .
- وابتسمت لولا بسمة حزينة .
- ألا تستطيع ايضاً ، في بعض الاحيان ، ان تفكر بي ؟
- لا حاجة بي الى التفكير فيك ، ما دمت هنا .
- ولماذا تفكر دائماً بدولارو ؟ كنت تود ان تكون معه ؟
- انني مسرور بان اكون هنا .
- انت مسرور بان تكون هنا او بأن تكون معي ؟
- الأمر سواء .
- الأمر سواء بالنسبة اليك . لا بالنسبة إلي . حين اكون معك ؛ لا يهمني

ان اكون هنا او في مكان آخر . والحق اني لا يسرني قط ان اكون معك .

فسألها بورييس دهشاً : - صحيح ؟

- ليس هو سروراً . ولست بحاجة الى ان تنغابي ، فانت تعرف ذلك جيداً : لقد رأيتك مع دولارو ، وانت لا تدري بعد اين تكون ، حين يكون هنا .

- هذا لا يشبه ذاك .

وادنت لولا منه وجهها المتهدم ، وكان يبدو عليها الابتهاال :
ولكن انظر الي ، وقل لي لماذا تتعلق هذا التعلق الشديد به ؟
- لا ادري . اني لا اتعلق به الى هذا المقدار . انه عظيم . اسمعي يا لولا : يضايقتني ان احديثك عنه ، لأنك قلت لي انك لا تطيقينه . واغتمصت لولا بسمة :

- عجيب كم تدور على نفسك ! ولكن يا عزيزي لم اقل لك اني لا اطيقه . كل ما هناك اني لم افهم قط ما تجده فيه من الأمور العظيمة . ولكن اشرح لي ، فأنا لا اريد الا ان افهم .

وفكر بورييس : « هذا غير صحيح . فلن اقول ثلاث كلمات الا وتأخذ في السعال »

وقال بتحفظ : اجد انه لطيف قريب الى النفس »

- انك تقول لي ذلك دائماً . ليست هذه هي الكلمة التي اختارها لو سئلت . قل لي انه يبدو ذكياً ، وانه مثقف ، فأنا أقرّك على ذلك . ولكنه ليس لطيفاً قريباً الى النفس . على كل حال ، أتحدث عن شعوري . الشخص اللطيف القريب في رأبي هو من يشبه بورييس ، ومن يكون صريحاً . اما هو ، فانه يجعل الناس في ضيق لأنه متشكك متردد : يخدع من حوله . انظر مثلاً الى يديه .
- ما بال يديه ؟ اني احبها .

- انها يدان ضخمتان لعامل . وهما ترتجفان دائماً بعض الشيء كما لو انه ينتهي لساعته من عمل مرهق .

- من اجل هذا احبها !

- ولكن الواقع انه ليس عاملاً . حين اراه يقبض بيده الكبيرة على كأس الويسكي ، يشعرني حقيقة بالقسوة والمتعة ، وانا لا اكره هذا ولكن بعد ذلك ينبغي ألا يراه احد وهو يشرب ، بذلك الفم الغريب الذي يملكه ، فم الاكليريكي . انني لا استطيع ان اشرح لك ، فأنا أجده صارماً ، ثم انك اذا نظرت الى عينيه ، ظهر لك بوضوح انه ذو ثقافة : انه شخص لا يجب شيئاً ببساطة ، لا ان يشرب ، ولا ان يأكل ، ولا ان يضاجع النساء ، يجب ان يفكر بكل شيء : وهو في ذلك يشبه الصوت الذي يملكه ، صوت حاسم قاطع لرجل لا يخطيء قط . أنا اعرف ان المهنة تقتضي ذلك ، حين يشرح المعلم الدرس للاطفال : كان لي مدرس يتكلم مثله ، ولكنني لست بعد في المدرسة ، وهذا يضايقي . أنا افهم ان يكون احدنا هذا كله او ذاك كله ، ان يكون وحشاً ، او ان يكون من النوع المتميز ، معلماً او راعياً ، ولكنني لا افهم ان يكون الاثنين معاً . ولا ادري ان كانت هناك نساء يروق لهن ذلك ، ويجب الاعتقاد بأن هناك مثل هؤلاء النساء . اما انا فاصارحك بأنني اشمئز من ان يمسي شخص مثل هذا . وانا لا احب ان اشعر بيديه ، يدي المصارع . تمسأني ، فيما يريق عليّ حماماً بارداً بنظره الثلج .

واستعادت لولا نَفَسَها . وفكر بوريس : « ما الذي لديها ايضاً ؟ » . ولكنه كان هادئاً جداً . ان الاشخاص الذين كانوا يحبونه لم يكونوا مضطرين الى ان يتبادلوا الحب فيما بينهم ، وكان بوريس يجسد من الطبيعي جداً ان يحاول كل منهم ان ينفّر من الآخرين . وتابعت لولا بلهجة مصالحة :

- انني افهمك جيداً ، فانت لا تراه بالعينين اللتين اراه بهما ، وانت

متأثر لأنه كان استاذك ، ودليلي على ذلك طائفة من الحركات الصغيرة ، فأنت مثلاً شديد القسوة على الطريقة التي يرتدي بها الناس ثيابهم ، اذ لا تجدهم قط انيقين ، بينما هو بالذات قبيح اللباس دائماً ، ويرتدي ربطة عتق يأنف منها صبيّ فندقي .. والأمر لديك سواء .

واحس بوريس بأنه مخدّر مسلم ، فقال موضعاً :
— لا بأس في ان يرتدي الانسان ثياباً قبيحة اذا لم يكن يهتم بثيابه .
اما المزعج فهو ان يريد ان يبهز الناس ، ثم يفشل في ذلك .
قالت لولا : — اما انت ، فانك لا تفشل ، ايها البغي الصغير !
فقال بوريس بتواضع — انني اعرف ما يناسبني .

وفكر في انه كان يرتدي صدارة زرقاء ذات جانين كثيفين ، فأخذ السرور : كانت صدارة جميلة . وكانت لولا قد تناولت كفته واخذت تلاعبها بين يديها . ونظر بوريس الى يده التي كانت تقفز وتسقط ، وفكر : انها ليست لي ، فكأنها قرص معجنات . ولم يعد يشعر بها ، فأحس من ذلك بالتسلية ، وحرّك اصبعاً ليردها الى الحياة . ولامس الإصبع راحة لولا ، فرمت له لولا بنظرة عرفان . وفكر بوريس بانزعاج : ان هذا هو الذي يرعبني . وقال في نفسه انه كان يكون ايسر عليه ان يبدو رقيقاً لو لم تكن لولا تتخذ غالباً مثل هذه المظاهر الخاضعة المائعة . اما ان يسمح امام الناس بأن تداعب امرأة يديه ، فان ذلك لم يكن ليزعجه قط . كان يفكر دائماً بأن ذلك كان يناسبه : فحتى لو كان وحده ، في المترو مثلاً ، كان الناس ينظرون اليه دهشين ، وكانت الساقطات الصغيرات اللواتي يخرجن من المشغل يهزأن به . وقالت لولا فجأة : /

— لم تقل لي حتى الآن لماذا تراه عظيماً الى هذا الحد ؟
كانت هكذا ابدأ ، لا تستطيع قط ان تقف اذا ما بدأت . وكان بوريس على يقين من انها كانت تعذب نفسها ، ولكنها كانت ولا

شك تحب ذلك ، في آخر الأمر .
ونظر اليها ، وكان الهواء حولها ازرق ، وكان وجهها ذا لون
ابيض مزرق . ولكن عينيها ظلتا محموتين قاسيتين .
- قل ، لماذا ؟

فهدر بوريس قائلاً : - لأنه عظيم . كفاك ملاحقة لي . انه لا
يتعلق بشيء .

- وهل من الخير الا يتعلق احدٌ بشيء ؟ الا تتعلق بشيء انت ؟
- آه بلى . لاني اتعلق بك .

فبدا على وجه لولا طابع الشقاء ، وادار بوريس رأسه . انه بالرغم
من كل شيء لم يكن يحب ان يطيل النظر اليها اذ تبدو كذلك .
كانت تتأكل نفسها ، وكان يجد هذا شيئاً سخيفاً ، ولكنه لم يكن له
في الأمر حيلة . كان يفعل كل ما كان يتوقف عليه . كان أميناً للولا ،
وكان غالباً ما يتلفن لها ، وكان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لمرافقتها
بعد خروجها من مربع « سومطرا » ، وكان ينام عندها في تلك
الليالي . اما ما دون ذلك ، فالأرجح انه كان قضية مزاج . وقضية
سنن أيضاً ، فالسنون شرسون ، وهم يعتقدون ان حياتهم هي دائماً
في خطر . حين كان بوريس صغيراً ، ترك ملعقته ذات يوم تسقط
الى الأرض ، فأمره ان يلمسها ، فرفض ، وركبه العناد . واذ ذاك
قال والده بلهجة جلال لا تنسى : « حسناً ، انا الذي سألمها » .
ورأى بوريس جسماً كبيراً ينحني بتصلب ، ورأساً اصلع ، وسمع
طققة . وكان ذلك تجديفاً لا يُحتمل ، واذ هو ينفجر باكياً .
ومنذ ذلك الحين ، أخذ بوريس يعتبر البالغين كأنهم آلهة ضخام كساح .
فاذا ما انحنوا ، خيّل الى الناس انهم سينكسرون ، واذ ما تعثروا او
سقطوا ، كنتا بين ان يأخذنا الضحك او تأخذنا الرهبة الدينية . اما اذا
امتلات عيونهم بالدمع ، كما هو شأن لولا الآن ، أسقط في ايدينا .

إن دموع البالغين هي كارثة صوفية ، شيء يشبه الدموع التي يذرفها
الإله على خيابة الانسان . ومن وجهة نظر اخرى ، كان يحمد لدى
لولا ان تكون شغوقاً الى هذا الحد . لقد سبق لما تيسر ان شرح له أن
على المرء ان يكون لديه شغف وحماسة ، وكذلك قال ديكرت :
وقال متابعاً فكرته بصوت عال :


— إن لدى دولارو شغفاً وحماسة ، ولكن ذلك لا يمنعه من ألا
يتعلق بشيء . إنه حر .
— اذا كان الامر كذلك ، فأنا ايضاً حرة ، لانني لا اتعلق
الا بك .

فلم يجب لبوريس . وسألت لولا :
— أأنت حرة ؟
— ليس الامر ان سواء .

وكان ذلك أعسر من ان يُشرح . لقد كانت لولا ضحية ، ثم
انها لم تكن محظوظة ، ثم انها كانت مقلقة اكثر مما ينبغي . وذلك كله
لم يكن في صالحها . ثم انها كانت تنزع الى ان تصبح بطلة ، وقد
كان ذلك امراً حسناً على نحو ما ، بل كان حسناً جداً ، مبدئياً . وقد
سبق لبوريس ان حدثت ايفيش بذلك ، فاتفقا على ان ذلك كان حسناً .
ولكن كانت هناك الطريقة : فان المرء ينزع الى البطولة ليهدم .
نفسه ، او بدافع من اليأس ، او ليؤكد حريته ، فهو لا يستحق الا
الثناء . اما لولا ، فكانت تفعل ذلك بتخلٍ منهم ، وكانت تلك فترة
استرخائها . بل انها لم تكن حتى متسممة .
وقالت لولا بلهجة جافة :

— انك تضحكني . انها دائماً طريقتك في ان تضع دولارو مبدئياً
فوق الآخرين . ذلك اني أتساءل ، فيما بيننا ، عن كون اكثر حرية :
هو ام انا ؟ إن له بيته المؤثث . وله راتبه الثابت ، وتقاعده المضمون ،

وهو يعيش كموظف صغير . وبعد هذا كله ، حدثني عن تلك الحياة التي يعيشها مع تلك المرأة التي لا تخرج قط ، فكل شيء كامل ، وليس هناك من يتمتع بالحرية أفضل من ذلك : اما انا ، فليس لي الا أطاري ، وانا وحيدة ، اعيش في الفندق ، بل لست ادري ان كنت سأوفق الى عقد الصيف القادم .

فردد بوريس : - ليس الامران سواء  وكان منزعجاً . كانت لولا لا تأبه كثيراً للحرية ، وانما كانت تعلق عليها تلك الاهمية الكبيرة ذلك المساء لأنها كانت تريد ان تهزم ماتيو في ميدانه بالذات .

- اوه ! سأقتلك يا عزيزي اذا ظلت هكذا . ماذا ! اي الامرين ليسا سواء ؟

فقال موضحاً :

- انت حرة من غير ان تريدي ذلك . إن هذا يحدث عفواً . اما ماتيو ، فالامر لديه يأتي بالعقل والمحكمة .

فهزت لولا رأسها وهي تقول : - ما زلت غير فاهمة .

- اسمعي : انه لا يكثر ببسته ، فهو يعيش هناك كما يعيش في اي مكان آخر ، وأعتقد كذلك انه لا يكثر بالمرأة التي يعيش معها . وهو يبقى معها لانه يجب ان يضاجع امرأة ما . إن حريته لا تُرى ، انها في الداخل .

وكانت لولا تبدو وكأنها غائبة ، وكانت له رغبة لان يعدّها قليلا ليري رد فعلها ، وأضاف :

- أنك تتعلقين بي اكثر مما ينبغي ؛ اما هو فلن يسمح لنفسه ابداً ان يؤخذ على هذا النحو .

فصاحت لولا مجروحة : - هكذا إذن ! انني متعلقة بك اكثر مما ينبغي ، ايها الوحش الصغير ! وتعتقد انه لا يتعلق هو اكثر مما ينبغي

بأختك ؟ لم يكن لك الا ان تنظر اليه ، ذلك المساء في « سومطرا » .
فسألها بوريس : - يتعلق بايفيش ؟ انك تخزنييني بهذا الكلام .
فقهقتها لولا ، وملاً للدخان فجأة رأس بوريس . وانقضت لحظة ،
ثم حدث ان كانت موسيقى الجاز تعزف لحن « مستشفى سان جيمس »
فأخذت بوريس الرغبة في الرقص .
- هل ترقص هذا اللحن ؟

ورقصا . وكانت لولا قد اغمضت عينيها ، فكان يسمع صوت نفسها
القصير . وكان اللوطي الصغير قد نهض واتجه ليدعو راقصة « الجاوى »
الى الرقص . وفكر بوريس بأنه سيراه عن كثب فاغتبط لذلك . وكانت
لولا ثقيلة بين ذراعيه ؛ وكانت تجيد الرقص ، وكان ينبعث منها عطر
لذيذ ، ولكنها كانت اثقل مما ينبغي . وفكر بوريس بأنه يؤثر الرقص
مع ايفيش . وكانت ايفيش تجيد الرقص إجادة عظيمة . وفكر : « يجب
على ايفيش ان تتعلم استعمال المصنفقات » ثم لم يعد يفكر بشيء ، بسبب
رائحة لولا . وضم لولا اليه واستنشق بقوة . ففتحت عينيها ونظرت اليه
باهتمام :

- هل تحبني ؟

فقال بوريس مقطباً وجهه : - نعم .

- ولماذا تقطب وجهك ؟

- هكذا . انك تضايقيني .

- ولماذا ؟ اليس صحيحاً انك تحبني ؟

- بلى .

- لماذا لا تقول لي ذلك قط من تلقاء نفسك ؟ هل يجب عليّ دائماً

ان اسألك عنه ؟

- لانه لا يخطر لي . ان هذه امور متكلفة ، وأجد الا يقولها الانسان .

- أيزعجك ان اقول لك اني احبك ؟

– لا ، تستطيعين انت ان تقولي ذلك ما دام يخطر لك ، ولكن يجب الا تسأليني اذا كنت احبك .

– يا عزيزي ، من النادر ان اسألك عن شيء . يكفيني معظم الوقت ان انظر اليك واشعر اني احبك . ولكن هناك لحظات ارغب فيها ان المس حبك انت .

فقال بوريس برصانة :

– فهمت ، ولكن عليك ان تنتظري ان يخطر لي ذلك ، فان لم يأت من تلقاء نفسه ، فلا معنى له بعد .

– ولكنك انت نفسك تقول ، ايها الساذج الصغير، بانه لا يخطر لك حين لا تُسأل عن شيء .

فاخذ بوريس يضحك وقال :

– هذا صحيح ، انك تريدني احراجي . ولكن تعلمين ان بوسع الانسان ان يكن لأحد عواطف طيبة ، غير انه لا يرغب في التحدث عنها .

فلم تجب لولا . وتوقفا ، وصفقا ، ثم استؤنفت الموسيقى . ورأى بوريس بسرور ان اللوطني يتجه نحوهما وهو يرقص . ولكن حين تمكن من رؤيته ، اصيب بخيبة شديدة : لقد كان في حوالى الاربعين . كان وجهه يحتفظ بظلاء الشباب ، ولكنه كان قد شاخ من تحته ، وكانت له عينا دمية كبيرتان زرقاوان وفم طفولي ، ولكن كانت تحته عينيه الخزفيتين جيوب ، ونجاعيد حول فمه ، وكان منخراه مقروضين كما لو انه موشك على الموت ، ثم ان شعره الذي كان يشبه من بعيد بخاراً مذهباً ، كان من القلّة بحيث لا يكاد يغطي صلعته . ونظر بوريس بذعر الى هذا الصبي المسنّ الأرمـد وفكر «لقد كان شاباً» كان هناك اشخاص جعلوا ليكون عمرهم خمسة وثلاثين عاماً – ماتيو مثلاً – لأنهم لم يكن لهم قط شباب . اما الشخص الذي كان حقاً شاباً، فقد كان يبقى كذلك

طوال عمره . وكان ذلك يمكن ان يمتد حتى خمسة وعشرين عاماً .
اما بعد ذلك ... فكان شيئاً مريباً ، واخذ ينظر الى لولا ، وقال لها
بسرعة :

— لولا ، انظري إليّ . انني احبك .
وأصبحت عينا لولا ورديتين ، ومشت على قدم بوريس . واكتفت
بالقول :

— حبيبي .

وودّ ان يصرخ : « ولكن ضمّيني اليك ضمناً أقوى ، أشعربني
بأنني احبك » . بيد ان لولا لم تكن تقول شيئاً ، كانت بدورها وحيدة ،
وكان قد آن لذلك الاوان ! كانت تبتسم بغموض ، وكانت قد اسبلت
جفنيها ، وكان وجهها قد انغلق على سعادتها . وجه هاديء فارغ .
وأحسّ بوريس بأنه قد تُرك ، وغمرته فجأة الفكرة الخائفة : لا اريد ،
لا اريد ان أشيخ . في العام الماضي ، كان هادئاً لا يفكر قط بهذه
الامور ، اما الآن ، فهو متشائم يحس طوال الوقت بأن شبابه يسيل
من بين اصابعه . حتى الخامسة والعشرين . وفكر بوريس : لديّ بعد
خمسة اعوام سعيدة ، وبعد ذلك انسف عربتي . ولم يعد يحتمل سماع
هذه الموسيقى والشعور بهؤلاء الناس حوله . وقال :

— هل تخرج ؟

— بعد قليل ، يا اعجوبتي الصغيرة .
وعادا الى طاولتها . ونادت لولا الخادم ووقفت ، ثم ألفت معطفها
المخمل على كتفيها وقالت : « هيا بنا » .

وخرجا . ولم يعد بوريس يفكر باشياء كثيرة ، ولكنه كان يحسّ
بالكتابة . وكان شارع «بلانش» غاصاً بالأشخاص ، أشخاص قساة ومستئين .
والتقيا المايسترو «بيرانيز» من ملهى «الشابوتيه» فحبيباه ، وكانت ساقاه
«القصيرتان تدرمان تحت كرشه . ربما ترهلت أنا ايضاً . فلا أستطيع

بعد ان انظر الى نفسي في مرآة ، وأشعر بأن حركاتي جافة وكاسرة .
كما لو كنت من الخشب الميت ... وكانت كل لحظة تمرّ ، كانت
كل لحظة تنهك شبابه . ليتني أستطيع ان اوفر نفسي ، ان أعيش على
مهمل ، في بطاء ، إذن لربما كسبت بعض السنوات . ولكن من أجل
ذلك ، ينبغي الا انام كل ليلة في الثانية صباحاً ونظر الى لولا بمجدد :
« انها تقتلني » وسألته لولا :

— ما بالك ؟

— ليس بي شيء .

وكانت لولا تسكن في فندق بشارع نافارين . وتناولت مفتاحها من
على اللوحة وصعدا في صمت . وكانت الغرفة عارية ، وكان في احدى
الزوايا محفظة تغطيها البطاقات ، وعلى الجدار الداخلي صورة لبوريس
مشبته بالمسامير . كانت صورة هوية كبرتها لولا . وفكر بوريس :
« هذه ، هذه ستبقى ، حين اكون قد اصبحت جسماً مهدماً ،
وستظل هيئتي هنا هيئة الشباب . » وكانت به رغبة لتمزيق الصورة .
قالت لولا : — انك كئيب ؛ فاذا هناك ؟

فقال بوريس : — انني منهوك ، واحسّ بألم في رأسي .
وبدت لولا قلقة :

— هل انت مريض يا حبيبي ؟ الا تريد قرصاً ؟

— لا ، لا بأس ، ان الألم يتقلص .

وأخذت لولا ذقنه ورفعت له رأسه :

— يبدو عليك انك ناغم عليّ . الست ناغماً عليّ ؟ بلى ! انت

ناغم ! ماذا فعلت ؟

وبدا عليها انها مذعورة . فاحتجّ بوريس برخاوة :

— لست ناغماً عليك . انت مجنونة .

— بلى انت ناغم . ولكن ماذا فعلت لك ؟ الأفضل ان تقول لي

ذلك ، لأني استطيع اذ ذاك ان اشرح لك . انه بكل تأكيد سوء تفاهم . وليس إصلاحه بالأمر المستحيل . بوريس ، ابتهل اليك ، قل لي ماذا هناك .

— لا شيء .

وأحاط بذراعيه عتق لولا وقبلها في فها . وارتعشت لولا . وتنشق بوريس نفساً معطراً ، وكان يشعر وهو بازاء فها بعري لزج . وكان مهتاجاً . وغطت لولا وجهه بالقبل ، وكانت تلهث بعض الشيء .
وشعر بوريس بأنه كان راغباً في لولا ، فسره ذلك : لقد كانت الرغبة تُتعب الأفكار السوداء ، بل جميع الأفكار الاخرى . وخلق لنفسه حركة كبيرة في رأسه ، وأفرغ رأسه نفسه من فوق بسرعة . وكان قد وضع يده على كشح لولا ، وكان يلامس بشرتها عبر الثوب الحريري : فلم يكن بعد الا يبدأ ممددة على بشرته من حرير . وشنّج قليلاً يده فانزلق القماش تحت أصابعه كجلد ناعم ميت . اما البشرة الحقيقية ، فقد كانت تصمد من تحت ، مطاطة ، مثلجة كقفاز من جلد جدي مدبوغ . وقذفت لولا ، بحركة طائرة ، معطفها على السرير ، فانبتقت ذراعاها عاريتين ، وانعقدتا حول عتق بوريس : وكانت تنبعث منها رائحة عطر . وكان بوريس يرى إبطيها المحلوقين المنقطين بنقط صغيرة قاسية ذات لون اسود مزرق : فكأنها رؤوس شظايا صغيرة مغروزة بعمق . وبقي بوريس ولولا واقفين حيث داهمتها الرغبة لأنهما لم يكونا يملكان بعد قوة الذهب . وأخذت ساقا لولا ترتجفان ، وتساءل بوريس عما اذا كانا سيسقطان على مهل فوق السجادة . وضم اليه لولا ، وأحس بعدوية نهديها الثقيلة . وتنهدت لولا :

— آه !

وكانت قد انقلبت الى خلف ، فاذا هو مسحور بهذا الرأس الأصفر ذي الشفتين المنتفختين ، هذا الرأس الميدوزي . وفكر : «ان هذه هي آخر

أيامها الجميلة ، وشدها اليه شداً أقوى . « سيأتي صباحٌ تنهار فيه فجأة »
ولم يكن يكرهها ؛ وكان يحس وهو مشدود اليها بأنه قاس هزيل ممثليء
عضلات ، وكان يغمرها بذراعيه ويحميها من الشيخوخة . ثم اخذته لحظة
شرد ونعاس : ونظر الى ذراعي لولا البيضاءين كشعر امرأة عجوز ،
فحسب انه بمسك بالشيخوخة بين يديه ، وان عليه ان يشدها بكل قواه
حتى ليختمها . وهممت لولا سعيدة :

— ما أشد ما تضمني . انك توجعني . انني اشتبهك .

وتخلص بوريس : لقد كان مصدوماً بعض الشيء .

— اعطيني منامتي ، فسوف اخلع ثيابي في غرفة التواليت .

ودخل غرفة التواليت واغلق الباب بالفتاح : كان يكره ان تدخل

لولا فيما هو يخلع ثيابه . وغسل وجهه وقدميه وتسلّى بذرّ المسحوق على
ساقيه . وكان قد استعاد هدوءه تماماً ، وفكر : « ان هذا لطريف »

وكان رأسه شاردأً ثقيلأً ، ولم يعد يعرف جيدأً ما يفكر به . وانتهى

الى القول « يجب ان احدث دولارو بهذا » . وخلف الباب ، كانت

تنتظره ، ولا شك في انها كانت عارية . ولكن لم تكن به رغبة في

الاستعجال . جسم عارٍ ، مليء بالروائح العارية ، شيء يبعث على

الاضطراب ، وذلك ما لم تكن لولا تريد ان تفهمه . كان عليه الآن

ان يدع نفسه يسيل في صميم شهوة باهظة ، ذات مذاق قوي . ان من

الممكن احتمالها اذ ينغمر فيها الانسان : اما قبل ذلك ، فلم يكن يسعه

الا يخاف منها . وفكر في غيظ : « مها يكن من امر ، فاني لا اريد

ان أقع في الإغماء كالمرة السابقة . » ومشط شعره بعناية فوق المغسلة

ليرى اذا كان يفقد شعره . ولكن لم تسقط منه شعرة على الخرف

الابيض . وحين ارتدى منامته ، فتح الباب ودخل الغرفة .

وكانت لولا متحددة على السرير عارية . كانت لولا اخرى ، مسترخية

ونحيقة ، وكانت ترصده عبر جفونها . وكان جسدها فوق الغطاء الازرق

ذا لون ابيض مفضّض ، كبطن سمكة ، مع طاقة شعر احمر في شكل
مثلث . كانت جميلة . واقرب بوريس من السرير وتأملها في مزيج من
الاغتمام والاشمئزاز ، وبسطت له ذراعيها ، وقال بوريس :
- انتظري .

وضغط على الزر ، فانطفأ النور . وامست الغرفة حمراء كلها :
فقد كان معلقاً منذ حين على البناية المقابلة ، في الطابق الثالث ، إعلان
مضيء . وتمدد بوريس الى جانب لولا وأخذ يلامس كتفيها ونهديها .
وكانت بشرتها من العذوبة حتى ليخال انها كانت محتفظة بثوبها الحريري .
وكان نهداها رخوين بعض الشيء ، ولكن بوريس كان يحب ذلك : لقد
كانا نهدي امرأة عاشت . وكان اطفاء النور بلا جدوى ، فقد كان
بوريس يرى ، بسبب ذلك الاعلان اللعين ، وجه لولا مصفراً في اللون
الاحمر ، ذا شفتين سوداوين : كان يبدو عايبا انها تتألم ، وكانت عينها
قاسيتين . وأحس بوريس بأنه ثقيل فاجع ، كما حدث له في «نيم» حين
قفز الثور الاول الى الحلبة : ان شيئاً ما سيقع ؛ شيئاً لا مفر منه ،
شيئاً مريعاً تافهاً ، كموت الثور الدامي . وقالت لولا مبتهلة :

- اخلع منامتك .

فقال بوريس : - لا .

وكان هذا امرأ طقسياً . كانت لولا في كل مرة تطلب منه ان يخلع
منامته وكان بوريس مضطراً للرفض . وانزلت يدا لولا تحت سترته
وأخذتا تلامسانه على مهل . وجعل بوريس يبكي .

- انك تدغدغيني .

وتعانقا . وبعد لحظة ، أخذت لولا يد بوريس وضغطتها على بطنها ،
لدى طاقة الشعر الاحمر : كان لها دائماً متطلبات غريبة ، وكان بوريس
يضطر احياناً لمقاومتها . وترك ، لبضع لحظات ، يده ممدودة بلا حركة
عند فخذي لولا ، ثم صعد بها على مهل حتى كتفيها . وقالت لولا

وهي تجذبه اليها :

- تعال ، اني اعبدك ، تعال ! تعال !

وما لبثت ان همهمت ، وقال بوريس في نفسه : « حسناً ، سوف أقع في الاغماء ! » وكانت موجة لزجة تصعد من جنبيه الى رقبته. وقال بوريس وهو يكثر على اسنانه « لا اريد » ؛ ولكن خيّل اليه فجأة انه كان يُرفع من عنقه ، كأنه ارنب ، فترك جسده ينبطح على جسد لولا ، ولم يعد الا دوراناً شهوانياً احمر . وقالت لولا :

- حبيبي .

وأزاحتها جانباً على مهل وخرجت من السرير . وظل بوريس متلاشياً ، ورأسه في الوسادة . وسمع لولا تفتح باب غرفة التواليت وفكر : « حين ينتهي الامر معها ، فسأكون طاهراً . انني لا اريد قصصاً بعد . انني اشمئز من المضاجعة . ولكي اكون منصفاً ، اعترف بأنني لا اشمئز من ذلك الى هذا الحد ، ولكنني استفظع السقوط في الاغماء . ان المرء لا يدري عند ذلك ما يفعله بعد ، ويشعر بأنه قد سيطر عليه ، فماذا يجدي بعد هذا ان يكون قد اختار امرأة ما ؟ سيكون الامر سواء مع جميع النساء ، اذ يصبح فيزيولوجياً . » وردد بنفور : فيزيولوجي ! وكانت لولا تغتسل لليل . وكان صوت الماء عذباً بريئاً ، فاستمع اليه بوريس بسرور . لقد كان مهلوسو العطش في الصحراء يسمعون مثل هذه الاصوات ، اصوات ينبوع . وحاول بوريس ان يتصور انه كان مهلوساً . لقد كانت الغرفة ، والضوء الاحمر ، وقرقرة المياه ، كل ذلك كان هلوسات ، وانه يوشك ان يجد نفسه في الصحراء - ، مضطجعاً على الرمل . وعلى عينيه خوذته القلّينية . وبرز له فجأة وجه ماتيو ، ففكر : « ان هذا لطريف . انني احب الرجال اكثر من النساء . انني اذا اكون مع امرأة ، لا ابلغ من السعادة ربع ما ابلغه اذا اكون مع رجل . على انني لا اود بأي ثمن ان انام مع رجل . » وابتهج وهو يفكر : « راهباً

مأصبح حين اترك لولا! وأحس بأنه خشن "نقي". وقفزت لولا الى
السريير وأخذته بين ذراعيها وهي تقول :

- يا صغيري ! يا صغيري !

وداعبت شعره ، وسادت لحظة صمت طويلة . وكان بوريس قد بدأ
يرى نجوماً تدور حين اخذت لولا تتكلم . وكان صوتها غريباً جداً في
الليل الاحمر .

- ليس لي غيرك يا بوريس ، اني وحيدة في العالم ، فيجب ان
تحبني كثيراً ، وانا لا استطيع ان افكر بسواك . اذا فكرت في حياتي ،
تأخذني الرغبة في ان ألقى بنفسي في الماء ، فيجب ان افكر فيك طوال
النهار . فلا تكن قاسياً يا حبيبي ولا تؤذني ، انت كل ما يبقى لي .
اني بين يديك يا حبيبي ، فلا تؤذني . لا تؤذني ابداً ، اني وحيدة جداً!
واستفاق بوريس منتفضاً وواجه الموقف بوضوح ، فقال بصوت جلي:
- اذا كنت وحيدة ، فلأنتك تحبين ذلك ، ولأنتك ذات كبرياء .
والا لأحبيت رجلاً اكبر منك سناً . اما انا ، فاني شاب اكثر مما
ينبغي ، ولا استطيع ان امنعك من ان تكوني وحيدة . وعندني فكرة
لأنك قد اخترتني من اجل هذا .

قالت لولا :

- لا ادري ، اني مشغوفة بحبك . هذا كل ما ادريه .
وكانت تضمه بوحشية بين ذراعيها . وسمعا بوريس تقول كذلك :
« اني اعبدك » ثم استغرق في نوم عميق .

للصيف . كان الهواء فاتراً كثيفاً ؛ وكان ماتيو يسير وسط المرتفع ،
تحت سماء صافية ، وكانت ذراعاه تجدفان ، وهما تُبعدان بُسُطاً ذهبية
ثقيلة . الصيف . الصيف الآخرين . اما في نظره ، فقد كان نهار اسود
يبتدىء ، وهو سيزحف متلوياً حتى المساء ، عملية دفن تحت الشمس .
عنوان . المال . لا بد من الركض في اربع زوايا باريس . ساره
ستعطي العنوان . ودنيال يدينه المال . او جاك . لقد حلم بأنه كان
قاتلاً ، وكان باقياً له شيء من اللحم في جوف عينيه ، سحقه ضغط
النور الباهر . ١٦ شارع دو لامبر . كانت سارة تسكن هناك ، في
الطابق السادس ، وكان المصعد لا يعمل طبعاً . ورتي ماتيو الدرج على
قدميه . كانت خلف الابواب المغلقة نساء يرتبن البيوت وقد ربطن على
صدورهن وزرة ، وعقدن على رؤوسهن منشفة ؛ كان النهار بالنسبة
اليهن ايضاً يبتدىء . اي نهار ؟ كان ماتيو يلهث لهائماً خفيفاً حين
دق الجرس ، وفكر / « يجب علي ان اترتض » وفكر بضجر :
« اقول ذلك كلما رقيت درجاً . » وسمع كردحة دقيقة ؛ وفتح له
الباب رجل قصير اصلع ذو عينين صافيتين ، وكان يتسم . وعرفه
ماتيو : كان المانياً مهاجراً سبق له ان رآه مراراً في مقهى « الدوم »

وهو يرشف مفتوناً فنجان قهوة بالكريم ، او وهو منحني فوق شطرنج يتأمل احجاره ويلحس شفثيه الغليظتين . وقال ماتيو :
- اودّ ان ارى سارة .

فاكتسى وجه الرجل القصير بالجد ، وانحنى وهو يصفق عقبه ؛ وكانت اذناه بنفسجيتين . وقال بتصلب :
- اسمي ويمولر .

فقال ماتيو من غير ان يتأثر : - واسمي دولارو .
واستعاد الرجل القصير ابتسامته البشوش وقال :

- ادخل ، ادخل . انها تحت ، في الاستديو . وستكون سعيدة جداً .
وأدخله في المرثم اختفى وهو ينطنط . ودفع ماتيو البسبب الزجاجي وولج ستوديو غوميز . وتوقف على سطيحة الدرج الداخلي وقد بهره النور الذي كان يتدفق من الشبابيك الزجاجية الكبيرة المغبرة . وطرف ماتيو بعينيه ، وكان رأسه يؤلمه .

وقال صوت ساره : - من هناك

فانحنى ماتيو فوق الدرايزين . وكانت ساره جالسة على الديوان ، وهي تلبس « كيمونو » اصفر ، وكان يرى رأسها تحت شعر متصلب قليل . وكان يضيء قبالتها مصباح : هذا الرأس الاحمر ، رأس الاصعل .
وفكر ماتيو منزعجاً : « انه برونه » ولم يكن قد رآه منذ ستة اشهر ، ولكن لم يكن يسره قط ان يلقاه ثانية لدى ساره : ان ذلك مربك حقاً ، وإن لديهما اشياء كثيرة يقولانها ، وان صداقتهما المختصرة كانت منتصبة بينهما . ثم ان برونه كان يجلب معه جو الخارج ، عالماً سليماً برمته ، عالماً قصيراً عنيداً بشوراته وعنفه ، وعمله اليسدوي وجهوده الصابرة ونظامه ؛ إنه لم يكن بحاجة للاستماع الى السرّ الصغير المعيب ،

(١) القصير الرأس .

سر المخدع ، الذي قدم ماتيوي ليبوح به الى ساره . ورفعت ساره
رأسها وابتسمت قائلة :

— مرحباً ، مرحباً .

فبادلها ماتيوي بسمتها : وكان يرى ، من فوق ، هذا الوجه المسطح
الذي زال رونقه وتأكلته الطيبة ، ويرى تحته الثديين الكبيرين الرخوين
الذين كانا يبدوان الى نصفهما خارج الكيمونو . واسرع بالهبوط ،
وسألته ساره :

— ما الذي جاء بك ؟

فقال ماتيوي : — يجب ان أسألك شيئاً .

فتورد وجه ساره شراهة وقالت :

— كل ما تريد .

واضافت وقد ابهجها السرور الذي كانت تقدر انها ستمنحه إياه :

— اتدري من عندي ؟

والثفت ماتيوي الى برونيه وصافحه . وكانت ساره ترنو اليهما بعين

حنان . وقال برونيه :

— مرحباً ، ايها الاشتراكي الخائن العتيق !

وكان ماتيوي مسروراً بأن يسمع هذا الصوت ، رغم كل شيء .

وكان برونيه هائلاً وشديداً ، ذا وجه فلاحى بطيء التعبير . ولم يكن

يبدو عليه انه قريب الى القلب بصورة خاصة . وقال ماتيوي :

— مرحباً ، حسبتك قد مت .

فضحك برونيه من غير ان يجيب . وقالت ساره بنهم :

اجلس بالقرب مني .

وكانت تعلم انها ستؤدي له خدمة ، فهو الآن ملكها . وجلس

ماتيوي . وكان بابلو الصغير يلعب تحت الطاولة بأجسام مكعبة . وسأل

ماتيوي :

— ما اخبار غوميز ؟

قالت ساره : — انها الاخبار عينها . انه في برشلونه .

— وهل بلغك شيء من انبائه ؟

فأجابت ساره ساخرة : — في الاسبوع الماضي كتب لي يروي

انتصاراته !

والتمعت عينا برونيه :

— اتعلم انه اصبح كولونيلاً ؟

كولونيل . وفكر ماتيو برجل الامس فانقبض قلبه . اما غوميز ، فقد ذهب ، هو . كان ذات يوم قد علم من جريدة «باري سوار» سقوط «ايرون» . فظل وقتاً طويلاً يذرع مرسمه جيئة وذهاباً ، وهو يمرّر اصابعه عبر شعره الاسود . ثم هبط وهو عاري الرأس ، مرتدياً سترته . وظل المرسم في الحالة التي تركه عليها : لوحة غير ناجزة على المسند ، ولوح من النحاس محفور نصف حفر على الطاولة ، وسط زجاجات الحامض وكانت اللوحة والنقش يمثلان الأنسة ستيمنسون . وكانت عارية في اللوحة . وتمثلها ماتيو ثملةً رائعة تغني بصوت ابسح وذراعها في ذراع غوميز . وفكر : «مهما يكن من امر ، فقد كان اقسى مما ينبغي مع ساره» . وسألته ساره بصوت جدل :

— ايكون الوزير هو الذي فتح لك ؟

لم تكن تريد ان تتحدث عن غوميز . وكان قد سبق لها ان غفرت له كل شيء ، خياناته وفراره وقسوته . ولكنها لم تغفر له هذا ، رحياه الى اسبانيا : فقد ذهب ليقتل بشراً . وقد قتل بعض البشر . وقد كانت الحياة البشرية ، في رأي ساره شيئاً مقدساً .

وسألها ماتيو دهشاً : — اي وزير ؟

فقالت ساره باعتزاز ساذج :

— الفأر الصغير ذو الاذنين الحمراء ، هو وزير . لقد كان عضواً

في حكومة مونيخ الاشتراكية عام ٢٢ . اما الآن ، فهو يموت جوعاً .

— وطبعاً ، التقطته انت ؟

فأخذت ساره تضحك .

— لقد جاءني يحمل محفظته . والحقيقة انه لم يبق له مكان يذهب

اليه . وقد طردوه من فندقه لأنه لم يكن يملك بعد ما يدفعه .

فعد ماتيو على اصابعه وقال :

— مع « انيا » و « لوبيز » و « ساتي » يصبح نزلًاوك اربعة

فقلت ساره بلهجة اعتذار :

— اما « انيا » فذاهبة . لقد وجدت عملاً .

قال برونيه :

— يا للحاقة !

— ماذا ؟ ما هي الحاقة ؟

قالت ساره وهي تضع يدها على ذراع ماتيو :

— آه ، تعال لنجدتي ، يا عزيزي ماتيو .

— ولكن ما هي القصة ؟

قال برونيه لساره بلهجة استياء :

— ان الامر لا يهم ماتيو :

ولم تكن تصغي اليه بعد ؛ فقلت بلهجة اشفاق :

— انه يريدني ان اطرد وزيرتي .

— تطردينه ؟

— ويقول اني مجرمة لاحتفاظي به .

فقال برونيه بهدوء : — ان ساره تبالغ .

والتفتت الى ماتيو ، واخذ يشرح له ، على مضض :

— الواقع ان لدينا معلومات سيئة عن هذا الرجل . ويبدو انه كان

منذ ستة اشهر يجوس ممرات السفارة الالمانية . وليس المرء بحاجة لأن

يكون داهية ليفهم ما يمكن لمهاجر يهودي ان يفعل هناك .

قالت سارة : - ليست لديك ادلة .

- أجل . ليس لنا ادلة . ولو كان هناك ادلة ، ما كان هنا قط .

ولكن حتى ولو لم يكن هناك الا تخمينات ، فان سارة عديمة الحذر بايواته .

وقالت سارة بحماسة : - ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

قال برونيه برقة : - اسمعي يا ساره ! انك على استعداد لنسف

باريس كلها من اجل ان تجنبي الذين تخمينهم اي ازعاج !

فابتسمت سارة ابتسامة خفيفة وقالت :

- ليس بباريس كلها . ولكن المؤكد انني لن أضحّي بـ «ويمولر»

من اجل قضايك الحزبية . إن ... إن الحزب امر مجرد تماماً .

قال برونيه : - هذا ما كنت اقله بالذات .

فهزت ساره رأسها بعنف ، وكان وجهها قد احمر وعيناها الكبيران

الخضراوان قد دمعتا ، فقالت بغیظ :

- الوزير الصغير ، لقد رأيت يا ماتيو ، فهل يمكن ان يؤدي حتى

ذباة !

وكان هدوء برونيه عظيماً . كان هدوء البحر . وكان ذلك مهدتاً

ومغیظاً في الوقت نفسه . لم يكن يبدو عليه قط انه رجل واحد ، بل

كان يعيش حياة جمهورٍ كامل بكل هدوئها وصمتها وصخبها . ووضح

قائلاً :

- إن غوميز يرسل لنا احياناً بعض الرسل ، وهم يأتون الى هنا

فنلتقيهم في منزل ساره ، وانت تدرك ان الرسائل التي يحملونها سرية ،

أفيكون هذا هو المكان الذي تختاره من جميع الأمكنة لتستضيف فيه

رجلاً اشتهر بأنه جاسوس ؟

فلم يجب ماتيو . كان برونيه قد استعمل الصيغة الاستفهامية ، ولكن

ذلك كان امراً خطائياً : انه لم يكن يسأله رأيه . ولقد انقضى وقت طويل على انقطاع برونيه عن اخذ رأي ماتيو في اي أمر من الامور .
- انني اجعلك حكماً يا ماتيو : اذا طردت « ويمولر » قذف نفسه في نهر السين . (ثم اضافت بلهجة يائسة) فهل يحق لنا حقاً ان ندفع انساناً الى الانتحار لمجرد شبهة ؟

وكانت قد انتصبت ، قبيحة ومشرفة ، لتولد في نفس ماتيو شعور المشاركة الملتطخة الذي يحس به المرء تجاه المسحوقين والمصابين والمرضى بالالتهابات والقروح . وسأل :

- هل الأمر جدّ ؟ هل سيقذف نفسه في السين ؟
فقال برونيه : - طبعاً لا ، بل سيعود الى السفارة الالمانية وسيحاول ان يبيع نفسه كلياً ...

قال ماتيو : - الامر سواء . انه في جميع الاحوال هالك .
فهز برونيه كتفه بلامبالاة وقال :
- نعم ، صحيح .

قالت ساره وهي تنظر اليه بقلق :

- اتسمعه يا ماتيو ؟ اذن ، من هو على صواب ؟ قل شيئاً .
ولم يكن لدى ماتيو ما يقوله . لم يكن برونيه يسأله رأيه ، وما عساه يجديه رأي رجل بورجوازي ، مثقف قدر ، كلب حراسة ؟
« سوف يستمع بتأدب مثلج ، ولكنه لن يكون اشد تأثراً من صخرة ، وسيديني بما اقوله ، وهذا كل ما في الأمر . » ولم يكن ماتيو يريد ان يدينه برونيه . وقد كان ثمة فترة لم يكن احدهما يدين فيها الآخر ، بصورة مبدئية . وكان برونيه يقول آنذاك :
ان الصداقة ليست مجعولة للانتقاد ، وانما هي مجعولة لتمنح الثقة .
ولعله ما زال يقول ذلك ، ولكنه اذا قاله الآن ، فانما يعني رفاقه في الحزب .

وقالت ساره : ماتيو !

فانحنى برونيه نحوها ولامس ركبتيها وهو يقول بهدوء :
- اسمعي يا ساره . انني احب كثيراً ماتيو ، واقدر ذكاه . وحين
يكون الأمر ان يوضح مقطع من سبينوزا او من كانط ، فهو الذي
استشير به بكل تأكيد . اما هذه القضية ، فهي بليدة جداً ، واقسم لك
انني لست بحاجة الى حكم ، حتى ولو كان استاذ فلسفة . لقد حددت
موقفي .

وفكر ماتيو : طبعاً . طبعاً . وكان قلبه قد انقبض ، ولكنه لم يكن
ناقماً على برونيه . من اكون حتى اعطي النصائح ؟ وما الذي فعلته في
حياتي ؟ وكان برونيه قد نهض فقال :

- يجب ان امضي . وطبعاً ، ستعملين ما تشائين ، يا ساره . انت
لست من الحزب ، ومع ذلك فان ما تؤدينه لنا عظيم . ولكن اذا
احتفظت به ، فاني اطلب اليك ببساطة ان تمرري علي حين يرسل لك
غوميز اخباره .

فقالت ساره : - حسناً .

وكانت عيناها تلتمعان ، وكان يبدو انها قد تحررت . وقال

برونيه :

- ولا تدعي شيئاً يظهر . احرقني كل شيء .

- اعدك بذلك .

والفت برونيه الى ماتيو :

- هيباً ، الى اللقاء ، ايها الأخ القديم .

ولم يمد يده ، وكان يتأمله بتنبه ، وبشيء من القسوة ، نظرة
مارسيل ، مساء امس ، ودهشتها الحاقدة . وكان عارياً تحت نظراته ،
شخصاً طويلاً عارياً ، من لب الخبز . شخصاً مرتبكاً عديم الخلق .
من اكون حتى اعطي نصائح ؟ وطرف بعينه : كان برونيه يبدو قاسياً

ذا عقد . اما انا ، فاني أحمل الإجهاض على وجهي . وتكلم برونيه فلم يكن صوته ذاك الصوت الذي كان ماتيو ينتظره ، إذ قال بهدوء :

— إن سحنتك رديئة . فما الذي تشكوه ؟

وكان ماتيو قد نهض ايضاً :

— انني واقع في ... ارتباك . ولكن لا أهمية لذلك .

فوضع برونيه يده على كتفه . وكان ينظر اليه متردداً :

— إنها لحماقة . يضيع المرء كل وقته وهو يعدو ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يجد وقتاً للاهتمام بالاصدقاء القدامى . فلو انك مت ، فسأعلم نبأ موتك بعد شهر ، وبالصدفة .

قال ماتيو ضاحكاً : — لن اموت في مثل هذا التاريخ المبكر .

وأحس بقبضة برونيه على كتفه ، وكان يفكر : « إنه لا يدبني » فأحس بعرفان متواضع يستولي عليه . وظل برونيه جاداً فقال :

— لا ، ليس في مثل هذا التاريخ المبكر . ولكن ...

وبدا عليه اخيراً انه يعزم :

— هل انت حرٌ حوالى الساعة الثانية ؟ ان عندي بعض فراغ ، وبوسعي ان اقفز الى بيتك ؛ ويمكننا ان نتحدث قليلاً ، كالسابق .

فقال ماتيو :

— كالسابق ، انني حرٌ تماماً . وسأنتظرك .

وابتسم له برونيه بصداقة . وكان قد احتفظ ببسمته الساذجة المرحية .

واستدار حول نفسه ، وتوجه نحو السلم . وقالت ساره :

— سأرافقك .

وتبعها ماتيو بعينيه . وكان برونيه يرقى الدرج بمرونة اخاذة .

وقال في نفسه : « لم يضع كل شيء . » واختلج شيء ما في صدره ،

شيء فاتر ومتواضع كان يشبه الأمل . وخطا خطوات . واصطفق الباب فوق رأسه . وكان بابلو الصغير ينظر اليه بوقار . واقترب ماتيو من الطاولة واخذ مقصاً . وطارت ذبابة كانت قد حطت على صفحة النحاس . وكان بابلو ما يزال ينظر اليها . واحس ماتيو بالانزعاج ، من غير ان يعرف السبب . وكان لديه شعور بأن عيني الصبي تبتلعانه . وفكر : « ان الصبيان هم شروهون صغار ، وجميع حواسهم أفواه » . لم يكن نظر بابلو نظراً انسانياً بعد ، ومع ذلك فقد كان شيئاً أكثر من الحياة : فلم يمحض وقت طويل على خروج الطفل من بطن ، وكان هذا يُرى واضحاً ، كان هناك ، صغيراً ، متردداً ، وكان لا يزال يحتفظ بأثرٍ مخملي وخم من شيء مُقء ، ولكن كان يكمن وراء الاخلاط المضطربة التي كانت تملأ مجريه وجدان صغيرهم . وكان ماتيو يلعب بالمقص . وفكر « ان الطقس حار » . وكانت الذبابة تطن حوله ، كان هناك ، في حجرة وردية ، داخل بطن آخر ، جسم صغير متجعد ينتفخ .

وسألة بابلو :

— أتعلم بمَ حلمت ؟

— كلا .

— حلمت بأني كنت ريشة .

فقال ماتيو في نفسه : « انه يفكر ! » وسأله :

وماذا كنت تفعل حين كنت ريشة ؟

— لا شيء . كنت نائماً .

ورمى ماتيو فجأة بالمقص على الطاولة ، فاخذت الذبابة ترفرف مذعورة ، ثم حطت على صفحة النحاس بين فرضيتين رقيقتين تمثلان ذراع امرأة . كان لا بد من الاسراع ، لأن الجسم الصغير كان ينتفخ في هذه الأثناء ، وكان يبذل جهوداً غامضة لكي ينزع عنه الغطاء اللزج ، ولكي ينتزع نفسه من الظلمات ، ويصبح شبيهاً بهذا ، بهذا المحجم الشاحب الرخو

الذي كان يلتهم العالم .

وخطا ماتيو بضع خطوات على الدرج . وكان يسمع صوت ساره .
لقد فتحت الباب ووقفت على العتبة تبتسم لبرونيه . ما الذي تنتظر لتهبط ؟
وانقتل الى الصبي والى الذبابة . صبي . لحم مفكر يصرخ وينزف .
حين يُقتل . إن الذبابة أسهل قتلاً من صبي . وهز كتفيه : « اني
لن اقتل احداً . انما سوف امنع طفلاً من ان يولد . » وكان بابلو قد
عاد يلعب بمكعباته ، كان قد نسي ماتيو . ومد ماتيو يده ولمس الطاولة
باصبعه . وكان يردد لنفسه بدهشة « امنع ولادة ... » فكأنما كان ثمة
في مكان ما طفل جاهز ينتظر ساعة القفز من هذه الناحية من الديكور ،
في هذه الغرفة تحت هذه الشمس ، وكان ماتيو يسد عليه الطريق .
والواقع ان ذلك كان كذلك تقريباً : كان ثمة رجل قصير متنكر وماكر ،
كاذب وأليم ، ذو بشرة بيضاء ، واذنان عريضتان وشامات ، مع قبضة
من العلامات الفارقة تشبه تلك التي توضع على الجوازات ، رجل قصير
لن يعدو قط في الطرقات ، لأن له قدماً على الرصيف واخرى في
الساقية ، وكان ثمة عينان ، عينان خضراوان كعيني ماتيو او سودوان
كعيني مارسيل اللتين لن تريا ابداً سماوات الشتاء المخضرة ، ولا البحر ،
ولا أي وجه ، وكان ثمة ايد لن تلمس الثلج ابداً ، ولا بشرة النساء ،
ولا لحاء الشجر : كان ثمة صورة للعالم دامية ، مضيئة ، عابسة مهووسة ،
كثيية ، تفيض بالآمال ، صورة تغمرها الحدائق والبيوت وفتيات فارعات
رقيقات ، وحشرات مريعة ، صورة توشك ان تُفجّر برأس دبوس
ككرة من كرات اللوفر . قالت ساره :

— ها أنذا ، هل جعلتك تنظر !

فرفع ماتيو رأسه واستشعر التفريج : كانت منحنية على الدريزين ،
ثقيلة قبيحة ، كانت امرأة بالغة ، لحماً قديماً يبدو وكأنه خارج من
الملوحة وكأنه لم يولد قط ، وابتسمت له ساره وهبطت الدرج مسرعة ،

- وكان الكومينو يتطاير حول ساقبها القصيرتين . وقالت بشراة :
- نعم ؟ ماذا هناك ؟
- وكانت عينها الكبيرتان المضطربتان تنفحصانه بالحاح . وانفتل وقال بحفاء :
- ان مارسيل حامل .
- اوه !
- وكان يبدو على سارة انها اقرب لأن تكون مغتبطة . وسألت بنجمل :
- إذن .. سوف ؟..
- قال ماتيو بحماسة : – لا ، لا . اننا لا نريد اطفالاً .
- قالت : – حسناً ، فهمت .
- وخفضت رأسها ولزمت الصمت . ولم يستطع ماتيو ان يحتمل هذا الحزن الذي لم يكن حتى عتاباً ، فاستطرد يقول بوحشية :
- أظن ان ذلك قد حصل مرة معك ، كما اخبرني غوميز .
- نعم . في الماضي .
- ورفعت عينها فجأة وازافت باندفاع :
- ان هذا ليس ذا اهمية على الاطلاق اذا أدرك في حينه .
- وكانت تمنع عن ادائه ، وكانت تتخلى عن تحفظاتها وعن مآخذها ، ولم يكن لها بعد الا رغبة واحدة ، هي ان تطمئنه .
- ليس الأمر بذي بال على الاطلاق ...
- وكان يوشك ان يبتسم وان يواجه المستقبل بثقة ؛ ستكون وحدها التي تحمل الحداد بسبب هذه الميتة الصغيرة الخفية . وقال ماتيو مقتاضاً :
- اسمعي يا ساره ، وحاولي ان تفهميني : اني لا اريد ان اتزوج .
- وليس ذلك بدافع من انانية ؛ ولكني اجد الزواج ...
- وصمت : كانت ساره متزوجة ، كانت قد تزوجت غوميز منذ

خمس سنوات . واضاف بعد لحظة :

- ثم ان مارسيل لا تريد اولاداً .

- الا تحب الاولاد ؟

- إن هذا لا يهتّمها .

فبدا على سارة الامتعاض وقالت :

- نعم ، نعم .. اذن ، في الحقيقة ...

وأخذت يديه :

- ماتيو ، يا صديقي المسكين ، لا بدّ انك كثير الانزعاج ! وبودي

لو استطيع ان اساعدك .

قال ماتيو : - هذا بالذات ما اريده . انك تستطيعين ان تساعدينا .

حين حدث لك ذلك ... الانزعاج ، ذهب تيرين احدآ ما ؛ رجلاً

روسياً ، على ما اظن .

قالت ساره : - نعم (وتغيرت سحتها) كان ذلك مريعاً !

فقال ماتيو بصوت عكر : - آه .. انه .. انه مؤلم جداً .

- ليس ألم مما ينبغي ، ولكن ... (وقالت بلهجة اشفاق) كنت

افكر بالطفل . انت تعلم ان غوميز كان يريده . وحين كان يريد

شيئاً ما ، في ذلك العهد ... ولكن ذلك كان مريعاً .. وابدأ لن ..

إن بومعه ان يبتهل إليّ وهو جاثٍ على ركبتيه ، الآن ، ولكنني لن

اعيدها ابدأ .

ونظرت الى ماتيو بعينين شاردتين :

- لقد اعطوني حزمة صغيرة ، بعد العملية ، وقالوا لي « إقذني

ذلك في بالوعة » . في بالوعة . كجرذ ميت !

وأضافت وهي تضم يديه بقوة : - اسمع يا ماتيو ! انك لا تعلم

ما انت قادم عليه !

فسألها ماتيو غاضباً :

- واذا وضعت ولدآ ، اترك تكونين اكثر علماً مني ؟

طفل : وجدان جديد ، نور صغير جديد يطير مستديراً ، فيصطدم بالجلدران ويعجز عن الفرار بعد .

- لا ، وانما اقصد : انت لا تعلم ما الذي تطلبه من مارسيل ؛ اني اخشى ان تكرهك فيما بعد .

وتمثل ماتيو عيني مارسيل ، عينيها الكبيرتين القاسيتين المحاطتين بدائرة مزرقّة . وسأل بجفاء :

- هل تكرهين غوميز ؟

فأنت ساره حركة اشفاق وعجز : انها لم تكن تستطيع ان تكره احداً ، ولا سبها غوميز . ثم قالت بلهجة غامضة :

- مهما يكن من امر ، فليس بوسعي ان ارسلك الى هذا الروسي الذي ما زال يعمل ، ولكنه يشرب الآن ، فليست لي به ثقة بعد ، وقد حدثت له قصة قنطرة منذ عامين .

- الا تعرفين شخصاً آخر ؟

فقالت ساره بهدوء : - لا اعرف احداً .

ولكن طبيعتها كلها ما لبثت ان انبثقت على وجهها فجأة فصاحت :

- بلى ، بوسعي ان ارشدك ، فكيف لم افكر بذلك ؟ سوف

اقتبر الامر ، والدمان . ألم تره عندي ؟ يهودي متخصص بالأمراض النسائية . انه اخصائي الاجهاض ، على نحو ما وستكون معه مطمئناً .

لقد كان له في برلين زبائن كثيرون . وحين استولى النازيون على السلطة ، ذهب يقيم في فيينا . وبعد ذلك ، حدث الانشولونس فأبحر الى باريس يحمل بيده محفظة صغيرة . ولكن كان قد حول كل ماله الى زوربخ قبل ذلك بوقت طويل .

- اتظنين انه سيقبل ؟

- طبعاً . اني ذاهبة لأراه اليوم بالذات .

فقال ماتيو : - اني مسرور . مسرور جداً . هل يأخذ اجراً

غالباً جداً ؟

- كان يتقاضى هناك حتى ألفي مارك .

فامتقع ماتيو :

- عشرة آلاف فرنك ؟

فأضافت بحويية :

- ولكن ذلك سرقة. كان يحمل الناس على ان يدفعوا ثمن شهرته .
أما هنا ، فلا يعرفه احد ، ولا بد ان يكون معقولاً . وسوف اعرض
عليه ثلاثة آلاف فرنك .

فقال ماتيو وهو يركز على اسنانه : - حسناً .

وكان يتساءل : « من اين آتي بهذا المال ؟ »

وقالت ساره : - اسمع ، لماذا لا اقصده منذ هذا الصباح ؟ انه
يسكن شارع « بليز ديغوف » وهو قريب جداً . سوف ارتدي ثيابي
وأهبط . فهل تنتظرني ؟

فقال ماتيو : - لا ... ان عندي موعداً في العاشرة والنصف . انك

جوهرة يا ساره .

وأخذها من كنفها وهزتها وهو يبسم . لقد أزلت عنه اعمق مخاوفه
وجعلت من نفسها ، بدافع السهاحة ، شريكة عمل كان يوحى بالذعر :
كانت تشعّ سروراً . وسألته :
- اين ستكون حوالي الحادية عشرة ؟ ان بوسعي ان اخابرك
بالتلفون .

- سأكون في مقهى « ديبون » بشارع سان ميشال . وبوسعي ان

ابقى فيه حتى تتصلي بي .

- في « ديبون » ؟ اتفقنا .

وكان مئزر ساره قد انفتح عن ثديها الهائلين . فضمها ماتيو اليه
يدافع حنان ، وحتى لا يرى جسدها بعد . قالت ساره :
- الى اللقاء ، الى اللقاء ، يا عزيزي ماتيو .

ورفعت اليه وجهها الرقيق الذي زال رونقه . وكان في هذا الوجه
تواضع يثير الاضطراب والشهوة ويرغب في إيذائها وارهاقها بالحجل .
كان دانيال يقول : « حين اراها ، افهم معنى السادية . » وقبلها
ماتيو على خديها .

* * *

« الصيف ! » كانت السماء تسلط على الشارع ، وكانت شبحاً
معدنياً ؛ كان الناس يعومون في السماء ، وكانت وجوههم تتوهج .
وتنشق ماتيو رائحة خضراء حية ، غباراً فتيماً ، وطرف بعينيه وابتسم .
« الصيف ! » وخطا بضع خطوات ، فعلق بنعله القطران الاسود
الذائب المنقط بحبات بيضاء : لقد كانت مارسيل حاملاً ، وليس هو
بعد الصيف ذاته .

كانت نائمة ، وكان جسدها ساحماً في ظل كثيف ، وكان يرشح
وهي نائمة . وكان نهداها الجميلان البنفسجيان قد ارتحيا ، وكانت
قطرات تنبجس حول حلمتيها ، بيضاء مالحة كالزهور . انها تنام .
انها تنام دائماً حتى الظهر . اما الجسم المتجعّد الصغير ، في جوف
بطنها . فلم يكن لينام ، وهو لا يملك وقتاً للنوم : انه يتغدّى وينتفخ .
وكان الزمن يسيل دفعات صلبة لا تنقطع . كان الجسم المتجعّد
ينتفخ ، وكان الوقت يسيل . « يجب ان اجد المال في الثماني والاربعين
ساعة . »

حديقة اللكسمبورغ ، حارة بيضاء ، تماثيل وحمام : وأطفال
الاطفال يركضون ، والحمام يطير . ركض ، بروق بيضاء ، فرق
صغيرة تتبدّد . وجلس على كرسي من حديد : « اين اجد المال ؟
ان دانيال لن يعيرني اياه . ومع ذلك فسوف اطلبه منه .. ثم ، كآخر
سهم ، ستكون لي امكانية التوجه الى جاك . » وكان العشب يزيد

حتى قدميه ، وكان تمثال يمدّ له مؤخرته الحجرية الفتية ، وكان الحمام يسجع ، طيور من حجر : « ليست القضية ، بعد كل حساب ، الا قضية خمسة عشر يوماً ، وسوف ينتظر هذا اليهودي حتى آخر الشهر ، ويوم ٢٩ سأقبض راتبي . »

وتوقف مانيو فجأة : كان يرى نفسه وهو يفكر ، وكان يشمئز من نفسه : « في هذه الساعة ، يضرب برونيه في الشوارع ، على هواه في النور ، وهو خفيف لأنه ينتظر ، هو يمشي عبر مدينة من زجاج مفضض لن يلبث ان يكسره ، انه يستشعر القوة ، وهو يمشي ممابلاً مترنحاً ، بكل حذر ، لأن الوقت لم يحن بعد لتحطيم كل شيء ، انه ينتظر ، انه يأمل . اما انا ، اما انا ! ان مارسيل حامل . هل ستفنع ساره ذلك اليهودي ؟ اين اجد المال ؟ هذا ما افكر به ! » واستعاد فجأة صورة عينين متقاربتين تحت حاجبين كثيفين اسودين : « مدريد ، كان يودي ان اذهب اليها . اقسم لك . ولكن ذلك لم يتم . وفكر فجأة : « لقد شخت . »

اني شيخ . هأنذا مسترخ على كرسي ، منحرف حتى العتق في حياتي ، وغير مؤمن في شيء . ومع ذلك ، فقد وددت انا ايضاً ان اذهب الى « اسبانية » ما . ثم لم يتم ذلك . هل هناك « اسبانيات » ؟ اني هنا ، أتلمظ ، واحس مذاق الدم القديم والمياه المعدنية ، مذاق اني مذاق بالذات ، انني موجود . ذلك هو الوجود : ان يشرب الانسان نفسه على غير عطش . اربعة وثلاثون عاماً . منذ اربعة وثلاثين عاماً وانا اتذوق نفسي ، وانا شيخ . لقد عملت ، وانتظرت ، وكان لي ما اريد : مارسيل ، باريس ، الاستقلال ، وانتهى الامر ، فأنا لا انتظر بعد شيئاً . وكان ينظر الى هذه الحديقة النمطية ، الجديدة دائماً ، التي هي نفسها دائماً ، كالبحر ، تجتازها منذ مئة عام موجات الالوان والاصوات نفسها . كان هناك ما يلي : هؤلاء الاطفال الذين

كانوا يركضون بلا انتظام ، الاطفال انفسهم منذ مائة عام ، وهذه الشمس نفسها تنصب على ملكات الجبس ذوات الاصابع المكسورة وجميع هذه الاشجار . وكانت هناك ساره وكيمونوها الاصفر ، ومارسيل جبلي ، والمال . ان ذلك كله كان من الطبيعة والعادية والرتابة بحيث كان يكفي لأن يملاً حياة ، تلك هي الحياة . اما الباقي ، الاسبانيات ، والقصور في اسبانيا ، فقد كان ... ماذا ؟ دين ؟ لا ديني " صغير حار " يصلح لي ؟ المصاحبة الخفية السارفيمية لحياتي الحقيقية ؟ لا دليل ؟ كذلك كانوا يرونني ، هم ، دانيال ، ومارسيل وبرونيه وجاك : الانسان الذي يريد ان يكون حراً . انه يأكل ويشرب كسائر الناس ، وهو موظف في الحكومة ، وهو لا يتعاطى السياسة ، وهو يقرأ جريدتي « الاوفر » و « البوبولير » . وهو يعاني ضيقاً مالياً . ولكنه يريد فحسب ان يكون حراً ، كما يريد آخرون مجموعة من الطوايع . ان الحرية هي حديقته المقدسة ، ضلوعه اليسير مع نفسه . شخص كسول بارد ، خيالي بعض الشيء : ولكنه في الحقيقة عظيم الرشاد ، صنع لنفسه سعادة جمود عادية وصلبة ، وهو يبرر نفسه بين الفينة والفينة باعتبارات رفيعة . ايكون هذا هو ما انا ؟

كان في السابعة من عمره ، وكان في « بيتيفيه » عند عمه جول ، طبيب الاسنان « وحيداً في قاعة الانتظار ، وكان يتكلف منع نفسه من ان يوجد : كان عليه ان يحاول الا يلتهم نفسه ، كشأن من يحتفظ على لسانه بمائع مثلج فيما هو يمسك حركة الابتلاع الصغيرة التي تجعله يسيل الى الخنجرة . وكان قد نجح بأن يُفْرغ رأسه تماماً . ولكن هذا الفراغ كان ما يزال يحتفظ بمذاق . كان يوم حماقات . وكان يقبع في حرارة ريفية تتبعث منها رائحة الذباب ؛ والواقع انه كان قد قبض على ذبابة ونزع جناحيها . ولاحظ ان رأسها كان يشبه طرف عود ثقاب ، فذهب الى المطبخ وأتى بالمبرد وراح يحكه به ليرى اذا كان سيشتعل . ولكن

كان يفعل ذلك كله باهمال : كانت مهزلة حقيرة فارغة ، وكان لا
 ينجح في الاهتمام بنفسه ، وكان يعلم جيداً ان الذبابة لن تشتعل . وكان
 على الطاولة مجالات ممزقة وآنية صينية جميلة ، خضراء ورمادية ، ذات
 عُرَى تشبه برائن البيغاء ؛ وكان عمه جول قد قال له ان عمر هذه الآنية
 ثلاثة آلاف عام . وكان ماتيو قد اقترب من الآنية ، ويداه خلف ظهره ،
 ونظر اليها وهو يتراقص في قلق : انه لمخيف ان يكون الانسان كرتية
 من العجين ، في هذا العالم الهرم المشوي ، تجاه آنية عديمة الاحساس
 ذات ثلاثة آلاف عام . وكان قد اولاهها ظهره وأخذ يقلب عينيه وينخر
 امام المرأة ، من غير ان ينجح في تسلية نفسه ، ثم عاد فجأة الى الطاولة ،
 ورفع الآنية التي كانت ثقيلة جداً ، وقذف بها ارضاً : هكذا خطر له
 ذلك ، وما لبث ان شعر بأنه خفيف ، كخيط من خيوط « العذراء » .
 وقد نظر الى شظايا البورسلين مسحوراً . لقد حدث شيء ما لهذه الآنية
 ذات الثلاثة الآلاف عام بين هذه الجدران الخمسينية ، تحت نور الصيف
 القديم ، شيء وقع يشبه الصباح . وكان قد فكر : « انا الذي فعلت
 ذلك ! » واستشعر الفخر ، وأحس بأنه متحرر من العالم وبلا جذور ،
 بلا اسرة ، بلا اصول ، وانه انبثاق صغير عنيد فجر قشرة الارض .
 وكان في السادسة عشرة ، وكان وحشاً صغيراً ، وكان مستلقياً على
 الرمل ، في « اركاشون » . وكان ينظر الى امواج المحيط المسطحة .
 وكان قد ضرب شاباً من بوردو قذفه بالحجارة ، فأجبره على اكل التراب .
 وفيما كان جالساً في ظل الصنوبر ، متقطع الانفاس ، مملوء المنخرين
 برائحة الصمغ الصنوبري ، كان لديه احساس بأنه انفجار صغير معلق
 في الهواء ، انفجار صريح ، شرس ، غير قابل للتفسير . وكان قد
 قال لنفسه : « سأصبح حراً » او انه بالأحرى لم يقل لنفسه شيئاً على
 الاطلاق . وانما كان هذا ما يود ان يقوله ، وكان ذلك رهاناً . كان
 قد راهن بأن حياته كلها ستشبه هذه اللحظة الفريدة . وكان في الحادية

والعشرين ، وكان يقرأ سبينوزا في غرفته وكان يوم الثلاثاء المرفح ، وكانت شاحنات كبيرة ملونة تعبر الشارع وهي محملة بدمى من الورق المقوى ؛ وكان قد رفع عينيه وراهن مرة اخرى ، بذلك التفخيم الفلسفي الذي اعتادا عليه منذ حين ، هو وبرونيه ؛ كان قد قال لنفسه : « سوف اصنع سلامي » ! وعشر مرات ، ومئة مرة ، اعاد مراهنته ، وكانت الكلمات تتغير مع السن ، ومع الطرُّز الفكرية ، واكن الرهان ظل هو هو ؛ ولم يكن ماتيو ، في نظر نفسه بالذات ، شخصاً طويلاً ثقيلاً بعض الشيء ، كان يدرس الفلسفة ، في معهد للذكور ، ولم يكن كذلك شقيق جاك دولارو ، النائب في المحاكم ، ولم يكن عشيق مارسيل ولا صديق دانيال وبرونيه : انه لم يكن شيئاً آخر غير هذا الرهان . اي رهان ؟ وأمرٌ يده على عينيه اللتين اتعبهما النور : انه لا يعرفه بعد معرفة جيدة ؛ كان له الآن ، اكثر فأكثر غالباً ، فترات نفيٍ طويلة . ولا بد له لكي يفهم رهانه ان يكون في افضل حالات نفسه . - الكرة ، من فضلك .

وتدحرجت كرة التنس حتى قدميه ، وكان صبي صغير يعدو نحوه . وفي يده مضرب . والتقط ماتيو الكرة وقذفها اليه . ولم يكن بالتأكيد في افضل حالاته : فقد كان يأسن في تلك الحرارة الكثيفة ، وكان ضحية الاحساس الرتيب القديم بالشيء اليومي المألوف : لقد جهد في ترديد العبارات التي كانت تثير حماسه في الماضي : « ان اكون حراً ، ان اكون قضيتي ، ان استطيع القول : اني موجود لأنني أريد ذلك ؛ ان اكون بداءتي بالذات . » ولكن هذه كانت كلمات فارغة جوفاء ، كلمات متقف مزعجة .

ونفض . نهض موظف ، موظف كان يشكو قلقة المال ، وهو قادم على لقاء احد تلامذته الاقدمين . وفكر : « هل فات الأوان ؟ ألسنت بعد الا موظفاً ؟ » لقد سبق له ان انتظر طويلاً ؛ ولم تكن

سنواته الاخيرة الا حراسة سلاح . كان ينتظر عبر الالف همّ صغير؛ وبالطبع كان يجري وراء النساء ، في ذلك العهد ، وكان يسافر ، ثم كان عليه ان يكسب عيشه . ولكن عبر ذلك كله ، كان اهتمامه الوحيد هو ان يظل على استعداد . لعمل ما . عمل حر وواعٍ يلزم حياته كلها ويكون بدء وجود جديد . انه لم يستطع قط ان ينخرط كلياً في حب ما ، في لذة ما ، ولم يكن قط شقياً حقاً : كان يخيل اليه دائماً انه كان في مكان آخر ، وانه لم يولد بعد تماماً . كان ينتظر . وفي هذه الاثناء ، كانت السنوات قد جاءت على مهل ، وبصورة خفية ، وقبضت عليه من الخلف ؛ اربع وثلاثون سنة . « كان عليّ ، وانا في الخامسة والعشرين ، ان ألتزم . مثل برونيه . هذا صحيح ، ولكن المرء ، في تلك السن ، لا يلتزم وهو مدرك القضية تمام الادراك . » وكان قد فكر بالذهاب الى روسيا ، وبالانصراف عن دراسته ، وبتعلم مهنة يدوية . ولكن ما كان يُمسكه كل مرة على حافة هذه الالوان من النقص العنيف ، هو انه كان يفتقر الى الاسباب الكافية لتنفيذها . انها ، بلا اسباب ، ما كانت لتكون الا ضروباً من العناد . وهكذا استمر في الانتظار ...

وكانت قوارب شراعية تدور في حوض اللوكسمبورغ ، تصفحها فوارة الماء بين الفينة والفينة . وتوقف لينظر الى حفلتها الاستعراضية المائية الصغيرة . وفكر : « لن انتظر بعد . انها على حق : لقد افرغت نفسي واعمتها حتى لم اعد الا انتظاراً . صحيح اني الآن مُفرغ . ولكنني لا انتظر بعد شيئاً . »

وهناك ، بالقرب من فوارة الماء ، كان قارب صغير في طريق الضياع ، تائهاً على حدة . وكان جميع الناس يضحكون وهم ينظرون اليه ؛ وكان صبي شقي يحاول ان يقبض عليه بواسطة عِصاة عِصاة .

نظر ماتيو الى ساعته : « العاشرة واربعون دقيقة . لقد تأخرت . »
 ولم يكن يحب ان تتأخر ، وكان يخشى دائماً ان تكون قد تركت نفسها
 تموت . كانت تنسى كل شيء ، وكانت تهرب من نفسها . وكانت
 تنسى نفسها بين دقيقة واخرى ، وكانت تنسى ان تأكل ، وكانت
 تنسى ان تنام . وسوف تنسى يوماً ان تتنفس وينتهي كل شيء .
 وكان شابان قد توقفا بالقرب منه : وكانا يتأملان طاولةً بعبوس .

وقال أحدهما : - « سبت داون » .

فأجاب الآخر : - اني أسبت داون .

وضحكا وجلسا . وكان لها ايدٍ معتنىً بها ، الهيئة قاسية والبشرة
 رقيقة . وفكر ماتيو في حنق « ليس هنا إلا الماحين » ! تلامذة او
 طلاب ليسيه ؛ الشباب الذكور المحاطون باناث رماديات كانوا يشبهون
 حشرات لامعة عنيدة . وفكر ماتيو : « إن الشباب شيء ظريف :
 بريق في الخارج ، وفي الداخل لا تحس شيئاً . » صحيح ان ايفيش
 كانت تحس بشبابها ، وكذلك بوريس ، ولكنها يدخلان في الاستثناء .
 انهما من شهداء الشباب . « لم اكن ادري اني انا كنت شاباً ، ولا
 برونيه ولا دانيال . وانما شعرنا بذلك فيما بعد . »

وحلم ، في غير سرور بالغ ، بأنه سيصطحب ايفيش الى معرض غوغان . وكان يحب ان يربها لوحات جميلة ، وافلاماً جميلة ، واشياء جميلة ، لأنه لم يكن جميلاً ، وكان ذلك بمثابة الاعتذار . ولكن ايفيش لم تكن لتعذره : انها ستنظر الى اللوحات هذا الصباح ، كما كانت تنظر في المرات السابقة ، نظرتها الهوساء المتوحشة ، وسيقف ماتيو الى جانبها ، قبيحاً ، ثقيل الظل ، منسياً . ومع ذلك ، فانه لم يكن بودّه ان يكون جميلاً : ذلك انها ليست اكثر وحدة إلاّ تجاه الجمال . وقال لنفسه : « لا ادري ما الذي اريده منها . » وفي هذه اللحظة بالذات ، لمحها ؛ كانت تهبط الجادة الى جانب فتى طويل مجعد كان يضع النظارات ، وكانت ترفع نحوه وجهها وتمنحه بسمتها المشرقة ؛ كانا يتحدثان بحوية . وحين رأت ماتيو ، انطفت عيناها ، وحيّت رفيقها تحية سريعة ، ثم عبرت شارع « ديزيكول » بهيئة مستنيمة . ونهض ماتيو :

— تحية يا ايفيش .

فقال — صباح الخير .

وكان وجهها في افضل زينته : كانت قد ردت خصلاتها الشقراء حتى انفها ، وكان هدبها يهبط حتى عينيها . اما في الشتاء ، فقد كان الهواء يناثر شعرها ويعرّي وجنتيها البارزتين المنمقتين وذلك الجبين المنخفض الذي كانت تدعوه « جيبني الكلموكي » . وكانت تبدو سحنة عريضة صفراء طفولية وشهوانية كالقمر بين غمامتين . اما اليوم فان ماتيو لم يكن يرى الا وجهاً مزيفاً ضيقاً نقياً كانت تغطي به وجهها الحقيقي كقناع مثلث . والتفت الشبان المجاورون لماتيو اليها : وكانوا يفكرون : الفتاة الجميلة . ونظر اليها ماتيو بحنان ؛ لقد كان بين هؤلاء جميعاً ، الوحيد الذي يعرف ان ايفيش كانت بشعة وجلست هادئة مستوحشة . ولم تكن قد طلّت وجهها بالمسحوق ، لأن المسحوق

كان يتلف البشرة . وسأل الخادم :

— وماذا تطلب السيدة ؟

فابتسمت له ايفيش ، وكانت تحب ان تُدعى «سيدة» ؛ ثم التفتت

الى ماتيو مترددة ، فقال ماتيو :

— خذي قدح «بيرمنت» ، فانت تحبين ذلك .

فقالت وقد راقها هذا : — احب ذلك ؟ اذن اريده : (وسألته

حين مضى الخادم) وما هذا المشروب ؟

— انه نعنغ أخضر .

— ذلك الشيء الاخضر اللزج الذي شربته في المرة السابقة ؟ اوه !

انني لا اريده . فهو يذيق الفم . انني انساق دائماً ، فيجب عليّ ألاّ

أصغي اليك . إن ذوقينا مختلفان .

فقال ماتيو منزعجاً : — ولكنك قلت إنك تحبين هذا ؟

— صحيح . غير انني فكرت بعد ذلك ، وتذكرت الطعم .

(وارتعشت) لن اشرب منه بعد ابداً .

فصاح ماتيو ينادي الخادم .

— لا ، لا . دعه يأتي به ، إن منظره جميل . كل ما هنالك انني

لن أمسه . فلست عطشى .

وصمت . ولم يدر ماتيو ما ينبغي ان يقول لها : نادرة هي الاشياء التي

كانت تثير اهتمام ايفيش ؛ ثم انها لم تكن راغبة في الكلام . كانت

مارسيل هناك ؛ إنه لم يكن يراها ، ولم يكن يسميها ، ولكنها كانت

هناك . اما ايفيش ، فكان يراها ، وكان يستطيع ان يدعوها باسمها او

ان يلمس كتفها : ولكنها كانت بعزل عن الإدراك ، بقامتها الدقيقة

وعنفها الجميل القاسي ؛ كان يبدو انها مطلية مبرنقة ؛ كأنها امرأة

من تاهيتي مرسومة على لوحة لغوغان ، غير قابلة للاستعمال . ستلفن

ساره الساعة ، فينادي الخادم : « السيد دولارو » ؛ وسيسمع ماتيو

في آخر لحظة صوتاً اسود : « انه يطلب عشرة آلاف فرنك ، لا تنقص فلساً واحداً » . مستشفى ، عملية جراحية ، رائحة اثير ، قضايا مالية . وجهد ماتيو ليلتفت الى ايفيش التي كانت قد اغمضت عينيها وكانت "تمر" اصعباً خفيفاً على جفنيها . وفتحت عينيها :

- لدي شعور بأنها تبقيان مفتوحتين من تلقاء نفسها . وبين فترة وفترة اغمضها لأريحهما . هل هما حراوان ؟

- كلا .

- انها الشمس ؛ ان عيني "تولماني دائماً في الصيف . وايام كهذه ، ينبغي الا يخرج فيها المرء الا حين يهبط الليل ؛ والا فهو لا يدري اين يلتجئ لأن الشمس تلاحقه في كل مكان . ثم ان ايدي الناس لزجة . ولمس ماتيو باصبعه ، تحت الطاولة ، باطن كفه بالذات : فكان جافاً . ان الآخر ، الفتي الطويل المجمعّد ، هو الذي كانت يدها دبقتين . وكان ينظر الى ايفيش من غير اضطراب ؛ وكان يحس انه مذنب ومتحرر ، لأنه كان اقل تعلقاً بها .

- أيزعجك اني اضطرتك الى الخروج هذا الصباح ؟

- علي اي حال ، كان من المستحيل ان ألزم غرفتي .

فسألها ماتيو دهشاً : - ولماذا ؟

فنظرت اليه ايفيش بنفاد صبر :

- انت لا تدري ما عساه ان يكون بيت للطلاب . ان الفتاة تحمي فيه حماية حقيقية ، ولا سيما في فترة الامتحانات . ثم ان المرأة قد أحببني ، فهي تدخل كل لحظة الى غرفتي بحجج مختلفة ، فتلامس شعري ، وانا اكره ان ألمس .

وكان ماتيو لا يكاد يصغي اليها : فقد كان يعلم انها لم تكن تفكر بما تقوله . وهزت ايفيش رأسها مغتاظة :

- ان سمينة « البيت » هذه تحبني لأنني شقراء . ويحدث دائماً الشيء

- نفسه فهي مستحقرني بعد ثلاثة اشهر : يقول اني مرثية .
 فقال ماتيوي : - انت مرثية .
 قالت بلهجة طويلة تذكر بوجنتيها المتفتحين : - طبعاً ...
 - ثم إن الناس ينتهي بهم الأمر الى ملاحظة انك تخفين عنهم خديك
 وانك تسبلين عينيك امامهم كقديسة منافقة .
 - حسناً ! هل يروق لك انت ان يُعرف من تكون ؟ (وأضافت
 بشيء من الاحتقار) : صحيح انك لا تتأثر بهذه الامور . اما فيما
 يخص نظري الى الناس مواجهة ، فاني لا استطيع ذلك : إن عيني
 تزعجاني على الفور .
 قال ماتيوي : - غالباً ما أزعجتني في البدء . كنت تنظرين اليّ فوق
 الجبين ، في مستوى الشعر ، انا الذي أخشى كثيراً ان أصبح أصلع ...
 كنت احسب انك قد لاحظت فجوة مضيئة وانك لا تستطيعين بعد
 ان تنزعي عنها نظرك .
 - اني انظر الى الجميع على هذا النحو .
 - نعم ، او من جانب : هكذا ...
 ورامها بنظرة خفية سريعة. فضحكت ، وقد راقها ذلك وأغضبها .
 - حسبك ! لا اريد ان يقلدني أحد .
 - ولكني لم أقصد الخبث /
 - طبعاً ، غير اني أخاف حين تأخذ مني تعابيري .
 قال ماتيوي وهو يتسم : - اني افهم ذلك .
 - ليس هذا ما يبدو عليك انك تعتقده : فلو كنت اجمل انسان
 في الدنيا ، لما اختلف الأمر عندي .
 قال ماتيوي :
 - اسمعي ، سأقصد صيدلية لآتيك بقرص . ولكني انتظر غسابة
 تلفزيونية . فاذا طلبني أحد ، فسكونين لطيفة اذا قلت للخادم بأنني

سأعود على التور ، فليطلبني مرة اخرى .
قالت برودة : - لا ، لا تذهب ، فاني اشكرك كثيراً ، ولا
فائدة من ذلك . انها هذه الشمس .

وصمتا : ففكر ماتيو في لون من السرور المذهب « انني أبعض
نفسي » . وكانت ايفيش تملس تنورتها بباطن كفتيها وهي ترفح
اصابعها قليلاً كما لو انها مستضرب اصابع البيانو . وكانت يداها ابدأ
محمرتين ، لأن جريان دمها كان رديئاً ، وكانت تدعها على العموم في
الهواء وتحركها لتجعلها تصفران . ولم تكونا تقيديها قط للأخذ ،
وانما كانتا صنين صغيرين خشنين في طرف ذراعيها ، وكانتا تلامسان
الأشياء بحركات دقيقة غير ناجزة وتبدوان اقرب الى تسويتها منها الى
التقاطها . ونظر ماتيو الى أظافر ايفيش الطويلة المقرنة ، المطليّة بصورة
حنيفة ، التي تكاد تكون صينية : كان يكفي المرء ان يتأمل هذه
الزينة المربكة الظريّة حتى يدرك ان ايفيش لم تكن تستطيع ان تصنع
شيئاً بأصابعها . وقد سقط احد هذه الأظافر ، ذات يوم ، من تلقاء
نفسه ، فكانت محتفظ به في تابوت صغير ، وبسبب فترة واخرى ،
كانت تنفضه بمزيج من التفور واللذة . وقد سبق لماتيو ان رآه :
كان محتفظاً بطلاته ، وكان يشبه جعلاً ميتاً . « انني اتسامل : ما
الذي يشغلها ، انها لم تكن اكثر ازعاجاً مما هي الآن . لا بد ان السبب
امتحاناتها ، الا ان تكون منزعة معي : اني ، في آخر المطاف ،
رجل كبير . »

وقالت ايفيش فجأة بلهجة محايدة :
- ان الامر ، بكل تأكيد ، لا يبدأ هكذا حين يصبح الانسان

احمى

يقال ماتيو وهو يتسم :
- لا ، بالتأكيد . انت تذكرين ما قاله لك الطبيب في « لاون » :

انت مصابة بطرف من التهاب اللثة .
وكان يتكلم بعدوية ، وكان يتسم بعدوية ، وكان يشعر انه معلى
بالعدوية : كان ينبغي له وهو مع ايفيش ان يتسم دائماً ، وان يأتي
حركات عذبة وبطيئة . كدانيال مع قططه ،

وقالت ايفيش : - إن عيني " تؤلماني .. يكفني شيء تافه لذلك ...
(وترددت) اني ... اني اشعر بالالم في اعماق عيني . في صميم
اعماقها . الا يوجد هذا أيضاً في بدء ذلك الجنون الذي كنت تحدثني عنه ؟
فسألها ماتيو : - آه ! قصة ذلك اليوم ؟ اسمعي يا ايفيش : في
المرلة الاخيرة كانت القضية تتعلق بقلبك ، كنت تخافين من نوبة قلبية .
فيا لك من شخص عجيب ! لكأنك بحاجة الى تعذيب نفسك ، ثم
تصرحين فجأة ، في مرات اخرى ، انك رخصة العود ، فيجب ان
تختاري .

وكان صوته يخلف لديه ، في اعماق فه ، مذاق سكر .
وكانت ايفيش تنظر عند قدميها نظرة غامضة .
- لا بد ان يحدث لي شيء .

فقال ماتيو : - اعرف ذلك . ان خط حياتك قد انكسر . ولكنك
قلت لي انك لا تعتقدين ذلك حقاً .
- أجل لا اعتقد ذلك حقاً .. وهناك ايضاً اني لا استطيع ان
اتصور مستقبلي . انه مسلود .

وصمت فنظر اليها ماتيو في صمت . بلا مستقبل ... وفجأة احس في
فه جذاق مر ، وشعر بانه كان متعلقاً بايفيش بكل قواه . كان صحيحاً
انه لم يكن لها مستقبل : ايفيش في الثلاثين من عمرها ، ايفيش في
الاربعين ، ان ذلك لم يكن ذا معنى . وفكر : انها غير قابلة للحياة .
حين يكون ماتيو وحده ، او حين كان يتكلم مع دانيال ، مع مارسيل ،
كانت حياته تنبسط امامه واضحة رقيقة : بضع نساء ، بضع رحلات ،

بضعة كتب . منحدر طويل كان ماتيو يهبطه على مهل ، بل كان يجد غالباً ان ذلك لم يكن يمضي بسرعة كافية . وفجأة ، حين يرى ايفيش ، كان يخيل اليه انه يعيش كارثة . كانت ايفيش عذاباً صغيراً شهوانياً وفاجماً ليس له من غد : انها ستذهب ، ستصبح مجنونة . سموت بنوبة قلبية ، او ان اهلها سيحجزونها في « لاون » . ولكن ماتيو لم يكن يطيق ان يعيش من دونها . وتحركت يده حركة حيية : لقد ودّ لو يأخذ ذراع ايفيش فوق المرفق ويضمها بكل قواه . « اني اكره ان يمسي احد » وسقطت يد ماتيو . وقال بسرعة :

— ان « بلوزتك » جميلة جداً يا ايفيش .

وكانت هذه غلظة : حنت ايفيش رأسها بتصلب وربت على بلوزتها بهيئة ضيق . كانت تتلقى التهاني كأنها اهانات : وكان الامر كما لو ان صورة عنها كانت تُقدّم بضربات فأس ، صورة مشوهة وباهرة . كانت تخشى ان تؤخذ بها . كانت وحدها تستطيع ان تفكر بشخصها كما ينبغي . وكانت تفكر فيه بلا كلام ، وكان ذلك يقيناً صغيراً رقيقاً ، ملاطفة . ونظر ماتيو بذل الى كتفي ايفيش المنزليتين ، والى عنقها المستقيم المستدير . كانت غالباً ما تقول : « اني اشتمت من الاشخاص الذين لا يحسون اجسامهم . » وكان ماتيو يحس جسمه ، ولكنه يحسه على انه اقرب الى ان يكون حزمة كبيرة مربكة .

— اما زلت راغبة في رؤية صورة غوغان ؟
— اية صور ؟ آه ! المعرض الذي حدثني عنه ؟ حسناً ، بوسعنا ان نذهب اليه .

— لا يبدو عليك انك راغبة في ذلك .

— بلى .

— ولكن يجب ان تقولي ، يا ايفيش ، اذا لم تكوني راغبة في ذلك .

— ولكن انت راغب في ذلك .

— انت تعلمين اني سبق ان ذهبت اليه . وانا راغب في ان اريك اياه اذا كان ذلك يسرك . ولكن اذا لم تكوني حريصة على ذلك ، فانه لا يهمني .

— في هذه الحالة ، افضل ان اذهب اليه في يوم آخر .
قال ماتيو خائب الظن : — ولكن المعرض ينتهي غداً .
فقالت ايفيش بلهجة رخوة :

— فليكن ، لا بد ان يعاد هذا المعرض .. هذه المعارض تعاد ، ليس كذلك ؟

قال ماتيو بعنوبة حائقة :

— ها أنت ذي يا ايفيش . قولي انك لست راغبة بعد في رؤية المعرض ؛ انك تعرفين انه لن يعاد قبل مضي وقت طويل .
فقالت بلطف : طيب ، لا اريد ان اذهب اليه ، لان ذلك الامتحان قد خلف عندي الاشمتزاز . انه امر جهنمي ان يحملونا على انتظار النتائج هذه الفترة الطويلة .

— أليس موعد اعلانها غداً ؟

— تماماً .

واضافت وهي تلامس بطرف اصبعها كم ماتيو :

— يجب الالتم بسبي اليوم ، فلست بعد انا . اني متوقفة على الآخرين ، وهذا مذل . ان في ذهني طوال الوقت صورة ورقة صغيرة بيضاء ملصقة على جدار رمادي . انهم يفرضون عليك ان تفكر بذلك . حين نهضت هذا الصباح ، احسست بأني اصبحت في الغد ؛ اما اليوم فهو يوم لا جدوى منه ، يوم محذوف . لقد سرقوه مني ، ولم يبق لي شيء يذكر .

واضافت بصوت منخفض سريع :

— لقد فوتت اعداد درس علم النبات .

فقال ماتيو : - فهمت .

وود لو يجد في ذكرياته ضيقاً يتيح له ان يفهم ضيق ايفيش ، ربما كان ذلك عشية امتحان « الاغريغاسيون » ... كلا ؛ ان الامر لم يكن مشابهاً في اي حال . لقد عاش تلك الحالة هادئاً آمناً بلا اخطار . اما الآن ، فقد كان يحس انه رخص العود ، وسط علم مهدد ، ولكن ذلك كان عبرة ايفيش .

قالت ايفيش :

- اذا نجحت في الامتحان التحريري ، فسأشرب قليلاً قبل ان اذهب الى الشفهي .
فلم يحب ماتيو : ورددت ايفيش :
- قليلاً جداً .

- لقد قلت ذلك في شباط ، قبل ان تذهبي لتأدية الامتحان الشفهي ، وكان الأمر في آخر المطاف انك شربت اربعة اقداح من الروم ، وكنت ثمة تماماً .

قالت بلهجة مزيفة : - الحق اني لن انجح في التحريري .
- هذا مفهوم ، ولكن لفرض انك نجحت ؟
- لن اشرب عند ذاك .

ولم يلح ماتيو : كان على يقين مع انها ستقدم الى الامتحان الشفهي وهي ثمة : « ما كنت انا الذي افعل ذلك ، فقد كنت شديد الخلد . »
لو كان حاتقاً علي ايفيش ومشمترأ من نفسه . واتى الخادم بقدرح فملاءه الى النصف بالنعنع الأخضر .

- سأعطيك في الحال دلو الثلج .

فقالت ايفيش : - شكراً .

وكانت تنظر الى القدح ، وكان ماتيو ينظر اليها . وكانت رغبة حنيفة غامضة قد غمرته : ان يكون ، لمدة لحظة ، هذا الوصي المهووس الممتليء .

يراحته بالذات ، ان يشعر من الداخل بهاتين الذراعين الطويلتين الدقيقتين ،
ان يحس ، لدى الثنية ، بشرة الساعد تلتصق كالشفة ببشرة الذراع ،
ان يحس هذا الجسم وجميع القبلات الصغيرة المتحفظة التي يمنحها لنفسه
بلا انقطاع . ان اكون ايفيش دون ان اكف عن ان اكون انسا .
واخذت ايفيش اللدو من يدي الخادم ، ووضعت مكعب ثلج في
قدحها . وقالت :

- لم آخذه لأشرب ، وانما هو جميل المنظر .

وطرفت بعينها قليلاً ثم ابتسمت بسمة طفولية .

- انه جميل .

ونظر ماتيو الى القدح بغيظ ، وجهد في مراقبة تحرك المائع محركاً
كثيفاً مرتبكاً ، وبياض قطعة الثلج المعكر . وعشياً كان ذلك . كان
القدح في نظر ايفيش شهوة صغيرة لزجة خضراء تدبقتها حتى اطراف
اصابعها ؛ واما في نظره ، فلم يكن شيئاً . بل كان اقل من لا شيء :
قدحاً فيه نعيم . وكان بوسعه ان يفكر بما كانت تحسه ايفيش ، ولكنه
لم يكن يشعر بشيء قط ؛ كانت الاشياء في نظرها ألواناً من الحضور
الخائق الضالع في الذنب ، دوامات واسعة تحترقها حتى اللحم ، ولكن
ماتيو كان ينظر اليها دائماً عن بعد . ورمى اليها بنظرة وتنهد : لقد كان
متأخراً ، على مألوف عاداته ؛ ان ايفيش قد كفت عن النظر الى
القدح ؛ وكانت تبدو حزينة ، وكانت تضغط بعصبية على احلى
خصلات شعرها .

- اريد سيكارة .

وتناول ماتيو علبة « الغولد فلاك » من جيبه ؛ ومدها لها :

- سأشعلها لك .

- شكراً ، افضل ان اشعلها بنفسني .

وأشعلت السيكارة وسحبت منها بعض المجات . وكانت قد أدنت

يدها من فمها واخذت تتسلى - بهوس - بأن تركز الدخان في باطن
كفها . وأوضحت كأنما توضح لنفسها :
- اودّ لو كان الدخان كأنما يخرج من يدي . سيكون شيئاً ظريفاً :
يد تنفث الضباب .

- إن هذا لا يمكن . فاللدخان يسرع أكثر مما ينبغي .
- اعرف ذلك ، وهو ما يزعجني ، ولكني لا أستطيع ان اكف ،
اني احس نفسي يدغدغ يدي ، وهو يمرّ في الوسط تماماً ، فكأنها
مفصولة بجدار الى قسمين .

فضحك ضحكة قصيرة وصمت ، وكانت ما برحت تنفخ على
يدها مستاءة ، عنيدة . ثم ألقت بسيكراتها وهزت رأسها ؛ وبلغت
رائحة شعرها منخري ماتيو . وكانت رائحة حلوى وسكر معطر
بالونيلة ، لأنها كانت تغسل شعرها بصفار البيض ؛ ولكن عطر هذه
الحلوى كان يخلف مذاقاً شهوانياً .
وأخذ ماتيو يفكر في سارة . وسألها :

- بم تفكرين يا ايفيش ؟
فلبث لحظة فاغرة الفم ، مضطربة ، ثم استعادت هيأتها التأملية ،
فانغلق وجهها من جديد واحس ماتيو بأنه متعب من فرط النظر اليها ،
وكان يشعر بالألم في زاوية عينيه . وكرر سؤاله :

- بم تفكرين ؟
فانفضت ايفيش - : إنني ... إنك تسألني هذا السؤال طوال
الوقت ، انا لا افكر بشيء محدد . تلك هي امور لا يمكن قولها ،
فهي لا تتخذ شكلاً .

- ولكن مع ذلك ؟
- نعم ، كنت انظر مثلاً الى هذا الرجل القادم . ماذا يريدني أن
اقول ؟ يجب ان اقول له إنه سمين ، وهو يسمح جبينه بمسديل ،

ويرتدي ربطة عتق جاهزة ... انه طريف ان تفسرني على ان اسرد ذلك (قالتها فجأة بنجمل وغيظ) انه لا يستحق ان يقال .

— بلى ، بالنسبة لي ، لو كان بوسعي ان اتمنى شيئاً ، لتمنيت ان تكوني مضطرة الى التفكير بصوت عال .

وابتسمت ايفيش بالرغم منها وقالت :

— هذا اعتراف . ان الكلمة لم تُصنع لمثل هذا .

— هذا طريف ، فانت تكتنين للكلمة احتراماً يشبه احترام المتوحشين . فيبدو عليك الايمان بأنها لم تصنع إلا لاعلان الموتى والزيجات او للنطق بالقداس . والحق انك لم تكوني تنظرين الى الاشخاص ، يا ايفيش ؛ لقد رأيتك : كنت تنظرين الى يدك ، ثم نظرت الى قدمك . ثم اني اعرف بم تفكرين .

— ولماذا إذن تسألني عنه ؟ لا ينبغي للانسان ان يكون داهية ليحرره ، كنت افكر بذلك الامتحان .

— انت تخافين ان تسقطي ، أليس كذلك ؟

— طبعاً ، أخاف ان اسقط . او بالاحرى لا . لست خائفة . فأنا

اعلم اني ساقطة .

واستشعر ماتيو في فمه من جديد مذاق كارثة . اذا سقطت فلن أرها بعد . وستكون ساقطة بالتأكيد : إن هذا امر بديهي .

وقالت ايفيش يائسة :

— اني لا أريد العودة الى « لاون » . فاذا عدت اليها وأنا ساقطة

فلن اخرج منها ابداً . لقد قالوا لي إن هذه هي فرصتي الأخيرة .

وعادت تضغط خصلات شعرها . وقالت مترددة :

— لو كانت لدي شجاعة ...

فقال ماتيو قلقاً : ماذا كنت تفعلين ؟

— اي شيء . كل شيء ولا العودة الى هناك . إنني لا اريد ان

اقضي حياتي هناك ، لا اريد .
- ولكن سبق ان قلت لي ان اباك ربما باع المنشر قبل عسام او
عامين ، وان الجميع سيأتون للاقامة في باريس .

قالت ايفيش وهي تدير اليه عينين تقدهان شرر الغضب :
- تطلبون مني مزيداً مع الصبر ! هكذا انتم جميعاً . ووددت لو
رأيتكم هناك ! عامان في ذلك الكهف ، أصبر عامين 19 الا يمكنك ان
تضع في رأسك انهم انما يسرقون مني عامين ؟
واضافت بغضب :

- ليست لي الا حياة واحدة . ان من يسمعك تتكلم على هذا النحو
يظن انك تعتقد نفسك خالداً . ان عاماً ، في نظرك ، يمكن ان يعوض ا
(وطفرت الى عينيها الدموع) ليس صحيحاً ان هذا يعوّض .. ان
شابني هو الذي يفرّ هناك قطرة قطرة . اني اريد ان اعيش على
التو ، فأنا لم ابدأ وليس لي وقت للانتظار ؛ لقد بدأت اشيخ ، فانا
في الحادية والعشرين .

قال ماتيو : - ارجوك يا ايفيش ، انك تخيفيني . حساولي مرة
واحدة على الاقل ان توضح لي كيف نجحت في اعمالك التطبيقية .
انت تارة مسرورة وتارة يائسة .

فقالت ايفيش بلهجة كثيفة : - لقد سقطت في كل شيء .

- كنت اظن انك نجحت في الفيزياء .

فقالت ايفيش بسخرية :

- ماذا تقول ! ثم ان الكيمياء كانت تدعو الى الرثاء . اني لا

استطيع ان أحشو رأسي بمقادير الجرعات ... فما أقسى ذلك !

- ولكن لماذا اخترت ذلك ؟

- ماذا ؟

- الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة .

فقال بلهجة متوحشة :

— كان لا بد من الخروج من (لاون) .

فأثنى ماتيو بحركة عجز ، وصمتا . وخرجت امرأه من المقهى ومرت مستمهلة أمامها . وكانت جميلة ، ذات أنف صغير جداً في وجه املس ، وكان يبدو عليها أنها تبحث عن انسان . وبلغ عطرها أنف ايفيش : فرفعت رأسها الكئيب على هيئة ثم رأتها فتغيرت سحتها . وقالت بصوت منخفض عميق : — يا للمخلوقة الرائعة !

ففر ماتيو من هذا الصوت .

وجمدت المرأة وهي تطرف بعينيها للشمس ؛ وكان عمرها يقدر بالخامسة والثلاثين ، وكانت ساقاها الطويلتان يشف عنهما نسيج ثوبها الخفيف ؛ ولكن ماتيو لم يكن راغباً في رؤيتها ، وإنما كان ينظر الى ايفيش . وكانت ايفيش قد اصبحت قبيحة تقريباً ، وكانت تضغط بقوة يديها فيما بينها . لقد قالت لماتيو ذات يوم : « ان الأنوف الصغيرة ترغبتني في عضتها . » وانحنى ماتيو قليلاً فرأى ثلاثة ارباع وجهها ؛ وكانت تبدو مستنيفة قاسية ، ففكر بأنها كانت راغبة في ان تعض . وقال ماتيو بعذوبة : — ايفيش .

فلم تجب ، وكان ماتيو يعلم أنها لا تستطيع ان تجيب : فهو لم يكن موجوداً بعد في نظرها ، وكانت وحيدة .

— ايفيش !

في مثل هذه اللحظات كان يشعر بأنه اشد تعلقاً بها ، حين تسكن جسمها الصغير اللذيذ الذي يكاد يتصنع اللطافة قوة اليمسة ، حباً للجمال ملتهب معتكر ، فاقد الرونق . وفكر : لست جميلاً ؛ وأحسن بدوره انه وحيد .

وذابت المرأة . وتبعثها ايفيش بعينيها وتمتمت بسورة عن

الغضب :

— هناك لحظات اودّ فيها لو كنت رجلاً .
وندتّ عنها ضحكة صغيرة جافة ، ونظر اليها ماتيو بحزن . وصاح
الخدم :

— السيد دولارو مطلوب على التلفون .
فقال ماتيو : — هأنذا .

ونهمض :

— اعذرني . انها ساره غوميز .
فابتسمت له ايفيش ببرودة ؛ ودخل المقهى وهبط الدرج .
— السيد دولارو ؟ الحجرة الاولى .
وتناول ماتيو السماعة ، ولم يكن باب الحجرة يتغلق .
— آلو ، ساره ؟

فقال صوت ساره المغنّ :

— مرحباً مرة اخرى . لقد سُوي الأمر .
— آه ، اني مسرور .

— ولكن يجب ان تعجل : انه مسافر يوم الأحد الى الولايات
المتحدة . وهو يريد ان يجري ذلك بعد غدٍ على الأبعد ؛ ليكون لديه
الوقت لمراقبتها قليلاً في الأيام الاولى .

— حسناً ... إذن سأخبر مارسيل هذا اليوم بالذات . غير انه يفاجئني
بعض الشيء ، فيجب ان اجد المال . كم هو يريد ؟
فقال صوت ساره :

— آه ! اني متأسفة . هو يريد أربعة آلاف نقداً . واقسم لك اني
المحنت ، وقلت انك كنت متضايقاً ، ولكنه لم يرد ان يعرف
شيئاً .

وأضافت وهي تضحك : — انه يهودي قدر !
وكانت ساره تفيض شفقة مكتومة ، ولكنها حين تبادر الى تأدية

خدمة ما ، تصبح متوحشة ومنشغلة كأخت من اخوات الإحسان . وكان ماتيو قد أبعد السماعة قليلاً ، وكان يفكر : اربعة آلاف فرنك ، ثم يسمع ضحكة ساره تفرقع على القطعة الصغيرة السوداء ؛ لقد كان ذلك كابوساً .

— من هنا الى يومين ؟ حسناً... سوف .. سوف اتدبر الأمر ، شكرآ يا ساره ، إنك جوهرة . هل ستكونين في البيت هذا المساء ، قبل العشاء ؟

— طوال النهار .

— حسناً . سأمر . هناك شؤون اخرى يجب تسويتها .

— الى هذا المساء .

— وخرج ماتيو من الحجره .

— اريد قسيمة للتلفون يا آنسة . اوه ! ولكن لا ، لا حاجة بي الى ذلك .

ورمى عشرين فلساً في صحن ، ورفى الدرج على مهل . لم تكن به حاجة الى الاتصال بمارسيل قبل ان يسوي قضية المال هذه . « سأذهب ظهراً للقاء دانيال » وعاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر اليها بلا حنان . وقالت بلطف :

— لقد ذهب عني الصداق .

فقال ماتيو : — اني مسرور بذلك .

وكان قلبه مليئاً بالسخام .

ونظرت اليه ايفيش من جانب ، عبر اهدابها الطويلة . وابتسمت بسمة مختلطة ملاطفة .

— بوسعنا .. بوسعنا مع ذلك ان نذهب لرؤية معرض غوغان .

فقال ماتيو بلا اندهاش : — كما تشائين .

ونهبضا ، ولاحظ ماتيو ان قدح ايفيش كان فارغاً . وصاح :

— تاكسي .
قالت ايفيش : — ليس هذا التاكسي .. انه مكشوف وسيكون الهواء
في وجهينا .

فقال ماتيو للسائق : — لا ، لا ، تابع سيرك ، فاني لم اكن
انا ذك انت .

وقالت ايفيش : — اوقف هذا التاكسي ، انظر ما اجمله ! لكأنه
عربة القربان المقدس ! ثم انه مغلق .

وتوقف التاكسي فصعدت ايفيش . وفكر ماتيو : « سوف اطلب
الف فرنك زيادة من دانيال ما دمت سأستدين منه ، ان ذلك يتيح لي
الاتفاق حتى آخر الشهر . »

— غاليري ديبوزار ، شارع سانت اونوريه .
وجلس صامتاً بالقرب من ايفيش . وكانا متزعجين ، كلاهما .
ورأى ماتيو ، بين قدميه ، ثلاث سكاير محترقة الى النصف ، ذات
اطراف مذهبة .

— كان في هذا التاكسي من كان نائر الاعصاب .
— ولماذا ؟

فأراها ماتيو السكاير . وقالت ايفيش :

— انها امرأة . فهناك آثار حُمرة :

فابتسما وصمتا . وقال ماتيو :

— ذات مرة ، وجدت في تاكسي مئة فرنك .

— ولا بد انك سررت بذلك .

— اوه ! ارجعتها الى السائق .

قالت ايفيش : — عجباً ! لو كنت انا ، لاحتفظت بها . فلماذا

فعلت ذلك ؟

فقال ماتيو : — لا ادري .

وعبر التاكسي ساحة سان ميشال ، وكان ماتيو يقول : « انظري
ما اشد اخضرار السين » ولكنه لم يقل شيئاً . وقالت ايفيش فجأة :
- كان بوريس يفكر باننا سنذهب ثلاثتنا هذا المساء الى « سومطرا » ؛
اود لو ...

وكانت قد لفتت رأسها ، وكانت تنظر الى شعر ماتيو وهي تمد
فها بصورة رقيقة . ولم تكن ايفيش متدلة بالذات ، ولكنها كانت تتخذ
بين الفينة والفينة هيئة حنان رغبة منها بان تحس وجهها ثقيلًا عذباً
كالشجرة . وحكم ماتيو عليها بأنها مزعجة وغير لائقة . وقال :
- يسرني ان ارى بوريس وان اكون معك ، غير ان ما يزعجني
قليلاً هو وجود لولا كما تعلمين . انها لا تستطيع ان تهضمني .
- وماذا في ذلك ؟

وساد صمت ، كأنهما قد تمثلا في وقت واحد انها كانا رجلاً
وامرأة ، مسجونين معاً في تاكسي . وقال لنفسه بانزعاج « ينبغي الا
يكون ذلك . » واستطردت ايفيش :

- لا ارى ان لولا تستحق ان يُهتم بها . انها جميلة وهي تفسي
جيداً ، وهذا كل ما في الامر .

- اني اجدها قريبة للنفس .

- طبعاً . ان هذه هي اخلاقتك . انت تريد دائماً ان تكون كاملاً ،
فما ان يزدريك الناس حتى تجهد لاكتشاف مزايا لديهم . (وازافت)
اني لا اجدها قريبة للنفس .

- ولكنها لطيفة معك .

- لا يسعها ان تكون غير ذلك ، ولكني لا احبها ، فهي تمثل .

فرفع ماتيو حاجبيه وقال : - تمثل ؟ ان هذا هو آخر شيء آخذ
عليها .

- من الغريب انك لم تلاحظ ذلك : انها تطلق تنهدات اكبر منها

ليظن الناس انها يائسة . ثم تطلب لنفسها الطعام اللدسم .
واضافت بحبث خفي :

• - لقد كنت اظن ان اليائسين لا يبالون كثيراً بان يموتوا : ويدهشني
دائماً ان اراها تحسب نفقاتها فلساً فلساً وتوفر المال .

- ان هذا لا يمنع ان تكون يائسة . فكذلك يفعل البشر الذين
يشيخون : حين يشمرون من انفسهم ومن حياتهم ، يفكرون بالمال
ويعنون بانفسهم .

فقلت ايفيش بحفاف :

- اذن ، ينبغي الا يشيخ المرء ابداً .

فنظر اليها نظرة ضيق وسارع بضيف :

- انت على حق ، فليس جميلاً ان يشيخ المرء .

قالت ايفيش : - اما انت ، فليست لك سن ، ونحيطل الي انك
كنت دائماً كما كنت ؛ انك تتمتع بشباب الجهاد . واحاول احياناً ان
اتصور كيف كنت في طفولتك ، ولكن يعجزني ذلك .

فقال ماتيوي : - كانت لي خصلات شعر .

- اما انا ، فأتصور انك كنت كما انت اليوم ، اقصر قليلاً .

ولا بد ان ايفيش لم تعرف هذه المرة أنها كانت تبدو رقيقة . وشاء
ماتيوي ان يتكلم ولكن كان في حنجرتة لون غريب من اللدغدة ، وكان
خارج نفسه . كان قد حلف وراءه مارسيل وساره وممرات مستشفى
لا تنتهي كان يعبرها منذ الصباح ، لقد كف عن ان يكون في اي
مكان ، وكان يشعر بانه حر ؛ وكان هذا النهار الصيفي يلامسه بكتلته
الكثيفة الحارة ، وكانت به رغبة لان يستلم له بكل ثقله . ونحيطل اليه
لحظة اخوى انه كان مطلقاً في الفراغ ، مع احساس بالحرية لا يحتمل ،
ثم مد ذراعه فجأة ، فأخذ ايفيش من كتفيها وجلبها اليه . وتركته
ايفيش يفعل وهي متصلبة ، كتلة واحدة ، كما لو انها كانت تفسد

توازنها . ولم تقل شيئاً ، وكان يبدو عليها مظهر الحياء .

وكان التاكسي قد سلك شارع ريفولي ، وكانت قناطر اللوفر تتطاير ثقيلةً عبر الزجاج ، كأنها حمامات كبيرة . وكان الطقس حاراً ، وكان ماتيو يحس جسماً حاراً في جنبه ؛ وعبر المرأة الأمامية كان يرى أشجاراً وعلماً مثلث الألوان في رأس صار . وتذكر حركة رجل رآه مرة في شارع « موفتار » . رجل انيق المظهر ، ذي وجه رمادي ، وكان قد اقترب من مقلاة في الطريق ، فنظر طويلاً الى قطعة من لحم بارد موضوعة في صحن ، حيث تعرض المآكل ، ثم مد يده وتناول قطعة اللحم ؛ وكان يبدو عليه انه يجد ذلك في غاية البساطة ، فلا بد انه كان يشعر بأنه هو أيضاً حر . وقد صاح البائع ، فاستاق شرطي ذلك الرجل الذي كان يبدو مندهشاً . وظلت ايفيش على صمتها .

وفكر ماتيو بغیظ « انها تدينني » .

وانحنى ؛ ولكي يعاقبها ، لامس بطرف شفنيه فماً بارداً ومغلقاً ؛ وكان مصدوماً . وظلت ايفيش صامتة . وحين رفع رأسه رأى عينيهما فتلاشت فرحته الطاغية . وفكر : « رجل متزوج يداعب فتاة في تاكسي » وسقطت ذراعه ، ميةً ، متزغرة . وانتصب جسم ايفيش في نوسان آلي كرقاص أبعد عن موضع توازنه . وقال ماتيو في نفسه : « انتهى الامر . ولا مجال بعد لإصلاحه » . وكان يكور ظهره ، وكان يود لو يذوب . ورفع شرطي عصاه ، فتوقف التاكسي . وكان ماتيو ينظر امامه باستقامة ، ولكنه لم يكن يرى الشجر ؛ كان ينظر الى حبه .

كان ذلك حباً . انه الآن حب . وفكر ماتيو : « ماذا فعلت ؟ »

لحمس دقائق خلت ، لم يكن ذلك الحب موجوداً ؛ كان بينها عاطفة نادرة وثمينة ، لم يكن لها اسم ، ولم تكن تستطيع ان تعبر عن نفسها بالحركات . وهو قد قام بحركة ، الحركة الوحيدة التي ما كان ينبغي له ان يقوم بها - والحق انه لم يتقصدها ، وانما جاءت من تلقاء نفسها :

حركة ظهر هذا الحب بعدها امام ماتيو، كشيء ضخم مزعج ومبتذل .
ستفكر ايفيش بعد الآن بأنه كان يحبها ، وستفكر : انه كالأخرين ؛
بعد الآن سيحب ماتيو ايفيش، كسائر النساء اللواتي احبهن . « ما الذي
تفكر به ؟ » كانت جالسة الى جانبه متصلبة صامته ، وكانت هذه
الحركة بينها ، اني اكره ان يمسي احد، هذه الحركة الحرقاء الرقيقة ،
التي كانت قد اكتسبت عناد الاشياء الماضية ، ذلك العناد الذي لا
يلمس . « انها تغلي غضباً، انها تحقرني ، انها تفكر بأني كالأخرين . »
وفكر بيأس : ليس هذا ما كنت ابغيه منها . ولكنه لم ينجح في ان
يتذكر ما الذي كان يريدته قبلاً . كان الحب هناك ، صادقاً غاصاً ،
برغباته البسيطة ومسالكة المبتدلة ، وكان ماتيو هو الذي ولده حراً كل
الحرية . وفكر بقوة : « ليس هذا صحيحاً ، فأنا لا اشتبهها ، ولم
اشتبهها قط . » ولكنه كان مدركاً انه سيشتبهها ، فأن الامور كلها
تنتهي هناك . سوف انظر الى ساقها والى صدرها، ثم .. ذات يوم ...
ورأى فجأة مارسيل متمددة على السرير ، عارية كلها، مغمضة العينين :
كان يكره مارسيل .

وكان التاكسي قد توقف ، وفتحت ايفيش الباب وهبطت الى
الأرض . ولم يتبعها ماتيو على التو : كان يتأمل بعين صريحة هذا الحب
الجديد كل الجدة ، والقديم مع ذلك ، هذا الحب لدى رجل متزوج ،
خجول ومداور ، هذا الحب المذل لها ، الدليل مسبقاً ، وكان يتقبله
كأنه قدر . وهبط اخيراً ، فدفغ ولحق بايفيش التي كانت تنتظره .
تحت الباب الكبير . « ليثها تستطيع ان تنسى . » ورمى اليها بنظرة
عجلى فألقى القسوة على وجهها . وفكر : « اذا وضعنا الأمور في
افضل مواضعها نرى ان شيئاً ما قد انتهى بيننا . » ولكن لم تكن لديه
رغبة بالامتناع عن حبها . ودخلا المعرض من غير ان يتبادلا كلمة .

« الملك الأعظم ! » ثناءت مارسيل ، واستوت قليلاً ، ونفضت رأسها ، وكانت اول فكرة لها : « إن الملك الأعظم يأتي هذا المساء . » وكانت تحب زيارته العجيبة ، ولكنها كانت ذلك اليوم ، تفكر بها من غير سرور . كان في الجوّ حولها هولٌ ثابت ، هولٌ ظُهريّ : وكانت حرارة متدرّجة تملأ الغرفة ، وكانت قد قامت بمهمتها في الخارج ، وخلّفت إشراقها في ثنايا الستار وأسنت هناك ، جامدة كشيبة كأنها قدر . « لو كان يدري ، ما أشدّ نقاوته ، انني سوف أنفّره . » وكانت قد جلست على حافة السرير ، كالليلة البارحة ، حين كان ماتيو عارياً ازاءها ، وكانت تنظر الى أصابع رجله باشمزاز ضجر ، وكانت عشية الامس ما تزال هنا ، دقيقة جداً ، بنورها الوردى الميت ، كأنها رائحة قد بردت « لم استطع ... لم استطع ان اقول له . » وكان يمكن ان يقول : « حسناً ! ستدبر الأمر ! » بلهجة حيّة مرحة ، وكأنه يلتهم عقاراً . وكانت تعلم انها ما كان لها ان تحتمل هذا الوجه ؛ وقد بقي ذلك في حنجرتها . وفكرت : « الظهر ! » وكان السقف رمادياً كالنجر الكاذب ، ولكن الحرارة كانت حرارة ظهريّة . وكانت مارسيل تنام متأخرة ولا تعرف بعدُ

الأصباح ، وكان يَحْيَل إليها أحياناً أن حياتها قد توقفت ذات يوم ظهراً ،
وانها كانت ظهراً ابدياً مسترخياً على الأشياء ، ممطراً ، وبسلا أمل ،
وغير مجد الى حد بعيد . وفي الخارج ، كان النهار المشرق ، والتبرج
المنبسط . كان مَاتيو يسير في الخارج ، في النثار الحيّ المرح لذلك
النهار المبتديء بدونها ، والذي كان قد أصبح له ماضٍ . وفكّرت
بغير شعور صداقة : « إنه يفكر بي . انه ينشغل » وكانت منزعة
لأنها كانت تتخيل تلك الشفقة القوية تحت الشمس المشرقة ، شفقة
الانسان السليم المنهمكة المرتبكة . كانت تحسّ انها بطيئة لزجة ،
ما تزال ملطّخة بآثار النوم ، كانت على رأسها تلك القبعة النحاسية ،
وفي فيها مذاق نشافة ، وفي جانبها ذلك الدفء ، وتحت ذراعها ،
في رأس الشعيرات السود ، تلك الجواهر من البرد . وكانت بها
رغبة للتقيؤ ، ولكنها كانت تهاسك : إن نهارها لم يبدأ بعد ، إنه
هناك ، رابضٌ تجاه مارسيل ، في توان غير مستقرّ ، وإن اية حركة
ستجعله ينهار كما يتهافت الثلج . وأخذتها ضحكة قاسية : « حريته ! »
حين يستيقظ المرء في الصباح ، معتكر القلب ، وامامه خمس عشرة
ساعة يقتلها قبل ان يتمكن من العودة الى النوم ، فاذا يجديه ان يكون
حرّاً ؟ « إن الحرية لا تعين المرء على الحياة » وكانت ريشات صغيرة
دقيقة مطلية بالمقرّ تداعب أعماق حنجرتها ، ثم إن نفوراً من كل شيء
تجمع كتلة على لسانها ، كان يشدّ شففتها الى خلف . « اني محظوظة ،
فيبدو ان هناك نساء يتقيّان طوال النهار ، في الشهر الثاني ؛ اما انا ،
فأتيء قليلاً في الصباح ، وأجدني بعد الظهر متعبة ، ولكنني أظل
صامدة ؛ وقد عرفت امي نساء لم يكن يطقن رائحة التبغ ، وليس
ينقصني بعد غير هذا . » ونهضت فجأة وهرعت الى المغسلة ، فقادت
ماء مزبدأعكراً يشبه بياض بيضة مخفوقة قليلاً . وتشبثت مارسيل بطرف
المغسلة الحزفية ونظرت الى المائع المنتفخ بالهواء : انه في نهاية المطاف

يشبه النبي . وراودتها بسمه صفراء وتمت « ذكرى حب » . ثم ساد صمت معدنيّ كبير في رأسها وابتدأ نهارها . ولم تكن تفكر بعد في شيء ، فأمرت يدها في شعرها ، وانتظرت : « اني في الصباح اقيء دائماً مرتين » ثم تمثلت فجأة وجه ماتيو ، وهيته الساذجة المقتنعة حين قال : هل نجھضه ؟ واخترقها برق من الحقد .

واقرب القبيء . وفكرت اولاً بالزبدة فأخذها الاشمزاز ، وكان يخيل اليها انها تمضغ قطعة من الزبدة صفراء ونامسة ، ثم أحسّت بما يشبه ضحكة كبيرة داخل حنجرتها . فانحنت فوق المغسلة . وكان خيط طويل يتدلى من شفيتها ، وكان لا بدّ لها من ان تسعل لتخلص منه . ولم يكن ذلك ينفّرهما . ومع هذا ، فقد كانت سريعة في النفور من نفسها : فحين اصيبت في الشتاء الماضي بالإسهال ، لم تكن تريد ان يمستها ماتيو بعد ، وكان يخيل اليها طوال الوقت انها كانت ذات رائحة . ونظرت الى البلغم الذي كان يتسرب على مهل الى ثقب التفرغ ، تاركاً آثاراً ملتزمة لزجة كأنها البزاق . وقالت بصوت منخفض : « طريف ! طريف ! » ولم يكن ذلك ينفّرهما : لقد كان هذا من الحياة ، كتبرعات الربيع اللزجة ؛ لم يكن ذلك ابعث على النفور من النسغ الأحمر الزكيّ الذي يطلي البراعم . « ليس هذا ما ينفّر » وأجرت قليلاً من الماء لتنظيف الطست ، ونزعت قيصها بحركات رخوة . وفكرت : « لو كنت حيواناً لتركوني وشأني » وكان بوسعها ان تستسلم لهذا الاسترخاء الحيّ ، وأن تستحمّ فيه كما لو انها وسط تعب كبير سعيد . انها لم تكن حيواناً . « هل نجھضه ؟ » انها تشعر ، منذ عشية الأمس ، بأنها كانت مطاردة .

وكانت المرآة تعكس صورتها محاطةً باشعاعات رصاصية . واقتربت منها ، ولم تنظر الى كتفيها ولا الى نهديها . انها لم تكن تحب جسمها . ونظرت الى بطنها ، والى حوضها الواسع الخصب . لسبع سنوات

خلت ، ذات صباح - وكان ماتيو قد قضى الليل معها ، وكانت هي المرة الاولى - كانت قد اقتربت من المرأة بهذا الاندهاش المتردد نفسه ، وكانت آنذاك تفكر : « صحيح اذن ان بوسع المرء ان يحب ! » وكانت تتأمل بشرتها الملساء الحريرية ، كأنما هي قطعة نسيج ، ولم يكن جسمها الا سطحاً مجعولاً ليعكس العباب النور العميقة وليتغضن تحت الملامسات ، كالماء تحت الريح. انها لم تكن اليوم تلك البشرة نفسها : كانت تنظر الى بطنها فتجد لزاء غزارة هذه البراري الغذائية الهادئة إحساساً سبق ان راودها اذ كانت صغيرة وهي ترى اثناء النساء اللواتي كن يرضعن اولادهن في حديقة الكسمبورغ : فقد كان وراء الحرف والاشمزاز ، نوع من الأمل . وفكرت : « انه هنا » في هذا البطح كانت حبة فريز دموية صغيرة تعجل لتحميا ، في سرعة بريئة ، حبة فريز دموية بليدة كل البلادة لم تبلغ بعد ان تكون حيواناً ، وسيستوطنها بطرف سكين . « هناك اخريات ، في هذه الساعة ، ينظرن الى بطونهن ويفكرون ايضاً : انه هنا . ولكن هؤلاء فخورات . » وهزت كتفيها : اجل ، انه مجعول للامومة ، هذا الجسم الذي كان يفتح بكيفية غير معقولة . ولكن الرجال قد قرروا في ذلك شأناً آخر . سوف تقصد تلك العجوز : لم يكن لها الا ان تتخيل انه ورم ليفي . « والحق انه في هذه الساعة ليس الا ورماً ليفياً » ستقصد العجوز ، وسترفع ساقها في الهواء وسوف تحك العجوز بآلتها ما بين فخذها . ثم يكف الحديث عن ذلك الى الابد . ولا يكون بعد الا ذكرى مقبلة يملك جميع الناس أمثالها في الحياة . وستعود الى غرفتها الوردية ، وستستأنف القراءة ، والتأمل في الاحشاء ، ويستمر ماتيو في رؤيتها اربع ليالٍ في الاسبوع ، وسيعاملها فترة اخرى بلطف ورقة ، كأمر صغيرة ، وحين يضاعفها يضاعف احتياطاته ، وسوف يأتي ايضاً دانيال ، دانيال الملاك الاعظم ، بين فترة واخرى ... ماذا ! انها فرصة قد فاتت ... وفاجأت عينيها

في المرأة ، وانفتلت بحيوية : انها لم تكن تريد ان تكسره ماتيو .
وفكرت : « لقد آن لي ان ابدأ زيني » .

ولكنها لم تكن تملك الصبر على ذلك . فعادت تجلس على السرير ،
ووضعت يدها بعدوبة على بطنها، فوق الشعيرات السود تماماً ، وضغطت
قليلاً ، لا اكثر مما ينبغي ، وفكرت بشيء من الحنان : « انه هنا »
ولكن الكره لم يكن لينهزم . وقالت لنفسها في حرص : « لا اريد ان
اكرهه . انه على حق . فلقد تعاهدنا انه في حال حدوث ... ولم يكن
يستطيع هو ان يعرف . انها غلطي ، فأنا لم اقل له شيئاً قط » وحسبت
ذات لحظة ان نفسها ستنفرج ، فهي لم تكن تخشى شيئاً كأن تحقره .
ولكنها ما لبثت ان انتفضت : « وكيف كان لي ان اخبره ؟ انه لا
يسألني عن شيء ابدأ . » طبعاً: لقد تعاهدا مرةً والى الأبد ان يتكاشفا
كل شيء . ولكن هذا كان مناسباً له خصوصاً . كان يجب خاصةً
ان يتحدث عن نفسه ، ان يعرض حالاته الضميرية الصغيرة ، ودقائقه
الاخلاقية . اما مارسيل فقد كانت تثق به : بدافع الكسل . ولم يكن
يتبرم من اجلها ، وكان يفكر : لو كانت تشكو شيئاً لأبأتني .
ولكنها لم تكن تستطيع ان تتكلم : ان ذلك لم يكن يخرج من فمها .
« يجب ان يعرف مع ذلك ، اني لا استطيع ان اتحدث عن نفسي ،
فأنا لا احب نفسي بما فيه الكفاية لأتحدث عن نفسي . » الامع دانيال ،
فقد كان دانيال يعرف كيف يحملها على الاهتمام بنفسها : فما كان
الطف طريقته في سؤالها ، وفي النظر اليها بعينيها الجميلتين المداعبتين ،
ثم انه كان بينها سر . فما كان اعجب دانيال : كان يراها بالخفية ،
وكان ماتيو يجهل كل شيء عن علاقتها؛ ولم يكونا يفعلان شيئاً ضاراً ،
بل كان ما بينها شبه لعبة ، ولكن هذا الصلوع كان يخلق بينها صلة
لذيذة وخفية؛ ثم ان مارسيل لم يكن ليؤذيها ان يكون لها شيء من الحياة
الشخصية ، شيء يكون حقاً ملكها ، ولا تكون مضطرة الى مشاركة

احد فيه . وفكرت : « ليس له الا ان يفعل كدانيال . لماذا لا يكون هناك احد غير دانيال يستطيع ان يحماني على الكلام ؟ ليتني ساعدني قليلاً ... » لقد احست طوال نهار امس بانقباض في حلقها ، وكانت تود لو تقول له : « وماذا لو احتفظنا به ؟ » آه ! ليتني تردد ، ولو لحظة ، اذن لقلت له ذلك . ولكنه جاء ، واتخذ مظهره الساذج : « ألا نجبهضه ؟ » ولم يستطع ذلك ان يخرج من فيها . « كان قلقاً حين خرج : انه لم يكن يريد ان تهدمني تلك المرأة . هذا صحيح : سوف يبحث عن عناوين ، وسيشغله ذلك ، الآن وقد انتهت اعماله التدريسية ، وهذا خيرٌ له من ان يتسكع مع تلك الصغيرة . ثم انه قد ارتبك كمن كسر اناءً من فخار . ولكن ضميره ، في صميمه ، مرتاح كل الراحة ... ولا بد انه عاهد نفسه على ان يملأني حباً . » وضحكت ضحكة قصيرة : « لا بأس . غير ان عليه ان يعجل : فعسا قليل سأتجاوز سن الحب . »

وشنجت يديها على القماش ، وكانت مذعورة : « اذا بدأت احقره ، فماذا يبقى لي ؟ » ولكن ، هل كانت تعلم ان كانت تريد طفلاً ؟ كانت ترى من بعيد ، عبر المرأة ، كتلة مظلمة متراخية بعض الشيء : وكان ذلك جسمها ، جسم السلطانة العقيم . « ولكن أتراه كان حقاً سيعيش ؟ اني متهرثة . » سوف تقصد هذه العجوز ، متخفية في الليل . وستمر العجوز يدها في شعرها ، كما أمرتها في شعر « اندريه » ، وتناديها بلهجة ضلوع قدرة : يا قطي الصغيرة : « حين لا تكون المرأة متزوجة ، فأن حبها مُربكٌ كالسيلان . انني مصابة بمرض جنسي . هذا ما ينبغي ان اقوله لنفسي . »

ولكنها لم تستطع الامتناع عن ان تمر يدها متمهلة على بطنها . وفكرت : انه هنا . هنا . شيء حي قليل الحظ مثلها . حياة نافلة ، ولا معقولة ، كحياتها ... وفكرت فجأة في هوس : « مها يكن ، فإنه كان سيكون

لي ، حتى ولو كان ابله ، ولو كان مشوهاً ، كان سيكون لي «
ولكن هذه الرغبة الخفية ، وهذا القسم الغامض ، كانا من التوحيد
وطاقتة الكتمان ، وكان ينبغي اخفاؤهما على كثير من النساء ، بحيث
أحست فجأة بأنها مذنبه ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها .

كانت تُرى أولاً فوق الباب لافتة « ج. ف » والاعلام المثلثة الألوان : وكان هذا ينبىء فوراً بالموضوع . ثم كان المرء يلج الصالونات الكبيرة الخالية ، ويغرق في نور اكاديمي كان يسقط من شبّاك قد زال صقله : وكان ذلك يدخل عينيك مذهّباً ، ثم يأخذ في الذوبان ، ويصبح رمادياً . جدران مشرقة ، وبُسُط من المخمل البيج . وفكر ماتيو : « الروح الفرنسية . » حمام من الروح الفرنسية . وكان هناك مثله في كل مكان ، على شعر ايفيش ، وعلى يدي ماتيو : كانت تلك الشمس المنقّاة وصمت هذه الصالونات الرسمي ؛ وأحس ماتيو بأنه مرهق بغمامة من التبعات المدنية : كان ينبغي ان يتحدث المرء بصوت منخفض ، وألاً يمس الأشياء المعروضة ، وان يمارس باعتدال ، ولكن بحزم ، حسّه النقدي ، وألاً ينسى في اي حال أوفر الفضائل «فرنسية» : الانسجام . وبعد هذا ، طبيعي ان يكون على الجدران لطحات ، هي اللوحات ، ولكن ماتيو كان قد فقد كل رغبة في النظر اليها . ومع ذلك ، فقد اقتاد ايفيش ، وأراها ، من غير أن يتكلم ، منظرأ من مناظر « بريتاني » مع تل نصب عليه صليب ، ومسيحاً على صليب ، وبقا ، وامرأتين من تاهيتي راكعتين على الرمل ، وجماعة من الفرسان

الماوريس . ولم تكن ايفيش تقول شيئاً ، وكان ماتيو يتساءل عما عساها تفكر به . وكان يحاول احياناً ان ينظر الى اللوحات ، ولكن ذلك لم يكن ينتج شيئاً . وفكر بانزعاج : « اللوحات امرٌ لا يأخذك ، انها تعرض نفسها ؛ ووجودها او عدم وجودها متوقف عليّ ، فأنا حرٌّ ازاءها . » حرٌّ اكثر مما ينبغي : لقد كان ذلك يخلق له حرية اضافية ، وكان يحس نفسه في الزيف . وقال :

- هذا هو غوغان .

وكانت لوحةً صغيرةً مربعةً وعليها عنوان « صورة الفنان، بريشته » غوغان ممتقع مسرّح ، ذو ذقن ضخمة ، وهيئة ذكاء مبتذل وعبوس صبي . ولم تجب ايفيش فرمى ماتيو اليها نظرة خفية : فلم ير إلا شعرها الذي كان يريق النهار الكاذب قد اذهب لمعانه الذهبي . وكان ماتيو ، حين نظر الى هذه الصورة للمرة الاولى في الاسبوع السابق ، قد وجدها جميلة . اما الآن ، فهو يستشعر الجفاف . والحق انه لم يكن يرى اللوحة : فقد كان ماتيو ممثلاً حتى درجة الإشباع بالواقع والحقيقة ، مرتعد الفرائص بروح الجمهورية الثالثة ؛ وكل ما كان واقعياً ، كان يراه ، وكان يرى كل ما يمكن ان يوضح هذا النور الكلاسيكي ، والجلدران ، والأقمشة في اطرها ، والألوان المتصلبة على اللوحات . ولكن ليس اللوحات : كانت اللوحات قد انطقت ، وكان يبدو بشعاً ومريعاً ، في اعماق هذا اللحم الصغير من الانسجام ، ان يكون قد وُجد اشخاص ليرسموا ويمثلوا على الأقمشة اشياء غير موجودة .

ودخل رجل وسيدة . وكان الرجل طويلاً مورداً ذا عينين تشبهان ازرار الحذاء العالي وشعر ناعم ابيض ؛ اما المرأة فكانت اقرب الى نوع الغزال . وكان عمرها يقدر بالأربعين . وما كادا يدخلان حتى بدا عليهما وكأنهما في منزلها : ولا بد ان ذلك كان عادة ، فقد كان

ثمّة صلة لا تنكر بين مظهرهما الفنيّ وميزة النور ؛ ولا بد ان نور
المعارض الوطنية هو الذي كان يحفظها خير حفظ . و اشار ماتيو يُري
ايفيش عفونةً كبيرةً مظلمة على جانب الجدار الداخلي :
- انه هو ايضاً .

كان غوغان ، وهو عارٍ حتى النطاق تحت سماء عاصفة ، يحدد
فيها نظرةً قاسية مزيفة هي نظرة المهلوسين . وكانت الوحدة والتكبر
قد التهمت وجهه ؛ وكان جسمه قد اصبحت ثمرة سمينة طرية من ثمرات
المناطق الاستوائية مع جيوب مليئة بالماء . وكان قد فقد « الجدارة » -
تلك الجدارة الانسانية التي كان ماتيو لا يزال يحتفظ بها ولا يدري ماذا
يفعل بها - ولكنه كان يحتفظ بالعزة . وكان خلفه موجودات غامضة ،
جماعة من الأشكال السوداء . وحين رأى ماتيو للمرة الأولى هذا اللحم
الداعر الرهيب ، اخذه انفعال شديد ؛ ولكنه كان وحده . اما اليوم
فقد كان إلى جانبه جسم صغير حاقد ، وكان ماتيو خجلاً من نفسه .
لقد كان زائداً عن الضرورة : نفاية ضخمة عند أسفل جدار .

واقرب الرجل والسيدة ، واقبلا ينزرعان بلا تكلف امام القاشة .
واضطرت ايفيش الى التنحي خطوة جانبية ، لأنها كانا يمنعان عنها
الرؤيا . وانقلب الرجل الى خلف ونظر إلى اللوحة بقسوة آسفة . لقد
كان رجل اختصاص ، وكان يضع عقدة على هيئة وردة . وقال وهو
يهز رأسه :

- تس ، تس ! ما اقل ما احب هذا ! اقسم انه يظن نفسه
المسيح . وذلك الملاك الاسود خلفه ، هناك ، هناك ... إن هذا ليس
بالأمر الجدي .

واخذت السيدة تضحك ، وقالت بصوت زهري :
- يا إلهي ! صحيح .. ذلك الملاك .. إن هذا شيء ادبي ...
وقال الرجل بعمق : - لا احب غوغان حين يفكر . ان غوغان

الأصيل هو غوغان الذي يرسم الديكور .
وكان ينظر الى غوغان بعينه ، عيني اللعبة ، ويبدو جافاً وهزياً
في ثوبه الفلانيل الرمادي الجميل تجاه هذا الجسم الكبير العاري . وسمع
ماتيو نقنقة غريبة فالتفت : كانت ايفيش مأخوذة بضحكة مجنونة ،
وقد رمت له نظرة يائسة وهي تعض على شفتيها : وفكر ماتيو في
اشراقه من فرح : « انها غير عاتبة عليّ » وأخذها من ذراعها
واقتاها وهي منحنية الى اريكة من الجلد ، في وسط القاعة . وتهاكت
ايفيش فوق الاريكة وهي تضحك ؛ وكان جميع شعرها قد تناثر على
وجهها . وقالت بصوت مرتفع :

هذا فظيع ! كيف كان يقول : « لا احب غوغان حين يفكر ! »
والسيدة الفاضلة ؟ انه يلائمه تماماً ان يكون مع سيدة مثلها .
وكان والرجل السيدة منتصبين : وكان يبدو انهما يتشاوران فيما ينبغي
عمله . وقال ماتيو بحياء :

- هناك لوحات اخرى ، في القاعة المجاورة .

فكفّت ايفيش عن الضحك ، وقالت بصوت شرس :

- لا ، إن الوضع مختلف الآن . فهناك أشخاص .

- اتريدين ان نخرج ؟

- افضل ذلك ، فان جميع هذه اللوحات اعادت لي الصداع .

اودّ ان انتزّه قليلاً في الهواء الطلق .

ونفضت . فتبعها ماتيو وهو يلقي نظرة اسف على اللوحة الكبيرة
المعلقة على الجدار الايسر : فقد كان يود ان يريها ايها . كانت
صورة امرأتين تطآن ، بأقدامها العارية ، عشياً وردياً . وكانت احدهما
ترتدي قبعة ، وكانت ساحرة . اما الاخرى ، فكانت تمد ذراعها بهدوء
نبوي . ولم تكونا حيتين تماماً . وكان يبدو انهما فوجئتوا وهما تتحولان
الى شيئين .

وفي الخارج ، كان الشارع يشتعل . وأحس ماتيو بأنه إنما كان
يعبر أتوناً . وقال بالرغم عنه :

— ايفيش .

فقطّبت ايفيش ورفعت يديها الى عينيها ، وقالت بغضب :

— كأنهما تُفْقَان بالدبابيس . اوه اني أكره الصيف .

ومشيا بضع خطوات . وكانت ايفيش تترنح قليلاً ، وهي ما تزال

تضغط بيديها على عينيها .

وقال ماتيو : — حذار ، إن الرصيف يقف .

وخفضت ايفيش يديها فجأة، فرأى ماتيو عينيها الصفراوين متباعدتين .

وعبرا الرصيف صامتين . وقالت ايفيش فجأة :

— ينبغي ألا تكون عامة .

فسألها ماتيو مندهشاً : — تعنين المعارض ؟

— نعم .

— لو لم تكن عامة (كان يحاول ان يستعيد لهجة الألفة التي كانا

معتادين عليها) فأني أتساءل كيف كان لنا ان نذهب اليها .

فقالت ايفيش بجفاء : — كنتا لا نذهب اليها !

وصمتا . وفكر ماتيو : « لم تكفّ عن الحقد عليّ » ثم اخترقه

فجأة يقين غير محتمل : « أنها تريد ان تفرقع . وهي لا تفكر

بغير هذا . لا بد أنها تفتش في رأسها عن عبارة للاستئذان المهذب ،

فأذا وجدتها تركتني . ولست اريد ان تذهب . » فكر في ذلك بقلق .

وسألها :

— أليس لديك شيء خاص تعملينه ؟

— مبي ؟

— الآن .

— كلا . لا شيء .

— ما دمت تريدان ان تنتزهي ، فأني افكر ... هل يزعجك ان

ترافقي حتى منزل دانيال ، شارع مونهارتر ؟ نستطيع ان نفرق عند بابه وستمحين لي ان امنحك تاكسي لتدخلني الى المعهد .
كما تريد ، غير اني لن اعود الى المعهد ، بل سأذهب لرؤية بوريس .

« انها باقية » ولم يكن ذلك يثبت له انها ساحتها . كانت ايفيش تجزع من ترك الامكنة والناس ، حتى ولو كانت تكرههم ، لأن المستقبل كان يخيفها . وكانت تستسلم بثاقل متجههم الى اشد المواقف اغاظه ، ثم ينتهي بها الأمر الى ان تجد فيها نوعاً من الراحة . ومع ذلك ، فقد كان ماتيو مسروراً : فما دامت معه : فسيمنعها من التفكير . اذا تكلم بلا انقطاع ، واذا فرض نفسه ، استطاع ان يؤخر قليلاً تفتح الافكار الغاضبة والمزدرية التي ستولد لديها . كان ينبغي ان يتكلم على التو ، في اي موضوع . ولكن ماتيو لم يكن يجد ما يقوله . وانتهى الى ان يسألها بارتباك :

— لقد راقت لك هذه اللوحات ، بالرغم من كل شيء ؟
فهزت ايفيش كفيها :
— طبعاً .

وكان ماتيو راغباً في ان يمسخ جبينه ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك . « ستكون بعد ساعة حرة ، وستحكم علي حكماً مبرماً ولن يتسغني بعد ان ادافع عن نفسي . ليس ممكناً ان ادعها تذهب هكذا (هذا ما قرره) يجب ان اشرح لها . »

وانقتل اليها ، ولكنه رأى عينيها الشاردتين قليلاً ، فلم يتأت له الكلام .

وسألت ايفيش فجأة : — انظن انه كان مجنوناً ؟
— غوغان ؟ لا ادري . أيسبب صورته تسأليني هذا السؤال ؟
— بسبب عينيهِ . ثم ان هناك هذه الاشكال السوداء خلفه ، فكأنها همسات .

واضافت في شيء من الاسف :

— لقد كان جميلاً .

فقال ماتيو وقد بوغت : — عجباً ! هذه فكرة ما كانت لترد على

بالي .

وكانت لإيفيش طريقة في التحدث عن المشاهير من الموتى تثير استغرابه بعض الشيء : فهي لم تكن تقيم بين الرسامين الكبار وبين لوحاتهم اي صلة ؛ لقد كانت اللوحات اشياء ، اشياء جميلة شهوانية ينبغي امتلاكها ؛ وكان يحيل اليها انها كانت موجودة منذ الأبد ؛ اما الرسامون فقد كانوا بشراً كسائر البشر : انها لم تكن تحمد لهم اعمالهم ، ولم تكن تحترمهم . وكانت تسأل عما اذا كانوا لذيذين ظرفاء ، وعما اذا كانت لهم خليلات ؛ وقد سألتها ماتيو يوماً عما اذا كانت تحب لوحات تولوز — لوتريك فأجابت : « اية فظاعة ! ما كان اقبحه ! » فاحس ماتيو بانه شخصياً قد جرح .

— أجل ، لقد كان جميلاً .

فهز ماتيو كتفيه . لقد كانت ايفيش تستطيع — ما شاءت — ان تأكل بغيرها طلبة السوربون التافهين النضرين كالبنات . بل ان ماتيو قد وجدها جذابة ، ذلك اليوم الذي كانت تتأمل فيه فتى قاصراً من فتيان الميتم ترافقه راهبتان ، فقالت برصانة حائرة بعض الشيء : « اعتقد اني سأصبح لوطية ! » وكان يمكن لها ان تجد النساء جميلات . اما غوغان ، فلا . ليس هذا الرجل الناضج الذي صنع لها لوحات كانت تحبها . وقال :

— كل ما هنالك ، اني لا اجده قريباً الى القلب .

فقلبت ايفيش شفيتها استياء وصمتت .

وقال ماتيو بحوية : — ماذا هناك يا ايفيش ؟ انك تلوميني لأنني

قلت انه لم يكن قريباً الى القلب ؟

— لا ، ولكني أتساءل لماذا قلت ذلك .
— هكذا . لأن هذا هو شعوري : ان هيئة التكبير التي يبدو عليها
تجعل عينيه شبيهتين بعيني سمكة مسلوقة .
واخذت ايفيش تشد على خصلة من شعرها ، وكانت قد اتخذت
هيئة عناد نافه .

وقالت بلهجة محايدة : — ان له هيئة من النبيل .
فقال ماتيو باللهجة نفسها : — صحيح .. ان كنت تقصدين هيئة
التعجرف .

فقال ايفيش بضحكة قصيرة : — طبعاً .
— لماذا تقولين طبعاً ؟
— لأنني كنت واثقة من انك ستصف ذلك بالتعجرف .
فقال ماتيو بعدوبة :
— لم اكن اريد ان اقول عنه اي سوء . فانت تعلمين اني احب
ان يكون الانسان متكبراً .
وسادت فترة صمت طويلة . ثم قالت ايفيش بفظاظة ، وبلهجة بليدة
مغلقة :

— ان الفرنسيين لا يحبون ما هو نبيل .
وكانت ايفيش تتحدث بكل رضى عن المزاج الفرنسي اذ تكون
غاضبة، وهي تتحدث دائماً بهذه اللهجة البليدة . وازدادت بصوت مفرط
اللطافة :

— والواقع اني ادرك سبب ذلك . فلا بد ان ذلك يبدو ، من
الخارج ، مبالغاً فيه جداً .

ولم يجب ماتيو : لقد كان ابو ايفيش نبيلاً . ولولا ثورة ١٩١٧
لحربت ايفيش في موسكو، في المدرسة الداخلية لأنسات النبالة، ولقدّمت
الى القصر ، ولتزوجت ضابطاً من الحرس ، طويلًا وجميلًا ، ذا جبين

ضيق ونظرة ناعسة . اما الآن ، فان السيد سرغين هو صاحب منشرة آلية في لاون . وكانت ايفيش في باريس ، كانت تنتزه في باريس ، مع ماتيو ، وهو بورجوازي فرنسي لم يكن يحب النبالة ، وسألت ايفيش فجأة :

- أهو الذي ... رحل ؟

فقال ماتيو على عجل : - أجل ، هل تريدان ان اروي لك قصته ؟
- احسب اني اعرفها : كان متزوجاً ، وكان له اولاد ، اليس

كذلك ؟

- أجل ، كان يعمل في مصرف . ثم كان ينطلق يوم الاحد الى الضاحية وهو يحمل مرسماً وعلبة الوان . كان ما يسمى برسام ايام الاحد .
- رسام ايام الاحد ؟

- نعم : في البدء ، كان كذلك ، يعني انه كان هاوياً يخربش اللوحات يوم الاحد كما يصطاد صياد الشبكة ، بدافع من المحافظة على الصحة ، لأن من يرسم المناظر في الريف يستنشق الهواء النقي .
واخذت ايفيش تضحك ، ولكن ليست الضحكة التي كان يتوقعها ماتيو ، فسألها بقلق :

- هل يسليكم انه بدأ بأن يكون رسام ايام الاحد ؟

- لم اكن افكر به .

- وبمّ كنت تفكرين ؟

- كنت اتساءل عما اذا كانوا يتحدثون ايضاً ، في بعض الاحيان ،

عن كتاب يوم الاحد .

كتاب الاحد : بورجوازيون صغار يكتبون كل عام قصة قصيرة او خمس قصائد او ستاً ليطعموا حياتهم بشيء من المثالية . بدافع من المحافظة على الصحة . وارتعش ماتيو وسألها بجذل :

- اتقصدين اني احدهم ؟ حسناً ، ترين ان ذلك يفضي الى كل

شيء فلعلني أرحل يوماً ما الى تاهيتي .
فالتفتت اليه ايفيش ونظرت اليه وجهاً لوجه . وكان يبدو عليها
الاستياء والخوف : فلا بد انها كانت خائفة من جرأتها هي بالذات :
وقالت بصوت لا طابع له :
- سأستغرب ذلك :

فقال ماتيو : - ولمَ لا ؟ قد لا أرحل الى تاهيتي ، وانما الى
نيويورك . ان بودي لو أذهب الى أميركا .

وكانت ايفيش تشد على خصلاتها بعنف ، وقالت :
- نعم ، اذا كان ذلك في بعثة ، مع أساتذة آخرين .
فنظر ماتيو اليها صامتاً ، واستطردت :

- ربما كنت على خطأ ... انني أستطيع ان أتمثلك وأنت تلقي
محاضرة في جامعة أمام طلاب أميركيين ، ولكن لا على ظهر سفينة ،
مع مهاجرين . وربما كان ذلك لأنك فرنسي .
فسألها وهو يحمرّ خجلاً : - أتعقدين انه يلزمني غرف من الدرجة
المتأخرة ؟

فقالت ايفيش بايجاز : - لا ، بل من الدرجة الثانية .
فشق عليه قليلاً ان يتلع ريقه . « أود كثيراً لو أراها ، هي ،
على ظهر سفينة ، مع مهاجرين ، اذن لماتت قهراً » .
وانتهى يقول : - أخيراً ، مها يكن من أمر ، فاني أجد غريباً
منك ان تقررني هكذا اني لن أستطيع الذهاب . والواقع انك على
خطأ ، فقد راودتني الرغبة كثيراً في الماضي . غير ان ذلك قد زال
لأنني أجده أمراً بليداً . ثم ان هذه الحكاية كلها مضحكة خاصة
وانها جاءت بصدد غوغان الذي ظل بيروقراطياً حتى الأربعين من
عمره .

فانفجرت ايفيش بمضحكة ساخرة ، وسألها ماتيو :

— أليس ذلك صحيحاً ؟

— بلى .. ما دمت تقوله . مهما يكن من أمر ، فيكفي ان ننظر
اليه على قاشته ...

— ماذا ترين ؟

— أتصور انه لا ينبغي ان يكون هناك كثير من البيروقراطيين على
شاكلته . لقد كان يبدو ... ضائعاً .

وتمثل ماتيو وجهاً ثقيلاً ذا ذقن هائلة . لقد فقد غوغان الجدارة
الانسانية ، وقد قبل أن يفقدها . وقال :

— فهمت . تقصدان اللوحة الكبيرة في الداخل ؟ لقد كان مريضاً
جداً في تلك الاثناء .

فابتسمت ايفيش بازدياء :

— انما أتكلم عن اللوحة الصغيرة التي كان ما يزال فيها شاباً : انه
يبدو جديراً بأي شيء .

ونظرت الى الفراغ ، بشيء من الشرود ، فأحس ماتيو للمرة الثانية
بعضة الحسد .

— طبعاً ، اذا كان هذا ما تقصدينه ، فلست رجلاً ضائعاً .

قالت ايفيش : — اوه ! كلا .

فقال : — ثم اني لا أفهم لم تكون هذه مزياً ، وإلا فأني لا
أفهم ما تقصدين .

— حسناً ! لا نتكلم بغد في ذلك .

— طبعاً . أنت كذلك دائماً : توجهين انتقادات مغلفة ، ثم ترفضين

أن تشرحيها . إن ذلك أسهل مما ينبغي .

فقالت بلا اكتراث : — انا لا أوجه انتقادات الى أحد .

فكف ماتيو عن السير ونظر اليها . وتوقفت ايفيش على مضض :

وقفزت خطوة وهي تتفادى نظر ماتيو :

- اسمعي يا ايفيش ! ستقولين لي ما تقصدين بذلك ؟
فقلت بدهشة : - بأي شيء ؟
- بقصة هذا الرجل « الضائع » .
- أما زلنا نتحدث في هذا الموضوع ؟
قال ماتيو : - ان ذلك يبدو بليداً ، ولكني أود أن أعرف ماذا
تقصدين بذلك .

فعدت ايفيش تشد على خصلات شعرها . وكانت بين وقت وآخر
تفتح فيها فيحسب ماتيو انها ستتكلم : ولكنها لم تقل شيئاً . ثم
قالت :

- سيان عندي أن يكون المرء كذلك ، أو يكون شيئاً آخر .
وكانت قد لفتت خصلة حول إصبعها وأخذت تشد عليها كما لو انها
تريد أن تنتزعها . وأضافت فجأة بصوت سريع ، وهي تحدد نظرها في
رأس حذائها :

- أنت مستقر ، ولن تتغير ولو وهبوك ذهب الدنيا .
قال ماتيو : - هكذا تظنين اذن ؟ وما هو دليلك ؟
- انه شعور : ان المرء يُحس أن لك حياة مصنوعة ناجزة ، ولا
سما أفكارك . واذن فانك تمد يدك الى الأشياء حين تظن انها في متناولك
ولكنك لا تزعج نفسك لتذهب فتأخذها .
فردد ماتيو : - وما هو دليلك ؟ (ولم يكن يجد شيئاً آخر يقوله :
كان يفكر بأنها على حق) .

فقلت ايفيش في ضجر : - كنت أظن . كنت أظن انك لا
تريد ان تجازف بشيء ، وانك أذكى من أن تفعل ذلك . (ثم
أضافت بلهجة مصطنعة) ولكن ما دمت تقول انك لست كذلك ...
وفكر ماتيو فجأة بمارسييل فأخذه الحجل ، وقال بصوت
منخفض :

— كلا ، انني كذلك ، انني كما تظنين .
فقلت ايفيش بلهجة انتصار : — آه ! أتري ؟
— وانت ... هل تجددين ذلك يستحق الاحتقار ؟
فقلت ايفيش في رفق :

— بل على العكس . انني أجد هذا أفضل بكثير . لا بد ان الحياة
مع غوغان مستحيلة (وأضافت دون ان يبدو في لهجتها اي سخريه)
أما معك ، فان المرء يحس بالطمأنينة ، ولا مجال لأن يخشى أبداً ما
هو غير متوقع .

فقال ماتيو بجفاف : — صحيح . اذا كنت تعنين انني لا أنساق
للاهواء ... انت تعلمين ان بوسعي ان انساق لها كأني انسان آخر ،
ولكني أجد ذلك قبيحاً .

قالت ايفيش : — أعرف ذلك . إن كل ما تفعله منهجي ... جداً.
فشعر ماتيو بأنه يصفر :

— بأي صدد ، تقولين هذا يا ايفيش ؟

فقلت ايفيش بلهجة غامضة : — بصدد كل شيء .
— اوه ! لا بد ان لديك فكرة صغيرة معينة .

فهممت من غير ان تنظر اليه :

— لقد كنت كل اسبوع تأتي ومعك « الاسبوع في باريس » ثم

تنظم برنامجاً ...

فقال ماتيو مغتاضاً : — ولكن ذلك كان من أجلك يا ايفيش ...

فقلت ايفيش بتأدب : — أعرف هذا ، واني أكنّ لك العرفان .
وكان ماتيو مبالغاً أكثر منه مجروحاً :

— انني لا أفهم يا ايفيش . ألم تكوني تحبين سماع الموسيقى او

مشاهدة اللوحات ؟

— بلى .

— كم تقولين ذلك برخاوة !
— كنت احب ذلك كثيراً في الحق . (وازدافت بعنف مفاجيء)
ولكنني استنظع ان تُتخلق لي واجبات تجاه الاشياء التي احبها .
فردد ماتيو : — آه .. انك .. انك لم تكوني تحبين ذلك .
وكانت قد رفعت رأسها وقذفت شعرها الى الخلف ، فانكشف
وجهها الأصفر العريض ، وكانت عيناها تطلقان الشرارات . وكان
ماتيو جزءاً مرهقاً: ينظر الى شفهي ايفيش الدقيقتين الرخوتين ، ويتساءل
كيف استطاع ان يقبلها . واستطرد يقول بأشفاق :
— كان ينبغي ان تخبرني ، ولو فعلت لما قسرتك قط .
لقد جرّتها الى الحفلات الموسيقية والى المعارض ، وكان يشرح لها
اللوحات ، وفي هذه الاثناء كانت تكرهه . وقالت ايفيش وكانها لم
تسمعه :

— ما عسى ان تهمني انا ، اللوحات ، اذا لم اكن استطيع ان
امتلكها ؟ كنت كل مرة انفجر غضباً ورغبة في ان أحملها ، ولكن
لم يكن ممكناً حتى لمسها . وكنت اشعر بك الى جانبي هادئاً ولاثقلاً:
فقد كنت تذهب الى هناك ، كما لو انك تذهب الى القديس .
وصمتا . وكانت ايفيش قد احتفظت بهيئتها القاسية . وأحس ماتيو
فجأة بانقباض في حنجرتة :

— ايفيش ، ارجوك ان تعذريني بسبب ما حدث في هذا الصباح .
قالت ايفيش : — هذا الصباح ؟ اني لا افكر به بعد ، بل كنت
افكر بفوغان .

قال ماتيو : — إن ذلك لن يحدث مرة اخرى ، بل اني لم افهم
كيف امكن ان يحدث ذلك .
وكان يتكلم تبرئة لضميره : فقد كان مدركاً ان قضيته كانت
خاسرة . ولم تجب ايفيش فاستطرد ماتيو جاهداً :

- وكانت هناك المتاحف وحفلات الموسيقى ايضاً ... لبتك تعلمين
كم انا آسف ! إن المرء يظن احياناً انه على وفاق مع انسان آخر ...
ولكنك لم تكوني تقولين شيئاً قط .

وكان يحسب ، لدى كل كلمة ، انه سيتوقف . ثم كانت تأتية
كلمة اخرى من جوف حنجرتة وهي ترفع له لسانه .. وكان يتكلم
باشمئزاز وبتشنجات صغيرة . وأضاف :
- سأحاول ان اتغير .

وفكر « اني كرية » وكان غضب يائس يعانق وجنتيه . وهزت
ايفيش رأسها وقالت :
- لا يستطيع الانسان ان يتغير .

وكانت تتكلم بلهجة متعقّلة ، فاحتقرها ماتيو بكل صراحة . ومشيا
صامتين ، جنباً الى جنب ؛ وكان النور يغمرها ، وكان احدهما يكره
الآخر . ولكن في الوقت نفسه كان ماتيو يرى نفسه بعيني ايفيش ،
فيأخذة الاشمئزاز من نفسه . ورفعت كفها الى جبينها وضغطت صدغها
بين أصابعها :

- الا نزال بعيدين ؟

- ربيع ساعة . هل انت متعبة ؟

- اوه ! نعم . اعذرني ، ان السبب هو هذه اللوحات . (وضربت
برجلها الارض ونظرت الى ماتيو نظرة تائهة) ها هي تفلت مني ،
وتختلط جميعاً في رأسي . وهذا يحدث كل مرة .

وأحس ماتيو ببعض الارتياح : - هل تريدان ان تعودا ؟

- أعتقد ان ذلك أفضل .

فنادى ماتيو سيارة تاكسي . وكان على عجل ليكون وحده الآن .
وقالت ايفيش من غير ان تنظر اليه : - الى اللقاء .

وفكر ماتيو : وملهى « سومطرا » ؟ هل ينبغي لي ، بالرغم من

ذلك ، ان اقصدہ وحدي ؟
ولكن لم تكن به رغبةً حتى لأن يراها مرة اخرى : وأعدت :
- الى اللقاء .

وابتعد التاكسي ، وتبعه ماتيو بعينيه بضع لحظات في ضيق . ثم
انصفق باب فيه ، وأغلق زجاجه ، فأخذ يفكر في مارسيل .

كان دانيال يحلق ذقنه أمام مرآة خزائنه ، وهو عارٍ حتى نطاقه :
« ان هذا هو لهذا الصباح ، وعند الظهر سينتهي كل شيء . » ولم
يكن ذلك مجرد مشروع : فقد كان الأمر هنا ، في النور الكهربائي ،
وفي صرير آلة الحلاقة . ولم يكن ممكناً محاولة ابعاده حتى ولا تقريبه
لتنتهي القضية بسرعة : كل ما هناك انه كان ينبغي ان يُعاش . وكانت
الساعة لم تتجاوز العاشرة ، ولكن الظهر كان حاضراً في الغرفة ، محمداً ،
صريحاً ، يشبه العين . وفيما بعد ذلك ، لم يكن ثمة الا اصيلٌ مبهم
كان يتلوى كالودودة . وكان داخل عينيه يؤلمه لأنه كان قد نام قليلاً ،
ولأن براً كان قد نبت تحت شفته ، احمرارٌ صغير ذو رأس ابيض :
ان الأمر قد أصبح الآن كذلك ، كلما شرب الخمر . وأرهف دانيال
اذنه : كلا ، كانت هذه ضجة في الشارع . ونظر الى البئر المحمر
المحموم . وكانت هناك ايضاً الدوائر الكبيرة المزرقة تحت عينيه - وفكر :
« اني اهدم نفسي » وكان يُعنى عناية كبيرة بأن يُمرَّ الموسى حول
البئر لثلا يجلفه ؛ سوف تبقى هناك باقة صغيرة من الهُلب الاسود ،
ولكن فليكن : كان دانيال يستفزع جلغ البثور . وفي الوقت نفسه كان
يرهف اذنه : لقد كان باب غرفته مشقوقاً ليستطيع ان يسمع بوضوح :

وكان يقول لنفسه : « لن اخطئها هذه المرة » .
وكان ثمة حفيّف خفيف يكاد لا يسمع ؛ ولكن دانيال كان قد قفز ،
والموسى في يده ، وفتح باب الدخول فوراً . غير انه كان قد فات
الايوان : فقد فرت الصبية ، ولا بد انها قابعة الآن في زاوية سلّم ،
وانها تنتظر خافقة القلب ، ممسكة انفاسها .

واكتشف دانيال فوق القش ، عند قدميه ، باقة من القرنفل : وقال
بصوت مرتفع : « انثى صغيرة قدرة ! » كان على يقين بأنها ابنة
البوابة . وكان حسبه ان ينظر الى عينيها ، عيني السمكة المقلية ، حين
كانت تسلم عليه . وهذا مستمر منذ خمسة عشر يوماً : كل يوم ، لدى
عودتها من المدرسة ، كانت تضع زهوراً امام باب دانيال . ورفض باقة
القرنفل الى اسفل السلم . « يجب ان اهدف السمع وانا في الغرفة
الصغيرة طوال الصباح ، فهذا وحده استطيع ان اقبض عليها . » سوف
يظهر عارياً حتى النطاق ، ويحدد فيها نظراً قاسياً . وفكر : « انها انما
تحب رأسي . رأسي وكتفي لأن لها مثلاً اعلى . وسيؤثر فيها ان ترى
ان لي شعراً في صدري . » وعاد الى غرفته واستأنف حلالة ذقنه .
وكان يرى في المرآة وجهه الغامض المتكبر ذا الوجنتين الزرقاوين ؛
وفكر في شيء من الاستياء : « ان هذا هو ما يهيجهن » وجه ملاك ؛
كانت مارسيل تدعوه بملاكها العزيز ، وينبغي له الآن ان يتحمل نظرات
هذه العفريته المتفخخة بالمراهقة . وفكر دانيال بغيظ : « القذارات ! » وانحنى
قليلاً ، وبضربة ماهرة من موساه ، قطع بره . ليست دُعابة رديئة ان يشوه
هذا الوجه الذي كن يحببته الى ذلك الحد . « من يدري ؟! ان وجهاً مجروحاً
يظل وجهاً ، وهو يعني دائماً شيئاً ما : ولسوف اضجر من ذلك بأسرع من
السابق ! » واقرب من المرآة ونظر الى نفسه من غير رضى ؛ وقال لنفسه :
« الواقع اني احب ان اكون جميلاً » وكان يبدو عليه التعب ، وقرص
نفسه لدى جنبه : « يجب ان انقص كيلو غراماً » سبعة اقداح ويسكي ،

ليلة امس ، وحده ، في خانة « جوني » وحتى الساعة الثالثة لم يكن قد استطاع ان يقرر العودة الى البيت ، لأنه كان كثيراً ان يضع رأسه على الوسادة ، وان يحس انه ينسرب في الظلام ، وهو يفكر بان ثمة غداً . وفكر دانيال في كلاب القسطنطينية : لقد طوردت في الشوارع ووضعت في اكياس او في سلال ، ثم اطلقت في جزيرة جرداء ؛ فأخذت تلتهم بعضها ؛ وكانت ربيع البحر تحمل عواها احياناً الى مسامع البحارة : « ليست الكلاب هي ما كان ينبغي ان توضع في تلك الجزيرة . » ولم يكن دانيال يحب الكلاب . وارتدى قيصاً من الحرير الاصفر وبنطلوناً من الفلانيل الرمادي ؛ واختار بعناية ربطة عنق : ستكون اليوم الربطة الخضراء ذات الخطوط ، لأن سحته كانت سيئة . ثم فتح الباب فدخل الصباح الى غرفته ، صباح ثقيل ، خائق ، معدّ سلفاً لهذا الظرف . واستسلم دانيال لحظة للحرارة الآسنة ، ثم نظر فيما حوله : كان يحب غرفته لأنها كانت لا شخصية ، ولم تكن تسلمه ، فكأنها غرفة فندق . اربعة جدران عارية ، اريكتان ، كرسي ، طاولة ، خزانة ، سرير ولم تكن لدانيال ذكريات . ورأى سلة الخيزران الكبيرة ، مفتوحة في وسط القاعة ، فصرف بصره : كان ذلك لليوم .

وكانت ساعة دانيال تسجل العاشرة والخامسة والعشرين ، وفتح باب المطبخ ثم صفر وظهر « سيبون » اول ما ظهر . وكان ابيض واحمر ذا لحية صغيرة . ونظر الى دانيال بقسوة وتثائب يوحشية ، وهو يقيم من ظهره جسراً . وركع دانيال في لطافة واخذ يرت على فقمه . وكان القط يرسل له ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، ضربات من رجله على كمة . وبعد لحظه ، أخذه دانيال من جلد رقبته ووضعها في السلة ، فظل فيها سيبون بلا حركة ، مسحوقاً خاضعاً . وجاءت « ملفينا » بعد ذلك ، وكان دانيال يحبها اقل من الاخرين لأنها كسانت ممثلة ولثيمة . وحين اطمأنت الى انه كان يراها ، أخذت تدندن من بعيد وتتظاهر بالدلال ، وكانت تفرك رأسها بمصراع الباب . ولامس دانيال

بأصبعه رقبته الكثيفة ، فانقلبت على ظهرها ، متصلبة القدمين ، فدغدغ حلمتيها تحت فروها الأسود ، وهو يقول بصوت مُغْنٍ محسوب « ها ها ! ها ها ! » وكانت هي تندحرج من جنب الى آخر مع حركات من رأسها لطيفة . وفكر : « انتظري قليلاً لئري ، انتظري حتى الظهر . » وأمسكها من رجلها ووضعها بالقرب من سيبيون . وكان يبدو عليها بعض الدهشة ، ولكنها تدحرجت وهي متجمعة ، وعادت الى الدندنة .

ونادى دانيال : « بوبيه ، بوبيه ، بوبيه ! » ولم تكن بوبيه لتأتي قط حين كانت تنادى ؛ فاضطر دانيال للذهاب الى المطبخ بحثاً عنها . وحين رآته ، قفزت الى فرن الغاز وهي تخور بعض خوار مغناظ . وكانت قطعة مزاريب ، وكان لها جرح كبير يعترض جانبها الأيمن . وكان دانيال قد وجدها في اللكسمبورغ ، ذات مساء شتوي ، قبيل اغلاق الحديقة ، فحملها الى بيته . وكانت متغرسة وردينة ، وكانت غالباً ما تعضّ ملفينا : وكان دانيال يحبها . وأخذها بين ذراعيه فارتدت برأسها الى خلف وهي ترخي اذنيها وتمد عنقها : كان يبدو عليها الاستغراب . وأمرّ أصابعه على فمها فعضت طرف هذا الاصبع ، وهي هائجة ملتدة ؛ واذ ذاك قرصها في رقبتها فرفعت رأسها الصغير العنيد . ولم تكن تهمهم - كانت بوبيه لا تهمهم قط - ولكنها نظرت اليه مواجهةً ففكر دانيال ، بدافع العادة : « من النادر ان تنظر اليك قطعة في عينيك . » وفي الوقت نفسه كان يشعر بأن ضيقاً لا يُحتمل كان يغمره ، فكان عليه ان يصرف نظره وقال : « هنا ، هنا ، يا ملكتي ، هنا ، هنا ! » وابتسم لها من غير ان ينظر اليها . وكانت الاخريان قد بقينا جنباً الى جنب ، بليدتين مهممتين ، فكأنه غناء زيزان . وتأملها دانيال في عزاء غير مقتنع : « لحم محمّر ! » وكان يفكر بحلمتي ملفينا الورديتين . ولكنه اضطر الى بذل جهود كثيرة

لادخال بوبيه في السلة : كان عليه ان يدفعها من مؤخرتها ، فانقلبت وهي تبصق ، وأرسلت له ضربة مخلب ، فقال دانيال : « آه ! هكذا اذن ؟ » واخذها من رقبتها ومن جنبها ، وطواها بالقوة ، فصرّ الخيزران تحت مخالب بوبيه . وأخذت القطة لحظة ذهول ، فاغتم دانيال الفرصة لبرد الغطاء بالقوة ويغلق القفلين وهو يقول : « اف » . وكانت يده تؤلمه قليلاً ، الماء يسيراً جافاً ، كأنه الدغدغة . ونهض وهو يتأمل السلة برضىٍ ساخر : « لقد حبست ! » وكانت على ظاهر كفه ثلاثة خدوش ، وفي اعماق نفسه دغدغة اخرى ؛ دغدغة غريبة توشك ان تسوء . وتناول لفيفة الخيوط من على الطاولة ووضعها في جيب بنطلونه .

وتردد : « امامي طريق طويلة . وسوف يصيبني الحر » وكان بوده لو يأخذ سترته من الفلانيل ، ولكنه لم يكن قد اعتاد ان يخضع بسهولة لرغباته ، ثم انه سيكون مضحكاً ان يسير تحت الشمس ، محمراً سائل العرق ، وبين ذراعيه هذا العبء ، مضحكاً وغريباً بعض الشيء : وقد ابتسم لهذا ، فاختر سترته من التويد البنفسجي التي لم يكن يحتملها بعد منذ نهاية ايار . ورفع السلة من عروقه وفكر : « ما اثقلها، هذه الحيوانات القذرة ! » وكان يتصور وضعها الدليل المربك وذعرها الشديد . « هذا اذن ما كنت احبه ! » كان حسبه ان يحبس المعابيد الثلاثة في سجن من الخيزران لتعود قطعاً ، مجرد قطع ، ضرعيات صغيرة مغرورة ومحدودة تموت من الرعب - فاقدة القدسية الى ابعد حد ممكن . « قطع : لم تكن إلا قطعاً » واخذ يضحك : وكان يشعر كما لو انه يمثل على احد . وحين اجتاز باب الدخول ، اخذه غثيان ، ولكن ذلك لم يدم : كان يشعر وهو على الدرج بأنه قاسٍ وجاف ، وتحت ذلك نتانة غريبة ، فتانة لحم نيء . وكانت البوابة على عتبة الباب ، فابتسمت له . وكانت تحب دانيال كثيراً لأنه كان شديد اللياقة

والاناقة .

– انت مبكر جداً يا سيد سورينو .

فأجاب دانيال بلهجة اهتمام : – كنت أخشى ان تكوني مريضة يا سيدتي العزيزة . لقد عدت متأخراً مساء أمس فرأيت النور تحت باب غرفتك .

فقال البوابة وهي تضحك : – لقد كنت من فرط التعب بحيث نمت من غير ان اظفيء النور . وفجأة سمعتك تدق الجرس ، فقلت : آه ، هذا السيد سورينو . ولم يكن خارج البناية سواك . وبعد ذلك مباشرة أطفأت النور ، وكانت الساعة زهاء الثالثة ، أليس كذلك ؟ – تقريباً ...

قالت : – حسناً ! أظن ان معك سلة كبيرة ؟

– انها قطي .

– أأكون مريضة ، الحيوانات المسكينة الصغيرة ؟

– لا ، ولكنني آخذها الى بيت اختي في « مودون » . إن الطبيب البيطري يقول انها بحاجة الى الهواء .

وأضاف بجد : أتعرفين ان القطط يمكن ان تصبح مسلولة ؟

فقال البوابة مأخوذة : – مسلولة ؟ اذن ، إعتن بها جيداً . (وازدادت) على أي حال ، ان ذهابها سيحدث فراغاً لديك ؛ وقد اعتدت على رؤيتها ، هذه الحيوانات اللطيفة، حين كنت ارتب بيتك . ولا بد ان ذلك يُحزنك .

فقال دانيال : – يحزني كثيراً ، ايتها السيدة ديبوي .

وابتسم لها بسمة رصينة وتركها . « المرائية العجوز ، لقد قُطعت ، فلا بد انها كانت تدللها حين لا اكون في البيت : على اني كنت قد منعتها من ان تلمسها ؛ وهي تحسن صنماً بان تراقب ابتها . » وعبر المدخل المكشوف فبهره النور ، النور القدر المحرق النافذ . وكان يؤله

في عينيه ، وكان هذا متوقفاً : فليس افضل من الاصباح الغائمة لمن
 يكون قد شرب في العشية . ولم يكن يرى شيئاً بعد ، وكان يسبح في
 النور وحول رأسه دائرة من حديد . وفجأة رأى ظله ضخماً كثيفاً ، مع
 ظل سلة الخيزران التي كان يؤرجحها في ذراعه . وابتسم دانيال :
 لقد كان طويلاً جداً . وانتصب على طول قامته ، ولكن الظل بقي
 قصيراً مشوهاً ، فكأنما هو ظل قرد من فصيلة الشامبنزي . وقال في
 نفسه « الدكتور جيكل ومستر هايد . كلا » لا حاجة بي الى تاكسي .
 سوف انزّه مستر هايد حتى موقف ٧٢ . وسيوصله الاوتوبيس ٧٢
 الى شارنتون . وكان دانيال يعرف ، على بعد كيلومتر من هناك ،
 ركناً منعزلاً على شاطئ السين . وقال في نفسه : « اني بالرغم من
 كل شيء لن يُعنى عليّ ، فانه لا ينقص بعد غير هذا ! » وكان
 ماء السين شديد السواد كثيف الاقذار في ذلك الموضع ، مع بقع مخضرة
 من الزيت ، بسبب مصانع « فيتري » . وتأمل دانيال نفسه في نفور:
 وكان يحس نفسه من شدة العذوبة ، في الداخل ، من شدة العذوبة
 بحيث ان ذلك لم يكن طبيعياً . وفكر : « هوذا الانسان » في شيء
 من الرضى . لقد كان قاسياً كله ومسدوداً ، وكان تحت ذلك ضحية
 صغيرة تطلب الزحمة . وفكر : « غريب ان يستطيع المرء ان يكره
 نفسه كأنما هو انسان آخر . » والواقع ان ذلك لم يكن صحيحاً :
 فهما فعل ، فانه لم يكن ثمة الا دانيال واحد . حين كان يحتقر نفسه ،
 كان يحس بأنه يتفصل عن نفسه ، وانه يسبح ، كأنه قاضٍ مجرد ،
 فوق تحرير غير نقي ، ثم كان فجأة يؤخذ ، ويُشرق من تحت
 ويتدبق في نفسه . وفكر « طز اسأشرب قطرة . » وكان عليه ان يقوم
 بدورة صغيرة ، وسوف يتوقف عند « شامبيونييه » شارع تايدوس .
 وحين دفع الباب ، كانت الحانة خالية ، وكان الخادم يمسح الغبار عن
 طاولات الخشب الاخر التي كانت على شكل براميل . وكان الظلام

لذيذاً في عيني دانيال ، وفكر : « ان بي صدادعاً كبيراً . » ووضع
السلة وجلس على كرسي عالٍ من كراسي المشرب . وقال الساقى
مؤكداً :

— طبعاً ، قدح ويسكي صغير كثيف .
فقال دانيال بجفاف : — كلا .

فلينفلقوا بعادتهم تلك في تصنيف الناس ، كأنما هم مظلات او
ماكنات خياطة . انا لست ... ان المرء ليس شيئاً قط . ولكنهم
يعرفونك بحركة يد . فهذا يمنح هبات سخية ، وذلك خفيف الظل ،
وانا احب اقداح الويسكي الصغيرة الكثيفة .

وقال دانيال : — قدح جن - فز .

فأتاه الساقى بما طلب من غير ان يبدي اية ملاحظة : لا بد انه
كان منزعجاً . هذا افضل . لن اضح قلمي بعد الآن في هذه الحانة ؛
انهم اكثر الفة مما ينبغي . ثم ان مذاق الجن - فز ، كان مذاق ليموناضة
تطهيرية . وكانت تتناثر غباراً محمضاً على اللسان وتنتهي بمذاق فولاذي .
وفكر دانيال : انها لا تؤثر في بعد .

— اعطني قدح فودكا مغلغلة في كأس مستديرة .

وشرب الفودكا وظل لحظة وهو يحلم ، وفي فمه شهب نارية .
وكان يفكر : « ألن ينتهي ذلك ابداً ؟ » ولكنها كانت افكاراً سطحية ،
كما هو المؤلف ، شكات بلا رصيد . « ما الذي لن ينتهي ابداً ؟ ما
الذي لن ينتهي ابداً ؟ » وسمع مواء قصير وخربشة ، فقفز الساقى ،
وقال دانيال بايجاز :

— انها قطط .

ونزل عن الكرسي العالي ، ورمى عشرين فرنكاً على الطاولة ثم اخذ
السلة . وحين رفعها ، اكتشف انها خلقت على الأرض نقطة صغيرة
حمراء : وكان ذلك دماً . وفكر دانيال في ضيق : « ما عساها تصنع

في الداخل ؟ » ولكنه لم يكن راغباً في رفع الغطاء . لم يكن في السلة ، هذه اللحظة ، الا خوف كثيف غير متميز : فاذا فتح السلة ، عاد هذا الخوف فأصبح قططه ، وهذا ما لم يكن دانيال ليحتمله . « آه ! لن نستطيع احتمالاه ؟ وإذا رفعته ، ذلك الغطاء ؟ » ولكن دانيال كان قد خرج ، وعاد النور يعشي عينيه ، وكان عشاءً شفافاً لزجاً : ان عينيك تتأكلانك ، فتحسب انك لا ترى الا ناراً ، ثم تلاحظ فجأة انك انما كنت ترى ببوناً لفترة طويلة ، ببوناً تبعد عنك مئة خطوة ، مشرقة وخفيفة ، كأنها الدخان : وفي جوف الطريق ، كان ثمة جدار كبير ازرق . وفكر دانيال : « ان من المحزن ان يرى المرء بوضوح . » وكان يتخيل الجحيم على هذا الشكل : نظراً يخرق كل شيء ، وبه يستطيع المرء ان يرى آخر الدنيا . حتى اعماق نفسه . وتحركت السلة من تلقاء نفسها في ذراعه ، انها تخربش في الداخل . هذا الذعر الذي يحسه قريباً من يده ، لم يكن ليذكر تماماً اذا كان يحدث لديه اشمزازاً ام يحدث لذة : والحق ان ذلك سواء . وفكر دانيال : « مهما يكن ، فان هناك ما يطمئنها ، انها تشعر برائحتي . هذا صحيح . فأنا بالنسبة اليها رائحة . » ولكن صبراً : ان دانيال لن يلبث طويلاً حتى يفقد هذه الرائحة المألوفة ، وسوف يتنزه بلا رائحة ، وحيداً بين الناس الذين لا يملكون حواس مرهقة تمكّنهم من ان يعرفوك بالرائحة . انه يود ان يكون بلا رائحة ولا ظل ، ولا ماض ، الا يكون شيئاً آخر غير انتزاع من نفسه ، لا يلحظ ، نحو المستقبل . ولاحظ دانيال انه كان يسبق جسمه ببضع خطوات ، عند مستوى المصباح ، وانه كان يرى نفسه قادماً ، وهو يعرج قليلاً بسبب حمله ، غارقاً في العرق . كان يرى نفسه قادماً ، ولم يكن بعد الا مجرد نظر . ولكن مرآة مصبغة عكست له صورته ، فتبدد الوهم . وامتلأ دانيال بماء موحل وتافه : هو نفسه . سيملاً ماء السين التافه الموحل السلة ، وستمزق القطط فيما

بينها بمخالبها . وغمره اشتمزاز كبير ففكر : « انه عمل مجاني » وكان قد توقف ووضع السلة ايضاً : « ان المرء يعذب نفسه عبر الاذى الذي يلحقه بالآخرين . وليس بوسعه قط ان يبلغ نفسه مباشرة . » وفكر من جديد بالقسطنطينية : لقد كانوا يحبسون الزوجات الحائثات في كيس مملوء بالقطط الكلبة ثم يرمون الكيس في البوسفور . براميل ، اكياس من جلد ، سلال من خيزران : سجون . « هناك ما هو اسوأ من ذلك . » وهز دانيال كتفيه : فكرة اخرى ليس لها من رصيد . انه لم يكن يريد ان يمثل دوراً فاجعاً ، فهو قد فعل ذلك ما فيه الكفاية في الماضي . وان من يمثل الأدوار الفاجعة يأخذ نفسه أخذاً جاداً . وأبدأ ، ابدأ ، لن يأخذ دانيال نفسه اخذاً جاداً . وظهر الأوتوبيس فجأة ، فأشار دانيال للسائق وصعد في الدرجة الأولى .

— كم الى نهاية الخط ؟

فقال قاطع التذاكر : — ست قسائم .

سيثير ماء السين جنونها . المساء البني ذو الانعكاسات البنفسجية . واقبلت امرأة تجلس قبالة ، برصانة واكفهرار ، ومعها طفلة . ونظرت الطفلة الى السلة باهتمام ، ففكر دانيال « ذبابة صغيرة قدرة » وماءت السلة فانتنفض دانيال كما لو انه أخذ بجرم قتل . وسألت الطفلة بصوت واضح :

— ما هذا ؟

فقالت امها : — شت ، اتريدين ان تتركني السيد وشأنه ؟

قال دانيال : — انها قطط .

وسألت الطفلة : — وهل هي لك ؟

— نعم .

— ولماذا تحملها في سلة ؟

فأجاب دانيال بعدوية : — لأنها مريضة .

— هل تستطيع ان اراها ؟

قالت امها : — انك تبالغين يا جانين .

— لا تستطيع ان اريك اياها ، فان المرض قد جعلها شريرة .

فقالت الطفلة بلهجة تعقّل ساحرة :

— اوه ... انها لن تكون معي شريرة .

فقال دانيال بصوت منخفض سريع :

— اتظنين ذلك ؟ اسمعي يا صغيرتي العزيزة .. لانني اريد ان اغرقها ،

قططي ... هذا ما سأفعل ، وهل تعرفين لماذا ؟ لأنها ، في هذا

الصباح بالذات ، مزقت وجه فتاة صغيرة جميلة مثلك انت تحمل إليّ

الزهور . وسوف يضطرون الى ان يضعوا لها عيناً من زجاج .

فقالت الطفلة مدعورة : — ها !

ونظرت لحظة الى السلة بجزع ثم ارتمت في أحضان امها . وقالت

الأم وهي تدبر نحو دانيال عينين مغتاظتين :

— لا لا ! اترين ؟ يجب ان يكون الاطفال هادئين وألا يثرثروا

في كل لحظة . ولكن لا بأس يا قطتي الصغيرة ، لا شيء هناك ، وانما

اراد السيد ان يمزح .

وبادها دانيال نظرتها بهدوء : « انها تحقرني » هذا ما فكر به

وهو راض . وكان يرى خلف الزجاج بيوتاً رمادية تنخطف ، وكان

يعلم ان المرأة تنظر اليه : « امّ مغتاظة . انها تبحث عما يمكنها ان

تحقره فيّ . وليس ذلك وجهي . » فلم يكن ثمة من يحقر وجه

دانيال . « ولا ثوبي ، فهو جديد ورقيق . آه ! ربما يدي . »

وكانت يدها قصيرتين وقويتين ، وسميتين بعض الشيء ، وعلى اصابعها

شعرٌ اسود . وبسطها على ركبتيه : « انظري اليها ، هيا انظري

اليها ! » ولكن المرأة كانت قد تحلّت عن متابعة المباراة : كانت

تحدّد نظرها امامها تحديداً غليظاً ، وكانت تلمس الراحة . وتأملها

دانيال في شيء من الشراهة : هؤلاء الناس الذين كانوا يرتاحون ، كيف كانوا يعملون ؟ كانت قد تركت نفسها تسقط بكل قوتها في نفسها بالذات وتذوب فيها . ولم يكن شيء في هذا الرأس يشبه فراراً مجنوناً من الذات ، او فضولاً او حقداً او اية حركة ، حتى ولا تموجاً خفيفاً : لا شيء الا عجيبة النوم الكثيفة . واستيقظت فجأة ، واقلت هيئة انتعاش ترتسم على وجهها وقالت :

— هنا ، هنا . تعالي إذن ! ما أشدّ ما يزعجني ان اجرجرك دائماً !

واخذت ابنتها من يدها وسحبتهما . وقبل ان تنزل الطفلة التفتت وألقت نظرة ذعر على السلة وانطلق الاوتوييس ثم توقف ؛ ومر امام دانيال أشخاص يضحكون ، وصاح به قاطع التذاكر :

— آخر الخط .

وانتفض دانيال : كانت السيارة فارغة . ونهض ثم هبط . وكانت ساحة تغص بالنساء وكانت الحانات منتثرة فيها ؛ وكانت جماعة من العمال والنساء متجمعة حول عربة . ونظرت بعض النساء اليه بدهشة . وحثّ دانيال خطاه وانعطف الى زقاق قدر كان يهبط نحو السين . وكان على جانبي الطريق براميل ومستودعات . وكانت السلة قد أخذت تموء بلا انقطاع ، وكان دانيال يكاد يعدو : كان يحمل دلواً مثقوباً يسقط منه الماء نقطة نقطة . وكانت كل موأة نقطة ماء . وكان الدلو ثقيلاً ، فأخذه دانيال بيده اليسرى ، ومسح جبينه باليمنى . كان لا ينبغي التفكير بالقطط . آه ! انك لا تريد التفكير بالقطط ؟ طيب ! ينبغي اذن ان تفكر فيها بالذات ، وهذا أمرٌ شديد اليسر ! وتمثل دانيال عيني بوبيه الذهبيتين وفكر بسرعة في اي شيء ، في البورصة حيث ربح عشرة آلاف فرنك في الليلة الماضية ، وفي مارسيل ، التي كان ينبغي ان يراها في المساء نفسه ، فان هذا كان يومه : « الملاك

الأكبر ! » وقهقهه دانيال : كان يحترق مارسيل احتقاراً عميقاً : « انها لا يملكان الجرأة للاعتراف بأن احدهما لا يجب الآخر بعد . لئن كان ماتيو يرى الأمور على حقيقتها ، فعليه ان يتخذ قراراً . ولكنه لا يريد . انه لا يريد ان يضيع نفسه . إنه هو ، طبيعي سليم . » هكذا فكر دانيال بسخرية وماء القطط كما لو انها قد غطست في ماء غال واحس دانيال بانه يضيع رشده . ووضع السلّة ارضاً ثم رفسها رفسين عنيفتين ، فقامت فيها فوضى واضطراب ، ثم صمت القطط . وظل دانيال جامداً لحظة وهو يشعر برعشة خلف اذنيه . وخرج عمال من احد المستودعات فتابع دانيال سيره . ووصل . وهبط درجاً حجرياً الى شاطئ السين وجلس ارضاً بالقرب من حلقة حديدية ، بين برمبل من القطران وركام من البلاط . وكان السين اصفر تحت السماء الزرقاء . وكانت قوارب سوداء مملوءة بالبراميل مربوطة الى الرصيف المقابل . وكان دانيال جالساً في اشعة الشمس ، وكان صدغاه يؤلمانه . ونظر الى الماء المتعرج المنتفخ الذي كانت تنبعث منه اشعاعات لبنية ثم اخرج من جيبه مكتبه وقطع بسكينه طرفاً طويلاً من خيط . ومن غير ان ينهض ، تناول بيده اليسرى بلاطة ، فأطبق احد طرفي الخيط على عروة السلّة ولف بقيته حول البلاطة ، ثم عقد عدة عقد ووضع البلاطة على الأرض . فاذا هو امام آلة غربية . وفكر دانيال بأن عليه ان يحمل السلّة باليد اليمنى والبلاطة باليد اليسرى فيسقطها في الماء في وقت واحد . وربما عامت السلّة عشر ثانية ثم تجذبها قوة وحشية الى اعماق الماء فتغرق فوراً . وفكر دانيال بأن الحر يزعجه ، فاحتقر سترته السميقة ولكنه لم يرد ان ينزعها . وكان ذلك يخفق فيه ، ويطلب الرحمة ، وكان دانيال ينظر الى نفسه وهو يثن ، قاسياً جافاً : « إن من لا يملك الجرأة على ان يقتل نفسه بالجملة ، يجب ان يفعل ذلك بالتفصيل » لسوف يقرب من الماء ، وسوف يقول : وداعاً لما احبه

أكبر الحب في هذا العالم ... » ونهض قليلاً على يديه ، ونظر حوله : الى اليمين كان الشاطئ خالياً ، والى اليسار ، في البعيد ، رأى صياداً أسود في الشمس . إن التموجات ستنتشر تحت الماء ، حتى تبلغ فليئة شبكته : « وسوف يظن ان سمكة ما تعض . » وضحك واخرج منديله ليمسح العرق الذي كان يتلأأ على جبينه . وكان عقرباً ساعته اليدوية يشير ان الى الحادية عشرة وخمس وعشرين . « عند الحادية عشرة والنصف ! » وكان ينبغي ان يطيل هذه اللحظة العجيبة : لقد كان دانيال مزدوجاً ، وقد أحس نفسه ضائعاً في غيمة عتيقة ، تحت سماء من رصاص ، وفكر بما تيو بشيء من الكبرياء ؛ وقال لنفسه « انا الحر » . ولكنها كانت كبرياء لا شخصية ، لأن دانيال لم يكن بعد احداً . ونهض في الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين وكان يحس انه من الضعف بحيث اضطر الى الاعتماد على البرميل . وعلقت بسترته التويد لطخة من القطران فنظر اليها .

ورأى اللطخة السوداء على القماشة البنفسجية وشعر فجأة انه لم يكن بعدُ الا واحداً . واحداً . جباناً . شخص كان يحب قططه ولا يريد ان يقذف بها في الماء . وأخذ سكينه وانحنى فقطع الخيط . في صمت : فحتى في داخله كان يسود الصمت ، وكان من الحجل بحيث لم يطق ان يتحدث امام نفسه . وأخذ السلّة وعاد يصعد الدرج : فكان كما لو انه يمرّ وهو يلفت رأسه امام انسان كان ينظر اليه بازدراء . وكان الخلاء والصمت ما يزالان في نفسه . وحين بلغ اعلى الدرجات ، جرؤ على ان يوجه لنفسه الكلمات الاولى : « ماذا كانت تلك القطرة من الدم ؟ » ولكنه لم يجرؤ على فتح السلّة : فأخذ يمشي وهو يعرج . هذا أنا . هذا أنا . هذا أنا . القدر . ولكن كان في اعماقه نوع غريب من الابتسام لأنه انقذ بوبيه . وصاح :

— تاكسي !

فتوقف التاكسي . وقال دانيال ،
- ٢٢ ، شارع مونمارتر . هل تريد ان تضع هذه السلة بالقرب
منك ؟

واستسلم لهدية التاكسي . ولم يعد يحقر نفسه . ثم تغلب الحجل
مرة اخرى وعاد يرى نفسه : وكان هذا غير محتمل . وفكر بمرارة :
« لا بالجملة ولا بالتفصيل » وحين تناول محفظته ليدفع للسائق ، لاحظ
بلا فرح انها كانت محشوة بالأوراق المالية . « أن اربح المال ، نعم ،
أستطيع ان افعل ذلك . »

وقالت البوابة :

- هأنت ذا قد عدت ، يا سيد سورينو ؟ إن احداً قد صعد اللحظة
الى بيتك . احد اصدقائك ، رجل طويل ذو كتفين هكذا . وقلت له
إنك غير موجود . فقال : ليس موجوداً ؟ إذن سأدع ورقة تحت
بابه .

ونظرت الى السلة وقالت :

- ولكنك اعدتها ، الحيوانات اللطيفة ؟

فقال دانيال :

- ماذا تريد ان ايتها السيدة ديوي ؟ قد يكون ذلك عملاً إجرامياً
ولكنني لم استطع ان انفصل عنها .

وفكر وهو يرقى السلم : « انه ماتيو . إن هذا يجيء في اوانه
تماماً . » وكان مسروراً ان يستطيع كره احد . والتقى بماتيو عند الشقة
الثالثة ، فقال ماتيو :

- مرحباً ، كان املي قد انقطع في رؤيتك .

فقال دانيال : - لقد ذهبت أنزّه قططي .

وأدهشه ان يستشعر في داخله لونا من الحرارة . وسأله بسرعة :

- انك تصعد معي ثانية ؟

– نعم . ان لديّ خدمة اودّ ان اطلبها منك .
فرماه دانيال بنظرة سريعة ولاحظ ان وجهه كان معفراً . وفكر :
« يبدو عليه انه مززعج . » وكان راغباً في مساعدته . وصعدا .
ووضع دانيال المفتاح في القفل ثم دفع الباب . وقال : « تفضل ادخل »
ولمس كتفه لمساً خفيفاً ثم سحب يده على الفور . ودخل ماتيو غرفة
دانيال واقتعد اريكة وقال :

– لم افهم شيئاً مما قالته لي البوابسة . كانت تزعم انك حملت
قططك الى بيت اختك . فهل تصالحت مع اختك ؟

فتتلجّ شيء ما فجأة في نفس دانيال : « ما عساها تكون هيئته
لو عرف من اين انا آت ؟ » ونظر من غير ود الى عيني صديقه
النافذتين الجادتين : « هذا صحيح . انه هو طبيعي وسليم . » وأحس
ان هوة تفصله عنه . وضحك وقال :

– آه ! نعم ! بيت اختي ... لقد كانت كذبة صغيرة بريئة .
وكان يعلم ان ماتيو لا يلح : فقد كان ماتيو معتاداً عادة مزعجة وهي
ان يعامل دانيال كانسان مولع بالكذب ، ويتصنّع انه لا يهتم قط
لمعرفة الدوافع التي كانت تدفعه الى الكذب . والواقع ان ماتيو حدج
السلة بنظر حائر وصمت .

وسأله دانيال : – أسمح لي بلحظة ؟

وكان قد اصبح جافاً كله . ولم تكن له الا رغبة واحدة : ان
يفتح السلة بأسرع وقت ممكن : « ماذا كانت تلك النقطة من الدم ؟ »
وركع وهو يفكر : « سوف تثب على وجهي . » وقرب وجهه فوق
الغطاء بحيث يكون في متناولها تماماً . وفكر وهو يفتح الغطاء : « انه
محتاج الى بعض الازعاج . وهذا ما يفقده لفترة من الزمن تفاؤله وهيئته
المستقرة » وافلتت بوييه من السلة وهي تزجر وفرت الى المطبخ . وخرج
سببيون بدوره : وكان قد حافظ على كرامته ، ولكن لم يكن يسدو

قط مطمئناً . ومشى على مهل حتى الخزانة ، ونظر فيها حوله نظرة عجلى ، ثم تمطى وتسرب تحت السرير . ولم تكن ملفينا لتتحرك . ففكر دانيال : « انها مجروحة » وكانت قابعة في قعر السلة ، متلاشية . ووضع دانيال اصبعاً تحت ذقنها وقسرها على ان ترفع رأسها : لقد تلقت ضربة مخلب قوية على انفها ، وكانت عينيها اليسرى مغمضة ، ولكن الدم كان قد انقطع . وكان على فقمها قشرة مسودة ، وكان شعرها حول القشرة متصلباً ولزجاً .

وسأل ماتيو : « ماذا هناك ؟ » وكان قد نهض وجعل ينظر الى القطة بتأدب . « انه يجذني مضحكاً لأنني منشغل بقطة . وكان يبدو له ذلك طبيعياً جداً لو كنت منشغلاً بطفل . » وأوضح دانيال :

— لقد اصيبت ملفينا بضربة سيئة . ولا شك ان بوبيه هي التي خشتها . انها لا تطاق . اعذرني يا عزيزي ، فأنا اطلب منك دقيقة صغيرة لأعالجها .

ونهض يأتي بزجاجة ارنيكه وعلبة قطن من الخزانة . وتبعه ماتيو بعينيه من غير ان يقول كلمة ، ثم امرّ يده على جبينه بحركة عاجزة . وأخذ دانيال يغسل انف ملفينا ، وكانت القطة تتخبط تخبطاً ضعيفاً . وقال دانيال :

— كوني جميلة ، كوني عاقلة . هيا ، هيا . وكان يفكر بأنه كان يزعج ماتيو الى ابعد حد ، وكان هذا يزيد رغبة في العمل . ولكنه حين رفع رأسه ، رأى ان ماتيو كان ينظر في الفراغ نظرة قاسية .

وقال دانيال بأعمق صوت يملكه : — اعذرني يا عزيزي ، انني احتاج بعد الى دقيقة صغيرة فقط . كان لا بد من ان اغسل هذه الدابة ، فأنت تعرف ان الجرح يلتهب بسرعة . الا ازعجك اكثر مما ينبغي ؟ أضاف هذه العبارة الاخيرة وهو يوجه له بسمه صريحة ، فارتعش

ماتيو ثم اخذ يضحك . وقال :

- تابع ، تابع ، ولا تنظر بعينيك المخمليتين .
عينك المخمليتان ! لقد كان شعور ماتيو بالتفوق شيئاً كريهاً : « هو يحسب
انه يعرفني ، وهو يتحدث عن اكاذيبني . وعن عيني المخمليتين . انه
لا يعرفني على الاطلاق ، ولكن يسليه ان يلصق علي طابعاً ، كما لو
كنت شيئاً . »

وضحك دانيال في ود . ومسح بعناية رأس ملفينا . وكانت ملفينا
تغمض عينيها ، وكانت عليها مظاهر النشوة ، ولكن دانيال كان يعلم
جيداً انها تتألم . وربت على جنبها تربيتة صغيرة . وقال وهو ينهض :
- هكذا ! غداً لن يظهر الجرح بعد . ولكن الاخرى بعثت لها
بضربة مخلب شديدة لو تعلم .

فقال ماتيو بلهجة غياب : - بويه ؟ انها خبيثة .

ثم قال فجأة :

- ان مارسيل حامل .

- حامل !

وكانت دهشة دانيال قصيرة المدى ، ولكن كان عليه ان يقاوم رغبة
شديدة في الضحك . هكذا اذن ! هكذا اذن ! « صحيح .. انهن
يَبْلُن دماً كل شهر قمرى ، وهن فوق ذلك قادرات على التناسل
كالورنك » وفكر باشمزاز في انه سيراهما في المساء ذاته . « اني
أنساءل عما اذا كانت لدي الشجاعة للمس يدها . »

وقال ماتيو بلهجة موضوعية :

- اني مرتبك ارتباكاً قذراً .

فنظر اليه دانيال وقال بايجاز :

(١) سلك بحري .

- انا افهم موقفك :

ثم سارع يوليه ظهره بحجة انه ذاهب يضع زجاجة الارنيكة في الخزانة . وكان يخشى ان ينفجر فيه ضاحكاً . وأخذ يفكر في موت امه ، وكان هذا يخطر دائماً على باله في مثل هذه المناسبات . وانتفض انتفاضتين متشنجتين او ثلاثاً . وكان ماتيو ماضياً في التكلم خلف ظهر دانيال . فقال :

- القضية ان هذا يُلْهِمًا . انت لم ترها كثيراً ، فلم تستطع ان تدرك الامر . انها نوع من « الوالكيري » (واصله بلا خبائة) والوكيري في العرفة . والامر في نظرها سقوط مربع .

فقال دانيال في دافع من المشاركة :

- اجل ، ثم ان القضية بالنسبة اليك لا تستحق هذا . فبالرغم مما احسنت اليها ، لا تتورع عن ان تجلب لك الذعر الآن . انا اعلم ان مثل هذا يقتل الحب عندي لو حدث .
فقال ماتيو : - لا اكن لها بعد حباً :

- صحيح ؟

وكان دانيال عميق الدهشة والتسلية : « ستشهد هذا المساء فصلاً رياضياً . » وسأله :

- بالطبع لا .

- ولماذا « بالطبع » ؟ ينبغي لك ان تصارحها بذلك . هل ...

- لا ، لا اريد ان اتركها ، اذا كان هذا ما تقصد اليه .

- واذن ؟

وكان دانيال يجد متعة كبيرة ، وكان يستعجل الزمن ليجتمع

بمارسيل . قال ماتيو :

- اذن لا شيء . فليكن . فليست هي غلطتها اذا كنت لا احبها بعد .

- وهل هي غلطتك ؟

فقال ماتيو باختصار : - نعم .
 - ستستمر في رؤيتها وفي ...
 - وبعد ذلك ؟
 فقال دانيال : - اذا مثلت طويلاً هذا الدور، فسينتهي بك الامر الى ان تكرهها .
 فبدت على ماتيو القسوة وكأنه صدم :
 - لا اريد ان يلحق بها الضيق والانزعاج .
 قال دانيال بلامبالاة : - هذا اذا كنت تؤثر ان تضحي بنفسك .
 وحين كان ماتيو يقلد شيعة « الكواكر » ، فان دانيال كان يكرهه .
 - ما عساني اضحيتي به ؟ سأذهب الى المعهد ، وسأرى مارسيل .
 وسأكتب قصة كل عامين . وهذا هو بالذات ما فعلته حتى الآن .
 ثم اضاف بمرارة لم يكن دانيال يعهدها عنده :
 - انا كاتب من كتّاب الاحد . ومن جهة اخرى ، اراني متعلقاً بها ، وانه يزعجني كثيراً الا اراها . غير ان ذلك يشبه الآن الصلات العائلية .
 وساد صمت . واقبل دانيال يجلس في الاريكة ، تجاه ماتيو . وقال ماتيو :
 يجب ان تساعدني . ان عندي عنواناً ، ولكن ليس معي مال .
 أعرنني خمسة آلاف فرنك
 فردد دانيال بلهجة غير واثقة : - خمسة آلاف فرنك ؟
 محفظته المتورمة ، المحشوة في جيبه الداخلي ، محفظة بائع الخنازير ، كان حسبه ان يفتحها ، وان يتناول منها خمس اوراق . لقد سبق لماتيو

(١) شيعة المرتعشين البروتستانتية .

ان ادى له الخدمات مراراً . وقال ماتيو :
- سأرد لك نصف المبلغ في آخر الشهر . والنصف الآخر يوم ١٤
تموز لأنني في ذلك اليوم سأقبض رائي آب وايلول معاً .
ونظر دانيال سحنة ماتيو المقعرة وفكر : « ان هذا الشخص منزعج
تماماً . » ثم فكر بالقطط واحس انه غير قابل للرحمة والشفقة . وقال
بصوت آسف :
- خمسة آلاف فرنك ! ولكني لا املكها يا عزيزي ، واني شديد
الاسف ...

- لقد قلت لي ذات يوم انك ستعقد صفقة طيبة .
فقال دانيال : - اسمع يا عزيزي المسكين : ان صفقتك الطيبة
كانت خيبة عظيمة ، وانت تعرف ما هي البورصة . ثم ان الامر بسيط
جداً ، فليس لدي بعد الا ديون .

ولم يسبغ على صوته كثيراً من الاخلاص لأنه لم يكن راغباً في
الاقناع . ولكن حين رأى ان ماتيو لم يكن يصدقه ، اخذه الغضب :
« ليجلّ عن ظهري ! انه يحسب نفسه عميقاً ، ويتخيل انه يقرأ في
أعماقى . وأنا أتساءل : لماذا يريدني ان اساعده : فليس عليه الا ان
يلجأ لأمثاله . » والذي كان امرأ لا يطاق هو هذه الهيئة الطبيعية المركبة
التي لم يكن ماتيو ينجح في فقدها ، حتى في الاوضاع الفاجعة . قال
ماتيو باندفاع :

- حسناً ! اذن لا تستطيع حقاً ؟

وفكر دانيال : « لا بد انه محتاج اليها حاجة ماسة حتى يلح هذا
الالحاح . »

- لا استطيع حقاً . انني متأسف يا عزيزي .
وكان منزعجاً بانزعاج ماتيو ، ولكن ذلك كان امرأ لا يخاو من
اللذة : فقد كان لديه شعور بأنه يرد لنفسه ظفراً : وكان دانيال

يجب المواقف الزائفة حياً كبيراً .

وسأله بروح المشاركة : - هل انت محتاج اليها حاجة عاجلة ؟ الا
يمكنك ان تستعين بأخرين ؟

- اوه ! أنت تعلم ، كان هذا خصوصاً لتفادي اللجوء الى جاك .
فقال دانيال خائباً بعض الشيء : - صحيح . ان هناك اخاك .
انت في هذه الحالة واثق من الحصول على حاجتك .

فبدا على ماتيو اليأس :

- ليس الامر كذلك . لقد قرر في رأسه انه ينبغي الا يعيرني بعد
فلساً ، وان ذلك بمثابة خدمة سيئة لي . وقد قال لي : « إن عليك ،
وانت في هذه السن ، ان تكون مستقلاً » .

فقال دانيال في وضوح :

- اوه ! ولكن في مثل هذه الحالة ، اكيد انه يعيرك مالا .

ومدّ على مهل طرف لسانه واخذ يلحس به الشفة العليا برضى :
لقد عرف ان يجد على التو تلك المهجة التفاؤلية السطحية المتحمسة التي
كانت تثير غضب الناس . وكان ماتيو قد احمر :

- لا استطيع ان اقول له ان ذلك من اجل هذا بالذات .

قال دانيال : - هذا صحيح . (وفكر لحظة) . مهما يكن من
امر ، فأمامك بعد كما تعلم تلك الشركات التي تُقرض الموظفين . وعلى
ان اقول ان الناس يقعون في معظم الاحوال على مرايين . ولكن الفائدة
لا تؤثر عليك ، بمجرد ان يكون معك المال .

فبدا على ماتيو الاهتمام ، وفكر دانيال في ضجر بأنه قد طمأنه
بعض الشيء :

- من هم هؤلاء الناس ؟ هل يعيرون المال على التو ؟

فقال دانيال بحوية : - آه ، كلا فذلك يقتضي عشرة ايام :
يجب عليهم ان يحققوا في الامر .

وصمت ماتيو ، وكان يبدو انه يفكر ؛ واستشعر دانيال فجأة صدمة صغيرة لينة : لقد قفزت ملفينا الى ركبتيه فاستقرت عليهما وهي تهيمهم : « هذه واحدة ليس عندها حقد . » هذا ما فكر به في اشمئزاز. وأخذ يربت عليها بيد خفيفة مهملة . لم يكن الحيوانات والناس يبلغون ان يكرهوه : بسبب نوع من الجمود المفرط البساطة ربما بسبب وجهه . وكان ماتيو قد استغرق في حساباته البائسة الصغيرة : هو ايضاً لم يكن لديه حقد . وانحنى دانيال فوق ملفينا وأخذ يحك رأسها : وكانت يده ترتجف .

وقال من دون ان ينظر الى ماتيو :

— سأكون في الحقيقة مسروراً بأن لا يكون معي مال . وقد فكرت في ذلك : انت الذي تريد دائماً ان تكون حراً ، ان ذلك يمنحك فرصة رائعة لتقوم بعمل من اعمال الحرية .

ولم يبدو على وجه ماتيو انه فهم فقال :

— عمل من اعمال الحرية ؟

ورفع دانيال رأسه وقال :

— نعم ، ليس لك الا ان تتزوج مارسيل .

فنظر اليه ماتيو وهو يقطب حاجبيه : ولا بد انه كان يتساءل عما اذا لم يكن دانيال يسخر منه . وحدد دانيال بصره بجد متواضع . فسأله ماتيو :

— هل انت مجنون ؟

— ولماذا ؟ ليس امامك الا كلمة تقولها فتغير حياتك كلها ، وهذا

ما لا يحدث كل يوم .

فأخذ ماتيو يضحك ، وفكر دانيال متزعجاً : « انه يفضل من

الموضوع جانبه المضحك » وقال ماتيو :

— انك لن تنجح في اغرائي ، ولا سيما في هذه اللحظة .

فقال دانيال باللهجة الخفيفة نفسها :

— ولكن الحقيقة أنه لا بد ان يكون مسلياً جداً ان يفعل الانسان عكس ما يريد . فهو اذ ذاك يشعر بانه اصبح شخصاً آخر .

فقال ماتيو : — واي شخص آخر ؟ اتريدني ايضاً ان اصنع ثلاثة اطفال ، لمجرد اللذة في أن أُحسني شخصاً آخر حين آخذهم الى النزهة في الكسمبورغ ؟ إنني اتصور في الحقيقة اني سأتغير اذا اصبحت شخصاً هالكاً تماماً .

فقال دانيال : « ليس الى هذا الحد ، ليس الى هذا الحد الذي تظن » . ثم قال :

— يبدو انه ليس مزعجاً الى حد كبير ان يكون المرء شخصاً هالكاً ، ولكنه في هذه الحالة هالك برمته ، مدفون . شخص متزوج وله ثلاثة اطفال كما تقول . ولا بد ان هذا هددك !

قال ماتيو : — صحيح . اني التقي اشخاصاً كهؤلاء كل يوم . مثلاً : آباء طلاب يأتون لرؤيتي . اربعة صبيان ، ازواج مخدوعون ، اعضاء جمعية اهل الطلاب . انهم يبدون اقرب الى الهدوء ، بل انهم ذوو وداعة . قال دانيال : — ولديهم ايضاً نوع من المرح . انهم يصيبونني بالدوار . وانت ، ألا يغريك ذلك حقاً ؟ اني أتملك زوجاً ناجحاً ، وستكون مثلهم ، سميناً مرتباً قريب النكته ، ذا عينين من السلولويدي . واحسبني انا لا احتقر ذلك .

قال ماتيو من غير ان يفعل : — ان هذا يناسبك . اما انا فازلت افضل ان اطلب خمسة آلاف فرنك من اخي .

ونهض . فوضع دانيال ملفينا ارضاً ونهض هو ايضاً . « هو يعلم اني املك المال ومع ذلك لا يكرهني : فماذا ينبغي اذاً ان نفعل لهم ؟ » . وكانت المحفظة هناك ، وكان حسب دانيال ان يضع يده في جيبه ويقول : « خذ يا عزيزي ، لقد اردت ، على سبيل المزاح ، ان اتفرج

عليك قليلاً . » ولكنه خشي ان يحقر نفسه . وقال متردداً :
- آسف . سوف اكتب لك ان وجدت وسيلة ما .
وكان قد رافق ماثيو حتى باب الدخول . فقال ماثيو بمرح :
- لا ترهق نفسك ، سوف اتدبر امري .
واغلق الباب . وحين سمع دانيال قدمه الخفيفة على الدرج فكسر :
« ان هذا غير قابل للاصلاح . » واحس بانقطاع نفسه . ولكن ذلك
لم يطل ، وقال في نفسه : « انه لم يكف لحظة واحدة عن ان يكون
معتدلاً ، نشيطاً ، في غاية الاتفاق مع نفسه . صحيح انه متزعج ، ولكن
ذلك يبقى امراً خارجياً . اما في الداخل ، فهو في بيته . » وذهب
ينظر الى وجهه الجميل القائم في المرأة وفكر : « مهما يكن ، فانه
يساوي الفأ لو كان مجبراً على ان يتزوج مارسيل . »

كان قد مضى على يقظتها وقت طويل ، ولا بد انها كانت تتأكل . وكان ينبغي طمأننتها والتأكيد لها بانها لن تذهب الى هناك في اي حال . وتمثل ماتيو بحنان وجهها المسكين الحرب الذي رآه ليلة امس فتبدى له فجأة انه رخص بصورة مؤلة . « يجب ان اتلفن لها . » ولكنه عزم ان يمر اولاً ببيت جاك : « لربما كان عندي خبر جميل ابليها اياه » وكان يفكر بغيظ في الهيئة التي سيدو عليها جاك . هيئة تسلية وتعقل تتجاوز التأنيب كما تتجاوز الرفق ، مع رأس منحني جانباً وعينين نصف مغمضتين . « ماذا ؟ بحاجة ايضاً الى مال ؟ » وقف شعر ماتيو لذلك . واجتاز الرصيف وفكر في دانيال : انه لم يكن عاتباً عليه . هكذا . لم يكن مستظاعاً ان يعتب المرء على دانيال . بل كان عاتباً على جاك . وتوقف امام مبنى مربع في شارع ريومور وقرأ بانزعاج ، شأنه كل مرة : « جاك دولارو ، كاتب في محكمة ، الطابق الثاني » : كاتب في محكمة ! ودخل واخذ المصعد ، وهو يفكر : « ارجو الا تكون اوديت موجودة » .

وكانت موجودة ؛ ولقد لمحها ماتيو عبر الباب الزجاجي للصالون الصغير . وكانت جالسة على ديوان ، انيقة طويلة نظيفة الى حد التفاهة ؛ وكانت تقرأ . وكان جاك يقول برضى : ان اوديت احسدى نساء

باريس النادرات اللواتي يجدن وقتاً للقراءة .

وسألت روز :

— هل يريد السيد ماتيو ان يرى السيدة ؟

— نعم . سوف اسلم عليها ؛ ولكن هل لك ان تخبري السيد أنني

سألقاه بعد لحظة في مكتبه ؟

ودفع الباب فرفعت اوديت نحوه وجهها الجميل العناق المزيّن ،

وقالت بلهجة مسرورة :

— مرحباً ، ماتيو . هل جئت تزورني ؟

فقال ماتيو : « أزورك ؟ » . وكان ينظر بود ممتعض هذا الجبين

المهاديء العالي وهاتين العينين الخضراوين . كانت جميلة من غير شك

ولكن جلالاً يبدو أنه كان يفرّ من تحت الانظار . وكان ماتيو قد

حاول مئة مرة ، وهو الذي اعتاد وجوهاً كوجه لولا الذي كان حسه

يفرض نفسه منذ الوهلة الاولى بقسوة — حاول ان يمسك هذه الملامح

الماربة . ولكنها كانت تفرّ ، وكان مجموعها ينحلّ في كل لحظة

فيحتفظ وجه اوديت بسرّه البرجوازي المخيب . وقال ماتيو :

— وددت لو كانت هذه الزيارة لك ، ولكن يجب ان ارى جاك ،

فان عندي خدمة اطلبها منه .

قالت اوديت : — ولكنك لست مستعجلاً الى هذا الحد ، ان جاك

لن يهرب . اجلس هنا .

وافسحت له مكاناً الى جانبها . وقالت وهي تبتسم :

— حذار ، فقد اغضب منك ذات يوم . انك تهملني . وان لي

الحق بان تزورني شخصياً ؛ فلقد وعدتني بذلك .

— يعني انك انت التي وعدتني بان تستقبليني ذات يوم .

فقالت ضاحكة :

— كم انت مؤدّب ! انك لست مرتاح الضمير .

وجلس ماتيو . وكان يجب اوديت كثيراً . ولكنه لم يكن يسدري
قط ما ينبغي ان يقوله لها .

— كيف حالك يا اوديت ؟

وسكب حرارة في صوته ليخفي بلادة سؤاله . فقالت :

— جيد جداً . اتدري اين كنت هذا الصباح ؟ كنت في سان
جرمان بسيارتي لأرى فرنسواز ، وقد سحرني ذلك .

— وذاك ؟

— انه مشغول جداً في هذه الايام . فانسا لا اكاد اراه . ولكن
صحته فظيعة كالعادة .

وأحس ماتيو فجأة باستياء عميق . وفكر : « انها لجاك . » ونظر
بضيق الى الذراع الطويلة السمراء التي كانت تخرج من ثوب بسيط
جداً يشده عند الحصر زنار احمر ، ثوب يكاد يكون لفتاة . كانت
الذراع والثوب والجسد الذي تحت الثوب ملك جاك ، كهذه الاريكة ذات
الوسادة ، وهذه الخزانة البلاذرية ، وهذا الديوان . لقد كانت هذه المرأة
المتحفظة المحشمة تفوح منها رائحة الامتلاك . وساد صمت . ثم اتخذ
ماتيو الصوت الحار الأنفي الذي كان يحتفظ به لاوديت فقال :

— ان ثوبك جميل جداً .

قالت اوديت بضحكة مغتظة :

— اوه ، اسمع ، دع هذا الثوب وشأنه ! انك كلما رأيتني حدثتني

عن اثوابي . قل لي بالاحرى ماذا فعلت هذا الاسبوع ؟

وضحك ماتيو ايضاً وكان يحس نفسه منفرجاً .

— الحق ان عندي شيئاً اقوله عن هذا الثوب بالذات .

قالت اوديت : — يا الهي ، وما عساه يكون ؟

— انني اتساءل عما اذا لم يكن واجباً عليك ان تضعي في اذنك

اقراطاً حين ترتدينه .

— اقراط ؟

ونظرت اليه اوديت نظرة فريدة . فقال ماتيو :

— هل تجدين ان ذلك سيكون مبتذلاً ؟

— على الاطلاق . ولكن هذا يجعل الوجه غير متحفظ .

ثم اضافت فجأة وهي تضحك :

— لا شك في انك ستكون اكثر ارتياحاً معي اذا لبست اقراطاً .

فقال ماتيو باهام : — كلا ، ولماذا ؟

وكان مدهوشاً ، وكان يفكر : «انها ليست غبية بالتأكيد» . وكان

رأيه في ذكاء اوديت مثل رأيه في جلالها : كان لديها شيء لا يمكن
لمسه .

وساد صمت ؛ ولم يدر ماتيو ما يقوله بعد . ومع ذلك فلم يكن

راغباً في الذهاب ، كان يتذوق لونها من الطمأنينة . وقالت له اوديت

بلطف :

— انني مخطئة في امساكك . اذهب سريعاً الى جاك ، فيبدو عليك

انك مهموم .

ونهض ماتيو . وفكر في انه سيطلب مالا من جاك، فشر بتتملات

في اطراف اصابعه . وقال بشغف :

— الى اللقاء يا اوديت . لا لا . لا تزعجي نفسك . سأمر ثانية

لاودعك .

وكان يسائل نفسه وهو يطرق باب جاك الى اي حد كانت هي

ضحية .؟ ان المرء لا يعرف الحقيقة مع هذا النوع من النساء .

وقال جاك :

— ادخل .

ونهض نشيطاً مستقيماً ، وتقدم من ماتيو . وقال بحرارة :

— مرحباً ، ايها العزيز . كيف الحال ؟

وكان يبدو افقياً كثيراً من ماتيو بالرغم من انه كان الابن الاكبر .
وكان ماتيو يجده يسمن لدى الجنين بالرغم من انه كان لا بد لابساً
مشداً .

وقال ماتيو ببسمة ودية :

- مرحباً .

وكان يستشعر الزيف ، انه منذ عشرين عاماً يستشعر الزيف كلما
كان يفكر بأخيه او يراه . وقال جاك :

- نعم . ما الذي اتى بك ؟

فأشار ماتيو بحركة مقطبة . فسأله جاك :

- ليس الامر على ما يرام ؟ ولكن اجلس على هذه الاريكة . هل

تريد قدح ويسكي ؟

قال ماتيو :

- لا بأس بالويسكي .

وجلس منقبض الخنجر . وكان يفكر : سأشرب الويسكي وامضي
من غير ان اقول كلمة . ولكن الاوان قد فات ، فقد كان جاك
يعرف تماماً ما ينبغي عمله : « سيفكر ببساطة اني لم اجرؤ على طلب
المعونة منه » . وكان جاك ما يزال واقفاً . وتناول زجاجة ويسكي وملاً
قدحين وهو يقول :

- هذه آخر زجاجاتي ، ولكنني لن اجدد مؤونتي قبل الحريف .

اننا لا ننفك نطلب كأساً من الجن - فز ، في اثناء الايام الحارة ،

غير ان هذا افضل ، فما رأيك ؟

فلم يجب ماتيو ، وكان ينظر بلا وداعة الى هذا الوجه الوردى
النضر ، وهذا الشعر الاشقر المقصوص قصيراً . وكان جاك يتسم ببراءة .
وكان شخصه كله يتنفس البراءة ، بيد ان عينيه كانتا قاسيتين . وفكر
ماتيو بغضب : « انه يتصنع البراءة ، وهو يعلم جيداً لماذا جثت وهو

الآن يبحث عن شخصه . » وقال بقسوة :

— انت تحزر جيداً اني جئت اطلب منك معونة .
هكذا ، لقد اُلقيتُ الكلمة . ولم يكن بوسعه الآن ان يتراجع بعد ؛
فقد بدأ اخوه يرفع حاجبيه كمن اصيب بدهشة عميقة . وفكر ماتيو
بامتعاض : « انه لن يوفر علي شيئاً . » وقال جاك :
— ولكن لا ، لم احزر ذلك . ولماذا تريدني ان احزره ؟ هل تشير
بذلك الى ان هذا هو الغاية الوحيدة لزيارتك ؟ .

وجلس ، وهو ما يزال مستقيم القامة ، متصلباً بعض الشيء ، وشبك
ساقيه بمرونة ، كأنما ليعوض عن صلابة صدره . وكان يرتدي بذلة
رياضية رائعة من القماش الانكليزي . وقال ماتيو :

— لا اريد ان اشير الى شيء على الاطلاق .

وطرف بعينه واضاف وهو يضغط قدحه بقوة :

— ولكنني بحاجة الى اربعة آلاف فرنك بين اليوم والغد .

« سيقول لا . المهم ان يرفض بسرعة فأستطيع ان افرقع . »

ولكن جاك لم يكن مستعجلاً قط : كان كاتباً في محكمة ، وكانه

لديه الوقت الكافي . وقال وهو يهز رأسه هزة عارف :

— اربع اوراق ؟ . ولكن قل لي ! من تظني ؟

ومد ساقيه وتأمل حذاءه في سرور وقال ؟

— انك تسألني يا ماتيو ، تسألني وتعلمني . اوه . لا تحمل ما

اقوله على محمل السوء (قال ذلك حين رأى حركة من ماتيو) فانا لا

افكر في انتقاد مسلكك ، ولكنني مع ذلك افكر ، واسائل نفسي وارى

ذلك من فوق ، وكدت أقول « كالفيلسوف » لو لم اكن اتحدث حقاً

الى فيلسوف . اسمع ! انني حين افكر فيك ازداد اقتناعاً بان المرء ينبغي الا

يكون رجل مبادئ . اما انت فحشوت بالمبادئ . وانت تخترع المزيد

منها ولا تنسجم معها . نظرياً ليس هناك من هو اكثر استقلالاً منك .

وهذا جميل ، انك تعيش فوق الطبقات . غير اني اتساءل ما عساک
تصبح لو لم اكن موجوداً . لاحظ اني اسعد مما ينبغي ، انا الذي ليس
لي مبادئ ، في ان استطيع معاونتك بين وقت وآخر . ولكن يخيل
الي انني لو كنت املك افكارك لحرصت على الا اطلب شيئاً من
بورجوازي كريبه (واضاف وهو يضحك من كل قلبه) ذلك انني
بورجوازي كريبه .

واستطر - وهو لا يكف عن الضحك :
وهناك ما هو اسوأ من ذلك . وهو انك - انت الذي تبصق على
العائلة - تستغل علاقتنا العائلية لتطلب مني المعونة . فالحق انك ما كنت
تتوجه الي لو لم اكن اخاك .

ثم بدت عليه امائر الاهتمام الصريح فتساءل :
- الا يزعجك هذا كله في آخر المطاف ؟
قال ماتيو وهو يضحك ايضاً :

- انني مضطر الى ذلك .
لن ينخرط في مناقشة فكرية . فان المناقشات الفكرية مع جاك
كانت تنتهي دائماً نهاية سيئة . وكان ماتيو يفقد فوراً رباطته . وقال
جاك برودة :

- نعم . بالطبع . الا تظن ان قليلاً من التنظيم ؟ ... ولكن هذا
هو بلا شك مناقض لأفكارك . لاحظ جيداً اني لا اقول ان هذه
غلطتك : انها في نظري غلطة المبادئ .

قال ماتيو ليجيب بشيء ما :
- انت تعلم ان رفض المبادئ هو ايضاً مبدأ .
قال جاك : - اوه . ليس هذا بالضرورة .
وقال ماتيو في نفسه : انه الآن سيدفع . ولكنه نظر الى خدي اخيه
الملتئين وسحته المزهرة وهيئته المكشوفة ، والمصدومة مع ذلك ، وفكر

والانقباض في صدره : « يبدو ان الانفراج ممتنع عليه . » ولحسن الحظ استطرد جاك يقول مردداً :

— اربع اوراق . ان هذه حاجة مفاجئة . فحين جئتني في الاسبوع الماضي تطلب خدمة صغيرة ، لم يكن هذا الموضوع وارداً .

قال ماتيو : — صحيح . ان هذا .. ان تاريخ هذا هو أمس فقط . وفكر فجأة في مارسيل ، وتمثلها كتيبة عارية في الغرفة الوردية فأضاف بلهجة ملحة ادهشته هو نفسه :

— جاك ، انني بحاجة الى هذا المال .

فرمقه جاك بفضول وعض ماتيو على شفتيه : ان الاخوين لم يعتادا ، اذا كانا معاً ، ان يظهر عواطفها بمثل هذه الطريقة الحية .

— الى هذا الحد ؟ هذا غريب . انك مع ذلك آخر من ... انك ... عادة تستدين مني قليلاً من المال لانك لا تعرف او لا تريد ان تنظم نفسك . ولكني ما كنت لاظن قط ... (واضاف بلهجة مستفهمة بعض الشيء) طبعاً لن أسألك شيئاً .

وكان ماتيو متردداً : هل اقول له انها ضرائبي ؟ لا . هو يعرف اني قد دفعتها في ايار . وقال فجأة :

— ان مارسيل حامل .

واحس بأنه يحمر فهز كتفيه ، ولم لا ، بعد كل حساب ؟ لماذا هذا الحجل المحرق المفاجيء ؟ ونظر الى اخيه مواجهة بعينين عدوانيتين . وبدأ على جاك الاهتمام .

— أكنت تريد ولدأ ؟

كان يتقصد الا يفهم . فقال ماتيو بلهجة كاسرة :

— كلا ، وانما كان ذلك عرضاً .

قال جاك : — ان هذا ليدهشني ايضاً . لقد كان بوسعك ان تريد

دفع تجاربك حتى النهاية خارج النظام القائم ...

- نعم . ولكن ليس الأمر هكذا على الإطلاق .
وساد صمت ، ثم استأنف جاك وقد استعاد انطلاقه :

- واذاً ؟ متى يكون الزواج ؟

فاحمر ماتيو من الغضب : ان جاك يرفض كعادته ان يواجه الموقف بطريقة شريفة ، فهو يدور حوله بعناد ، وفي هذه الاثناء يجهد فكره في ايجاد عشاءٍ نسر يستطيع منه ان يأخذ نظراتٍ ساحجة على مسلك الآخرين . فمهما قيل له ومهما عمل ، فان حركته الاولى انما يفعلها ليرتفع فوق المناقشة . وما كان يستطيع ان يرى منها شيئاً الا من عل ، كان مشغولاً بأعشاش النسر . وقال ماتيو بوحشية :

- لقد قررنا ان تجهض .

فلم يتحرك جاك وقال بلهجة محايدة : - وهل اجتمعت بطبيبك ؟
- نعم .

- هل هو رجل مأمون ؟ ان صحة هذه المرأة الشابة ، هي علي ما قلت لي ، رقيقة .

- لدي اصدقاء يضمنونه .

قال جاك : - نعم ، نعم ، طبعاً .

واغمض عينيه لحظة ثم فتحها . وضم يديه باطراف اصابعه وقال :
- ان قضيتك بالاجال ، اذا فهمتك جيداً ، هي التالية : لقد علمت ان صديقتك حامل ، وانت لا تريد ان تتزوج لأسباب مبدئية ، ولكنك تعتبر نفسك ملتزماً تجاهها بواجبات لا تقل حساً عن واجبات الزواج . ولما كنت لا تريد ان تتزوجها ولا ان تلحق الاذى بسمعتها ، فقد قررت ان تجهضها في افضل الظروف الممكنة . وقد اوصاك بعض اصدقائك بطبيب موثوق يطلب منك اربعة آلاف فرنك . فلم يبق لك الا ان تحصل على المبلغ . ان الأمر كذلك .
قال ماتيو : - تماماً !

— ولماذا انت محتاج الى المال بين اليوم والغد ؟
— ان الطبيب المشار اليه مسافر الى اميركا بعد ثمانية ايام .
قال جاك : — حسناً ، فهمت !

ورفع يديه المضمومتين حتى مستوى عينيه وتأملهما بدقة كمن ليس له بعد الا ان يستخرج النتائج مما قال . ولكن ماتيو لم ينخدع بذلك :
ان كاتب محكمة لا ينتهي الى النتائج بسرعة . وكان جاك قد خفض يديه ووضعها على ركبتيه ، بعد ان فكها واستغرق في اريكته وكفت عيناه عن البريق . وقال بصوت ناعم :
— انهم ينظرون في هذه اللحظة الى عمليات الإجهاض نظرة قاسية جداً .

فقال ماتيو : — اعرف هذا . فانه يتفق لهم ذلك بين وقت وآخر فيضعون في السجن بعض الأفراد المساكين الذين ليس لهم من يحميهم ، ولكن الاخصائيين الكبار لا يشعرون بأي قلق .
قال جاك — : تريد ان تقول : ان في هذا ظلماً . وانا من رأيك تماماً ولكني لا استنكر النتائج كلياً . فان افرادك هؤلاء المساكين ، هم بطبيعة الاشياء ، من العقاقيريين او من صانعات الملائكة الذين يتلفون امرأة تخصك بآلات قدرة .
قال ماتيو متضايقاً :

— مهها يكن فاني جئت اطلب منك اربعة آلاف فرنك .
قال جاك : — و ... هل انت متأكد تماماً بأن الاجهاض منسجم ومبادئك ؟

— ولم لا ؟

— لا ادري . فعليك انت ان تدري ذلك . انت من دعاة السلام بدافع من اجترامك للحياة البشرية ، وها انت ستهدم حياة .
فقال ماتيو : — انني مصمم تماماً . وقد اكون مسالماً ، ولكني لا

احترم الحياة البشرية . فلا بد انك تخلط بينها .

قال جاك : - آه .. كنت اظن ..

وكان يتأمل ماتيو هدهود منبسط .

- ها انت ذا الآن تلبس جلد قاتل الاطفال . وكم يتعارض ذلك

ونفسيك يا عزيزي ماتيو !

وفكر ماتيو : انه يخشى ان يأخذوني : فهو لن يعطي فلساً واحداً .

وكان يود لو يستطيع ان يقول له : « اذا دفعت ، فلن تتعرض لأية

مخاطرة . لأنني سوف اتوجه الى رجل بارع ليس اسمه مسجلاً على

لوائح الشرطة . اما اذا رفضت فسأضطر لارسال مارسيل الى عقابيري ،

وفي هذه الحالة لن اضمن شيئاً ، لأن الشرطة تعرفهم كلهم وتستطيع

ان تقبض عليهم بين ليلة وضحاها » . ولكن هذه الحجج كانت مباشرة

اكثر مما ينبغي بحيث لن تؤثر على جاك ؛ واكتفى ماتيو بالقول :

- ان الاجهاض ليس جريمة قتل ولد .

وتناول جاك سيكارة واشعلها وقال بلا حماس :

- نعم . اقر ذلك . ليس الاجهاض قتل ولد . ولكنه قتل

« ميتافيزيقي » (واضاف بجد) ليس لي يا عزيزي ماتيو اعتراض

على القتل الميتافيزيقي كما انه ليس لي اعتراض على الجرائم الكاملة .

اما ان ترتكب انت قتلاً ميتافيزيقياً ، انت ، على ما انت عليه ...

وصفق لسانه بلهجة تأنيب واضاف :

- كلا . ان هذه بكل تأكيد نعمة ناشرة .

انتهى الأمر ، ان جاك يرفض ، وسيكون بوسع ماتيو ان يذهب ،

وقد اوضح صوته وسأل تبرئة لذمته :

- اذاً فلا تستطيع ان تساعدني ؟

فقال جاك : - افهمني جيداً . فأنا لا ارفض ان تؤدي لك خدمة .

ولكن اتكون هذه حقاً خدمة ؟ ثم انني مقتنع بأنك ستجد بسهولة المال

الذي تحتاج اليه ...
ونهض فجأة كما لو انه اتخذ قراراً ما واقبل يضع يده بود على كتف
اخيه ويقول بحرارة :

— اسمع يا تيو . لنقل اني رفضت : فانا لا اريد ان اساعدك على
ان تكذب على نفسك . ولكني سأقترح عليك شيئاً آخر ...
وكان ماتيو علي وشك النهوض ، فوقع على مقعده واخذه مرة
اخرى غضبه الأخوي . ان ذلك الضغط الصلب والعذب على كتفه كان
امراً غير محتمل ؛ وارتد برأسه الى خلف ورأى وجه جاك مختصراً .
— أكذب على نفسي ؟ اسمع يا جاك . قل بالأحرى انك لا تريد
ان تلتطخ نفسك في عملية اجهاض او انك لا توافق على ذلك ، او انك
لا تملك المال الضروري ، فهذا من حقلك ولست املك ان اؤاخذك عليه ،
ولكن لماذا تحدثني عن الكذب ؟ فليس هنا اي كذب . انني لا اريد
اولاداً : ولكن يأتيني ولد ، فأحذفه ، هذا كل ما في الأمر .
وسحب جاك يده وخطا بضع خطوات وهو يفكر ، وفكر ماتيو :

« سيلقي علي خطاباً ، وقد كان علي الا اقبل اية مناقشة » .
وقال جاك بصوت رصين :

— انني يا ماتيو اعرفك اكثر مما تظن وانك لترعيني . لقد مضى
وقت طويل وانا اخشى شيئاً من هذا القبيل : ان هذا الطفل الذي
سيولد هو النتيجة المنطقية لوضع ارتضيته لنفسك ، وتريد ان تحذفه لأنك
لا تريد ان تقبل جميع نتائج تصرفاتك . اسمع ، هل تريد ان اقول
لك الحقيقة ؟ ربما كنت لا تكذب على نفسك في هذه اللحظة بالذات
ولكن حياتك برمتها قائمة على كذبة .

قال ماتيو ، وكان يبتسم :

— ارجوك ، لا تزعج نفسك : علمني ما اخفيه عن نفسي .
فقال جاك : — ان ما تخفيه عن نفسك هو انك بورجوازي مخجل .

ولكني عدت الى البورجوازية بعد الوان كثيرة من الضياع والشرود ،
فعدت معها زواجا عاقلاً ؛ اما انت ، فانك بورجوازي بالذوق ،
بالمزاج ، ومزاجك هو الذي يدفعك الى الزواج (واضاف بقوة) ذلك
انك متزوج يا ماتيو .

فقال ماتيو : - يا للنبا الجديد !

- اجل . انك متزوج ولكنك تزعم العكس لان لديك نظريات . لقد
اخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابة : فانت تاتقي بها اربع مرات في
الاسبوع وتقضي الليل معها . وهذا مستمر منذ سبعة اعوام ، فليس فيه
بعد اي اثر من مغامرة ، انك تحترمها وتشعر بواجبات نحوها ، ولا
تريد ان تركها . وانا على يقين بانك لا تلتمس اللذة وحدها ، بل انا
اتصور ان اللذة معها كانت قوية ، فلا بد انها مع الزمن قد ضعفت ،
والواقع انك لا بد ان تجلس اليها في المساء لتسرد عليها مطولاً حوادث
اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة .

قال ماتيو وهو يهز كتفيه : « طبعاً » . وكان غاضباً على نفسه ،
فقال جاك :

- حسناً ! هل تريد ان تقول لي بمّ يختلف ذلك عن الزواج الا
بالسكنى الدائمة ؟

فقال ماتيو ساخراً :

- السكنى الدائمة ؟

- اتصور انه لن يكلفك كثيراً ان تستنكف عنها .

وفكر ماتيو : « لم يسبق له ان صارخني من قبل بهذا كله . انه
يتنقد » . وكان لم يبق له الا ان يصفق الباب . ولكن ماتيو كان يعرف
انه باق حتى النهاية : كانت لديه رغبة مقاتلة ومستعدية في ان يعرف
رأي اخيه . فقال :

- ولماذا تقول : ان ذلك لن يكلفني كثيراً ؟

- لانك تكسب هناك الراحة وتكسب مظهراً من الحرية : ان لك جميع حسنات الزواج ، ولكنك تستخدم مبادئك لترفض مساوته . انك ترفض ان تجعل الوضع شرعياً ، وهذا امر يسير عليك . فاذا كان هناك من يتألم من ذلك ، فاست اياه .
قال ماتيو بصوت متجبر :

- ان مارسيل تشاطرني آرائي في الزواج .
وكان يستمع الى نفسه وهو يلفظ كل كلمة فيجد انه كرهه جداً .
وقال جاك :

- اوه ! لو لم تكن تشاطرك اياها فسوف تكون بلا شك اوفر كبرياء من ان تصارحك بها . اتدري اني لست افهمك ... انت السريع الغضب اذا سمعت من يتحدث عن الظلم ، ومع ذلك تجعل هذه المرأة في وضع ذليل منذ اعوام لمجرد اللذة في ان تقول لنفسك انك منسجم ومبادئك . وليت هذا كان صحيحاً . لبتك تطابق حقاً حياتك على افكارك . ولكني اكرر لك انك متزوج وان لك شقة لطيفة ، وانك تقبض في مواعيد محددة راتباً طيباً ، وليس عندك اي قلق بشأن المستقبل ما دامت الدولة تضمن لك تقاعداً ... وانك تحب هذه الحياة الهادئة المنظمة ، حياة موظف حقيقية .

قال ماتيو : - اسمع ، ان بيننا سوء تفاهم . انه لا يهمني الا قليلاً ان اكون بورجوازيّاً او لا اكون . بل كل ما اريده هو ... (وانهي عبارته بين اسنان مشدودة في شيء من الحجل) هو ان احتفظ بحريتي .
فقال جاك : - كنت احسب انا ان الحرية هي في مواجهة الاوضاع التي يختارها الانسان عملاً ارادته وفي قبول جميع تبعاتها . ولكن هذا ليس هو رأيك : انك تشجب المجتمع الرأسمالي ، ومع ذلك فانت موظف في هذا المجتمع ، وانك تكن وداً مبدئياً للشيوعيين : ولكنك تحاذر جداً ان تلتزم ، وانت لم تقترع قط . وانك تحتقر الطبقة

الرجوازية وانت مع ذلك برجوازي ابن برجوازي واخو برجوازي وتعيش
كأنك برجوازي .

واشار ماتيو بحركة من يده ولكن جاك لم يدع له ان يقاطعه فقال بشفقة مؤنبة :
— لقد بلغت مع ذلك سن الرشد يا عزيزي ماتيو . ولكنك تخفي
عن نفسك هذا ايضاً ، وتريد أن تجعل نفسك اصغر مما انت . والحق اني
ربما كنت ظالماً ، فلعلك لم تبلغ بعد سن الرشد . لأنها سن معنوية ،
ولعلمي بلغتها قبلك .

وفكر ماتيو : « حسناً ، سيحدثني الآن عن شبابه . » وكان جاك
شديد الاعتزاز بشبابه ، وكان ذلك ضمانته . كان يتيح له ان يدافع عن
قضية النظام بضمير مرتاح . فطوال خمسة اعوام قلّد باجتهاد جميع
الوان الشرود التي كانت شائعة ، فاعتنق السريالية وكانت له علاقات
مثيرة للغرور ، وتشتم احياناً ، قبل ان يضاجع ، منديلاً مبللاً
بكلورور الخدر الاثري . وذات يوم نظم حياته حين حملت له اوديت
ستمئة الف فرنك كمهر . وكان قد كتب لماتيو يقول : « ينبغي ان
تكون لنا شجاعة ان نعمل كجميع الناس حتى لا نكون كأحد . » وكان
قد اشترى دراسة كاتب محكمة . وقال :

— اني لا الومك على شبابك ، على العكس فقد كنت محظوظاً في
تجنب بعض الانحرافات . غير اني مع ذلك لست آسفاً على شبابي .
والحق انه كان امامنا نحن الاثنين ، كما تعلم ، ان نستهلك غرائز جدنا
القرصان ، غير اني استنفدتها انا كلها دفعة واحدة . أما أنت فتستهلكها
بالتقسيم . وينقصك ان تمس قعرها . واعتقد انك في الاصل كنت
اقل قرصنة مني وهذا الذي يضعك : ان حياتك هي تسوية ابدية بين
حسن تمرد وفوضى متواضع جداً في حقيقته وبين نزعاتك العميقة التي
تدفع بك الى النظام والصحة المعنوية ، واكاد اقول الروتين . والنتيجة هي
انك ظلت طالباً قديماً غير مسؤول . ولكن انظر الى نفسك جيداً يا

عزيزي . إنك في الرابعة والثلاثين وان شعرك يبيض قليلاً . ليس بقدر شعري طبعاً . - وليس فيك بعد شيء من الفتوة . وان حياة البوهيمي لا تناسبك . وما هي البوهيمية حقاً ؟ لقد كان ذلك شيئاً جميلاً منذ مئة عام . اما اليوم فهي قبضة من التائهين لا يشكلون خطراً على احد . وقد فاتهم القطار . انك في سن الرشد يا ماتيو ، انك في سن الرشد ، او ينبغي ان تكون فيه .

قال ماتيو : - اسمع ! ان سن رشذك انت انما هي سن الخضوع ، وانا لست حريصاً عليها على الاطلاق .

ولكن جاك لم يكن ، لشروده ، يصغي اليه . وقد اصبح نظره فجأة صافياً ومرحاً فاستطرد يقول بحوية :

- اسمع ، قلت لك اني سأقدم لك اقتراحاً ، فاذا رفضت فلن يصعب عليك ان تجد أربعة آلاف فرنك . ولن اندم . اني اضع عشرة آلاف فرنك تحت تصرفك اذا تزوجت صديقتك .

وكان ماتيو قد تنبأ بذلك . وكان هذا على اي حال يبسر له مخرجاً صالحاً ينقذ المظهر ، فقال وهو ينهض :

- اشكرك يا جاك ، انك لطيف جداً ، ولكني لا أوافق على اقتراحك . انا لا اقول انك مخطيء على طول الخط ، ولكن اذا كان لا بد لي من ان اتزوج يوماً ، فيجب أن تأتيني الرغبة لذلك . أما الآن ، فلن يكون الزواج الا ضربة عناد بليدة لأخرج من المغطس . ونهض جاك ايضاً وهو يقول :

- فكّر جيداً ، وخذ وقتك . ان امرأتك ستستقبل هنا استقبالاً جيداً . ولست بحاجة الى ان أقول لك ذلك ، فاني واثق باختيارك ، وستكون اوديت سعيدة في ان تعاملها كصديقة . والحق ان زوجتي تجهل كل شيء عن حياتك الخاصة .

فقال ماتيو : - لقد فكرت في الأمر ملياً .

قال جاك بلهجة ودية (اتراه كان مستاءً الى هذا الحد ؟) ...
- كما تشاء . (وأضاف) متى نراك ؟ .
فقال ماتييو : - سأأتي يوم الاحد لتناول الغداء . الى اللقاء .
قال جاك : - الى اللقاء ، و ... اذا خطر لك ان تغير رأيك ، فان
اقتراحي يظل قائماً .

وابتسم ماتييو وخرج من غير ان يجيب . وفكر : « انتهى الامر !
انتهى الامر ! » وهبط السلم وهو يعدو ، ولم يكن جذلاً ، ولكنه
كان راغباً في الغناء . والآن لا بد ان جاك قد عاد يجلس الى مكتبه ،
شارد العين ، ذا ابتسامة حزينة ورسينة : « ان هذا الفتى يقلقني ، بالرغم
من انه بلغ سن الرشد . » او ربما ذهب يقوم بدورة لدى اوديت :
« ان ماتييو يسبب لي القلق . اني لا استطيع ان اقول لك لماذا ، ولكنه
ليس عاقلاً . » وما عساها تقول ؟ اتراه ستلعب دور المرأة الناضجة
المفكرة ، ام انها ستقتصر على بعض حركات الموافقة السريعة من غير ان
ترفع انفها عن كتابها ؟

وقال ماتييو لنفسه : « عجباً ، لقد نسيت ان اودع اوديت ! »
وندم على ذلك : وكان مستعداً لأن يستشعر الندم . « لعل هذا صحيح !
أتراني اجعل مارسيل حقاً في وضع ذليل ؟ » وتذكر هجيات مارسيل
العنيفة ضد الزواج : « والحق اني عرضت عليها الزواج . مرة . منذ
خمس سنوات . » والواقع ان ذلك كان في الهواء . ومهما يكن فقد
سخرت منه مارسيل . وفكر : « آه ! الحقيقة ان عندي عقدة نقص
لإزاء اخي ! » ولكن لا ؛ لم يكن الامر كذلك ، مهما كان شعوره
بالذنب ، فان ماتييو لم يكف قط عن ان يعطي نفسه الحق ضد جاك .
« غير ان الامر هو ما يلي : انه قدر يملك علي نفسي . فاذا لم اخجل
امامه ، فاني اخجل من اجله . آه ! (وفكر :) ان المرء لا
ينتهي مع اهله . وهذا يشبه الجدري . فهي تصيبك اذ تكون طفلاً

وتطبعك مدى الحياة » وكانت هناك حانة عند زاوية شارع مونثورغوي .
فدخل . وأخذ قطعة بديلة من الصندوق . وكانت غرفة التلفون في
زاوية مظلمة . وكان منقبض القلب حين فتح الآلة .

— الو ! الو ! مارسيل ؟

وكان تلفون مارسيل في غرفتها . فقالت :

— هذا انت ؟

— نعم .

— ماذا هناك ؟

— كان الامر مستحيلاً مع العجوز .

فقالت مارسيل بلهجة ارتياب : — هم !

— أوكد لك . كانت سكرى تقريباً ، وكان الوضع متناً عندها ،

ومقرفاً ، وليتك رأيت يديها . ثم انها متوحشة .

— طيب . وبعد ؟

— ان هناك شخصاً آخر . بواسطة ساره . شخص جيد جداً .

وقالت مارسيل بلا اكتراث :

— آه ! وكم ؟

— اربعة آلاف .

فرددت مارسيل غير مضدقة :

— كم ؟

— اربعة آلاف .

— اترى اذاً ! ان هذا غير ممكن ، يجب ان اذهب ...

قال ماتيو : — لن تذهبي . بل سأستدين .

— ممن ؟ من جاك ؟

— اني خارج من لدنه .

— ودانيال . ؟

- انه يرفض ايضاً ، الحيوان !. لقد رأيت هذا الصباح وانا متأكد انه محشو حشواً .

فسألته مارسيل بحماسة :

- انك لم تقل له ان ذلك كان من اجل ... هذا .

فقال ماتيو : - لا .

- وما الذي ستفعله ؟

- لا ادري . (وشعر بأن صوته يعوزه التأكيد فأضاف بحزم :)

« لا تنزعجي . ان امامنا ثمانين واربعين ساعة : وسوف اجد المال .

حين يتدخل الشيطان في الموضوع فان اربعة آلاف فرنك لا بد ان

توجد . »

وقالت مارسيل بلهجة غريبة :

- حسناً جدّها ، جدّها .

- سأخبرك . هل نحن على موعدنا مساء الغد ؟

- نعم .

- وهل انت بخير ؟

- لا بأس .

- انت لست ...

فقالت مارسيل بصوت جاف :

- بلى . انني اشعر بالضيق . (وازافت بلهجة اعتذار) . مهما

يكن ، فاعمل جهدك انت يا عزيزي المسكين .

قال ماتيو : - سأتيك بالآلاف الاربعة مساء الغد .

وتردد وأضاف بجهد :

- احبك .

فأعادت مارسيل السماعه من غير ان تجيب . وخرج من الغرفة .

وحين كان يعبر المقهى كان ما يزال يسمع صوت مارسيل الجاف :

« اشعر بالضيق » انها حاقدة علي . بالرغم من اني افعل ما استطيع .
« في وضع ذليل » اصحيح اني اضعها في وضع ذليل ؟ واذا ...
وتوقف عند حافة الرصيف . واذا كانت تريد الطفل ؟ في هذه الحالة ،
كل شيء ينقلب ، كان يكفي التفكير بذلك لحظة ليأخذ كل شيء
اتجهاً آخر . فنتلك هي قصة اخرى ، وان ماتيو ، ماتيو نفسه ، سيتغير
من الرأس حتى القدم ، وهو لم يكف عن ان يكذب على نفسه ،
اذ كان رجلاً قذراً ؛ رائع القذارة . ومن حسن الحظ ان هذا لم
يكن صحيحاً . ولا يمكن ان يكون صحيحاً . فلقد سمعتها غالباً تسخر
من صديقاتها المتزوجات اذ يكن حاملات . وكانت تدعوهم « اوعية
مقدسة » وكانت تقول : « انهن ينفجرن فخراً لأنهن سيبيضن . » وان
من يقول هذا ، لا يحق له ان يغير رأيه برأي لطيف ، لأن ذلك سيكون
استغلالاً للثقة . وان مارسيل غير جديرة باستغلال الثقة ؛ والا لقات
لي ، ولماذا تراها لا تقول لي ، ما دمنا نتكاشف كل شيء . اوه !
ثم ... كفى ! كفى ! لقد اتعبه ان يدور في هذا الدغل المعقد . مارسيل ،
ايفيش ، المال ، المال ، ايفيش ، مارسيل ، سأفعل كل ما ينبغي .
ولكني اود ان لا افكر بعد ذلك ، بحياة الرب ، اريد ان افكر بشيء
آخر . وفكر برونيه ، ولكن ذلك كان ابعث على الحزن : صداقة
ميتة ؟ وكان يحس انه ناثر الاعصاب وحزين لأنه كان سيراه مرة
ثانية . ورأى كشكاً للصحف فاقرب منه : « باري - ميدي ، مع
فضلك . »

وكان قد نفذ ، فأخذ صحيفه بلا تمييز : وكانت « اكسلسيور » .
ودفع ماتيو ثمنها ومضي . « اكسلسيور » لم تكن صحيفة مؤذية .
وكانت من ورق سميك حزين ومخمل كانه التيبوكه . ولم يكن من شأنها ان
تثير غضبك ، وكل ما هناك انها كانت تنزع منك مذاق الحياة فيما
انت تقرأها . وقرأ ماتيو : « قصف فالنسيا من الجو » . ورفع رأسه

مغتاضاً غيضاً مبهماً : كان شارع ريومور من نحاس مسود . الساعة الثانية ، لحظة النهار التي يبلغ فيها الحر أكاب صوره ، اذ كان يتلوى ويفرقع في وسط الرصيف كأنه شرارة كهربائية طويلة. « اربعون طائرة تدور طوال ساعة فوق وسط المدينة وتقذف مئة وخمسين قنبلة . العدد الدقيق للموتى والجرحى لا يزال مجهولاً . » ورأى من طرف عينه ، تحت العنوان ، نصاً صغيراً ضيقاً مريعاً كان يبدو فيه اثره ووثائق : « من موفدنا الخاص » ، وكان يحوي ارقاماً . وقلب ماتيو الصفحة ، ولم تكن به رغبة لأن يعرف اكثر مما عرف . خطاب للسيد فلندان في « بار لودوك » . فرنسا جائئة فوق خط مجينو... ستوكوفسكي بصرح لنا : « لن اتزوج غريتا غاريو . » جديد حول قضية ويدمن .

زيارة ملك انكلترا : حين تنتظر باريس اميرها الساحر . جميع الفرنسيين ... وانتفض ماتيو وفكر : « جميع الفرنسيين قدرون . » لقد كتبها له غوميز مرة من مدريد . وأغلق الصفحة ، وأخذ يقرأ في الصفحة الاولى برقية الموفد الخاص . كان تعداد القتلى خمسين والجرحى ثلاثمئة ، ولم يكن هذا كل شيء ، بل كان هناك بالتأكيد جثث تحت الانقاض . لا طائرات ولا مدافع مضادة . وكان ماتيو يحس بغموض انه مذنب . خمسون قتيلًا وثلاثمئة جريح ، ما كان هذا يعني بالضبط ؟ مستشفى مليء ؟ شيء يشبه اصطدام قاطرة حديدية ؟ خمسون قتيلًا . لقد كان في فرنسا الوف من البشر لم يستطيعوا ان يقرأوا صحيفتهم ذلك الصباح ، من غير ان تصعد الى حنجرتهم كتلة من الغضب ، الوف من البشر حرقوا الارم وهم يتمتمون : « قدرون » وحرقت ماتيو الارم وتمتم « قدرون ! » . واستشعر مزيداً من الذنب . ليته على الاقل استطاع ان يجد في نفسه انفعالاً صغيراً حياً ومتواضعاً ، وواعياً لحدوده . ولكن لا : لقد كان فارغاً ، وكان امامه غضب كبير ، غضب يائس ، وكان يراه ، وكان بوسعه ان يلمسه . غير انه كان

غضباً جامداً ، كان ينظر ليحيا ، لينفجر ، ليتألم ، ليعيره جسمه ، لقد كان غضب الآخرين « قذرون » كان يحرق الارتم ، وكان يمشي بخطى كبيرة ، ولكن الغضب لم يكن ليجيء ، كان ما يزال خارجاً . لقد كنت انا في فالنسيا . ورأيت فيها حلبة مصارعة الثيران في عام ٣٤ ، وسباقاً كبيراً للثيران مع اورتيجا والاستودينت . وكانت فكرته تصنع دوائر حول المدينة ، باحثة عن كنيسة ، عن شارع ، عن واجهة بيت يستطيع ان يقول عنه : « لقد رأيت هذا ، وقد هدموه ، فهو غير موجود بعد . » وانقضت الفكرة على شارع مظلم تسحقه بنايات ضخمة . لقد رأيت هذا ، وكان يتنزه فيه صباحاً ، وكان يخنق في ظل محترق ، وكانت السماء تشتعل عالية ، فوق الرؤوس . حسناً : لقد سقطت القنابل في هذا الشارع ، على البنائات الرمادية الضخمة ، فاتسع الشارع اتساعاً ، وقد سالت السماء الذائبة على الرصيف والشمس تصفع الانقاض . وكان ثمة شيء ما يستعد للولادة ، فجر غضب خجول . حسناً ! ولكن ذلك تلاشي ، وتسطح . وكان خلاء ، وكان يمشي بخطى معدودة في وقار شخص يسير وراء جنازة ، في باريس ، لا في فالنسيا ، في باريس ، يسكنه شبح من الغضب . وكانت الواجهات تشتعل ، وكانت السيارات تجري في الشارع ، وكان هو يسير وسط رجال قصار يلبسون اقمشة فاتحة ، وسط فرنسيين لم يكونوا ينظرون الى السماء ، لم يكونوا يخافون السماء ، ومع ذلك ، فهناك ، في مكان ما تحت السماء نفسها ، امر واقعي : فقد توقفت السيارات ، وتحطم الزجاج ، وقرصت نساء بليدات خرساوات تبدو عليهن هيئة الدجاج الميت ، بالقرب من جثث حقيقية ، وهن يرفعن الرأس بين الفينة والاخرى ، فينظرن السماء ، السماء السامة ، جميع الفرنسيين قذرون . وكان ماتيو يشعر بالحر ؛ وكان حراً حقيقياً . وأمر منديله على جبينه ، وفكر : « ليس بوسع الانسان ان يتألم من اجل ما يريد » .

لقد كان هناك قصة فظيعة وفاجعة كانت تطلب ان يتألم من اجلها...
« انني لا استطيع ، فلست في الميدان . انسي في باريس ، وسط
موجوداتي انا ، جاك خلف مكتبه يقول : « لا » ودانيال يقهقه ،
ومارسيل في الغرفة الوردية ، وايفيش التي قبلتها هذا الصباح . وجودي
الحقيقي ، المنفر ، لفرط ما هو حقيقي . ان لكل عالمه ، وعالمي هو
مستشفى في داخله مارسيل حُبلى وهذا اليهودي الذي يطالب مني اربعة
آلاف فرنك . وهناك عوالم اخرى . غوميز . لقد كان في الميدان ،
لقد ذهب ، وكان هذا نصيبه . وشخص الامس . انه لم يذهب ،
ولا بد انه يتيه في الشوارع ، مثلي . ولو انه يلتقط صحيفة فيقرأ :
« قصف فالنسيا » فلن يكون بحاجة الى ان يتسر نفسه ، لأنه سيتألم
هناك ، في المدينة ذات الانقراض . لمساذا تراني في هذا العالم المتن
بالضوضاء وبالآلات الطبية وبالتسلية الخفية في سيارات التاكسي ، في
هذا العالم الذي لا اسبانيا فيه ! لماذا لا اكون في الميدان مع غوميز ومع
برونيه ؟ لماذا لم تأخذني الرغبة في الذهاب للقتال ؟ أكان بوسعي ان
اختر عالماً آخر ؟ أتراني ما زلت حراً ؟ ان بوسعي ان اذهب حيث
اشاء فلا اجد اية مقاومة ولكن ذلك اسوأ : انني في قفص لا حواجز
له . وانه يفصلني عن اسبانيا لا شيء ... ومع ذلك فان هذا الفاصل
غير قابل للعبور : ونظر الى الصفحة الاخيرة من اكسلسيور : صور من
الموعد الخاص . اجسام ممددة على الرصيف عند اسفل جدار . وفي
منتصف الشارع امرأة ضخمة ، ملقاة على ظهرها ، وقد ارتفع ثوبها
عن فخذيها ولم يكن لها رأس بعد . وطوى ماتيو الصحيفة ورمها في
الساقية .

وكان بوريس يترقبه امام باب البناية . واذا لاحظ ماتيو بدت عليه
هيئة برودة وتكلف رصانة : تلك كانت هيئته المجنونة . وقال :
- لقد طرقت بابك . ولكنني اعتقد انك لم تكن في البيت .

فسأله ماتيو في اللهجة نفسها :

— هل انت متأكد من ذلك ؟

فقال بوريس :

— لست متأكداً تماماً ، وكل ما أستطيع ان اقله لك هو انك لم

تفتح لي الباب .

فنظر اليه ماتيو وهو متردد . مهما يكن من امر ، فان الساعة لم

تكذبتجاوز الثانية ، ولن يصل برونيه قبل نصف ساعة . وقال :

— اصعد معي ، فسوف نُفرغ ما في قلوبنا .

وصعدا . وعلى الدرج قال بوريس بصوته الطبيعي .

— الا يزال موعدنا قائماً في « سومطرا » هذا المساء ؟

فانفتل ماتيو وتصنع انه يبحث عن مفاتيحه في جيبيه ، وقال :

— لا ادري ان كنت سأذهب . لقد فكرت بـ .. لعل لولا تفضل

ان تكون لها وحدها .

قال بوريس : — طبعاً . ولكن ماذا في ذلك ؟ انها ستكون مؤدبة .

ومهما يكن فاننا لن نكون وحدنا ! ستكون هناك ايفيش .

فسأله ماتيو وهو يفتح الباب :

— هل رأيت ايفيش ؟

فأجاب بوريس : — لقد تركتها الساعة .

قال متنجياً : — تفضل .

ودخل بوريس قبل ماتيو وتوجه بألفة مليئة باليسر نحو المكتب .

وكان ماتيو ينظر بارتباك الى ظهره الهزيل وفكر : « لقد رأها . »

وقال بوريس :

— هل ستأتي ؟

وكان قد التفت وتأمل ماتيو بهيئة ضاحكة رقيقة . فسأله ماتيو :

— ألم تقل لك ايفيش .. شيئاً عن هذا المساء ؟

- هذا المساء ؟
- نعم . كنت اتساءل عما اذا كانت ستجيء : فهي تبدو شديدة الانهماك بامتحانها .
- قال بوريس : — انها تريد ان تأتي بلا شك . وقد قالت انه سيكون طريفاً ان نلتقي نحن الاربعة معاً .
- فردد ماتيو : — نحن الاربعة ؟ هل قالت نحن الاربعة ؟
- فقال بوريس ببراءة : — حتماً : فان هناك لولا .
- انها تنتظر اذاً ان آتي ؟
- فقال بوريس دهشاً : — طبعاً .
- وساد صمت . وكان بوريس قد انحنى فوق الشرفة ينظر الى الطريق . فخبعه ماتيو وارسل له ضربة كبيرة من قبضته في ظهره . وقال بوريس :
- اني احب شارعك كثيراً ، ولكنه يوحى بالملل مع مرور الزمن . ويدهشني دائماً انك تعيش في شقة .
- ولماذا ؟
- لا ادري . ان عليك انت الحر ان تبسج اثاثك وتعيش في الفندق . هل تتصور ذلك ؟ ان تقيم شهراً في غرفة في مونمارتر وشهراً آخر في ساحة « التنبل » وشهراً ثالثاً في شارع « موفتار » ...
- فقال ماتيو متضايقاً : — ليس لهذا اية اهمية .
- قال بوريس بعد ان حلم طويلاً : — نعم . ليس لهذا اية اهمية .
- (وأضاف بلهجة منزعجة) ان الجرس يرن .
- فذهب ماتيو يفتح الباب : وكان برونيه . وقال ماتيو :
- مرحباً ، لقد جئت قبل الموعد .
- فقال برونيه مبتسماً : — صحيح ، وهل هذا يزعجك ؟
- على الاطلاق .
- وسأل برونيه : — من هذا ؟

فقال ماتيو : - بوريس سرغين .
قال برونيه : - آه ! التلميذ العظيم ؟ انا لا اعرفه .
وانحنى بوريس برودة وتراجع حتى جوف الغرفة . وكان ماتيو واقفاً امام برونيه مرتنحي الذراعين .
- انه يحتقر ان يُعتبر التلميذ .
فقال برونيه من غير ان يفعل : - مفهوم .
وكان يلف سيكارة بين اصابعه ، صلباً ولامبالياً تحت انظار بوريس الحاقده . وقال ماتيو :
- اجلس ، خذ الاربيكة .
وجلس برونيه على كرسي وهو يقول مبتسماً :
- لا . ان ارائك مفسدة ... (وأضاف) هكذا اذا ايها الاثراكي الخائن القديم ؟ يجب على من يريد لقاءك ان يأتي حتى عربتك .
فقال ماتيو : - ليست هي غلطتي : فقد سعت غالباً لرؤيتك ولكنك تكاد لا توجد .
قال برونيه : - صحيح . فقد اصبحت نوعاً من وكلاء السفر . انهم يجعلونني اضرب في كل مكان حتى اني في بعض الايام يشق علي ان اجد نفسي بالذات .
واستطرد بلهجة ودية :
- وانما اجد نفسي على احسن صورها حين اراك ، ويخيل اليّ اني استودعت نفسي عندك .
فابتسم له ماتيو ابتسامة عرفان وقال :
- لقد فكرت مراراً ان علينا ان نلتقي اكثر مما نفعل . ويخيل الي اننا نشيخ شيخوخة ابطأ ، اذا كان بإمكاننا ان نلتقي نحن الثلاثة بين فترة واخرى .
فنظر اليه برونيه بدهشة :
- نحن الثلاثة ؟

- طبعاً : نعم ، دانيال وانت وانا .
قال برونيه في ذعر :
- صحيح ، دانيال ! ان هذا الصديق ما يزال موجوداً ! وانت
ما تزال تراه بين فترة واخرى . أليس كذلك ؟
- فسقطت فرحة ماتيو : حين كان برونيه يلتقي بورتال او بوروليه
فلا بد انه كان يقول لها ، باللهجة الضجرة نفسها : « ماتيو ؟ انه
استاذ في معهد بوفون . وما زلت اراه بين فترة واخرى . » . وقال بمرارة :
- اجل . ما زلت اراه ، فتصور !
- وساد صمت . وكان برونيه قد وضع يديه على ركبتيه . كان هناك
ثقيلاً وكثيفاً ، كان جالساً على كرسي لماتيو ، وكان ينجي وجهه
بصورة عنيدة نحو شعلة عود ثقاب ، وكانت الغرفة ملاءى بحضوره ،
وبدخان سيكارتته ، وبمركاته البطيئة . وكان ماتيو ينظر الى يديه
الكبيرتين ، يدي الفلاح ، ويفكر : « لقد جاء » . وشعر بأن الثقة والفرح
كانا يحاولان بحياء ان يولدا في قلبه من جديد . وسأله برونيه :
- وما عدا ذلك ؟ ما هي احوالك ؟
- وأحس ماتيو بالضيق : ليس هناك من شيء . وقال :
- لا شيء .
- اني اتملك : اربع عشرة ساعة من الدروس اسبوعياً ، ورحلة الى
الخارج في العطله الكبرى .
- فقال ماتيو ضاحكاً وهو يتجنب النظر الى بوريس : — نعم . واخوك ؟
- ألا يزال صليب نار ؟
- قال ماتيو : — كلا . انه ينوع . وهو يقول ان صلبان النار ليست
ديناميكية بما فيه الكفاية .
- قال برونيه : — هذا طريده لدوريو .
- يتحنون عن ذلك ... (وأضاف ماتيو من غير تفكير) . لقد

تنازعت معه اليوم .

فألقي برونيه عليه نظراً سريعاً حاداً :

— ولماذا ؟

— ان الامر دائماً هكذا : اطلب منه خدمة فيجيبني بموعظة .

فقال برونيه ساخراً : — ولهذا توسعه انت شتماً . اترك ما تزال

تأمل ان تغيره ؟

فقال ماتيو متضايقاً : — كلا . ليس الامر كذلك .

وصمنا لحظة اخرى . وفكر ماتيو بحزن : « ان الوضع يتبدل . »

ليت بوريس يفكر في الذهاب . ولكن يبدو انه لا يفكر بذلك . فهو

قائم في ركنه مقشعراً ، شبيهاً بكلب مريض . وكان برونيه قد جلس

على كرسيه منفرج الساقين ، وكان هو ايضاً يلقي على بوريس نظراً

ثقيلاً . وفكر ماتيو برضى : « انه يود لو يرحل . » واخذ يرمق

بوريس بين عينيه : فربما انتهى به الامر الى ان يفهم تحت نيران هذه

الانظار المشتركة . ولكن بوريس لم يكن ليتحرك . وقال برونيه بصوت

واضح :

— الا زلت تدرس الفلسفة ، ايها الشاب ؟

فأوماً بوريس برأسه ان نعم .

— واين وصلت فيها ؟

فقال بوريس بحفاة : — اني انهي شهادة الليسانس .

قال برونيه بلهجة استغراق : — شهادة الليسانس ؟ الحمد لله .

ثم قال بصراحة :

— أترك ستكرهني اذا خطفت منك ماتيو مدة لحظة ؟ ان لك

حظاً في ان تراه كل يوم ، اما انا ... (وسأل ماتيو) هل تأتي

لنقوم بجولة في الخارج .

واقرب بوريس من برونيه بصلافة وقال :

— لقد فهمت . إبق هنا ، إبق : فانا الذي سأخرج .
وانحنى قليلاً : لقد كان مجروحاً ، وتبعه ماتيو حتى الباب وقال
له بحماسة :
— الى هذا المساء . اليس كذلك ؟ سأكون هناك حوالي الحادية
عشرة .

فابتسم له بوريس ابتسامة آسفة : — الى هذا المساء . واغلق
ماتيو الباب وعاد الى برونيه ، يقول له وهو يفرك يديه :
— واذاً ؟ لقد افرغته ؟
وضحكا . وسأل برونيه :

— ربما سلكت في ذلك مسلماً شديداً . انك غير عاتب علي .
قال ماتيو ضاحكاً : — على العكس . إنه معتاد . ثم اني مسرور
جداً في ان اراك وحدك .

قال برونيه بصوت حازم : — كنت حريصاً على ان اذهب بسرعة
لاني لا املك الا ربع ساعة .
فتحطمت ضحكة ماتيو وقال :

— ربع ساعة ؟ انا اعرف انك لا تملك وقتك : ولقد كنت لطيفاً
بأن تجيء .

— الحقيقة اني كنت مأخوذاً طوال النهار ، ولكنني حين رأيت
سحنتك هذا الصباح فكرت : يجب قطعاً ان احديثك .
— وهل كانت سحنتي قدرة ؟

— نعم يا عزيزي المسكين . كانت ممتعة اكثر مما ينبغي ومتورمة
اكتر مما ينبغي مع رجفة في الاجفان وفي زاوية الفم .
واضاف بشغف : — وقلت في نفسي : اني لا اريد ان يتلفوه لي .
فسعل ماتيو وقال :

— لم اكن اعتقد انه كان لي وجه معبر الى هذا الحد ... كنت قد

رقت ، وكانت لدي هموم ... اوه انت تعلم ، كهوموم جميع الناس ، مجرد هموم مالية .

ولم يبد على برونيه انه اقتنع فقال :
- ان لم يكن الامر الا كذلك فلا بأس ، لان بوسعك ان تتدبر امرك دائماً . ولكن كان يبدو عليك بالاحرى مظهر شخص ادرك انه قد عاش افكاراً مزعجة .

قال ماتيو بحركة غامضة : - « اوه ! الافكار ... » وكان ينظر الى برونيه نظرة عرفان متواضع . وكان يفكر : « لقد اتى من اجل هذا . كان نهاره مشغولاً بعدد من المواعيد الهامة فازعج نفسه ليأتي الى نجدتي » . ومهما يكن فقد كان افضل لو ان برونيه استجاب لمجرد الرغبة في رؤيته . وقال برونيه :

- اسمعني ! فانا لا اريد ان احديثك بالمواربة ، وانما جئت اقدم لك عرضاً : هل تريد ان تدخل الحزب ؟ اذا قبلت اصطحتك وانتهت القضية في عشرين دقيقة .

فانتفض ماتيو وسأله :

- في الحزب الشيوعي ؟

فأخذ برونيه يضحك ، وتكسرت جفونه وكان يكشف عن اسنانه الباهرة وقال :

- طبعاً ، فانت لا تريدني ان ادخلك عند « لاروك » ؟

وساد صمت ثم سأله ماتيو برقة :

- لماذا تريدني يا برونيه ان اصبح شيوعياً ؟ الصالحى ام لصالح الحزب ؟

قال برونيه : - لصالحك . وليست بك حاجة الى ان تتخذ هيئة رقابة ، فاني لم اصبح رقيب دعاية للتجنس في الحزب الشيوعي ، ثم لتفاهم : ان الحزب لا يحتاج اليك قط . وانت لا تمثل في نظره الا

رأس مال صغيراً من الذكاء . وهذا ، اقصد المثقفين ، نملك منه ما بوسعنا بيعه ، ولكنك انت بحاجة الى الحزب .

وردد ماتيو : - لصالحني . لصالحني .. (واستطرد فجأة) اسمع : انني لم اكن اتوقع عرضك هذا فقد بوغت به . ولكن ... اود لو تقول لي ما الذي تفكر فيه ؟ . انت تعلم اني اعيش محاطاً بصبيبة لا ينشغلون الا بانفسهم وهم معجبون بي مبدئياً . وليس هناك من يحدثني قط عن نفسي ! وانا ايضاً احياناً ، اجد مشقة في ان اعثر على نفسي . واذن ؟ اتظن اني بحاجة الى ان التزم ؟

فقال برونيه بقوة : - نعم . نعم . انت بحاجة الى ان تلتزم . اولا تحس ذلك بنفسك ؟

وابتسم ماتيو بحزن : كان يفكر في اسبانيا . وقال برونيه : - لقد سلكت طريقك . انت ابن برجوازي ، ولم تكن تستطيع ان تأتي الينا هكذا . بل كان يجب ان تتحرر . وقد تمّ هذا الآن ! فانت حر . ولكن ما جدوى هذه الحرية ان لم تكن لتمكّن المرء من الالتزام ؟ لقد انفقت خمسة وثلاثين عاماً وانت تنظف نفسك ، وكانت النتيجة فراغاً (واضاف ببسمة ودية) انت ، لو تدري ، جسم غريب . انك تعيش في الهواء ، ولقد قطعت صلاتك البرجوازية ، وليست لك اية علاقة بالبروليتارية ، فانت عائم ، أنت مجرد ، انت غائب . ولا بد ان هذا ليس شيئاً طريفاً دائماً .

قال ماتيو : - لا ، ليس شيئاً طريفاً دائماً . واقرب من برونيه وهزّه من كتفيه : لقد كان يحبه حباً قوياً . وقال له :

- ايها اللداهية الملعون ، ايها المومس الملعون ! يسرنني كثيراً ان تقول لي كل هذا !

وابتسم له برونيه بشرود : كان يتابع فكرته فقال :

– لقد تنازلت عن كل شيء لتكون حراً . فقم بخطوة اخرى ،
تنازل عن حريتك نفسها : وسيُرد لك كل شيء .
قال ماتيو ضاحكاً : – انك تتكلم كالخوري . كلا يا عزيزي !
لنتكلم بجد . فان هذا لن يكن توضيحاً كما تعلم . انا اعرف جيداً اني
سأسترد كل شيء ، لهماً ودماً وحاسات حقيقية . ولكنك تعرف يا
برونيه اني انتهيت الى فقدان حسّ الحقيقة : فليس هناك ما يبدو لي
حقيقياً مئة بالمئة .

ولم يجب برونيه : كان يتأمل . وكان له وجه ثقيل قرميدي اللون
ذو ملامح مرتجفة وجفون حمراء ، صفراء جداً وطويلة جداً . وكان
يشبه بروسيّاً . وكان ماتيو كلما رآه احس في منخرينه بنوع من الفضول
الحائر .

وكان يتنفس على مهل ويتوقع ان يشم فجأة رائحة انسانية قوية .
ولكن لم يكن لبرونيه رائحة . وقال ماتيو :

– انك حقيقي انت وكل ما تلمسه يبدو حقيقياً . فان غرفتي منذ
دخلتها تبدو حقيقية وتثير اشمزازي .
واضاف فجأة : – انك انسان .

فسأله برونيه مدهوشاً : – انسان ؟ ان العكس مقلق . فاذا تريد
ان تقول ؟

– لا شيء غير ما قلت : لقد اخترت ان تكون انساناً .

انسان ذو عضلات قوية معقدة بعض الشيء ، يفكر بحقائق قصيرة
قاسية ، انسان مستقيم ، مقلق ، واثق من نفسه ، ارضي ، متمرد على
المغريات الملائكية للفن وعلم النفس والسياسة ، انسان برمنه ، ولا شيء
غير انسان . وقد كان ماتيو هناك ، تجاهه ، متردد ، رديء الشيخوخة ،
رديء الصنع ، تحاصره جميع دوارات اللاإنساني . وفكر : « امسا
انا ، فلا ابدو انساناً . » ونهض برونيه واقبل على ماتيو يقول :

— واذن ؟ افعل مثلي ، فالذي يمنعك من ذلك ؟ اترك تصور
ان بوسعك ان تعيش كل حياتك بين هلالين ؟ .

فنظر اليه ماتيو متردداً وقال :

— طبعاً ، طبعاً . واذا اخترت فاني اختار ان اكون معكم ، وليس
هناك اختيار آخر .

فردد برونيه : — ليس هناك اختيار آخر . (وتلبث لحظة ثم
سأل) : واذن ؟

قال ماتيو : — دعني قليلاً اتنفس .

فقال برونيه : — تنفس ، تنفس ، ولكن عجل . فغداً تصبح
اكبر سنأ مما ينبغي ، وستكون لك عاداتك الصغيرة ، وستكون عبيد
حريتك . وربما كان العالم ايضاً اكبر سنأ مما ينبغي .

قال ماتيو : — انني لا افهم .

فنظر اليه برونيه وقال بسرعة :

— ستنشب الحرب في ايلول .

قال ماتيو : — انك تمزح .

— يمكنك ان تصدقي . فالانكليز يعرفون ذلك ، وقد أُخِطرتُ به
الحكومة الفرنسية ، وفي النصف الثاني من ايلول سيدخل الألمان الى
تشيكوسلوفاكيا .

قال ماتيو منزعجاً : — يا لهذه الاساليب !

فسأل برونيه متضايقاً : — ولكن الا تفهم شيئاً ؟ .

غير أنه تدارك واطاف برقة :

— لو كنت تفهم ، لما كنت بحاجة الى ان اوضح لك . اسمع : انك

مثلي من المشاة. افرض انك تمضي في الحالة التي انت فيها الآن : فانك توشك
ان تنفجر كفقاعة ، وتكون قد حلمت حياتك خمسة وثلاثين عاماً ، ثم
تأتي ذات يوم قبلة فتفجر احلامك ، وستموت من غير ان تكون قد

استيقظت . لقد كنت موظفاً مجرداً ، وستكون بطلاً مضحكاً ، وستسقط
من غير ان تكون قد فهمت شيئاً . كل ذلك ليتمكن السيد شنيدر من
المحافظة على مصالحك في معامل سكودا .

وسأله ماتيو : - وانت ؟ (واذف مبتسماً) انني اخشى يا
عزيزي الا تستطيع الماركسية ان تحمي الناس من القنابل .

فقال برونيه : - وانا اخشى ذلك ايضاً . اتدري اين سيرسلونني ؟
الى مقدمة خط ماجينو : انه مرمى الرصاص المضمون .

- واذن ؟

- ليس هو الامر نفسه ، فهذا خطر قد اضطلعنا به . انه لا شيء
الآن يستطيع ان ينزع من حياتي معناها ، لا شيء يستطيع ان يمنعها من
ان تكون قدراً .

واضاف بحوية :

- كما هي حياة جميع رفاقي ، في الواقع .
لكأنه كان يخشى ان يأثم بدافع الكبرياء .

ولم يجب ماتيو . وذهب يرتفق حاجز الشرفة وهو يفكر : لقد
« عبر خير تعبير » . وكان برونيه على حق : لقد كانت حياته قدراً .
سنه ، طبقته ، زمانه : لقد استرد كل شيء ، واضطلع بكل شيء ،
واختار العصا الرصاصية التي ستضربه في صدره ، والقنبلة الالمانية التي
ستبقر بطنه : لقد التزم ، وتنازل عن حرته ، فلم يكن بعد الا جندياً .
ولقد أعادوا له كل شيء ، حتى حرته . « انه اكثر حرية منه : انه
متفق مع نفسه ومتفق مع الحزب . » لقد كان هناك ، حقيقةً تماماً .
وفي فمه مذاق حقيقي للتبغ ، وكانت الالوان والاشكال التي يملأ بها
عينيه اكثر حقيقة واكثف من تلك التي كان ماتيو يستطيع ان يراها .
ومع ذلك فقد كان في اللحظة نفسها يتمدد عبر الارض كلها ، متألاً
ومكافحاً مع عمال جميع البلاد . في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة

بالذات ، هناك اشخاص يطلقون على انفسهم الرصاص في ضاحية مدريد ،
وهناك يهود نساويون يحضرون في معسكرات الاعتقال ، وهناك صينيون
في انقاض ننيكين ، وانا هنا طري نضر . أحسّتي حرّاً ، وسوف آخذ
بعد ربع ساعة قبعتي واذهب لأتنزه في حديقة الكسمبورغ . والتفت
الى برونيه ونظر اليه بمرارة وهو يفكر : « اني غير مسؤول . »
وقال فجأة : - لقد قصفوا فالنسيا .

فقال برونيه : - اعرف ذلك . ولم يكن هناك مدفع مضاد في المدينة
كلها ، وقد قذفوا قنابلهم على سوق .
لم يكن قد حرق الارم ، ولم يكن قد تحلى عن بهجته المطمئنة
وعن تدفقه المستنم ، ومع ذلك ، فقد كان هو الذي قُصف ، وكان
إخوته واخواته واولاده هم الذين قتلوا . وذهب ماتيو يجلس على اريكة .
« ان ارائكك مفسدة . » وانتصب بجوية ، وجلس على زاوية الطاولة .
قال برونيه :

- واذن ؟

وكان يبدو انه يترصده . قال ماتيو :

- اذن ؟ انك محظوظ .

- محظوظ بأن أكون شيعياً ؟

- نعم .

- رأي عجيب ! ان هذا مُختار يا عزيزي .

- أعرف ذلك . انك محظوظ في ان تكون قد استطعت الاختيار .

وقست ملامح برونيه قليلاً :

- هذا يعني انك لن تملك هذا الحظ .

والآن تجب الاجابة . وانتظر : نعم أم لا ؟ أن يدخل الحزب

ويمنح حياته معنى ، ويختار ان يكون انساناً ويعمل ، ويؤمن ، سيكون

في ذلك الخلاص . ولم يكن برونيه ليغادره بعينيه :

— أترفض ؟

فقال ماتيو يائساً : — نعم ، نعم يا برونيه : أرفض .
وكان يفكر : « لقد جاء بمنحني أفضل ما لديه ! » وأضاف :
— أنت تعلم ان هذا ليس قراراً نهائياً .. ففيما بعد ...
وهز برونيه كتفيه .

— فيما بعد ؟ اذا كنت تعول على اشراقة داخلية لتقرر ، فانت
توشك ان تنتظر طويلاً . هل تتصور اني كنت مقتنعاً حين دخلت
الحزب الشيوعي ؟ ان الاقتناع أمر يُصنع .

وابتسم ماتيو بحزن .

— أعرف ذلك جيداً : اركع فتؤمن . ربما كنت على حق . أما
أنا فاريد أن اؤمن أولاً .

قال برونيه بنفاد صبر : — طبعاً . انكم كلكم متشابهون ، أنتم
المثقفين : كل شيء يتحطم ، كل شيء ينهار ، البنادق ستنتقل من
تلقاء نفسها وأنتم هنا هادئون ، تطلبون حقكم في أن تكونوا مقتنعين .
آه ! ليتك كنت تستطيع ان ترى نفسك بعيني أنا ، اذا لفهمت أن
الزمن مستعجل .

— حسناً . الزمن مستعجل ، أجل ! وبعد ذلك ؟

وأرسل برونيه الى مؤخرته صفة غيظ .

— ها نحن ذا ! انت تتصنع انك متأسف على شكك . ولكنك
تحرص عليه . وتلك هي راحتك المعنوية : فما أن يهاجموها حتى تتشبث
بها في شراسة ، كما يتشبث أخوك بماله .

وقال ماتيو بهدوء : — هل يبدو عليّ في هذه اللحظة اني شرس ؟

قال برونيه : — انا لا اقول ذلك .

وساد صمت . وكان يظهر على برونيه انه قد رق ؛ وفكر ماتيو :
ليته يستطيع ان يفهمي . وبذل جهداً : إن اقتناع برونيه هو الوسيلة

الوحيدة التي تبقى له لا قناع نفسه .
- ليس عندي ما اذفع عنه : فأنا لست فخوراً بحياتي ولا املك
مالا : حريتي ؟ . انها تثقل عليّ : فهذه سنوات تنقضي وأنا حر من
أجل لا شيء . واني أذوب رغبة في ان استبدلها بيقين . اني لا أطلب
أفضل من أن أعمل معكم ، فهذا سيبدلني من نفسي ، وأنا بحاجة الى ان
انسى نفسي قليلاً . ثم اني افكر مثلك بأن المرء لا يكون انساناً ما لم
يجد شيئاً يقبل ان يموت من اجله .

وكان برونيه قد رفع رأسه فقال بما يشبه المرح : - واذن ؟
- اذن ! انت ترى : لا استطيع الالتزام ؛ فليست عندي اسباب
كافية لذلك . اني احتج مثلك ضد الاشخاص أنفسهم ، وضد الاشياء
نفسها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية . اني لا استطيع في ذلك شيئاً .
فاذا اخذت اجري في الاستعراض رافعاً قبضتي ، منشداً «الانترناسيونال» ،
وإذا صرحت لنفسي بأنني راضٍ مع ذلك ، فانما أكذب على نفسي .
وكان برونيه قد تلبس من هيئاته أكثفها وأكثرها طابعاً فلاحياً ، وكان
يشبه بُرجاً . ونظر اليه ماتيو في يأس :

هل تفهمني يا برونيه ؟ قل لي هل تفهمني ؟
فقال برونيه : - لا ادري ان كنت أفهمك جيداً ، ومهما يكن من
أمر ، فليس لك ان تبرر نفسك لأنه ليس ثمة من تهمة . انك تحتفظ بنفسك .
لمناسبة افضل ، وهذا حق ، وأتمنى ان تأتي هذه المناسبة في اقرب
وقت ممكن .

- وانا أتمنى ذلك ايضاً .

ونظر اليه برونيه بفضول :

- هل انت متأكد من انك تتمنى ذلك ؟

- طبعاً ...

- طبعاً ؟ حسناً ، فليكن . غير اني اخشى الا تأتي هذه المناسبة

سريعاً .

فقال ماتيو : - لقد قلت لنفسى هذا انا ايضاً . قلت لنفسى انها قد لا تأتي ابدأ ، او ربما انت بعد فوات الاوان . او ربما لم يكن هناك فرصة اصلاً .

- واذن ؟

- اذن ! في هذه الحالة سأكون شخصاً مسكيناً . هذا كل ما في الامر .

ونفض برونيه وهو يقول :

- هكذا ، هكذا اذن يا عزيزي . مهما يكن من امر فاني مسرور بأنني قد رأيتك .

- انك لن تذهب ... لن تذهب هكذا . فان عندك دقيقة اخرى ، اليس كذلك !

ونظر برونيه الى ساعته : لقد تأخرت .

وساد صمت . وكان برونيه ينتظر بأدب . وفكر ماتيو : « يجب الا يذهب ، يجب ان احدهه » . ولكنه لم يكن يجحد شيئاً يقوله له . وقال بسرعة :

- يجب الا تحقد عليّ .

فقال برونيه : - ولكني لست حاقداً عليك . انك لست مجبراً علي ان تفكر مثلي .

قال ماتيو آسفاً : - ليس هذا صحيحاً . انني اعرفكم جيداً ، انتم الآخريين : فانتم تعتقدون ان المرء مجبر على التفكير مثلكم ، الا ان يكون قدراً . انك تعتبرني قدراً . ولكنك لا تريد ان تقول ذلك ، لأنك تحكم ان الحالة ميثوس منها .

فابتسم برونيه ابتسامة خفيفة وقال :

- انني لا اعتبرك قدراً . كل ما هنالك انك اقل انفصلاً عن طبقتك

هما كنت اظن .

وفيما كان يتكلم ، كان يقترب من الباب . وقال له ماتيو: - لا يمكن لك ان تعرف كم أتر في مجيئك لرؤيتي ومدك يد المعونة الي ، لمجرد ان سحنتي كانت قدرة هذا الصباح . انت على حق لو تعلم ، فانا بحاجة الى مساعدة . غير اني اريد معونتك انت .. لا معونة كارل ماركس . اود لو أراك غالباً وأتحدث معك ، فهل هذا مستحيل ؟
فصرف برونيه عينيه وقال :

- اود ذلك كثيراً ، ولكني لا املك كثيراً من الوقت .
وفكر ماتيو : « طبعاً لقد اشفق علي هذا الصباح فخيبت شفقتي .
وقد عدنا الآن فأصبحنا غريبين احدنا بالنسبة الى الآخر . فليس لي اي حق في وقته » . وقال بالرغم منه :

- أتراك لا تذكر يا برونيه ؟ لقد كنت خير اصدقائي .

وكان برونيه يلعب بمزلاج الباب :

- لماذا تظن انني جئت ؟ لو انك قبلت عرضي ، لكان بإمكاننا

ان نعمل معاً ...

وصمنا . وكان ماتيو يفكر : « انه مستعجل ، وهو يدوب رغبة

في الذهاب . »

واضاف برونيه ، من غير ان ينظر اليه :

- اني ما زلت حريصاً عليك . حريصاً على سحنتك ، على يدك ،

على صوتك ، ثم ان هناك الذكريات بالرغم من كل شيء . ولكن هذا لا يغير شيئاً في القضية : ان اصدقائي الوحيدين الآن ، انما هم رفاق الحزب ، فان عندي مع هؤلاء ، عالماً مشتركاً برمته .

فسأله ماتيو : - وتظن انه ليس بيننا بعد اي شيء مشترك ؟

فرفع برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وكان حسبه ان يقول كلمة ،

كلمه واحدة ، حتى يجد ماتيو كل شيء من جديد ، صداقة برونيه ،

واسباباً للحياة . وكان ذلك مغرباً كالنوم . وانتصب ماتيو فجأة وقال :
- انني لا اريد ان احجزك . فتعال لتراني حين تجد الوقت .
قال برونيه : - بكل تأكيد . وانت اذا غيرت رأيك ، فأرسل
لي كلمة .

قال ماتيو : - بكل تأكيد .

وكان برونيه قد فتح الباب . وابتسم ماتيو ومضى ، وفكر ماتيو :
« لقد كان خير اصدقائي » .

لقد ذهب . كان يذرع الشوارع وهو يتمايل ويتهادى كأنه بحار ،
فتصبح الشوارع حقيقية الواحد بعد الآخر . ولكن حقيقة الغرفة كانت
قد اختفت معه . ونظر ماتيو الى اريكته الخضراء المفسدة والى كراسيه
والى ستائره الخضراء وفكر : « انه لن يجلس بعد على كراسي » ، ولن
ينظر بعد الى ستائري وهو يلف سيكارة . « ولم تكن الغرفة بعد الا
لطخة نور خضراء كانت ترتجف لدى مرور الاوتوبيسات . واقرب
ماتيو من النافذة وارتفق حاجز الشرفة . وكان يفكر : لم يكن بوسعي
ان اقبل . وكانت الغرفة خلفه كأنها ماء هاديء ، ولم يكن ثمة الا
رأسه خارجاً من الماء ، كانت الغرفة المفسدة خلفه ، وكان واضعاً
رأسه خارج الماء ، وكان ينظر في الشارع وهو يفكر : هل هذا حقيقي ؟
هل حقيقي انني لم اكن استطيع ان اقبل ؟ وفي البعيد ، كانت طفلة
صغيرة تقفز بالحبل ، وكان الحبل يرتفع فوق رأسها كأنه عروة ويسوط
الارض تحت قدميها . اصيل صيفي . وكان النور قد حط في الشارع
وعلى السقوف ، متساوياً ، ثابتاً ، بارداً كأنه حقيقة أزلية . أصبح
انني لست الا قدراً ؟ ان الاركة خضراء ، وحبل القفز يشبه عروة :
هذا امر غير قابل للنقاش . ولكن حين تتعلق القضية بالناس ، فالنقاش
يمكن دائماً ، لان كل ما يفعله يمكن ان يشرح نفسه ، من فوق او من
تحت ، حسب رغبتنا . لقد رفضت لأنني اريد ان اظل حراً ؛ وهذا ما

استطيع قوله ، واستطيع ان اقول كذلك : انني قد اصبحت بالكبد ؛
احب ستائري الخضراء ، احب ان استنشق الهواء مساء وانا على شرفتي .
ولا اريد ان يتغير ذلك . انه يروق لي ان اغضب واغتاظ من الرأسمالية
ولا اريد ان تلغى ، لأنه لا يبقى لي اسباب للغضب والغضب ، فيروق لي
ان أحسني مزدرياً ومتوحداً ، يروق لي ان اقول لا ، دائماً لا .
وسيفيني ان يحاولوا حقاً بناء عالم يمكن العيش فيه ، لانه لا يبقى لي
آنذاك الا ان اقول نعم ، وان اعمل كما يعمل الآخرون . من فوق او
من تحت ، من الذي يقرر ؟ لقد قرر برونيه . فهو يفكر بأنني قدر ،
وجاك ايضاً ، ودانيال ايضاً . لقد قرروا جميعاً انني قدر . ماتيو هذا
المسكين ، انه هالك ، انه قدر . وماذا عساني استطيع ان اعمل انا
ضدهم جميعاً ؟ يجب ان اقرر : ولكن ماذا أقرر ؟ حين قال الساعة
لا ، كان بحسب نفسه صادقاً ، وكانت حماسة مرّة قد نهضت فجأة
في قلبه . ولكن من كان يستطيع ان يحفظ ، تحت هذا النور ، بأصغر
جزء من الحماسة ؟ لقد كان نوراً لنهاية امل ، وكان يخلد كل ما كان
يلمسه . ان الطفلة الصغيرة ستقفز بالحبل الى الابد ، وسيرتفع الحبل
ابداً فوق رأسها وسيسوط ابداً الرصيف تحت قدميها ، وسينظر اليها
ماتيو الى الابد . ما جدوى القفز بالحبل ! ما جدواه ؟ ما جدوى ان
يقرر المرء ، ان يكون حراً ؟ فتحت هذا النور نفسه ، في مدريد
وفي فلنسيا ، كان بشرٌ قد وقفوا امام نوافذهم ينظرون الى الشوارع الخالية
الابدية ويقولون : « ما النفع ؟ ما جدوى متابعة النضال ؟ » . دخل
ماتيو الى غرفته ، ولكن النور تبعه اليها . اريكتي ، اناثي . وكان
على الطاولة مثقلةً للورق تشبه عقرباً . فأخذها ماتيو من ظهرها ، كما
لو انها كانت حية . انها مثقتي : ما النفع ؟ ما النفع ؟ وترك العقرب
يسقط على الطاولة وقرر : انني شخص هالك .

كانت الساعة السادسة ؛ وكان دانيال قد نظر الى نفسه في المرآة وهو خارج من مكتبه ففكر : « الامر يعود من جديد . » وأحس بالخوف . وسلك شارع « ريومور » : كان بوسع المرء ان يخشى فيه ، فانه لم يكن الا قاعة كبيرة ذات سماء مفتوحة ، قاعة خطى ضائعة . وكان المساء قد أفرغ البنايات التجارية التي كانت تملأ جانبيه ؛ فعلى الأقل ، لم يكن هناك ما يغري بتخييل امور صميمية خلف زجاجها الأسود . وكان نظر دانيال يتسرب متحرراً بين هذه الأجراف المثقوبة حتى بركة السماء الوردية الممتدة التي كانت نجسها عند الأفق .

ولم يكن الاختباء يسيراً الى هذا الحد ، بل كان حتى بالنسبة لشارع ريومور أجلى مما ينبغي ؛ لقد كانت الفتيات الفارعات المزينات اللواتي يخرجن من المحلات يرمينه بنظرات جريئة ، فكان يحس بجسده ويقول بين اسنانه : « القدرات » . كسان يخشى ان يشم رائحتهن : إن رائحة المرأة تنبعث معها حرصت على ان تغسل نفسها ومن حسن الحظ ان النساء كنّ هناك نادرات ، فان هذا الشارع لم يكن رغم كل شيء شارعاً للنساء ، ولم يكن الرجال يهتمون به ، اذ كانوا يقرأون صحفهم

وهم سائرون ، او يفركون بحركات ضجيرة زجاج نظاراتهم او يضحكون في الفراغ باندهاش . وكان جمهوراً حقيقياً بالرغم من انه كان منتشرأ قليلاً ، وكان يسير ببطء ، فيخيل ان قدراً جاهرياً ثقيلأ يسحقه . وانسجم دانيال مع هذا الصف البطيء ، واستعار من هؤلاء البشر بسمتهم المستنيمة وقدرهم الغامض المهدد ، فضاع : لم يبقَ بعدُ فيه الا صوتُ وابلُ أصم ، ولم يَعُدْ الا شاطئاً من النور المنسي :

« سأصل ابكر مما ينبغي الى بيت مارسيل ، ولدي الوقت لأسير قليلاً . »

وانتصب متصلبأ حذراً : لقد وجد نفسه من جديد ، ولم يكن يستطيع ان يضيع نفسه بعيدأ جداً : « لدي الوقت لأسير قليلاً . » وكان هذا يعني : سأقوم بجولة في السوق الخيرية ، وكان قد مضى وقت طويل لم يكن دانيال ينجح فيه بأن يخذع نفسه . وما جدوى هذا في الحق ؟ لقد كان يريد ان يذهب الى السوق الخيرية ؟ حسناً ، سيذهب . سيذهب لأنه لم تكن لديه ادنى رغبة في ان يمتنع عن ذلك : هذا الصباح ؛ القلط ، زيارة ماتيو ، وبعد هذا اربع ساعات من العمل الكريه ، وهذا المساء مارسيل ، إن هذا غير محتمل ، فبوسعي ان اعوض عن نفسي قليلاً .

مارسيل ، كانت مستنعمأ . كانت تستسلم ساعات طويلة للوعظ والإرشاد ، وكانت تقول : نعم ، نعم ، دائماً نعم ، وكانت الافكار تغوص في رأسها ، فاذا هي غير موجودة الا في الظاهر . من المستحسن ان يتسلى المرء لحظة مع الأغنياء ؛ فيمدّ لهم الجبل ليرتفعوا في الاجواء هائلين ذوي خفة كفيالة مصنوعة من أحشاء الخراف ؛ فاذا شدت على الجبل عادوا يعومون على مستوى الأرض وقد جننوا وذعروا ، ورقصوا لكل هزة من الخيط في وثبات ثقيلة ، ولكن

ينبغي غالباً تغيير الأغبياء ، وإلا أدى ذلك الى الاشمئزاز . ثم إن مارسيل كانت الآن فاسدة ؛ وسيكون الجو في غرفتها غير محتمل . إن المرء لا يستطيع الامتناع ، حين يدخل غرفتها عادة ، عن الاشمئزاز . لم يكن ثمة رائحة شيء ، ولكن المرء لم يكن واثقاً من شيء ، فهو يحتفظ طوال الوقت بالقلق في أعماق رثنيه ، وهذا ما يؤدي غالباً الى الربو .

سأذهب الى السوق الخيرية . ولم تكن ثمة حاجة الى كل هذا الاعتذار فان الأمر كله بريء : كان يريد ان يراقب حركات العمّات وهنّ يصطدن . لقد كانت سوق جادة سياستبول الخيرية مشهورة في نوعها ، فهناك أغرى « دورا » مراقب المالية الفتاة الصغيرة القذرة التي قتلته .

اما السوقة الذين كانوا يتسكعون امام آلات الدراهم بانتظار الزبون ، فقد كانوا اطرف كثيراً من زملائهم في مونبارناس : لقد كانوا السنة سوء للمناسبات ، او افظاظاً صغاراً غير مهذبين ، متوحشين وسوقة ، ذوي اصوات مبحوحة وحركات خفية مغلقة ، يسعون الى ربح عشرة فرنكات ووجبة عشاء . ثم كان هناك ايضاً « الممحونون » الذين كانوا يميّتون ضحكاً برقتهم ونعومتهم وأصواتهم التي تشبه العسل ، وما في انظارهم من خفقان وتواضع وشروء . ولم يكن دانيال يستطيع ان يتحمل خضوعهم . فقد كانوا يظهرون دائماً بمظهر المذنبين . وكانت تأخذه الرغبة في ضربهم ، فاننا نرغب في ضرب انسان يحكم على نفسه بنفسه لنزيد في ارهاقه ونحطم الف قطعة ما بقي له من كرامة . وكانت عاداته ان يستند الى جذع ويحسّدق فيهم بينما هم يتبخثرون تحت اعين عشاقهم الشباب ، تلك الاعين الناعسة الماجنة . وكان الممحونون يظنونهم حامياً لاحد الفتيان . وكان يفسد عليهم كل لذتهم . واخذت دانيال عجلة مفاجئة ، فحث خطاه : « سوف نضحك ! » وكانت حنجرته جافة . وكان الهواء الجاف يحرق ما حوله . ولم يكن ليرى شيئاً بعد ، كانت ثمة لطفة امام عينيه ، ذكرى نور كثيف اصفر ، وكان هذا

النور البغيض يدفعه ويجذبه في وقت واحد ، وكان محتاجاً الى ان يراه ، ولكنه كان ما يزال بعيداً ، يعوم بين جدران واطئة ، كأنه رائحة كهف . وتلاشى شارع ريومور ، ولم يكن باقياً امامه الا مسافة ذات عقبات ، هي الناس : وكان ذلك يُشعر بالكابوس . غير ان دانيال لم يكن يستطيع قط ، في الكوابيس الحقيقية ، ان يبلغ نهاية الشارع . وانعطف الى جادة سيباستبول وقد تكلّس تحت السماء المشرقة ، وتباطأ في مشيته . سوق خيرية : لقد رأى اللافتة ، وتأكد من انه لم يكن يعرف وجوه المارة ، فدخل .

كان ممراً طويلاً ضيقاً مغبراً ، ذا جدران مطوية باللون الاسمر وقبح قاس ورائحة مستودع خمر . وانفجر دانيال في النور الاصفر الذي كان اشد حزناً ولزوجة مما هو في العادة ، وكان اشراق النهار يركنه في جوف القاعة ؛ وفي عيني دانيال كان ذلك نور دوار البحر : كان يذكّره بتلك الليلة التي قضاهها مريضاً علي باخرة بالرمو : فقد كان في غرفة الآلات الخالية ضباب اصفر مشابه جداً ، كان يحلم به احياناً فيستيقظ منتفضاً ، سعيداً بأن يجد الظلمات من جديد . وكانت الساعات التي يقضيها في السوق الخيرية تبدو له موقعة بضربات صماء تصدر عن اذرعٍ دافعة . وكانت قد أُسندت الى الجدران علب ضخمة على اربعة ارجل ، وكانت تلك هي الالعاب . وكان دانيال يعرفها جميعاً : لاعبو كرة القدم ، ستة عشر تمثالاً خشبياً صغيراً ، مشكوكة على قضبان طويلة من النحاس ، ولاعبو البولو ، وسيارة الحديد الابيض التي كان يجب اركاضها على طريق من القماش ، من بيوت وحقول ، والقطط الصغيرة السود الخمس على السقف ، في ضوء القمر ، التي كانت تقتل بخمس طلقات من مسدس ، والبندقية الكهربائية ، وآلات توزيع الشوكولا والعطور . وفي جوف القاعة ، كانت ثلاثة صفوف من « الكينراما » ، وكانت عناوين الافلام تنفصل في حروف ضخمة

سود : الزوجان الشابان ، الخادمتان الفاجرات ، الحمام الشمسي ، ليلة الزواج المستمرة . وكان سيد ذو نظارة قد اقترب خفيةً من احدى هذه الآلات ، فأدخل عشرين فلساً في الشق ، وألصق عينيه بعجلة خرقاء على بلور الميكا . وكان دانيال يَخْتَنق : كان هذا الغبار ، وهذه الحرارة ، ثم انهم اخذوا يضربون ضربات كبيرة ، ذات اوقات منتظمة ، فيما وراء الجدار . والى اليسار رأى المصيدة : كان شبان يلبسون ثياباً متواضعة قد تجمعوا حول الملاكم الزنجي ، وهو تمثال ذو مترين كان يضع في وسط بطنه وسادة من جلد وساعة . وكانوا اربعة ، واحد اشقر ، الشعر ، وآخر احمره ، واسمران ، وكانوا قد نزعوا ستراتهم وشتموا عن اكمامهم وكانوا يضربون بأذرعهم الهزيلة على الوسادة كأنهم صم . وكان عقرب على الساعة يشير الى قوة قبضاتهم . وراحوا ينظرون الى دانيال نظرات خفية ، ثم اخذوا يضربون ضرباً اشد . ووسّع دانيال عينيه ليظهر لهم انهم كانوا مخطئين بالعنوان ثم اولاهم ظهره ، والى اليمين بالقرب من الصندوق ، رأى في الظل شاباً طويلاً ذا خدين رماديين ، كان يرتدي ثوباً مدعوكاً كله ، وقبصاً للنوم وحذاء من قماش . ولم يكن بالتأكيد ممحوناً كالأخرين ! والواقع انه كان يبدو عليه انه لا يعرفه . وقد دخل هناك بالمصادفة - وان دانيال ليقسم على ذلك - وكان يبدو مستغرقاً في تأمل آلة رافعة . وبعد لحظة ، اقترب بلا ضجة يجذبه من غير شك المصباح الكهربائي والكوداك اللذان كانا قائمين خاف الزجاج فوق ركام من الملابس ، وأدخل بنجث قطعة نقدية في شق الآلة ثم ابتعد قليلاً ، وبدا انه يسقط من جديد في تأمله ، وكان يلامس طرفي انفه باصبع مفكّر . وأحس دانيال بأن رعشة معهودة كانت تجري على رقبتة وفكر : « إنه يحب نفسه جيداً ، يجب ان يلامس نفسه . » وكان هؤلاء اكثر الجميع جاذبية وأوفرهم روائية : اولئك الذين كانت ادنى حركة منهم تكشف

عن دلال غير واع ، وعن حب للنفس عميق ملبّد . وأخذ الشاب
 يدي الآلة بحركة حيّة وراح يحركها ببراعة . واستدارت الآلة الرافعة
 على نفسها بحركة دوامية وارتجافات شبيخة . فكانت المكنة كلّها تهتزّ
 منها . وكان دانيال يتمنى له ان يربح المصباح الكهربائي ، ولكنّ
 نافذة بصقت ملبّساً مختلف الألوان يشبه مظهر الفاصوليا البخيل المحدود .
 ولم يبد الشاب خائباً ، وبحث في جيبه وأخرج قطعة نقود اخرى .
 وقرر دانيال « انها آخر دراهمه ، وهو لم يأكل منذ أمس . » وكان
 ينبغي الا يقرر ذلك . كان ينبغي الا يستسلم فيتصور خلف هذا الجسم
 الهزيل الساحر ، المشغول بنفسه ، حياة غامضة من الحرمانات ، والحرية
 والأمل . ليس اليوم . وليس هنا ، في هذا الجحيم ، تحت هذا النور
 الكئيب ، ومع هذه الضربات الصمّاء التي يُضرب بها الجدار ، لقد
 عاهدت نفسي ان اصمد . ومع ذلك كان دانيال يدرك تماماً ان احدى
 هذه الآلات يمكن ان تشرق الانسان . فيفقد فيها ماله شيئاً فشيئاً ويعود
 الى تجربة حظه مرة ومرة ، وقد جفّ حلقه من الدوار والغضب : لقد
 كان دانيال يفهم جميع الدورات . وأخذت الآلة الرافعة تدور بحركات
 حذرة متكررة : وكان يبدو على هذه الآلة المنكّلة انها راضية عن
 نفسها . / وأخذ دانيال الخوف : كان قد تقدم خطوة الى الامام ، وكان
 يذوب رغبة في وضع يده على ذراع الشاب - وكان قد بدأ فعلاً
 لمس القماش الخشن المتتوف - وفي ان يقول له : « كفاك
 لعباً . » وكان الكابوس يوشك ان يعود ، بهذا المذاق من الأزليّة
 ومن « التام - تام » المنتصر ، من الجهة الاخرى من الجدار ؛ وكان بحاجة
 الى ايام وليال ليخرج من هذا المستنقع من الحزن المتطامن الذي كان
 يصعد فيه ، هذا الحزن اللامتناهي المألوف الذي كان يوشك ان يغمر
 كل شيء . ولكن رجلاً دخل ، فتحرّر دانيال : لقد نهض وحسب
 انه سينفجر ضحكاً ، وفكّر : « هوذا الرجل » ؛ وكان تائهاً بعض

الشيء ، ولكنه كان مسروراً مع ذلك لأنه صمد . /
وتقدم الرجل في نزق ، وكان يسير وهو يطوي ركبتيه ، متصلب
المقامة ، أمرن الساقين . وفكر دانيال : « انت ؟ أنك تلبس مشدأ . »
وكان عمره يقدر بالخمسين ، وكان قد حلق ذقنه منذ وقت قريب ،
وكان ذا وجه متفهّم يبدو ان الحياة قد دلّكته بحب ، وبشرة خمرية
تحت شعر ابيض ، وانف فلورنسي جميل ، ونظر اقسى قليلاً وأحسر
مما ينبغي : نظر المناسبة . وكان لدخوله تأثير : فقد انفتل السوق
الاربعة ، وهم يتكلمون المنظر نفسه من البراءة الفاسدة ، ثم عادوا
يرسلون قبضاتهم في بطن الجندي التمثال ولكن من غير حماسة . وترك
الرجل نظره يحط قليلا عليهم في تحفظ لم تكن القسوة بعيدة عنه ،
ثم انفتل واقرب من لعبة كرة القدم . وأدار القضبان الحديدية وتفحص
المائل في جد باسم ، كما لو انه كان يسليه هو ذاته الهوس الذي
اقتاده الى هنا . ورأى دانيال هذه البسمة فتلقى ضربة زيف في صدره ،
واستفزع جميع هذه التصنعات والاكاذيب ، وأخذته الرغبة في الفرار .
ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : كانت اندفاعا بلا عاقبة ، وكان معتاداً
على ذلك . واستند الى جذع وأخذ يحديج الرجل بنظر ثقيل . والى
يمينه ، كان الشاب الذي يرتدي قميص النوم قد سحب من جيبه قطعة
نقود ثالثة ، وكان يستأنف للمرة الثالثة رقصته الصغيرة الصامتة حول
الآلة الرافعة .

وانحنى الرجل الجميل على اللعبة وأمر سبابته على اجسام اللاعبين
الصغار : لم يكن يريد الانحطاط الى تقديم المغريات ، ولا ريب انه
كان يعتبر نفسه ، بشعره الابيض وثيابه الفاتحة ، قطعة حلوى لذيدة
لذة كافية لاجتذاب جميع هذا الذباب الفتي . والواقع ان الصغير
الاشقر ، بعد لحظات من المشاورة ، انفصل عن الفرقة ، وكان قد
رمى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، واخذ يقرب من «المحون»

متهادياً ، ويداه في جيبه . وكان يبدو عليه الخوف والترقب ، وكان نظره ، تحت حاجبيه الكثيفين نظر كلب . وتأمل دانيال في اشمئزاز ردفه السمين وخديه الكبيرين الفلاحين اللذين كانت لحية صغيرة قد بدأت تلتطخهما . وفكر : « لحم امرأة وهو يُفرك كعجين الخبز . » سوف يقوده الرجل الى بيته ، فيغسله وينظفه بالصابون ، وربما عطره . واذ بلغ دانيال هذه الفكرة عاد اليه غضبه فتمتم « قذرون ! » وكان الشاب قد توقف على بضع خطى من الرجل الكهل واخذ يصطنع بدوره ان يتفحص الآلة . وكان كلاهما منحنيًا فوق القضبان يحدجها ، من غير ان ينظر الى الآخر ، في مظهر اهتمام . وبعد ذلك ، بدا على الشاب انه يتخذ قراراً نهائياً : فقبض على زر وأدار احد القضبان على نفسه في سرعة ، فرسم اربعة لاعبين صغار نصف دائرة ثم توقفوا ورؤوسهم منخفضة .

وسأل الرجل بصوت يشبه معجون اللوز :

— هل تحسن اللعبة ؟ اوه ! هل تريد ان تشرح لي ؟ إنني لا

أفهم !

— تضع عشرين فلساً ثم تسحب ، فتأتيك الكرة ، ويجب ان

ترسلها الى الثقب .

— ولكن يجب ان يلعب اثنان ، اليس كذلك ؟ انني احاول ان

ارسل الكرة الى الهدف ، وانت ، عليك ان تمنعني من ذلك ؟

فقال الشاب : — طبعاً (واذاف بعد لحظة) يجب ان نكون على

الطرفين ، هنا واحد ، وهناك واحد .

— اتريد ان تلعب معي دوراً ؟

فقال الشاب : — بكل ترحيب .

ولعبا . وقال الرجل بصوت مرتفع :

— ولكن ما ابرع هذا الشاب ! كيف تراك تفعل حتى تربح

طوال الوقت ؟ علمني .

فقال الشاب بتواضع : - إنها العادة .

- آه ! انت تتدرب ! انك تأتي الى هنا غالباً ، بلا شك ؟ اما انا ، فيتفق لي ان امرّ فأدخل ، غير اني لم التق بك قط . ولو التقيت بك للاحتظتك ، اجل كنت لاحظتك ، فانا عالم بالفراسة ، وان لك وجهاً يثير الاهتمام . هل انت من « تورين » ؟

فقال الشاب منزعجاً : - نعم ، نعم ، بالتاكيد .

وكف الرجل عن اللعب واقرب منه ، فقال الشاب بسداجة :

- ولكن الدور لم ينته . فان امامك خمس كرات بعد .

فقال الرجل : - نعم ! اذن ، سنلعب بما قليل . اني افضل

ان اتكلم قليلاً ان كان ذلك لا يضايقك .

فابتسم الشاب ابتسامة مدروسة . واضطر الرجل الى ان يستدير على نفسه ليلحق به . ورفع رأسه وهو يمرّ لسانه على شفثيه الرقيقتين ، فالتقى بنظر دانيال . فكشّر دانيال . وصرف الرجل عينه بسرعة ، وبدا حائراً ، ففرك يديه فيما بينهما بحركة كاهن . ولم يكن الشاب قد رأى شيئاً ، وكان فاغر الفم ، فارغ النظر ، ممتلاً ، ينتظر ان يوجه اليه الكلام . وساد صمت ثم اخذ الرجل يحدثه في عذوبة ، من غير ان ينظر اليه ، بصوت مخنوق . واجهد دانيال نفسه في الانصات ، فلم يسمع الا كلمتي « فيلا » و « بايار » وهز الشاب رأسه في اقتناع ، وقال بصوت مرتفع :

- لا بد انه من النيكل !

فلم ينجب الرجل وزمى بنظره سريعاً تجاه دانيال . وكان دانيال يحس بأن غضباً جافاً ولذيذاً كان يدفئه . وكان يعرف جميع طقوس الذهاب : سوف يودع احدهما الآخر ، فيذهب الرجل اولاً ، بخطوة عجلي . ويعود الفتى الى رفاقه بلا مبالاة فيضرب بطن الزنجي التمثال

ضربة او ضربتين ، ثم يمضي بدوره بعد تحيات رخوة ، وهو يجرجر قدميه . وكان ينبغي ان يتبع هو بالذات . ويكون العجوز يذرع الطريق المجاورة ، فبرى فجأة دانيال في اعقاب الشاب الجميل . ويا لها من لحظة ! لقد كان دانيال يستمتع بها مقدماً ، فيلتهم بعينه وجه فريسته الرقيق التعب ، وترتجف يداه ، وتكون سعادته كاملة لولا ان يكون حلقه جافاً وأنه يكاد يموت من العطش . فاذا كان يجد فرصة مناسبة مارس عمل شرطة الاخلاق : وقد كان بوسعه دائماً ان يأخذ اسم الكهل ويخضعه لذعر شديد : « فاذا طلب مني بطاقة التفتيش فسوف أريه بطاقة السير الممنوحة لي من المحافظة »

قال صوت خجول : - مرحباً يا سيد لاليك .
وانتفض دانيال : لقد كان لاليك اسماً حريباً يتخذه لنفسه احياناً .
والفت فجأة وقال بقسوة :

- ماذا تفعل هنا ؟ لقد منعتك من ان تضع قدمك في هذا المكان.
انه بوبي . وكان دانيال قد وظفه لدى صيدلي . وقد سمن وترهل ، وكان يرتدي بذلة جميلة ، ولم يكن يثير الاهتمام بعد على الاطلاق . وكان بوبي قد احنى رأسه على كتفه مقلداً الطفل : وكان ينظر الى دانيال من غير ان يجيبه ببسمة بريئة حدقة كما لو انه قال : « كوكو : هانذا . » وقد دفعت هذه البسمة بغضب دانيال الى ذروته ، فسأله :

- هل ستتكلم ؟

فقال الفتى بصوته المسترخي :

- اني ابحث عنك منذ ثلاثة ايام ، ولست اعرف عنوانك . وقد قلت لنفسى : ان السيد دانيال سيأتي ذات يوم ليقوم بدورته الصغيرة...
« ذات يوم ! يا للقذارة الوقحة ! » لقد كان يسمح لنفسه ان يحكم على دانيال ، وان يقوم بتنبؤاته الصغيرة : « هو يتصور انه

يعرفني ، وأن بوسعه ان يناور علي . « ولم يكن ثمة ما يُفعل : الا ان يُسحق كالزراق : لقد كانت صورة "لدانيال متكيسة هناك ، تحت هذا الجبين الضيق ، وستبقى فيه دائماً . وكان دانيال ، بالرغم من نفوره ، يشعر انه متضامن مع هذا الأثر الرخي الحي : انما كان هو نفسه الذي يعيش هكذا في ضمير بوبي .

وقال : - انك قبيح ! لقد سمعت ، ثم ان هذه البذلة لا تنسجم معك ، فن اين التقطتها ؟ انه لمربع كم يبدو ابتذالك واضحاً حين ترتدي ثياب الاحد !

ولم يبد على بوبي الانفعال . كان ينظر الى دانيال مباعداً ما بين عينيه بلطافة وهو دائم الابتسام . وكان دانيال يحترق هذا الصبر الجامد ، الذي يشبه صبر الفقير ، وتلك الابتسامة المائعة اللزجة المطاطية : فحتى لو مزقت هذه الشفاه بالأظافر ، لظلت تلك الابتسامة دامية على اللحم . وألقى دانيال نظرة سريعة نحو الرجل الجميل فرأى في غيظه انه كان هادئاً غير مززعج : كان منحنيّاً فوق الشاب الاشقر يشم شعره وهو يضحك بجذل . وفكر دانيال في غضب : « كان هذا متوقفاً . انه يراني مع هذا المحون فيظنني زميلاً له ، فهأنذا ملطّخ » وكان يكره روح المساعدة هذه المبولية . « انهم يتصورون ان جميع الناس ينتمون اليها . على اي حال ، افضل ان اقتل نفسي على ان اشبه هذا المحون ! »

وسأل بوحشية : - ماذا تريد ؟ لاني مستعجل ، ثم ارجع قليلاً الى الوراء ، فان رائحة « البريانتين » التي تتصاعد منك تفعم الانف ! فقال بوبي في بطء : - اعذرني ، لقد كنت مستنداً هناك الى العمود ، ولم يكن يبدو عليك انك مستعجل قط ، ولهذا سمحت لنفسني ...

فقال دانيال وقد انفجر ضاحكاً :

- اوه ! ولكن الحقيقة انك تحسن الكلام ، فهل تراك اشتريت
لساناً مصنوعاً في الوقت الذي اشتريت فيه بذلتك المصنوعة ؟
وانزلت هذه السخرية على بوبي : وكان قد قلب رأسه وراح
ينظر الى السقف نظرة شهوة متواضعة عبر جفنيه المغمضين . « لقد
راق لي لأنه كان يشبه قطعة . » ولم يستطع دانيال ، اذ فكر بهذا ،
ان يكبت انتفاضة غضب : أجل ! ذات يوم ! لقد راق له بوبي
ذات يوم ! فهل كان هذا يكسبه حقوقاً مدى العمر ؟
وكان الرجل الكهل قد اخذ يد صديقه الشاب واحتفظ بها بين يديه
بحركة ابوية . ثم حياه وهو يربت على خده ، ورمى بنظرة ضالعة
الى دانيال ومضى في خطى واسعة راقصة . ومد له دانيال لسانه ، ولكن
كان قد اولاه ظهره . واخذ بوبي يضحك .
وسأل دانيال : - ماذا دهاك ؟

فقال بوبي : - ذلك انك مددت لسانك للعجوز (واضاف بلهجة
ناعمة) : « انك لا تتغير يا سيد دانيال ، وشيظنتك هي نفسها . »
وقال دانيال مذعوراً : - كفى ! (واخذه شك فسأله) وصيدليك ؟
هل تركته ؟

فقال بوبي في لهجة شاكية : - لم يواتني الحظ عنده .
فنظر اليه دانيال في اشمزاز :
- غير انك مع ذلك قد سميت .

وخرج الشاب القصير الأشقر من السوق الخيرية بلا اكتراث ، فلامس
دانيال وهو يمر . وما لبث رفاقه الثلاثة ان تبعوه ، وراحوا يتزاحون
وهم يضحكون بأصوات عالية . وفكر دانيال : ماذا افعل هنا ؟
وبحث بعينيه عن كتفي الشاب صاحب قميص النوم ، وعن رقبتة الهزيلة ،
وقال بشرود :

- هيا ، تكلم ، ماذا فعلت له ؟ هل سرقتة ؟

فقال بوبي : - بل ان السبب هو زوجة الصيدلي . انها لم تكن تطيقني .

وكان الشاب ذو قميص النوم قد خرج . واحس دانيال بأنه ضجر وخفيف ، وكان يخشى ان يجسد نفسه وحيداً مرة اخرى . وتابع بوبي :

- لقد غضبت لأنني كنت ارى رالف .

- لقد حذرتك بالأ تعاشر رالف بعد . انه سارق قذر !

فسأله بوبي بغیظ : - اذن يجب التخلي عن الاصدقاء بمجرد ان يواتينا الحظ ؟ لقد كنت اراه اقل من السابق ، ولكنني لم اكن ارید التخلي عنه دفعة واحدة . كانت تقول : « انه سارق ، وانا امنعه من ان يضع قدميه في صيدليتي » . ماذا تريد ، انها امرأة لثيمة . ولهذا كنت اراه في الخارج حتى لا تقبض علي . ولكن حدث ان المتمرن وأنا معاً . يا للعكروت القذر ، اعتقد ان عنده بعض الميول ... في البدء ، حين كنت هناك ، كان يلاطفني جداً ، فكيف اجرؤ على ان أصدده ؟ فاذا به يقول لي : سوف اقبض عليك ! ودخل الى الصيدلية فسرده كل شيء ، وقال انه رأنا معاً ، واننا كنا في وضع سيء ، وان الناس كانوا يلتفتون الينا فقالت المعلمة : ماذا قلت لك ؟ اني امنعك من رؤيته والا فلن تبقى عندنا . وقلت لها : اسمعي يا سيدتي : انت التي تأمرين حين اكون في الصيدلية ، اما حين اكون خارجاً فليس لديك ما تقولينه . وهكذا كان !

كانت السوق الحرية خالية ، من الجهة الاخرى للجدار . وكان الطرّق قد كف . ونهضت امينة الصندوق ، وكانت شقراء سمينة ، فضت بخطى بطيئة الى بائع للطور ، فنظرت الى نفسها في المرآة وهي تبسم . ودقت الساعة السابعة . وردد بوبي في انبساط :

- في الصيدلية ، انت التي تأمرين ، اما حين اكون خارجاً فليس

لديك ما تقولينه .

وانتفض دانيال وسأله بطرف شفثيه :

— وهكذا طردوك ؟

فقال بوبي برصانة : — بل انا الذي ذهبت ، وانا اقول : افضل

ان ارحل . وتصور انه لم يكن باقياً معي فلس واحد ! انهم لم يريدوا

ان يدفعوا ما استحق ، ولكن طز : اني هكذا . ابيت لدى رالف ،

وانام بعد الظهر ، لأنه يستقبل في المساء امرأة مشهورة له علاقة بها .

اني لم آكل منذ امس الأول .

ونظر الى دانيال نظرة ملامسة :

— وقد قلت في نفسي : سأحاول مع ذلك ان أرى السيد لاليك ،

فهو سيفهمني .

فقال دانيال :

— انك ابله صغير . فأنت لا تثير اهتمامي بعد . اني ابذل جهداً

كبيراً لأجد لك عملاً فتجعلهم يطردونك بعد شهر . وبعد ذلك ، لا

تتصور اني اصدق نصف ما تقوله لي . انت تكذب كخالع الضرس .

فقال بوبي : — إسأل ، وسترى ان كنت لا اقول الحقيقة .

— أسأل من ؟

— امرأة الصيدلي .

فقال دانيال : — سوف أتفادى ذلك جيداً حتى لا اسمع القصص .

ثم اني لا استطيع شيئاً من اجلك .

واحس بالاسترخاء ففكر : « يجب ان اذهب » ولكن ساقبه كانتا

مخدرتين .

وقال بوبي بلهجة مجردة :

— لقد فكرنا ، انا ورالف بأن نشتغل . وكنا نريد ان نعمل

لحسابنا .

— صحيح ؟ وانت آت تطلب مني ان اسلفك مالا لنفقاتك الأولى ؟
احتفظ بهذه القصص لآخرين . كم تريد ؟

فقال بوبي بصوت مبتل : — انك شخص لطيف يا سيد لاليك .
والحق اني كنت اقول لرالف في هذا الصباح بالذات : لألتقِ بالسيد
لاليك ، وسترى انه لن يتركني في المغطس .

وردد دانيال : — كم تريد ؟

واخذ بوبي يتلوى وهو يقول : — يعني ، لو كنت تستطيع ان
تدينني ، أسمع : تدينني ؟ فسوف اردها لك في آخر الشهر الأول .
— كم ؟

— مئة فرنك .

فقال دانيال : — خذ ، هذه خمسون فرنكاً ، وانا اهبك اياها .
ولكن اخف الآن !

ووضع بوبي الورقة في جيبه من غير ان يقول كلمة ، وبقي احدهما
تجاه الآخر ، مترددين .

وقال دانيال برخاوة : « اذهب » وكان جسمه كله من القطن .
فقال بوبي : « شكراً يا سيد لاليك » وخطا خطوة زائفة ، ثم
عاد على اعقابه ، واستطرد يقول :

— اذا اردت احياناً ان تتحدث الي او الى رالف ، فنحن نسكن
في الجوار ، ٦ شارع الاورس ، الطابق السابع . وانت مخطيء في حق
رالف ، فهو ، لو كنت تعلم ، يحبك كثيراً .
— اذهب .

فابتعد بوبي متراجعاً ، وهو ما يزال يبتسم ، ثم استدار على نفسه
ومضى . واقرب دانيال من الآلة الرافعة ونظر اليها . وكان الى جانب
الكوداك والمصباح الكهربائي نظارة مزدوجة لم يلاحظها من قبل قط .
وادخل قطعة من عشرين فلساً في الشق وادار الأزرار كيفما اتفق ،

فاسقطت الآلة ملاقطها على سرير الملبس وأخذت تقشره بصورة غريبة.
والتقط دانيال خمس ملابس او ستاً في جوف يده وأكلها .

كانت الشمس تعلق بعض الذهب على البنائات الكبيرة السوداء ،
وكانت السماء مألئ بالذهب ولكن ظلاً مائعاً عذباً كان يصعد من
الرصيف ، وكان الناس يبتسمون للمداعبات الظل . وكان دانيال على
عطش جهنمي ، ولكنه لم يكن يريد ان يشرب : مُتْ ! مُتْ !
عطشاً ! وفكر : « مها يكن من امر ، فاني لم افعل شيئاً سيئاً . »
ولكن ذلك كان اسوأ : لقد استسلم للشر يلامسه ، وكان قد سمح
لنفسه بكل شيء ، الا ارواء الغليل ، بل هو لم يجرؤ حتى على ارواء
الغليل . وها هو ذا الآن يحمل هذا الشر في نفسه كدغدغة حية ، من
اعلى جسده حتى اسفله ، لقد كان متنتاً ، وكان لا يزال لديه بعد
ذلك المذاق الأصفر في عينيه ، كانت عيناه تجعلان كل شيء اصفر .
لقد كان افضل لو قتل نفسه لذةً وقتل الشر في نفسه . صحيح ان هذا
الشر كان يولد دائماً من جديد . والتفت فجأة وهو يفكر : « انه
جدير بان يتبعني ليري اين اسكن ، واني اود لو يتبعني حتى اركله
ركلة شديدة في وسط الشارع ! » ولكن بوبي لم يكن ليظهر . لقد
ربح الآن نهاره ، فعاد الى المنزل . منزل رالف ، ٦ شارع الاورس .
وانتفض دانيال : « ليتني استطيع ان انسى هذا العنوان ! ليته يتأتى
لي ان انسى هذا العنوان . »

وكان الناس يثرثرون حوله ، آمنين مع انفسهم . وقال رجل لزوجته :
« هيه ! ولكن هذا يرجع عهده الى ما قبل الحرب . عام ١٩١٢ .
لا ١٩١٣ . كنت ما ازال لدى بول لو كاس . » السلام . سلام
الشجعان ، الشرفاء ، ذوي الارادة الصادقة . ولماذا تكون ارادتهم هي
الصادقة ، لا ارادتي ؟ لم يكن في اليد حيلة ، فكذلك كانت الامور .
شيء ما في هذه السماء ، في هذا النور ، في هذه الطبيعة ، قد قررت

ذلك كذلك . وكانوا يعرفون هذا، يعرفون أنهم كانوا على حق، وان
الله ، لو كان موجوداً ، لكان في جانبهم. ونظر دانيال الى وجوههم :
كم كانوا قساةً ، بالرغم من استسلامهم . وكان حسبهم اشارة حتى
يرتموا عليه ويمزقوه . وستكون السماء والنور والأشجار والطبيعة كلها على
وفاق معه ، كشأنها دائماً : فقد كان دانيال انساناً ذا ارادة سيئة .
وكان ثمة بواب على عتبة بابه ، سمين ممتقع ، ذوكتفين منبسطين ؛
يستنشق الهواء . وراه دانيال من بعيد ، ففكر : هوذا « الخير » .
وكان البواب جالساً على كرسي ويدااه على بطنه ، كأنه بوذا ، ينظر
الى الناس يمرون ، ويقرهم بين لحظة واخرى بايماء من رأسه . وفكر
دانيال في حسد : « لو كنت هذا الشخص ! » لا بد انه كان قلباً
فاضلاً ، والى جانب ذلك ، شديد الحساسية بالقوى الطبيعية الكبرى ،
الحرارة والبرد والنور والرطوبة . وتوقف دانيال : لقد سحرته هذه
الجفون الطويلة البليدة ، وهذا الخبث المتكلف على خدية الممثلتين . انه
يتوحش ويخجل حتى لا يكون بعد الا هذا ، حتى لا يبقى في رأسه الا
عجينة بيضاء مع عطر يسير يشبه عطر معجون الحلاقة . وفكر : « انه
ينام الليل بطوله » . ولم يكن يدري بعد ان كانت به رغبة في
قتله ، أم في التسلل الى دفء هذه الروح المنظمة .

ورفع الرجل السمين رأسه ، فاستعاد دانيال سيره : « ان بوسعي
ان اؤمل دائماً ، اذا استمرت هذه الحياة التي اسوقها ، بأن اصبح في
اقرب وقت ممكن بليد الذهن ، ضعيف الادراك . »

ألقي نظرة استياء الى محفظته : لم يكن يجب ان يحملها في ذراعه ،
فان ذلك كان يعطيه هيئة المحامي ، ولكن استيائه سرعان ما تلاشى ،
لأنه تذكر انه لم يحملها من غير قصد ؛ بل انها ستكون مفيدة له الى
حد بعيد . ولم يكن يخفي عن نفسه انه يتعرض للمخاطر ، ولكنه كان
هادئاً بارداً منتعشاً بكل بساطة . « اذا وصلت طرف الرصيف في ثلاث

عشرة خطوة...» وخطا ثلاث عشرة خطوة وتوقف جامداً على طرف الرصيف ، ولكن الخطوة الاخيرة كانت اوسع من سائر الخطى بوضوح ، اذ انه كان ينفس كأنه خبير بالمسافة : « والحق انه ليس لذلك اية أهمية ، فالقضية على كل حال في المحفظة . » وما كان لذلك ان يخطيء ، فانه امر " علمي " ، بل ان المرء ليتساءل كيف لم يخطر لأحد ان يفكر من قبل . وفكر في قسوة : « ان الأمر هو ان السارقين اغبياء . » وعبر الرصيف ووضّح فكرته : « فقد كان عليهم منذ زمن طويل ان ينظّموا انفسهم في نقابة ، كالمشعوذين . » « جمعية لتطبيق الاساليب التكنيكية تطبيقاً مشتركاً ولاستغلالها ، ذلك ما كان ينقصهم . على ان يكون لهم مقر اجتماعي ، ورتبة شرف ، وتقاليد ومكتبة . وآلة للسينما ايضاً ، وافلام تفكّك بيضاء الحركات الصعبة . وكل اتقان جديد يُصوّر ، وتُسجل النظرية على اسطوانات وتحمل اسم مخترعها ؛ وكل شيء يُصنّف في فئة ؛ فيكون هناك مثلاً سرقة الاشياء المعروفة بالطريقة ذات الرقم ١٦٧٣ او بطريقة «سرغين» المسماة ايضاً بيضة كريستوف كولومب (لأنها سهلة جداً ولكن يجب ايجادها) وان بوريس مستعد لتصوير فيلم صغير توضيحي . وفكّر : « آه ! وبعد ذلك دروس مجانية عن علم نفس السرقة ، فهذا امر لا بد منه . » وكانت طريقته تعتمد كل الاعتماد على علم النفس . ونظر برضى الى مقهى صغير ذي طابق واحد ، ولونه اصفر ، ولاحظ فجأة انه كان في وسط جادة اورليان . وكان غريباً ان يبدو الناس على مثل هذا اللطف والقرب من القلب ، في جادة اورليان ، بين السابعة والسابعة والنصف مساء . ولا شك ان للنور أثراً كبيراً في الموضوع ، اذ كان « شاشاً » أحمر راتماً ، وكان لطيفاً ان يوجد المرء في آخر باريس بالقرب من باب ، والشوارع تجري تحت قدميه نحو وسط المدينة التجارية العتيق ، نحو الاسواق ، نحو ازقة حيّ سانت انطوان المظلمة ،

حيث يشعر بأنه منغمر في منفى المساء والضواحي ، ذلك المنفى الديني الرقيق . لقد كان الناس يبدوون وكأنهم خرجوا الى الشارع ليكونوا معاً ، فهم لا يغضبون حين يُدفعون ، بل يمكن الظن بأن هذا يسرهم . ثم انهم ينظرون الى الواجهات باعجاب بريء مجرد تماماً . وفي جادة سان ميشال ينظر الناس ايضاً الى الواجهات ، ولكن بنيتة الشراء . وصمّم بوريس في حماسة « ساجيء الى هنا كل مساء » . وفي الصيف القادم ، سيستأجر غرفة في احد هذه البيوت ذات الطوابق الثلاثة التي كانت تبدو كأنها توائم وتذكّر بثورة ٤٨ . ولكن اذا كانت النوافذ ضيقة الى هذا الحد ، فاني اتساءل كيف كانت النساء تعمل لإخراج الفروش والقائنها على الجنود . وكانت النوافذ محاطة كلها بسواد الدخان فكأنما لحستها نيران حريق ؛ ولم يكن هذا منظراً حزيناً ، فان هذه الواجهات الكالحة المثقوبة بثقوب صغيرة سوداء تشبه فرجات سماء عاصفة تحت السماء الزرقاء ، واني انظر الى النوافذ ، ولو كان بوسعي ان اصعد الى سقف هذا المقهى ، لرأيت الخزائن ذات المرايا وسط غرف تشبه بحيرات عمودية ؛ والجمع يمرّ عبر جسمي ، وافكر في حرس بلدي ، وفي ابواب « باليه - رويال » المذهبة ، يوم ١٤ تموز ، ولست ادري لماذا افكر في ذلك : وفكر فجأة : « ماذا اتى يفعل عند ماتيو ذلك الشيوعي ؟ » لم يكن بوريس يحب الشيوعيين ، فهم أرصن مما ينبغي . ولا سيما برونيه ، فكأنه البسابة ، وفكر بوريس مقهقهاً « لقد طردني ... الحيوان ، طردني » ثم أخذته فجأة الرغبة في ان يكون شريراً ، كأنها ربح سموم صغيرة في رأسه : « لعل ماتيو لاحظ انه منخدع على طول الخط ، ففكر في دخول الحزب الشيوعي . » وتسلى لحظة في تعداد العواقب التي لا تحصى لمثل هذا الانضواء . ولكنه شعر فجأة بالخوف فتوقف . ان ماتيو لم ينخدع بكل تأكيد ، فان هذا سيكون خطيراً جداً ، الآن وقد التزم بوريس :

ففي صف الفلسفة احسن "بود" غريب للشيعوية ، ولكن ماتيو صرفه عنها . وهو يشرح له ما هي الحرية . وكان بوريس قد فهم على الفور: يجب على المرء ان يفعل كل ما يريد ، وان يفكر بكل ما يبدو التفكير فيه حسناً ، والا يكون مسؤولاً الا امام نفسه ، والا يكف لحظة عن وضع كل ما يفكر به ، وكل الناس ، موضع الامتحان . وكان بوريس قد بنى حياته على هذا ، وكان حراً بصورة دقيقة : وكان خصوصاً يضع جميع الناس موضع الامتحان ، باستثناء ماتيو وايفيش ؛ فقد كان لا جدوى من وضعهما كذلك ، بالنظر الى انهما كانا كاملين . وأما الحرية ، فلم يكن كذلك حسناً ان يتساءل المرء عنها ، لأنه يكف آنذاك عن ان يكون حراً . وحك بوريس رأسه في تملل ، وتساءل من اين تأتيه هذه الدفعات التي كانت تأخذه بين الفينة والفينة ؟ لتحطيم كل شيء وفكر في دهشة لذيذة : « ربما كنت في حقيقتي ذا مزاج قلقى . » لأن ماتيو ، اذا نظرنا الى الامور برودة ، لم يكن منخدعاً ، فقد كان هذا امرأ مستحيلاً : لم يكن ماتيو ذلك الشخص الذي ينخدع . واغتبط بوريس ، وجعل يورجح محفظته بجذال في ذراعه . وتساءل ايضاً اذا كان اخلاقياً ان يكون المرء ذا شخصية قلقة ، فرأى لذلك حسنات وسيئات ، ولكنه امتنع عن ان يذهب بتقديراته الى ابعد من هذا ؛ سوف يستشير في ذلك ماتيو . كان بوريس يجد شائناً ان يفكر شخص في مثل سنه تفكيراً مستقلاً بنفسه . وقد سبق له ان رأى كثيراً من هؤلاء الخبثاء المزيفين في السوربون ، الذين كانت لهم دائماً نظرية خاصة محفوظة ، وكان ينتهي بهم الامر عادة الى الافلاس ، بطريقة او بأخرى ، وكانت نظرياتهم من غير هذا بشعة ، مقرنة . وكان بوريس يستفزع كل ما يدعو الى الهزؤ ، ولم يكن يريد ان يفلس ، ويؤثر ان يصمت ويُعتبر رأساً فارغاً ، فقد كان هذا أقل تكديراً . سيكون الامر فيما بعد ، طبعاً ، شيئاً آخر ؛ اما الآن ،

فهو يلجأ الى ماتيو الذي كانت تلك مهمته . ثم انه كان يغتبط دائماً
اذ يرى ماتيو يأخذ في التفكير : كان ماتيو يحمر ، وينظر الى اصابعه ،
ويتلعم قليلاً ، ولكن ذلك كان عملاً طيباً وأنيقاً . وكانت تردُّ
لبوريس ، بين حين وآخر ، فكرة صغيرة بالرغم منه ، فكان يجهد
حتى لا يلاحظ ماتيو ذلك ، ولكن اذا حدث ان لاحظ هذا اللثيم
ذلك قال له : « ان في رأسك شيئاً » ثم يرهقه بالأسئلة . ويقع
بوريس في العذاب ، ويحاول مئة مرة ان يغير وجهة الحديث ، ولكن
ماتيو كان عنيداً كالقمل ؛ وينتهي الامر ببوريس الى ان يلفظ الفكرة
وينظر الى ما بين قدميه ، فيكون اسوأ ما في الامر ان ماتيو كان آنذاك
يوسعه احتقاراً ويقول له بعد ذلك : « ان هذا سخيف جداً ، وانت
تفكر كالحمقى . » كما لو ان بوريس ادعى انه عثر على فكرة
عبقرية . وردد بوريس مقهقهاً « اللثيم ! » وتوقف امام مرآة صيدلية
جميلة حمراء وتأمل صورته في غير ما تحيُّز . وفكر « انني انسان
متواضع » وألقى نفسه قريباً الى القلب . وصعد الى الميزان الآلي ووزن
نفسه ليرى اذا كان قد سمن منذ عشية الامس . وأضاعت كرة حمراء
وأحدثت الآلة حركات متحشجة ، ثم تلقى بوريس تذكرة من الكرتون :
سبعة وخمسين كيلو وخمسمئة . وأخذته لحظة رعب ، وفكر : « لقد
زدت خمسمئة غرام » ولكنه لاحظ بسرور انه كان ما يزال يحمل
المحفظة في يده . ونزل عن الميزان ، واستأنف سيره . سبعة وخمسون
كيلو بالنسبة لطول متر وثلاثة وسبعين : هذا امر طيب . وكان مزاجه
رقيقاً جداً ، وكان يشعر انه مخملي برمته في داخله . وفي الخارج ،
كانت ثمة تلك الكآبة الدقيقة لذلك اليوم المسن الذي كان يسود رويداً
حوله ويلامسه بضوئه الاحمر وعطوره الملأى بالأسف . ذلك النهار ،
ذلك البحر الاستوائي الذي كان ينسحب مخلفاً إياه وحده تحت سماء
مصفرة ، كان هو ايضاً مرحلة ، مرحلة صغيرة . إن الليل قادم ،

وسوف يذهب الى « سومطرا » وسيرى ماتيو ، وسيرى ايفيش وسيرقص .
وعما قليل ، عند الرزة التي تفصل بين النهار والليل ، ستكون تلك
السرقة الرائعة. وانتصب وحث الخطي : ينبغي ان يكون متنبهاً كل
التنبه ، ، بسبب هؤلاء الاشخاص الذين لا يبدو عليهم شيء ، بينما
يقلّبون صفحات الكتب بجد ، وليسوا هم الا من رجسالت التحري .
وكانت مكتبة « غاربور » تستخدم ستة منهم ، وكان بوريس قد حصل
على هذه المعلومات من « بيكار » الذي امتحن هذه المهنة ثلاثة ايام
حين سقط في شهادة علم الارض ، فاضطر الى ذلك بعد ان قطع عنه
ذووه المؤن ؛ ولكنه ما لبث ان ترك هذه المهنة مشمئزاً . انه لم يكن
عليه فحسب ان يتجسس على الزبائن كالديك المبتدل ، بل لقد أعطي
الأوامر بأن يترصد السدّج ، لابس النظارات مثلاً ، الذين كانوا
يقربون بحياء من مكان العرض ، وان يثب عليهم فجأة متهماً إياهم
بأنهم كانوا يريدون ان يختلسوا كتاباً ويخفوه في جيوبهم . وكان المساكين
ينحلّون بطبيعة الحال ، فكانوا يقتادونهم الى جوف ممر طويل في مكتب
صغير مظلم ، حيث كانوا يسلبونهم مئة فرنك تحت التهديد بالملاحقة
القانونية . وأحس بوريس بأنه ثمل : سوف ينتقم لهم جميعاً ؛ فانهم
لن يأخذوه ، هو ؛ وفكر : « ان معظم الناس يسيئون الدفاع عن
انفسهم ؛ فمن مئة شخص يسرقون ، ثمانون يرتجلون ارتجالاً . » اما
هو ، فلم يكن ليرتجل ، صحيح انه لم يكن يعرف كل شيء . ولكن
ما يعرفه قد درسه دراسة منهجية ، لأنه كان قد فكر دائماً بأن الانسان
الذي يعمل برأسه لا بد ان يملك فوق ذلك مهنة يدوية ليظل على اتصال
بالحقيقة . وحتى الآن ، لم يكن قد افاد اية افادة مادية من مشاريعه :
فليس شيئاً هاماً ان يملك ست عشرة فرشة اسنان ، وعشرين منفضة
سجاير ، وموصلة ، ومنفخ نار ، وبيضة للرتي . وكانت الصعوبة
التكنيكية هي ما كان يأخذه بعين الاعتبار في كل حالة . فقد كان

افضل ، كما حدث في الاسبوع الماضي ، ان يختلس علبة صغيرة من سوس « البلاكوبيد » تحت نظر الصيدلي ، على ان يسرق محفظة نقود جلدية من حانوت خال . ان فائدة السرقة شيء معنوي كالياً ؛ ومن هذه الناحية ، كان بوريس على وفاق تام مع الاسرطيين القدامى ، فهذه عملية تقشف . ثم انه كانت هناك لحظة متعة ، هي حين يقول المرء لنفسه : سأعدّ حتى الخمسة ، وعند الخمسة يجب ان تكون فرشاة الأسنان في جيبى ؛ انه يشعر بانقباض في حلقه ، وباحساس هائل من الضعف والقوة . وابتسم : سوف يدخل على مبادئه استثناء ؛ فالمرة الاولى ، ستكون الفائدة هي دافع السرقة ؛ فبعد نصف ساعة على الاغلب ، سيمتلك هذه الجوهرة ، هذا الكنز الذي لا غنى عنه : « تيزوروس هذا ! » قال في نفسه بصوت منخفض لأنه كان يجب كلمة « تيزوروس » التي كانت تذكره بالقرون الوسطى ، وأبيلارد ، وبفارس وأحزمة الطهارة التي كانت تُرى في متحف « كلوني » . « سوف يكون لي ، فأستطيع ان أتصفحه كل ساعة من النهار ، بينما كان ، حتى هذه اللحظة ، مضطراً الى تقليب اوراقه حيث هو معروض ، وبسرعة ، فضلاً عن ان الصفحات لم تكن مقصوفة ؛ فلم يستطع غالباً ان يقتبس الا معلومات ناقصة . سوف يضعه ، في هذا المساء بالذات ، على طاولة سريره ، وحين يستيقظ في اليوم التالي ، ستكون نظرتة الاولى له ؛ وقال في انزعاج : « آه ! ، كلا ! سأنام لدى لولا هذا المساء . » مهما يكن من امر ، فسيحمله الى مكتبة السوربون ، وسيقطع بين فترة وأخرى عمل المراجعة ، ليلقي عليه نظرة عجيبة تسليه : وتعاهد مع نفسه ان يحفظ عبارة او ربما عبارتين كل يوم ، وسيساوي ذلك في ستة اشهر ستة في ثلاثة ثمانية عشر مضروبة باثنين : ثلاثمائة وستين ، فاذا اضاف اليها الخمسمئة او الستمئة التي يعرفها ، اصبح ذلك في حدود الالف ، وهذا ما كان يسمى معرفة متوسطة

طيبة ، واجتاز جادة راسباي وسلك شارع دانفير - روشيرو بشيء من الاستياء . كان شارع دانفير - روشيرو يضره كثيراً ، وربما كان ذلك بسبب اشجار الكستناء ؛ مهما يكن من امر ، فهو مكان اجرد ، باستثناء مصبغة سوداء ذات ستائر حمراء بلون الدم تبدل بصورة مزرية كخصلتين مسلوختين . والقى بوريس نظرة ود الى المصبغة ، حين ألم بها ، ثم انغمر في صمت الشارع الاشقر المميز . شارع ؟ انه لم يكن الا ثقباً ذا بيوت على الجانبين . وفكر بوريس : « نعم ، ولكن المترو يمر من تحته » واستمد من هذه الفكرة بعض العزاء ، وتمثل لدقيقة او دقيقتين انه كان يسير على قشرة رقيقة من الزفت لعلها ستنهار . وقال بوريس في نفسه : « يجب ان اروي هذا لماتيو ، فسوف يسيل له لعابه ! » لا . وصعد الدم فجأة الى وجهه ، انه لن يروي شيئاً على الاطلاق . بلى ، سيروي ذلك لإيفيش : لقد كانت تفهمه ، واذا كانت هي نفسها لا تسرق ، فلأنها لم تكن موهوبة . وسيروي القصة ايضاً للولا ، ليجعلها تغرغر من الضحك . اما ماتيو ، فلم يكن صريحاً في موضوع هذه السرقات . كان يقهقه برفق حين كان بوريس يتحدث عنها ، ولكن بوريس لم يكن على ثقة بأنه سيقربها . كان يتساءل مثلاً عن المآخذ التي يمكن لماتيو ان يأخذها عليه . ان ذلك كان يثير جنون لولا ، ولكن هذا كان طبيعياً ، فهي لم تكن تستطيع ان تفهم بعض الدقائق ، لا سيما وانها كانت بخيلة بعض الشيء . كانت تقول له : « لن تتورع عن سرقة امك ، ولا بد ان تسرقني يوماً . » وكان يجيب : « هيه ! هيه ! لو اتيح لي ذلك لما قلت لا ! » وبالطبع ، لم يكن جاداً في ذلك : ان المرء لا يسرق اصدقاءه الصميمين ، فان هذا ايسر من ان يعمل ، وانما كان يجيب بهذا الجواب بدافع الانزعاج : لقد كان يكره هذه الطريقة التي تلجأ اليها لولا لترد كل شيء الى نفسها . اما ماتيو ... أجل ماتيو ، فلم يكن يفهم من موقفه شيء .

ما كان عساه ان يأخذ على السرقة ، ما دامت تنفّذ وفق القواعد ؟
 فقد تبرم بوريس بضع لحظات من توبيخ ماتيو الصامت ، ثم هز رأسه
 وقال في نفسه : « ان هذا ظريف ! » فبعد خمس سنوات ، اوسيع ،
 ستكون له افكاره هو ، فتبدو له افكار ماتيو مثيرة للعطف ومسنّة ،
 وسيكون آنذاك حكّم نفسه : « ما يدريني اننا سنتقابل بعد ؟ » ولم
 تكن لدى بوريس اية رغبة في ان يأتي ذلك اليوم ، وكان يلقي نفسه
 سعيداً للغاية ، ولكنه كان عاقلاً ، وكان يدري انها ضرورة : كان
 لا بد من ان يتغير ، وان يخلف وراءه ركاباً من الاشياء والناس ،
 وهو لم يجعل بعد ذلك . لقد كان ماتيو مرحة ، شأنه شأن لولا ،
 وفي اللحظات التي كان بوريس يكتنّ له فيها من الاعجاب اعظم الدرجات ،
 كان يجد ان في ذلك الاعجاب شيئاً موقتماً يتيسح له ان يكون مولعاً بلا
 ذلك . لقد كان ماتيو افضل ما يمكن ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتغير
 في الوقت نفسه الذي يتغير فيه بوريس ، بل لم يكن يستطيع ان يتغير
 قط ، لأنه كان اكمل من ان يتغير . وأظلمت نفس بوريس لهذه
 الافكار فسرّه ان يصل الى ساحة آدمون رويستان : كان يروق له دائماً
 ان يجتازها بسبب الاوتوبيسات التي كانت تقفز اليك بثقل ، كأنها ،
 أدياك رومية كبيرة ، والتي كان ينبغي تفاديها بالتوّ ، ولم يكن ذلك
 بأكثر من دفع الصدر الى الورا . « المهم ألا يكونوا قد جاءتهم الفكرة
 بادخال الكتاب اليوم بالذات . » وعند زاوية شارع « مسيو لوبرنس »
 وجادة سان ميشال ، توقف لحظة ؛ كان يريد ان يكتب نفاد صبره ،
 فلم يكن من الحكمة ان يصل محمّر الوجنتين من فرط الامل ، وعيناه
 عينا ذئب . كان من خطته ان يعمل ببرودة . وفرض على نفسه ان
 يظل جامداً امام حانوت بائع للمظلات والسكاكين ، وان ينظر بانتظام
 الى البضائع المعروضة ، واحدة بعد الاخرى ، الى مظلات النساء القصيرة
 الخضراء والحمراء ، والمزينة ، والى المظلات ذات الايدي العاجية التي

كانت تمثل رؤوس كلاب ... كل ذلك كان حزين المنظر حتى ليبعث على البكاء ، وبالإضافة الى هذا ، اوقف بوريس فكره على الاشخاص المسنين الذين كانوا يأتون لشراء هذه الحاجيات . وكان يوشك ان يبلغ حالة تصميم باردة وبلا جذل ، حين رأى فجأة شيئاً عاد فأغرقه في التهلل ؛ وتمم « سكين » وكانت يدها ترتجفان . وكان سكيناً حقيقياً ذا شفرة سميقة وطويلة ، ومحزّ شديد ، ويد من قرن اسود ، وكان انيقاً يشبه الهلال ، وكان على الشفرة لطختنا صدأ ، فكأنهما دم . وأن بوريس قائلاً : « اوه ! » وهو يتلوى من الرغبة . وكان السكين مفتوحاً ، موضوعاً على قطعة خشب مبرقعة : بين مظلتين ، ونظر بوريس اليه طويلاً ، ففقد العالم من حوله الوانه ، وكل ما لم يكن بريق هذه الشفرة البارد ، فقد في عينيه قيمته ، وكان يريد ان يتخلى عن كل شيء ، فيدخل الحانوت ، ويشترى السكين ويفر الى اي مكان ، كأنه سارق ، وهو يحمل غنيمة . وقال في نفسه : « سيعلّمني « بيكار » على قذفه . » ولكن حس واجباته الدقيق ما لبث ان تغلب : « سأشتريه بعد حين ، بعد حين لأكافيء نفسي اذا نجحت في ضربتي ! »

وكانت مكتبة « غاربور » تقوم عند ملتقى شارع فوجيرار وجادة سان ميشال ، وكان لها مدخل من كل شارع ، وهذا ما كان يخدم مقاصد بوريس . وكانت قد وضعت امام الحانوت ست طاوولات طويلة محملة بالكتب التي كان معظمها كتباً مستعملة . ولاحظ بوريس من طرف عينه رجلاً ذا شارب احمر كان غالباً ما يجول في تلك النواحي ، وكان يرتاب في ان يكون « محموناً » ، ثم اقترب من الطاولة الثالثة ، وكان الكتاب هناك ، ضخماً ، بل من الضخامة بحيث فقد بوريس شجاعته ، سبعة عشر صفحة من الحجم الكبير ، اوراق مطبوعة بحرف نافر ، سميقة كالاصبع الصغير . وقال في نفسه بشيء من الارهاق :

« يجب ان أُدخل هذا في حقيقتي » ولكن كان حسبه ان ينظر الى العنوان المذهب الذي كان يلتمح بعذوبة على الغلاف ليحس بأن شجاعته تولد من جديد : « قاموس تاريخي واشتقائي للغة السوق واللغات العامية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن المعاصر . » وردد بوريس في نشوة : « تاريخي ! » ولس بطرف اصبعه الغلاف في حركة اليفسة ورقيقة ليستعيد اتصاله به ، وفكر في اعجاب : « ليس هذا كتاباً ولكنه قطعة اثاث . ولا ريب في ان الرجل ذا الشارب كان قد التفت اليه يترصده من ظهره . وكان ينبغي ان يبدأ التمثيلية فيقلب الاوراق ويتخذ مظهره الشارد المتردد الذي يستسلم آخر الأمر . وفتح بوريس القاموس كيفما اتفق وقرأ احد التعريفات . ولم تكن الصفحات التالية مقطوعة . فترك بوريس القراءة وأخذ يضحك وحده وهو يردد عبارة قرأها ، ثم استعاد جدّه فجأة واخذ يعد : « واحد ! اثنان ! ثلاثة ! اربعة ! » بينما كانت فرحة قاسية ونقية تزيد خفق صدره .

وأحس بيد تخطّ على كتفه ، ففكر : « لقد أُخذت ، ولكنهم تصرفوا بأسرع مما ينبغي . انهم لا يستطيعون ان يثبتوا شيئاً ضدي . » والتفت ببطء ورباطة . وكان الرجل دانيال سورينو ، احد اصدقاء ماتيو . وكان بوريس قد رآه مرتين او ثلاثاً ، وكان يجده رائباً ، فقد كان مثلاً يبدو قاسياً . وقال سورينو :

— مرحباً ، ما الذي تقرأه ؟ يبدو عليك انك مسحور .
لم يكن يبدو قاسياً على الاطلاق ، ولكن يجب الاحتراس : بل هو في الحقيقة يبدو لطيفاً اكثر مما ينبغي ، فلا بد انه كان يعد ضربة قدرة . ثم انه كان قد فاجأ بوريس وهو يتصفح هذا القاموس السوقي . فكأنه تقصد ذلك ، ولا بد من ان يصل هذا الخبر الى مسمع ماتيو الذي سيسخر منه بصخب . وأجاب بلهجة متضايقة :
— لقد توقفت ، بينما انا ماراً من هنا .

وابتسم سورينو ، وتناول المجلد بكلتا يديه ورفع حتى عينيه ، ولا يد انه كان حسير النظر بعض الشيء ، وأعجب بوريس بما كان في حركته من يسر : فان الذين كانوا يتصفحون الكتب عادة يحرصون على ابقائها فوق الطاولة ، خوفاً من رجال التحري الخصوصيين . ولكن كان بديهياً ان سورينو كان يعتقد كل شي مسموحاً به . وتمتم بوريس بصوت مخنوق وهو يصطنع اللامبالاة :

— انه كتاب يثير الفضول ...

فلم يُجب سورينو ، وكان يبدو مستغرقاً في القراءة ، فاغتاظ بوريس وأخضعه لامتحان قاس . ولكن كان لا بد له من ان يعترف ، بدافع من شرف التفكير ، بأن سورينو كان انيقاً الى حد الكمال . والحق انه كان في هذه البذلة من التويد الوردي تقريباً ، وفي هذا القميص من الكتان ، وفي هذه الربطة الصفراء ، جراءة محسوبة تصادم بوريس قليلاً . كان بوريس يحب الأناقة الساذجة والمهملة بعض الشيء . ومهما يكن من امر ، فان المجموع كان غير قابل للانتقاد ، وبالرغم من انه ظري كالزبدة الطازجة . وانفجر سورينو ضاحكاً ؛ وكانت له ضحكة حارة رائقة ، ثم ان بوريس وجده قريباً الى القلب لأنه كان يفتح فمه على سعته وهو يضحك . وقال سورينو :

— « ان يكون من الرجل ! » ان يكون من الرجل ! هذه لقطة ، سأفيد منها في المناسبات ! « ان يكون من الرجل ، اي ان يكون لوطياً » .

ووضع المجلد على الطاولة وسأل :

— هل انت من الرجل ، يا سرغين ؟

فقال بوريس ، منقطع النفس : — اني ...

قال سورينو : — لا يحمر وجهك (وأحس بوريس انه اصبح قرمزي اللون) وثق بأن هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط . اني

أعرف من عساهم يكونون « من الرجل » . (لا شك في ان العبارة كانت تروق له كثيراً) - فان لحركاتهم استدارة رخية لا تخطئها العين ، اما انت ، فاني ألاحظك منذ فترة فتسحرني حركاتك : انها حية وجميلة ، ولكنها ذات زوايا . فلا بد انك حاذق جداً .

وكان بوريس يصغي الى سورينو بتنبه : فمن المهم دائماً ان تستمع الى من يشرح لك بأي عين يراك . ثم انه كان لسورينو صوت يلسد سماعه . فان عينيه مثلاً كانتا مزعجتين : للوهلة الاولى ، يُظن انهما مليتان بالحنان ، ولكن اذا امعنا فيهما النظر ، اكتشفنا فيهما شيئاً قاسياً ، يكاد يكون هوساً . وفكر بوريس : « انه يحاول ان يمزح معي » فتدفع بالحذر . وقد كان بوده لو يسأل سورينو عما كان يعنيه بـ « الحركات ذات الزوايا » ولكنه لم يجرؤ ، وفكر بأن من الافضل التكم بأدنى حد ممكن ، ثم انه كان يحس تحت هذا النظر المليح عدوية غريبة حائرة تولد فيه ، فكانت تأخذه الرغبة في ان يتفصض ويضرب الارض بقدميه ليزيل هذا الدوار من العدوية . ولفت رأسه ، فكانت لحظة صمت شاقة . وفكر بوريس باستسلام : « سوف يعتبرني حيواناً » . وقال سورينو :

- أظن انك تدرس الفلسفة ؟

وكان سعيداً ان يجد حجة لقطع الصمت . ولكن ساعة السوربون في تلك اللحظة دقت دقة فتوقف بوريس ، وقد جلده الذعر . وفكر في فلق « الثامنة والرابع . اذا لم يذهب فوراً ، فانت الفرصة . » فقد كانت مكتبة « غاربور » تغلق في الثامنة والنصف . ولم يكن يبدو على سورينو اية رغبة في الذهاب . وقال :

- اعترف لك بأنني لا افهم شيئاً في الفلسفة . اما انت ، فلا بد انك تفهم طبعاً ...

فقال بوريس وهو يتمزق : - لا ادري ، افهم قليلاً .

وكان يفكر : لا شك في اني ابدو قليل التهذيب . ولكن لماذا تراه لا يذهب ؟ والحق ان ماتيو كان قد اخبره بأن سورينو كان يظهر دائماً في وقت غير مناسب ، فتلك كانت قطعة من طبيعته الشيطانية . وقال سورينو :

— أنتصور انك تحب الفلسفة .

فقال بوريس وقد احس بأنه يحمر للمرة الثانية : — نعم . وكان يحترق ان يتحدث عما كان يجب : فذلك كان امراً وقحاً . وكان لديه شعور بأن سورينو يدرك ذلك ويتقصّد ان يظهر قليل التحفظ . ونظر اليه سورينو نظرة تنبّه نافذ :

— ولماذا ؟

فقال بوريس : — لا ادري .

وكان هذا صحيحاً : انه لم يكن يدري . ومع ذلك فقد كان يجب الفلسفة حباً شديداً ، حتى « كانت » . وابتسم سورينو قائلاً :

— على الاقل ، يرى الانسان ان هذا ليس حباً من الذاكرة . فانتفض بوريس ، وأضاف سورينو بحماسة :

— انني امزح . والواقع اني اجد انك محظوظ . لقد درست انا الفلسفة كالجميع ، ولكنهم لم يعرفوا ان يجيبوني بها ... واتصور ان دولارو هو الذي نفرني منها : فهو اذكى من ان يستطيع فهمه . وقد كنت اطلب منه احياناً بعض الشروح ، ولكن ما كان يبدأ في تقديمها حتى اكنف عن فهم اي شيء ؛ بل كان يخيل الي اني لم اكن افهم بعد سؤالي !

وجرح بوريس بهذه اللهجة الهازئة ، وارتاب في ان يكون سورينو راغباً في حمله بصورة غير مباشرة على ان يقول سوءاً عن ماتيو لمجرد الرغبة في ان ينقل اليه ذلك . واعجبه سورينو ان يكون قاسياً بهذه الصورة المجانية ، ولكنه ثار وقال بحماسة :

— ان ماتيو يشرح الامور شرحاً جيداً جيداً .
فانفجر سورينو ضاحكاً ، وعض بوريس على شفثيه :
— ولكني لا اشك في ذلك لحظة . غير اننا صديقان قديمان جداً ،
وأ تصور بأنه يحتفظ بمزاياه التربوية للشبان . فهو يختار عادة تلاميذه من
بين طلابه .

فقال بوريس : — انني لست تلميذه .
فقال دانيال : — لم اكن افكر فيك . فأنت لا تبدو عليك هيئة
التلميذ . وانما كنت افكر في « هورتيغير » ، ذلك الاشقر الطويل
الذي سافر في العام الماضي الى الهند الصينية . ولا بد انك سمعت من
يتكلم عنه : فنذ عامين ، كان شغوفاً به تماماً ، وكان الناس يرونهما
دائماً معاً .

وكان لا بد لبوريس من الاعتراف بأن الضربة قد نجحت ، فازداد
اعجاباه بسورينو ، ولكنه ودّ مع ذلك لو يوجه قبضته الى سخنته .
وقال :

— لقد حدثني ماتيو عن ذلك .

وكان يحتقر هورتيغير هذا الذي عرفه ماتيو قبله . وكان ماتيو يتخذ
احياناً مظهر الغموض حين كان بوريس يأتي للقائه في « الدوم » وكان
يقول « يجب ان اكتب لهورتيغير » وبعد ذلك ، يظل لحظة طويلة
حالماً مجتهداً كجندي يكتب الى بلدته ، وكان يرسم دوائر في الهواء فوق
ورقة بيضاء ، بواسطة ريشة قلمه . وكان بوريس ينصرف الى العمل
الى جانبه ، ولكنه كان يحتقره . ولم يكن طبعاً يغار من هورتيغير ،
فقد كان يكنّ له على العكس شفقة ممزوجة بشيء من النفور
(والواقع انه لم يكن يعرف عنه شيئاً ، باستثناء صورة كانت تمثله
كفتى طويل سيء الحظ يرتدي بنطلوناً من الغولف ، وموضوع فلسفي
سخيف الى ابعد حد كان ملقى على طاولة ماتيو) غير انه لم يكن

يريد بأي ثمن ان يعامله ماتيو فيما بعد كما كان يعامل هورتيغير . وقد كان يؤثر ان ينقطع عن رؤية ماتيو اذا تصوره يقول ذات يوم بلهجة اهتمام وضجر امام فيلسوف شاب : « آه ! عليّ الآن ان اكتب لسرخين ! » . كان حسبه بأن يقبل بالأ يكون ماتيو إلا مرحلة في حياته ، وكان هذا شاقاً بحد ذاته - ولكنه لم يكن يطيق ان يكون مرحلة في حياة ماتيو .

وكان يبدو على سورينو انه عازم على الإقامة هناك . وكان يستند الى الطاولة بكلتا يديه ، في وضع لامبال ومستريح ، وأضاف :
- آسف كثيراً بأن اكون جاهلاً في هذا الميدان . فان الذين درسوا الفلسفة قد أفادوا منها ، علي ما يبدو ، مباحث كثيرة .

فلم يُجب بوريس ، وقال سورينو :
- كنت بحاجة الى مدرب . الى شخص مثلك : شخص ليس بارعاً اكثر مما ينبغي ، ولكنه في الوقت نفسه جاد .
وضحك كأنما مرت برأسه فكرة زائفة :
- قل لي .. سيكون مسلياً ان آخذ دروساً منك ...

فنظر اليه بوريس بحذر . لا بد ان هذا شرك . انه لم يكن يتصور نفسه اطلاقاً وهو يعطي دروساً لسورينو الذي كان ولا بد اذكى منه والذي لا شك في انه سي طرح عليه طائفة من الاسئلة المربكة ، وعند ذلك سيختنق من الخجل . وفكر في استسلام بارد بأن الساعة لا بد ان تكون قد بلغت الثامنة والخامسة والعشرين . وكان سورينو ما يزال يتسم ، وكان يبدو عليه انه مسحورٌ بفكرته ، ولكن كانت عيناه غريبتين . وكان بوريس يجد مشقة في النظر اليه مواجهة . وقال سورينو :
- انني كسول جداً ، لو تعلم . فيجب ان تعاملني بشيء من السلطة ...

ولم يستطع بوريس ان يمتنع عن الضحك وصارحه بصدق :

— احسب انني لن احسن ذلك على الاطلاق ..
قال سورينو :— بلى ، انني مقتنع بأنك ستستطيع .
فقال بوريس : — انك سوف تخيفني .
وهز سورينو كتفيه وقال :

— اسمع ! هل عندك دقيقة ؟ ان بوسعنا ان نأخذ قدهاً في الحانة
المواجهة « داركور » فتحدث عن مشروعنا .

« مشروعنا » ... وكان بوريس يتابع بعينه في قلق احد عمال
المكتبة الذي بدأ يراكم الكتب . وكان يود لو يتبع سورينو الى « داركور »
فقد كان شخصاً غريباً ، فضلاً عن انه كان جميلاً ، ثم انه كان
مسلماً ان يتحدث معه ، لأن على المرء ان يكون دقيقاً وحذراً ، اذ يشعر
طوال الوقت بأنه في خطر . وتخبّط لحظة ، ولكن حس الواجب تغلب
عليه فقال بصوت كان الأسى يقطعه :

— الواقع اني مستعجل بعض الشيء .
فتغير وجه سورينو وقال :

— حسناً ، لا اريد ان ازعجك . اعذرني بأن اكون قد امسكتك
هذا الوقت كله . هيا ، الى اللقاء ، وبلغ ماتيو سلامي .

وانفتل فجأة ومضى ؛ وفكر بوريس في ضيق : « انراني قد
جرحته ؟ » وتبع بنظر قلق كتفي سورينو العريضتين ، وكان يصعد
جادة سان ميشال ، ثم فكر فجأة بأنه لم يكن امامه بعد دقيقة واحدة
يضيعها .

« واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . خمسة . »

وعند الخمسة ، سحب المجلد خفية بيده اليمنى وتوجه نحو المكتبة
من غير ان يحاول اخفاء نفسه .

خليط من الكلمات تفرّ في كل مكان ؛ كانت الكلمات تفرّ ؛ وكان

دانيال يفرّ جسمًا طويلًا هزيلًا ، مقوسًا بعض الشيء ، ذا عينين
 جوزيتين ، ووجه قاسٍ فاتك ، انه راهب صغير ، راهب روسي ،
 اليوشا . خطوات ، وكلمات ؛ كانت الخطوات ترن حتى في داخل
 رأسه ؛ انه لا يكون الا هذه ، الا هذه الكلمات ، فذلك خير من
 الصمت : السخيف الصغير ، لقد اصبت في الحكم عليه . لقد منعتني
 اهلي من ان اتحدث الى الاشخاص الذين لا اعرفهم ، اتريدين حبة
 مابس يا آنستي الصغيرة ، ان اهلي منعوني ... ها ! ليس هو الا
 محًا صغيرًا ، لا ادري ، لا ادري ، هل تحب الفلسفة ، لا ادري ..
 عجبًا ! وكيف تراه يدري ، ذلك الحمل المسكين ! ان ماتيو ينصب
 نفسه سلطانًا في صفته ، وقد رمى له بالمنديل، وقاده الى المقهى فالتهم
 الصغير كل شيء ، القهوة بالكريم والنظريات ، كأنما يلتهم خبز
 القربان ؛ هيا ، هيا ، اذهب فتنزه ، لقد كان هناك ، متكلف
 الوقار متحدثًا كحمار محمل بالذخائر . اوه ! لقد فهمت ، اني لم
 اكن اريد ان امد يدي اليك ، فأنا لست جديرًا بذلك ؛ وهذه النظرة
 التي رماني بها حين قلت له اني لا افهم الفلسفة ! انه لم يجهد نفسه
 حتى لأن يكون مؤدبًا ، في النهاية . اوه ! انا على يقين - وقد شعرت
 بذلك منذ عهد « هورتيغير » - بأنه يحذرهم مني X وقال دانيال وهو
 يضحك راضياً : « هذا حسن جداً ، ان هذا درس ممتاز ، ويتكالف
 قليلة ، اني مسرور لأنه صرفني عنه ؛ فلو جئنت واهتمت قليلاً به
 وحدثته في ثقة ، اذن لذهب يطلع ماتيو علي ذلك كله ، ولتحدثنا في
 هذا بصخب » وتوقف توقفاً فجائياً ، حتى ان سيدة كانت تسير خلفه
 صدمته في ظهره وأرسلت صيحة صغيرة . « لقد حدثه عني ! » وكانت
 هذه فكرة - لا - تختمل ، اذ هي تخلف عندك موجة من عرق
 الغضب ؛ وكان ينبغي تصورهما معاً ، سعيدين بأن يكونا معاً ، الصغير
 فاغر الفم طبعاً ، يباعد ما بين عينيه ويرهف اذنيه ، حتى لا يفقد

شيئاً من المنّ الآلهي ، في مقهى ما من مقاهي مونترتر ، اخذت تلك
المحاشش القدرة التي تتضاعف منها رائحة الثياب الوسخة ... « لا بد
ان ماتيو كان ينظر اليه من تحت ، نظرة عميقة ، ثم يشرح له شخصيتي ،
مما يُبغيت من الضحك » وردد دانيال : « مما يبيت من الضحك » ثم
عزز اظافره في باطن كفه . لقد حكما عليه من خلف ظهره ، فحللاه
وشرّحاه ، وكان بلا سلاح ، وكان لا يشعر بشيء ، وكان ممكناً
ان يوجد ذلك اليوم كسائر الايام ، كما لو انه لم يكن شيئاً آخر غير
شفافية لا ذاكرة لها ولا عاقبة ، كما لو انه لم يكن بالنسبة للآخرين
جسماً سمياً بغض الشيء ذاخدين يتهدلان ، وجمال شرقي يذبل ؛ وبسمة
قاسية ، ومن يدرى ؟ ولكن لا ، لا احد . اذاً كان بوبي يعرف ،
ورالف يعرف ، فان ماتيو لم يكن يعرف . ان بوبي إربيان ، وليس
هو ضميراً واعياً ، انه يسكن رقم ٦ شارع الاورس ، مع رالف ،
ها ! ليتنا نستطيع ان نعيش بين العميان . انه ، هو ، ليس اعمى ،
وهو يفخر بأنه يرى جيداً ، وهو عالم نفسي دقيق . وله الحق بأن
يتحدث عني بالنظر الى انه يعرفني منذ خمسة عشر عاماً وأنه خير صديق
له ولا يخرم نفسه من التحدث عني ؛ لما ان يلتقي احداً ، حتى يكوننا
شخصين انا موجود بالنسبة اليهما ، ثم يكونوا ثلاثة ، ثم تسعة ، ثم
مئة . سورينو ، سورينو ، سورينو السمسار ، سورينو المضارب ،
سورينو الـ ... ها ! ليته يفتس ، ولكن لا ، انه يتنزّه بمطلق الحرية
وفي رأسه رأيه في ، وهو يُعدي به جميع من يقربون منه ، ويجب ان
أعدو في كل مكان وأحك وأحك وأحمو وأغسل بالماء الكثير ، لقد
حككت مارسيل حتى العظم . ولقد مدت لي يدها ، في اليوم الاول ،
وهي تنظر الي طويلاً ، وقالت : « لقد حدثني ماتيو عنك كثيراً »
فنزرت اليها بدوري ، وكنت مبهوراً ، كنت هنا في داخلها ، كنت
موجوداً في هذا الجسم ، خلف هذا الجبين ، وداخل هاتين العينين ،

يا للقدرة ! اما الآن ، فهي لا تصدق كلمة واحدة مما يقوله لها عني .
وابتسم برضى ؛ وكان شديد الاعتزاز بهذا النصر ، حتى انه نسي ،
لمدة لحظة ، ان يراقب نفسه : وحدث تمزق في نسيج الكلمات كبر
رويداً رويداً وامتد حتى اصبحت صمتاً . الصمت الثقيل الفارغ . ما كان
ينبغي له ، ما كان ينبغي له ان يكف عن الكلام . وكانت الريح قد
سقطت ، وكان الغضب متردداً . وفي اعماق الصمت ، كان هناك
وجه سرغين ، كأنه جرح . وجه عذب غامض ، كم كانت إضاءته
بمحاذاة الى صبر وحمياً . وفكر : « كان بوسعي ... » هذا العام
ايضاً ، هذا اليوم ايضاً ، كان بوسعه . اما بعد ... وفكر : « فرصتي
الأخيرة . » كانت هذه فرصته الاخيرة ، فأطفأها له ماتيو ، بكل
إهمال . كانوا يتركون له نماذج من رالف وبوبي . « اما هو ، الصبي
المسكين ، فسوف يجعل منه قروداً قبل ذلك . » وكان يمشي في صمت ،
وكانت خطاه تصدي وحدها في جوف رأسه ، كما تصدي في شارع
خال عند الصباح الباكر ، وكانت وحدتها كلية ، تحت هذه السماء
الجميلة العذبة كالضمير الطيب ، وسط هذا الحشد المشغول ، بحيث انه
كان يدهشه وجوده ، لا بد انه كان كابوس واحد من الناس ، واحد
سينتهي به الأمر الى التيقظ . ومن حسن الحظ ان الغضب قد نشر
قلوعه ، وغطى كل شيء ، فأحس بأن سورة جذلة تنعشه ، وبدأ
الفرار ، وعاد صف الكلمات ؛ كان يكره ماتيو . انه واحد لا بد انه
يرى من الطبيعي جداً ، ان يوجد ، فهو لا يطرح على نفسه سؤالاً :
ان هذا النور اليوناني الصحيح ، وهذه السماء الفاضلة مجعولان له ، وهو
في بيته ، ولم يكن قط وحيداً ؛ وفكر دانيال : « اقسم انه يظن نفسه
غوته . » وكان قد رفع رأسه ، وكان ينظر الى المارة في عيونهم ،
ويدغدغ حقهده : « ولكن حذار ! اتخذ لك تلاميذ اذا كان هذا
يسليك ، ولكن لا تفعل ذلك ضدي ، لأنني سينتهي بي الأمر الى ان

العب معك دوراً قدرأ . » واستخفت به دفقة غضب جديدة ، فبات لا يمس الارض ، وكان يطير ، وقد اخذه الفرح بان يشعر انه مريع ، وفجأة جاءت الفكرة حادة ، حمراء لامعة : « ولكن ، ولكن ، ولكن ... قد يكون ممكناً مساعدته على ان يفكر ، وان يدخل في ذاته ، وان يتدبر امره بحيث لا تكون الاشياء يسيرة عليه اكثر مما ينبغي ، وستكون هذه خدمة عظيمة تؤدي له . » وكان يتذكر اللهجة المفاجئة الخسنة التي قذفته بها يوماً مارسيل : « حين تكون المرأة هالكة فليس امامها الا ان تحبل وتلد طفلاً » وقد كان يكون هذا امراً طريفاً لو لم يكونا متفقين تماماً على هذه القضية ، لو كان يعدو بحماسة بين حوانيت العقاقيريين ، بينما تكون هي في جوف غرفتها الوردية تذوب رغبةً في ان يكون لها ولد . انها ما كانت لتجرؤ على ان تقول له شيئاً ، ولكن ... لو كان ثمة احد ، صديق مشترك ، ليمنحها بعض الشجاعة... وفكر : « اني شرير » وكان مغموراً بالفرح . لقد كان الشر هو هذا الشعور الطاغي بالسرعة ، حيث ينفصل المرء فجأة عن نفسه ويجري الى الامام كالسهم ؛ وتأخذه السرعة من رقبته وهي تزداد دقيقة فدقيقة ؛ وكان ذلك شيئاً لذيذاً لا يُحتمل ، لأن المرء يتدحرج بلا ضابط ، والقبر امامه فاغر الفم ، ويقتحم حواجز تنتصب ذات اليمين وذات اليسار ، على غير انتظار - ماتيو المسكين ، اني اقسى مما ينبغي ، فانا سافسد له حياته - وتنكسر كالغصون الميتة ، وقد كانت مسكرةً ، هذه الفرحة التي تحترقها الخوف ، والتي هي جافة كالتفاح كهرباثية ، هذه الفرحة التي لم تكن تستطيع التوقف . « اني اتساءل عما اذا كان سيكون له بعد تلامذة ؟ رب اسرة : ان هذا لا يكون غالباً . » هيئة سرغين ، حين يأتي ماتيو ليبلغه زواجه ، والازدراء الذي سيشعر به هذا الفتى ، وذعره الساحق : « انك تتزوج ؟ » وسيتلعم ماتيو : « ان هناك واجبات احياناً . » ولكن الصغار لا يفهمون مثل هذه

الواجبات . لقد كان هناك شيء ما يحاول ان يولد من جديد في حياة ذلك هو وجه ماتيو ، وجهه الطيب الواثق ، ولكن السباق لم يلبث ان يُستأنف : ان الشر لا يتوازن الا بالسرعة القصوى ، شأنه في ذلك شأن الدراجة . وطفرت فكرته أمامه ، خفيفة فرحة : « انه رجل خير ، ماتيو . وليس هو شريراً . اوه ! كلا ! انه من جنس هابيل ، فهو له ضميره الخاص . واذن ، فعليه ان يتزوج مارسيل . وبعد ذلك ، لا يبقى له الا ان ينام على غاره ، فهو ما زال شاباً ، وستكون امامه حياة برمتها ليسعد بعمله الطيب . »

وكانت هذه الراحة المسترخية لضمير نقي ، ضمير نقي لا يُنفذ اليه ، تحت سماء رحيمة مألوفة ، كانت هذه الراحة من شدة تدويخها بحيث لم يعد يعرف ان كان يتمناها لماتيو او لنفسه بالذات . شخص منته ، خاضع ، هاديء ، أجل هاديء ... « واذا كانت لا تريد ... اوه ! لو كان ثمة حظ واحد لان تريد هذا الطفل ، فاني اقسم انها سوف تطلب منه ان يتزوجها مساء الغد . » السيد والسيدة دولارو ... السيد والسيدة دولارو يتشرفان باعلامكم ... وفكر دانيال : « انني بالاجمال ملاكهما الحارس ، ملاك الاسرة . » كان ملاكاً اكبر ، ملاك حقد وكرامية ، ملاك قضاء يسلك طريق فيرسانجيتوري . وتمثل مرة اخرى ، للحظة ، جسماً طويلاً مرتبكاً وجميلاً ، ووجهاً هزيبلاً منحنيماً فوق كتاب ، ولكن الصورة ما لبثت ان تهاوت ، وكان بوبي هو الذي ظهر من جديد . « رقم ٦ شارع الاورس . » وكان يحس بأنه حر كالهواء ، وكان يمنح نفسه جميع الإجازات . وكان حانوت البقالة في شارع فيرسانجيتوري ما يزال مفتوحاً ، فدخله . وحين خرج ، كان يمسك بيده اليمنى سيف القديس ميشال الناري ، وفي اليد اليسرى علبه حلوى للسيدة دوفيه .

دقت العاشرة في الساعة الصغيرة . ولم يبد على السيدة دوفيه انها سمعت . كانت تحدّد في دانيال نظراً متنبهاً ، ولكن عينيها كانتا قد تورّدتا . وفكر : « انها لن تتأخر في الذهاب » وكانت تبسم له باحتيال ، ولكن رياحاً خفيفة متسرّبة من ثقب الباب كانت تذوب عبر شفّتيها المفتّرتين : كانت تتثاب تحت بسمتها . وفجأة ، رمت رأسها الى خلف وبدأت تصمّم على أمر ؛ فقالت في اندفاع متلاعب :

— اسمعا يا ولدي ، اني سأوي الى سريري ! لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة اكثر مما ينبغي يا دانيال ، فانا معتمدة عليك في ذلك ، والا فانها ستنام حتى الظهر .

ونفضت واقبلت تربت كتف مارسيل بيدها الصغيرة الخفيفة، وكانت مارسيل جالسة على السرير . واستطردت تقول وهي تجد تسلية في ان تتحدث بين اسنانها المنقبضة :

— أتسمعين يا روديلارد ، انك تنامين في ساعة متأخرة جداً يا ابني ، تنامين حتى الظهر ، فتسمنين .

قال دانيال : — أقسم اني سأذهب قبل منتصف الليل .
فابتسمت مارسيل : — اذا اردت ذلك .
والتفت نحو السيدة دوفيه وهو يصطنع الارهاق :

— ما حيلتي ؟

قالت السيدة دوفيه : — المهم ان تكونا عاقلين . وشكراً لحلوياتك اللذيذة .

ورفعت العلبه المشرطه الى مستوى عينيها بحركة تهديدية بعض الشيء :

— انك ألطف مما ينبغي ، وانت تدلاني كثيراً ، ولا بد من ان اوبخك في النهاية !

فقال دانيال بصوت عميق : — انك لا تزيدين سروري الا بأن تحببها .

وانحنى على يد السيدة دوفيه وقبلها . ورأى عن كثب ان بشرتها كانت متجمدة ببقع خبازية ، وقالت السيدة دوفيه وقد استخفتها الحركة :

— يا للملاك ! هيا ، اني ذاهبة !

وقبلت جبين مارسيل ، فأحاطت مارسيل قامتها بذراعها وشدتها اليها لحظة ، فاشعنت السيدة دوفيه لها شعرها وتخلصت بخفة ، وقالت مارسيل :

— سآتي اليك عما قليل .

— لا ، لا ، انتها الفتاة الرديئة . اني اتركك للملاك .

وتسللت بحيوية طفلة صغيرة ، فتبع دانيال بنظرة باردة ظهرها الدقيق : فلقد حسب انها لن تذهب ابدأ . وانغلق الباب ، ولكنه لم يحس بالعزاء : فقد كان يخاف بعض الخوف ان يبقى وحده مع مارسيل . والتفت اليها فرأى انها كانت تنظر اليه مبتسمة .

وسألها : — ما الذي يجعلك تبسمن ؟

فقالت مارسيل : — يسليني دائماً ان اراك مع امي . كم انت متملق يا ملاكي المسكين ؛ ان هذا لعار ، فانت لا تستطيع الامتناع عن اغراء الناس .

وكانت تنظر اليه في حنان ملاكة . وكان يبدو انها مسرورة بان

يكون لها وحدها . وفكر دانيال في ضغينة : « ان لها قناع الحبيل »
وكان يؤذيه ان تبدو على هذا الحد من السرور . وكان يستشعر دائماً
بعض الضيق اذ كان يجد نفسه على حافة هذا الحديث الهامس وانسه
سيستغرق فيه . وتنحنج وفكسر : « سوف أصاب بالربو » وكانت
مارسيل رائحة كثيفة حزينة ، موضوعة على السرير ، في كتلة ، وسوف
تتفسخ لدى ادنى حركة .

ونفضت : - عندي ما أريك اياه .

وذابت لتأتي بصورة كانت على المدخنة ، ومدتها له وهي تقول :
- انت الذي تريد دائماً أن تعرف كيف كنت .

واخذها دانيال : كانت مارسيل وهي في الثامنة عشرة ، وكانت
تشبه الساقطات بفمها المرتخي وعينيها القاسيتين . وكان لها هذا اللحم
اللدن الذي كان يعوم كأنه ثوب فضفاض . ولكنها كانت هزيلة .
ورفع دانيال عينيه ففاجأ نظرتها القلقة . فقال بحكمة :
- لقد كنت جميلة ، ولكنك لم تتغيري قط .

فأخذت مارسيل تضحك :

- بلي ! انت تدري جيداً اني قد تغيرت ، ايها المخادع الكبير ،
ولكن اطمئن ، فلست مع امي .
واضافت :

- ولكن ألا ترى اني كنت فتاة جميلة ؟

فقال دانيال : - اني افضلك كما انت الآن . كان في فك شيء
من الرخاوة .. انت الآن تبدين اكثر إثارة للاهتمام .

فقالت بلهجة عابسة : - ان المرء لا يعرف متى تكون جاداً .
ومع ذلك فقد كان يسيراً ان يلاحظ الانسان انها كانت مفتونة .
واستقامت قليلاً والقت الى المرأة بنظرة سريعة . وانزعج دانيال
لهذه الحركة الحرقاء الخالية من الحشمة : لقد كان في غندرتها ايمان

طفولي طيب ضعيف يتناقض مع وجهها ، وجه المرأة المعانية .
وابتسم لها .

وقالت له : - وانا ايضاً اسألك لماذا تبتم ؟
- لأنك قت بحركة طفلة صغيرة لتنظري في المرأة . انه مؤثر جداً
ان تهتمي بنفسك بطريقة تلقائية .

فتوردت مارسيل وضربت بقدمها الارض :
- انه لا يستطيع ان يمتنع عن التملق ؟
وضحك الاثنان ، وفكر دانيال في غير ما شجاعة كبيرة : « هيباً
بنا » . وكانت الفرصة مؤاتية ، ولكنه كان يحس نفسه فارغاً ورخوياً .
وفكر ماتيو ليكتسب بعض الشجاعة ، فسرّه ان يجد ان حقه ما زال
على حاله لم يُمس . لقد كان ماتيو واضحاً جافاً كالعظمة . وكان كرهه
ممكناً . اما مارسيل فلم يكن بالامكان كرهها .
- مارسيل ! انظري اليّ .

وكان قد تقدم وراح ينظر اليها نظرة اهتمام . وقالت مارسيل :
- هأنذا .

وردت له نظرتة ، ولكن رأسها كان يتحرك باهتزازات صلبة :
كان يصعب عليها ان تقاوم نظرة الرجل .
- يبدو عليك التعب :

فطرفت مارسيل بعينيها وقالت :
- اني ضعيفة المزاج . والسبب الآن هو هذا الحر الشديد .

وانحنى دانيال قليلاً وردد بلهجة عتاب آسف :
- متعبة جداً ! كنت انظر اليك الساعة ، بينما كانت امك تروي
لنا رحلتها الى روما : فكان يبدو عليك انك مشغولة جداً ، نائرة
الاعصاب جداً .

فقاطعته مارسيل بضحكة مغتظة :

— اسمع يا دانيال . انها تروي لك هذه الرحلة للمرة الثالثة . وانت في كل مرة تستمع اليها بهيئة اهتمام مهووس ؛ واصارحك ان هذا يزعجني قليلاً ، فانا لا ادري ماذا يكمن في رأسك في هذه اللحظات . قال دانيال : — ان امك تسليني . انا اعرف هذه القصص ولكني احب ان اسمعها وهي ترويها بحركاتها الصغيرة التي تسحرني . وحرّك عنقه حركة صغيرة فانفجرت مارسيل ضاحكة : كان دانيال يحسن تقاليد الناس اذا اراد . ولكنه ما لبث ان استعاد جده ، فكفت مارسيل عن الضحك . ونظر اليها معاتباً . فاضطربت قليلاً تحت هذا النظر . وقالت له :

— انما تبدو الغرابة عليك انت هذا المساء . فما بك ؟

فلم يعجل في الجواب . وكان صمت ثقيل يخيم عليهما ، وكانت الغرفة أتوناً حقيقياً . وضحكت مارسيل ضحكة صغيرة ما لبثت ان ماتت على شفيتها . وكان دانيال مسروراً جداً . فقال :

— مارسيل ، ما كان ينبغي ان اقولها لك ...

فارتدت الى خلف : — ماذا ؟ . ماذا ؟ . ماذا هناك ؟ .

— انك غير حاقدة على ماتيو ؟

فامتقع لونها :

— اوه هل ... لقد اقسم لي الا يقول لك شيئاً .

— ان الامر يا مارسيل هام الى هذا الحد وتريدين ان تخفيه عني ؟ .

ألست اذاً صديقك ؟

فارتعشت مارسيل وقالت : — انه امر قدر ؟

هكذا ! حسناً : انها عارية ، لم تكن القضية بعد قضية ملاك او صور شباب ؛ لقد فقدت قناع جدارتها الضاحك . ولم يكن هناك بعد الا امرأة كبيرة حامل ، تنبعث منها رائحة اللحم ، وكان دانيال يحس بالحر ، فأمرّ يده على جبينه العرق . وقال بهدوء :

كلا ، كلا ، ليست قدرة .
فندت عن مرفقها وذراعها حركة مفاجئة خططت هواء الغرفة
للأهـب وقالت :

— انك تشمئز مني .

فأخذته ضحكة فتيية :

— اشمئز ؟ انا ؟ ان بوسعك يا مارسيل ان تبحي طويلاً قبل ان
تجدي شيئاً يجعلني اشمئز منك .

فلم تجب مارسيل . وكانت قد خفضت رأسها في حزن . وقالت
بأخيراً :

— لكم وددت ان ادعك بعيداً عن هذا كله .

وصمتا . ان بينهما الآن صلة جديدة كالسلك السُرِّي . وسألها

دانيال :

— هل رأيت ماتيو ، منذ ان فارقتني ؟

فقالت مارسيل بلهجة فجائية :

— لقد خابرتني حوالي الساعة الواحدة .

وكانت قد تداركت نفسها وتصلبت ، ووقفت موقف الدفاع ،

منتصبة مقروصة المنخرين ؛ كانت تتألم .

— هل قال لك اني رفضت ان ادينه مالا ؟

— قال لي انه لم يكن معك مال .

— بل كان معي .

فرددت دهشة : — كان معك ؟

— اجل كان معي ، ولكني لم اكن اريد ان ادينه ... قبل ان

أكون قد رأيتك على الأقل .

وبعد فترة اضاف :

— أينبغي لي يا مارسيل ان ادينه مالا ؟

فقلت في ارتباك : — ولكن ... لا ادري ان عليك ان ترى اذا كان ذلك في امكانك .

— هذا ممكن جداً . ان معي خمسة عشر الف فرنك استطيع ان اتصرف بها من غير ان انزعج اطلاقاً .

قالت مارسيل : — اذاً نعم . نعم يا عزيزي دانيال . يجب ان تعبرنا مالا .

وساد صمت . وكانت مارسيل تدعك غطاء السرير بين اصابعها ، وكانت رقبتها الثقيلة تنحوق . وقال دانيال :

— انك لا تفهميني . انا اقصد : هل ترغبين من صميم قلبك ان ادينه ؟

فرفعت مارسيل رأسها ونظرت اليه في دهشة :

— انك غريب يا دانيال ؛ لا بد ان في رأسك شيئاً .

— الحقيقة ... كنت اتساءل بكل بساطة عما اذا كان ماتيو قد استشارك .

فقلت ببسمة خفيفة : — ولكن طبعاً . مهيا يكن فنحن لا نتشاور ، وانت تعرف كيف نتصرف : يقول احدنا : تفعل هذا او ذاك ، فيعترض الآخر اذا لم يكن موقفاً .

قال دانيال : — نعم ، . غير ان هذا يكون في صالح من له رأي ناجز : اما الآخر فيرتبك ولا يجد الوقت لتكوين رأي له .
قالت مارسيل : — ربما .

— انا اعرف كم يحترم ماتيو آراءك ولكن من اليسير علي ان اتمثل الحادث : فلقد تسلط علي طوال بعد الظهر . فلا بد انه كورّ ظهره كما يفعل في مثل تلك الحالات ، ثم قال وهو يجرض بريقه : « حسناً ! سنلجأ الى الوسائل الكبرى » . ولم يأخذه اي تردد ، والحق انه لم يكن يستطيع التردد : فهو رجل . ولكن ألم يتم ذلك في شيء

من العجلة ؟ لا بد انك انت نفسك لم تعرفي ما كنت تريدينه ؟
وانحني من جديد نحو مارسيل :

— ألم تجر الامور على هذا الشكل ؟

ولم تكن مارسيل تنظر اليه . كانت قد لفتت رأسها من جهة المغسلة
وكان دانيال يراها جانبياً . وكان يبدو عليها الأسى وقالت :
— هكذا تقريباً .

ثم احمرّ وجهها احمراراً عنيفاً :

— اوه ! لنكفّ عن التحدث في هذا يا دانيال ، ارجوك !
فليس ... ليس ذلك امرأً لذيذاً .

ولم يكن دانيال ينزع عنها نظره . وفكر : « انها تخفق . »
ولكنه لم يكن يدري بعد ان كان يلذه ان يلذها او يذل نفسه معها .
وقال في نفسه : « سيكون العمر ايسر مما كنت اظن . » وقال :

— لا تنغلقي يا مارسيل ، ابتهل اليك : انا اعرف كم يشقّ عليك
ان نتكلم عن هذا كله .

قالت مارسيل : — ولا سيما معك . فكلم انت يا دانيال شخص آخر .
عجياً ، اني طهرها ! وارتعشت من جديد وشبكت ذراعيها على
صدرها وقالت :

— اني لا اجرؤ على النظر اليك . فحتي لو لم تكن تشمئز مني
فيخيل اليّ اني قد فقدتك .

قال دانيال بمرارة : — اعرف ذلك . ان الملاك يجفل بسهولة . اسمعي
يا مارسيل ! كفتي عن اسناد هذا الدور المضحك الي . فليس لدي شيء
من ملاك ، كل ما هناك انني صديقك ، خير صديق لك . (واضاف
بحزم) وان لي كلمة اقولها : ان بوسعي ان اساعدك . هل انت
يا مارسيل متأكدة حقاً من انك لا تريدين طفلاً ؟

وقاه قليلاً عبر جسم مارسيل ، فكأنه كان يريد ان ينفصل عن

نفسه . ثم اوقف هذا البدء في التجزؤ ، وتراكم الجسم على حافة السرير جامداً ثقيلًا . ولفتت رأسها نحو دانيال وكانت قرمزية ؛ ولكنها كانت تنظر اليه من غير ضغينة ، في جزع لا سلاح له . وفكر دانيال : « أنها يائسة . »

— ليس لك الا ان تقولي كلمة : اذا كنت واثقة من نفسك ، فان ماتيو سيتلقى المال صباح الغد .

وكان يتمنى تقريباً ان تقول له : « اني واثقة من نفسي » وسرسل المال وينتهي كل شيء . ولكنها لم تكن لتقول شيئاً ، وكانت قد انفتت اليه ، كأنما كانت تنتظر ؛ وكان لا بدّ من المضي حتى النهاية . وفكر دانيال في اشمزاز : « هكذا اذن ! اقسم ان هيئة العرفان تبدو عليها . » كما كان الشأن مع ملفينا يوم ضربها .

وقالت : — انت ! لقد تساءلت عن هذا ! اما هو ... الحق يا دانيال ان ليس في الدنيا من يهتم بي سواك .

ونفض ، واقبل يجلس بالقرب منها واخذ يدها . يد رخوة محمومة كأنها مساراة : واحتفظ بها في يده من غير ان يتكلم . وكان يبدو على مارسيل انها تقاوم دموعها . وكانت تنظر الى ركبتيها .

— الأمر لديك سواء اذا أجهض الطفل ؟

فقامت بحركة متعبة وقالت :

— وماذا تريد ان نفعل غير ذلك ؟

وفكر دانيال : « لقد رجحت ! » ولكنه لم يستشعر من ذلك اي سرور . كان يحنق . كانت مارسيل ، وهي قريبة هذا القرب ، تنبث منها رائحة لا تكاد تُحس ، بل لعلها اذا صح التعبير ليست رائحة ، ولكن كأنها كانت تُنخصب الهواء حولها . ثم انه كانت هناك تلك اليد التي ترشح في يده . وقسر نفسه على ان يشتد في ضغطها ، ليعبر لها عن كل عصيره . وقال بصوت جاف :

— لا اعرف ما يمكن ان نفعله : سئرى ذلك فيما بعد . اني في

هذه اللحظة لا افكر الا فيك فاذا رزقت هذا الطفل فربما كان ذلك كارثة ، ولكن ربما كان كذلك خطأ . ينبغي يمارسيل ان لا تسيطعي ان تنهي نفسك فيما بعد بأنك لم تفكري كفاية .

فقلت مارسيل : - نعم ، نعم ...

وكانت تنظر الى الفراغ نظرة ثقة ترد اليها شبابها . وفكر دانيال بالطالبة الشابة التي سبق له ان رأى صورتها . « صحيح ! لقد كانت شابة ... » ولكن اشاعات الشباب نفسها لم تكن مؤثرة على هذا الوجه العاق . وترك فجأة يدها وابتعد قليلاً عنها ، وردد بصوت مستعجل :
- فكري . هل انت حقاً متأكدة ؟

فقلت مارسيل : - لا ادري .

ونفضت : اعذرني ، يجب ان اطلّ على امي .

فانحنى دانيال بصمت : وكان ذلك شيئاً مألوفاً . وفكر حين اغلقت الباب : « لقد ربحت ! » ومسح يديه بمنديله ثم نهض بحبوية وفتح درج طاولة الليل : وكان يوجد فيها احياناً رسائل طريفة وقصاصات قصيرة من ماتيو ذات لهجة زواجية او شكاوى لا تنتهي من اندريه التي لم تكن سعيدة . وكان الدرج فارغاً ، وجلس دانيال ثانية على الاريغة وفكر : « لقد ربحت ، فهي تموت رغبة في ان تبيض » . وكان سعيداً انه وحيد : فقد كان يستطيع ان يستعيد الحقد . وقال في نفسه : « اقسم انه سيتزوجها . والحق انه كان لثيماً ، حتى انه لم يستشرها ، انه لا يستحق ان اكرمه لدوافع طيبة : فان لدي من العمل مع الآخرين ما فيه الكفاية » .

ورجعت مارسيل بوجه متحلل . وقالت بصوت جاف :

- واذا كانت لي رغبة في الطفل ؟ ماذا يجديني ذلك ؟ انني لا استطيع ان اكون في ترف الفتاة الام ، وليس وارداً ان يتزوجني ، اليس كذلك .

فرجع دانيال حاجبيه مدهوشاً وسألها :
 - ولماذا لا يستطيع ان يتزوجك ؟
 فنظرت اليه مارسيل بدعر ثم آثرت ان تضحك قائلة :
 - لكنك تعرف جيداً يا دانيال ما نحن عليه !
 فقال دانيال : - اني لا اعرف شيئاً على الاطلاق . لا اعرف الا
 شيئاً واحداً : ليس عليه ، اذا اراد ، الا ان يقوم بالخطوات الضرورية ،
 كجميع الناس بحيث تصبحين بعد شهر زوجته . اتكونين انت يا مارسيل
 التي قررت الا تتزوجي ابداً ؟
 - سوف اشمئز من ان يتزوجني على مضض .
 - ليس هذا جواباً .
 وزال بعض توتر مارسيل ، فأخذت تضحك ، وادرك دانيال انه
 ضل الطريق . وقالت :
 - الحقيقة أنه سيان عندي ان لا أُدعى السيدة دولارو .
 وقال دانيال بحموية : - اني متأكدة من ذلك . وانما عنيت :
 اذا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالطفل ؟...
 فبدت مارسيل مضطربة :
 - ولكنني لم اواجه الامور قط على هذا النحو .
 ولا بد ان ذلك كان صحيحاً . ولقد كان شاقاً جداً حملها على ان
 تنظر الى الاشياء مواجهة : كان ينبغي ان يوضع انها فوق الاشياء ،
 والا تناثرت في كل اتجاه . وازافت :
 - ان هذا ... امر قد اتفقنا عليه : ان الزواج عبودية . وليس
 فينا من يريد .
 - ولكنك تريدان الطفل ؟
 فلم تجب . وكانت اللحظة الحاسمة ؛ وردد دانيال بصوت قاس ،
 - اليس كذلك ؟ انك تريدان الطفل ؟

وكانت مارسيل تنكيء باحدى يديها على الوسادة بينما وضعت الاخرى على فخذيها ، ثم رفعتها قليلاً ووضعتها على بطنها ، كما لو ان احشاءها كانت تؤلمها ، وكانت هذه حركة خرقاء وساخرة . وقالت بصوت متوحد :

نعم . اريد الطفل .

ربحنا . وصمت دانيال . ولم يكن يستطيع رفع نظره عن هذا البطن . اللحم العدو ، اللحم المشحم والمغذي ، خزانة الطعام . وفكر في ان ماتيو كان قد اشتهاها فاخذته شعلة سريعة من الرضى : لكأنما انتقم بعض الانتقام . وكانت اليد السمراء ذات الخاتم تتشجع على الحرير وتضغط على ذلك البطن . ما الذي كانت تشعر به ، في داخلها ، هذه الانثى الثقيله المتمزقة ؟ لقد كان يود ان يكونها . وقالت مارسيل بحفوت :

— لقد حررتني يا دانيال . فاني ... لم اكن استطيع ان اقول ذلك لأحد ابدأ وكنت قد انتهيت الى الايمان بان ذلك كان إنمأ .

ونظرت اليه بضيق :

— اليس ذلك إنمأ ؟

فلم يمالك نفسه من الضحك :

— إنم ؟ انما ذلك فساد يا مارسيل . تجددين رغباتك آثمة حين

تكون طبيعية ؟

— كلا ، انما اعني : تجاه ماتيو . ان ذلك بمثابة نقض للعهد .

— كل ما في الامر هو انه يجب ان تتفاهمي معه بصراحة .

فلم تجب مارسيل ؛ وكان يبدو عليها انها تجتر . وقالت فجأة

بحماسة :

— اوه ! لو كان لي ولد ما سمحت له بان يفسد حياته مثلي .

— انك لم تفسدي حياتك .

- بلى !
- ولكن لا يا مارسيل ، لم تفسديها بعد .
- بلى ! اني لم افعل شيئاً ، وليس هناك من يحتاج الي .
- فلم يجب : كان ذلك صحيحاً .
- ليس ماتيو بحاجة الي . واذا مت لم يؤثر ذلك عليه قط . وانت كذلك يا دانيال . صحيح انك تكن لي حياً كبيراً ، ولعل ذلك هو أئمن شيء عندي في الدنيا . ولكنك لست بحاجة الي ؛ بل الاصح اني انا بحاجة اليك .
- أيجيب ؟ ام محتج ؟ كان ينبغي له الحذر : كانت مارسيل تبدو في احدى تلك الحالات المستبصرة الوقحة . وتناول يدها بلا كلمة وشدّها شديداً ذا مغزى . وتابعت مارسيل :
- اما الطفل ، اجل ، ان الطفل سيكون بحاجة الي .
- فلامس يدها بحنان :
- يجب ان تقولي هذا كله لماتيو .
- لا استطيع .
- ولكن لماذا ؟
- انني عاجزة . وانتظر ان يأتي ذلك منه .
- ولكنك تعلمين جيداً ان ذلك لن يأتي منه ابداً : فهو لا يفكر فيه .
- ولماذا لا يفكر في ذلك ؟ لقد فكرت انت فيه ملياً .
- لا ادري . واذن ... سيبقى الأمر كما قررنا : سوف تعبرنا المال ، وسأذهب الي ذلك الطبيب .
- فصاح دانيال فجأة : - انك لا تستطيعين ، لا تستطيعين !
- وتوقف ينظر اليها في حذر : كان الانفعال هو الذي جعله يطلق هذه الصرخة البليدة . واثلجته هذه الفكرة ، لقد كان الترك يدعره .

وقرص شفتيه ، وأمر السخرية في عينيه ، وهو يرفع حاجبيه . وكان فاعاً لا جدوى منه ؛ كان الافضل الا يراها : فقد احت كفتيها ، وكان ذراعاهما يتدليان على جنبيها ؛ وكانت تنتظر جامدة معطلة ، وهي سوف تنتظر على هذا النحو طوال اعوام حتى النهاية. وفكر : «حظها الاخير» كما سبق له ان فكر لنفسه منذ حين ، فبين الثلاثين والاربعين عاماً يلعب الناس حظهم الاخير . وهي سوف تلعب وتخسر ؛ فبعد بضعة ايام لن تكون بعد الا بائسة كبيرة . وكان ينبغي الحيلولة دون ذلك .

- وما ترين في ان احدث انا نفسي ماتيو في ذلك ؟
وكان شفقة هائلة موحلة قد غمرته . ولم يكن يميل قط الى مارسيل . كان يشعر باشمزاز عميق ، ولكن الشفقة كانت موجودة هنا ، لا تقاوم . وكان على استعداد ليفعل اي شيء من اجل ان يتخلص منها . ورفعت مارسيل رأسها وكان يبدو عليها انها تظنه مجنوناً .
- تتحدث اليه ؟ انت ؟ ولكن بم تفكر يا دانيال ؟
- يمكن ان يقال له ... اني التقيت بك ...
- اين ؟ فأنا لا اخرج قط . وحتى لو فرضنا ذلك ، فهل يكون الامر قد بلغ بي ان اروي لك هذا ؟
- لا ، لا ، طبعاً .

ووضعت مارسيل يدها على ركبته .
- ارجوك يا دانيال ، لا تتدخل في هذا الامر . اني غاضبة من ماتيو ، وقد كان عليه الا يروي لك ...
ولكن دانيال كان متمسكاً بفكرته :
- اسمعي يا مارسيل . ألا تعرفين ما سوف نفعله ؟ سنقول له الحقيقة بكل بساطة . سأقول : يجب ان تغفر لنا سرأ صغيراً ، فقد كنا انا ومارسيل نلتقي احياناً ، ولم نخبرك بذلك .

فابتهلت مارسيل تقول :

— دانيال ، يجب ان نقول ذلك . اني لا اريد ان تتكلم عني .
لا اريد بأي ثمن ان اظهر بمظهر المطالب . فقد كان عليه هو ان يفهم .

وأضافت بلهجة زواجية :

— ثم انه ، لو تعلم ، لن يغفر لي ابداً انني لم اخبره انا نفسي بذلك . اننا نتصارع دائماً بكل شيء .

وفكر دانيال : — « هذه نكتة ! » ولكن لم تكن به رغبة للضحك.

وقال :

— ولكني لن اتكلم باسمك . سأقول له انني رأيتك ، وانه كان

يبدو عليك انك متألمة ، وان الامور ليست بالبساطة التي قد يتصورها.

سأقول ذلك كله كما لو انه صادر عني .

وقالت مارسيل بلهجة انزعاج :

— لا اريد . لا اريد .

وكان دانيال ينظر الى كتفيها وعنقها في نهم . وكان هذا العناد

الابله يغيظه ، وكان يريد ان يحطمه . وكانت رغبة هائلة مشوّهة

تتملكه : ان ينتهك هذا الضمير وان يغرق معه في المذلة . غير ان

ذلك لم يكن من السادية : فقد كان اشد تلمساً وأوفر رطوبة وأكثر

بشرية . كان بالاحري طيبة .

بل يجب يا مارسيل . انظري اليّ يا مارسيل .

وأخذها من كتفيها ، فغرقت اصابعه في زبدة دافئة .

— إن لم احدهه بذلك ، فلن تقولي شيئاً ابداً ... وسينتهي الامر ،

وستعيشين بالقرب منه صامتة ، وستنتهين الى كرهه .

فلم تجب مارسيل ، ولكنه ادرك من هيئتها الحاقدة المسترخية انها

كانت بسبيل الاستسلام . وأضافت مرة اخرى :

— لا اريد.

فكرتها وقال في غضب :

— ان لم تدعيني افعل ، فسألومك وقتاً طويلاً . سيكون انك افسدت حياتك بيديك .

وكانت مارسيل تُتمر طرف رجلها على منحدر السرير . وقالت :

— ينبغي ... ينبغي ان تُقال له اشياء مبهمه تماماً ، ان يوقظ انتباهه فحسب ...

فقال دانيال : — طبعاً .

وكان يفكر : « اعتمدي علي في ذلك . »

وبدت من مارسيل حركة اشفاق :

— هذا غير ممكن .

— وبعد ؟ كنت على وشك ان تكوني عاقلة ... لماذا يكون ذلك

غير ممكن ؟

— ستكون مضطراً الى ان تقول له اننا كنا نتلاقى .

فقال دانيال في انزعاج :

— نعم . قلت لك ذلك . ولكني اعرفه : فهو لن يغضب من

هذا . قد يبتاظ قليلاً ، في الظاهر ، ولكنه اذ يشعر بانسه مذنب

فانه سيكون مسروراً اكثر مما ينبغي بأن يجد شيئاً يؤاخذك عليه . ثم

اني سأقول له اننا نتلاقى منذ اشهر فقط ، وفي فترات نادرة . ومهما

يكن ، فلا بد ان تقول له ذلك يوماً .

— هذا صحيح .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة ، وقالت بأسف عميق :

— لقد كان ذلك سرنا . اسمع يا دانيال ، تلك كانت حياتي الخاصة ،

وليست لي حياة غيرها .

وأضافت بكراهية :

- اني لا استطيع ان احتفظ لنفسى إلا بما اخفيه عنه .
- يجب ان نحاولي . من اجل الطفل .
- انها تكاد تستسلم : وليس ثمة بعد الا الانتظار ؛ كانت توشك ان تنزلق نحو الخضوع والاستسلام ، يقودها في ذلك ثقلها نفسه ؛ ستكون بعد لحظة منتفخة كلها ، من غير سلاح ، وستقول له في دعة : « افعل ما يبدو لك ، اني بين يديك . » وكانت تسحره ؛ ولم يكن يعرف بعد ان كانت هذه النار التي تلتهمه هي « الشر » او الطيبة . الخير والشر ، خيرهما وشره ، كان ذلك سواء . لقد كان ثمة هذه المرأة ، وهذا التواصل المنفّر الباعث على الدوار .
- وأمرت مارسيل يدها في شعرها ، وقالت في تحدّ :
- حسناً ! لنحاول . انها ستكون على كل حال تجربة .
- فسألها دانيال :
- تجربة ؟ اهو ماتيو الذي تريدان ان تدخليه في التجربة ؟
- نعم .
- وهل تظنين بأنه سيظل لامبالياً ؟ وانه لن يتعجل ساعة اللقاء بك ليتفاهم معك ؟
- لا ادري .
- وقالت بجفاف :
- اني بحاجة الى احترامه .
- فأخذ قلب دانيال يخفق :
- ألا تحترمينه اذن بعد ؟
- بلى .. ولكني لست بعد في ثقة معه منذ مساء الامس . لقد كان .. انت على حق : لقد كان مهملاً أكثر مما ينبغي . انه لم يهتم بشأني . ثم ان محاورته التلفونية اليوم ... تثير الشفقة . لقد ... واحترت :

— لقد ظنّ ان عليه ان يقول انه كان يحبني ، حين أنهى المخابرة .
وكان ذلك يرشح بتأنيب الضمير . ولا استطيع ان اصف لك الأثر
الذي خلفه ذلك فيّ . واذا اتفق لي ان كففت عن احترامه ... ولكني
لا اريد ان افكر بذلك . انه يشقّ عليّ جداً ان اعتب عليه ، حين
يتفق لي ذلك . آه ! ليته يحاول غداً ان يدفعني قليلاً الى الكلام . ليته
يسألني مرة واحدة فقط : « ماذا يجول في رأسك ؟ »
وصمتت ، وهزت رأسها في حزن . وقال دانيال :
— سوف احده . حين أغادرك ، سأترك له كلمة ، وأحدّد له
موعد لقاء للغد .

وصمتنا . وأخذ دانيال يفكر في لقاء الغد : لقد كان يعدّ ان يكون
لقاءً عنيفاً وقاسياً ، وسوف يطهره ذلك من هذه الشفقة الزجة . وقالت
مارسيل :

— دانيال ، عزيزي دانيال .
ورفعت رأسها فرأت نظرتة . وكانت نظرة ثقيلة ساحرة تفيض
بالعرفان الجنسي ، نظرة ما بعد المضاجعة . وأغمض عينيه : لقد كان
بينهما ما هو أقوى من الحب . لقد سبق ان انفتحت ، فدخل فيها ،
فليسا هما بعد الا شخصاً واحداً .
ورددت مارسيل : — دانيال .

ففتح دانيال عينيه ، وسعل بمشقة ؛ وكان مصاباً بالربو . واخذ
يدها وقبلها قبلة طويلة وهو يمسك انفاسه . وكانت مارسيل تقول ،
من فوق رأسه :
— يا ملاكي .

سيقضي حياته كلها منحنيّاً فوق هذه اليد العاطرة ؛ وراحت تلامس
شعره بحنان .

كانت زهرة كبيرة بنفسجية تصعد نحو السماء ، وكانت هي الليل .
 وكان ماتيو يتنزّه في هذا الليل ، وكان يفكر : « انسي شخص
 هالك . » وكانت تلك فكرة جديدة كل الجدة ، وكان لا بدّ من
 تقليبها على وجوهها ، ومن شتمها في احتراس . وكان ماتيو يفقدها بين
 الفينة والفينة ، فلا تبقى بعد غير الكلمات . ولم تكن الكلمات خالية من
 بعض سحر غامض : « شخص هالك » . كان المرء يتخيّل كوارث
 جميلة : الانتحار ، الثورة ، ومخارج اخرى متطرفة . ولكن الفكرة
 كانت سريعاً ما تعود : لم يكن الامر كذلك ، لم يكن كذلك قط ؛
 وانما كانت القضية بؤساً صغيراً هادئاً ومتواضعاً ، ولم تكن قضية بأس ،
 بل على العكس ، كان ذلك يبعث على الرضى والراحة : لقد كان
 ماتيو يشعر بأنه قد مُسّح له بكل شيء ، كما هو الشأن بالنسبة لمريض
 لا يُرجى شفاؤه . وفكر : « ليس علىّ بعدُ الا ان ادع نفسي
 أعيش . » وقرأ اسم « سومطرا » بأحرف نارية ، وهُرِع اليه الزنجي ،
 وهو يلامس قبعته . وتردد ماتيو على عتبة الباب : كان يسمع ضجيجاً ،
 وموسيقى تانغو ؛ وكان قلبه ما يزال ممتلئاً بالكسل والليل . ثم حدث
 ذلك فجأة ، كما يحدث في الصباح ، حين يلقي المرء نفسه واقفاً من
 غير ان يدرك كيف نهض : كان قد أزاح الستار الاخضر ، وهبط

درجات السلم السبع عشرة ، فاذا هو في كهف قرمزي ضاح ، ذي لطخات بيضاء قدرة ، هي اغطية الموائد ؛ وكانت رائحة البشر منتشرة هناك ، كانت القاعة تغص بالبشر ، كما هو الحال في قداس . وفي جوف الكهف ، كان ثمة رعاة يرتدون القمصان الحريرية يعزفون الموسيقى فوق منصة . وكان امامه اشخاص واقفون في جمود واحترام كأنهم ينتظرون : وكانوا يرقصون ؛ وكانوا شرسين ، وكان يبدو أنهم فريسة قدر لا ينتهي . واستعرض ماتيو القاعة بنظره المتعب بحثاً عن بوريس وايفيش .

— هل تريد طاولة ، ياسيدي ؟

وكان شاب جميل ينحني امامه في هيئة سمسار .

وقال ماتيو : — انني ابحث عن شخص .

فعرفه الشاب ، وقال بودّ :

— آه ! ها انت يا سيدي ؟ إن الآنسة لولا ترتدي ثيابها

وأصدقاؤك في الداخل ، الى اليسار ، واني مرافقتك اليهم .

— لا ، شكراً . سأجدهم بنفسي . ان روادكم اليوم كثيرون .

— نعم ، لا بأس بعددهم . هولانديون . انهم يضحجون كثيراً ،

ولكنهم يستهلكون جيداً .

واختفى الشاب . وكان ينبغي الا يفكر المرء بأن يشق لنفسه طريقاً

بين الأزواج الذين كانوا يرقصون . وانتظر ماتيو : كان يصغي الى

التانغو والى جر الاقدام ، وكان ينظر الى التقلبات البطيئة لهذا الاجتماع

الصامت . اكتاف عارية ، رأس زنجي ، بياض ياقة ، نساء رائعات

ناضجات ، كثير من الرجال المسنين كانوا يرقصون وعليهم مظهر

الاعتذار . وكانت ألحان التانغو الحادة تمر فوق رؤوسهم : لم يكن

يبدو على الموسيقيين انهم يعزفون لهم . وتساءل ماتيو : « ماذا جئت

افعل هنا ؟ » وكانت سترته تلمع لدى المرفقين ، ولم يكن لبنظلونه

بعدُ أية ثنية ، ولم يكن يرقص جيداً ، وكان غير قادرٍ على ان يتسلّى وهو في تلك البطالة الرصينة . وأحس بالضيق : ان المرء لم يكن يستطيع في مونتارتر ان يشعر بالرضى والراحة ، فان قسوة حائرة كانت ترفرف في الهواء .

وأضاءت اللببات البيضاء من جديد . وتقدم ماتيو الى الحلبة وسط الظهور الهاربة . وكانت في احدى الزوايا طاولتان ، وإزاء واحدة منهما كان رجل وامرأة يتكلمان بلهجة حادة ، من غير ان ينظر احدهما الى الآخر . وإزاء الاخرى رأى بوريس وايفيش ، وكان احدهما ينحني نحو الآخر باهتمام في قسوة مليئة بالروعة . « لكأنهما راهبان صغيران . » وكانت ايفيش هي التي تتكلم ، وكانت تتحرك حركات حيّة . ولم يسبق لها قط ، حتى في لحظات الثقة ، ان بدت لماتيو في مثل ذلك الوجه . وفكر ماتيو : « كم هما شابان ! » وكانت به رغبة في ان يستدير على عقبه ويذهب . ولكنه اقترب ، لأنه لم يكن يستطيع بعد ان يتحمّل الوحدة ، وكان يحس انه كان ينظر اليهما من ثقب الباب . انهما سيلاحظانه عما قليل ، وسيديران اليه ذينك الوجهين المتحللين اللذين كانا يواجهان بهما ابويهما والشخصيات الكبيرة ، وسيكون ثمة ، حتى في اعماق قلوبهما ، شيءٌ ما قد تغير . وكان شديد القرب من ايفيش في تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تراه . وكانت قد انحنت على اذن بوريس هامة . وكانت تشبه قليلاً - قليلاً جداً - اختاً كبيرة ، وكانت تتحدث الى بوريس في تنازل مدهوش . وأحس ماتيو ببعض الغزاء : ان ايفيش لم تكن تستسلم كلياً حتى مع اخيها ، بل هي تلعب دور الاخت الكبيرة ، ولم تكن تنسى نفسها قط . وضحك بوريس ضحكة مقتضبة وقال ببساطة :

- مسامير !

ووضع ماتيو يده على طاولتهما . « مسامير . » وكان حوارهما ينتهي

هذه الكلمة الى الأبد : فكأنها كانت آخر عبارة في قصة او في مسرحية . وكان ماتيو ينظر الى ايفيش وبوريس : وكان يجدهما بطلي رواية . وقال :
- مرحباً .

فقال بوريس وهو ينهض : - مرحباً .
والقى ماتيو نظرة سريعة نحو ايفيش : وكانت قد استلقت الى الورا
ورأى عينين كثيبتين ممتعتين . كانت ايفيش الحقيقية قد اختفت .
وفكر في غيظ : « ولماذا الحقيقية ؟ »
وقالت ايفيش :

- مرحباً يا ماتيو .
ولم تبسم ، ولكن كان يبدو عليها كذلك مظهر الدهشة او الحقد؛
كان يبدو عليها انها كانت تجد حضور ماتيو طبيعياً جداً . وأشار بوريس
الى الجمع بحركة سريعة وقال في رضى :
- الحضور كثيرون .
فقال ماتيو : - نعم .
- هل تريد مكاني ؟

- لا ، لا تكلف نفسك ، فسوف تعطيه الساعة الى لولا .
وجلس . وكانت الحلبة خالية ، ولم يبق ثمة احدٌ على منصّة
الموسيقين : فان الرعاة كانوا قد انجزوا سلسلتهم من رقصات التانغو ،
وكانت جوقة الجاز الزنجية « فرقة هيجينو » توشك ان تحلّ محلّهم .
وسأل ماتيو :
- ماذا تشربان ؟

وكان الناس يطنون حوله ، ولم تكن ايفيش قد اساءت استقباله ،
وكانت تغمره حرارة رطبة ، وكان يستمتع بالكثافة السعيدة التي يخلّفها
الشعور بان يكون رجلاً بن الآخرين .

وقالت ايفيش : - قدح فودكا .

- عجباً ! أصبحت تحبين ذلك ؟

فقالت باقتضاب : - انه قوي .

فأشار ماتيو الى زيد ابيض في قدح بوريس وسأل بدافع من الإنصاف « وهذا ؟ » وكان بوريس ينظر اليه في إعجاب جـذـل مشدوه ، فيحس ماتيو لذلك بالضيق . وقال بوريس :

- إنه مسل . هو كوكتيل صاحب الحانة .

- لقد طلبته اذن بدافع التأدب ؟

- انه يلح علي منذ ثلاثة اسابيع لأذوقه . وهو ، لو تعلم ، لا

يُحس صنع الكوكتيل . لقد اصبح صاحب حانة لانه كان مشعوذاً ، وهو يقول انها المهنة نفسها ، ولكنه على ضلال .

قال ماتيو : - أظن ان ذلك بسبب الطاسة ... ثم ان على من يكسر

البيض ان يحذق تحريك اليد

- كان خيراً له اذن ان يبقى مشعوذاً . ومهما يكن من امر ، فاني

ما كنت آخذ من خليطه القدر لولا انه اعارني مئة فرنك هذا المساء .

فقالت ايفيش :

- ولكن كان معي مئة فرنك .

قال بوريس : - وانا ايضاً ، ولكن لانه صاحب حانة .

ثم قال موضحاً في دقة قاسية :

- يجب ان يقترض المرء مالا من اصحاب الحانات .

فنظر ماتيو الى صاحب الحانة ، وكان واقفاً وراء مشربه ، مرتدياً

اللباس الابيض مشبك الساعدين ، يدخن سيكارتته . وكان ذا مظهر

هاديء . وقال ماتيو :

- وددت لو كنت صاحب حانة ... لا بد ان يكون ذلك طريفاً...

فقال بوريس : - كان ذلك سيكلفك غالباً ، لانك كنت ستحطم

كل شيء .
وساد صمت : كان بوريس ينظر الى ماتيو ، وكانت ايفيش تنظر الى بوريس .
وقال ماتيو في نفسه باكتئاب : « ان وجودي هنا لا ضرورة له »
ومدّ له الخادم لائحة المشروبات : وكان عليه ان يكون حذراً ، فهو لا يملك بعد اكثر من خمسمئة فرنك . وقال ماتيو :
- ويسكي .
وأخذه فجأةً نفوراً من التوفير ومن هذه الخزمة القابعة في محفظته .
فنادى الخادم :
- انتظر . اني افضل قده شمبانيا .
واخذ اللائحة من جديد . وكان سعر « الموم » ٨٠٠ فرنك .
وقال لايفيش :
- وانت تأخذين منه ؟
- كلا (وبعد لحظة تفكير) نعم . هذا افضل .
- اعطنا زجاجة « موم » ذات شريطة حمراء .
قال بوريس : - يسرّني ان اشرب الشمبانيا لاني لا احبه . ويجب ان اعتاد .
فقال ماتيو : - انكما ، كليكما ، منفوخان . تشربان دائماً مشروبات لا تحبانها .
وتفتّح بوريس : كان يلذّه ان يحدّثه ماتيو بهذه اللهجة . وعصّت ايفيش على شفيتها . وفكر ماتيو في شيء من الارتياح : « لا يستطيع المرء ان يقول لها شيئاً . فان احدهما لا بد ان يمتاظ . » وكانا هناك ، تجاهه ، متنبّهين ، قاسيين . كان كل منهما قد صنع لنفسه صورة خاصة عن ماتيو ، وكانا يطلبان منه ان يشبهها . غير ان هاتين الصورتين لم تكونا قابلتين للتوفيق .

وصمتوا .

وارخى ماتيو ساقيه وابتسم من الرضى . وكانت ألحان بوق تبلغه في دفعات ، مُزّنةٌ مجيدة ؛ ولم يكن يفكر في ان يلتمس فيها نغماً : كان حسبه أنها هناك ، وأنها تحدث ضجيجاً ، وكان هذا يختلف لديه متعةً ضخمة تكاد تكون جسدية . طبعاً ، كان يدرك جيداً انه كان انساناً هالكاً ؛ ولكن ذلك ، في آخر المطاف ، في هذا المرقص ، وازاء هذه الطاولة ، ووسط جميع هؤلاء الآخرين الهالكين مثله ، ان ذلك لم يكن ذا أهمية كبيرة ، ولم يكن شاقاً على الاطلاق . وأدار رأسه : كان صاحب الحانة ما زال يحلم ؛ وكان الى اليمين رجلٌ ذو نظارة واحدة ، وكان وحده ، ذا وجه مدمر . وأبعد قليلاً ، كان ثمة رجل آخر وامامه ثلاث كؤوس ومحفظة سيده ؛ لا بد ان زوجته وصديقه يرقصان ، وكان يبدو عليه انه اقرب الى الارتياح والعزاء : وقد تئاب طويلاً خلف يده ، وطرفت عيناه الصغيرتان في نشوة . وكانت في كل مكان وجوه باسمة ونظيفة ، وعيونٌ مجوفة . واحس ماتيو فجأة انه متضامن مع جميع هؤلاء الاشخاص الذين كان خيراً لهم لو عادوا الى منازلهم ؛ ولكنهم لم يكونوا حتى ليقووا على ذلك ، فكانوا يلبثون هناك يدخنون لفائف دقيقة ، ويشربون مزيجاً ذا مذاق من فولاذ ، وبيتسمون وآذانهم تقطر موسيقى ، ويتأملون بعيونهم الفارغة شظايا قَدَرهم ؛ وأحس نداء خفياً لسعادة متواضعة جبانة : « لو كنت مثلهم ... » وأخذ الخوف فانتفض ، والتفت الى ايفيش . لقد كانت ملاذة الوحيد ، بالرغم مما كانت تبدو عليه من حقد وابتعاد . وكانت ايفيش تنظر الى السائل الشفاف الذي كان باقياً في كأسها : كانت تحول عينيها في قلق . وقال بوريس :

— يجب ان تشرب دفعة واحدة .

فقال ماتيو : — لا تفعل ذلك ، فانك سوف تحرق حنجرتك .

قال بوريس في قسوة : - ان الفودكا تُشرب دفعة واحدة .
وتناولت ايفيش كأسها :

- اني افضل ان اجرعها دفعة واحدة ، فهي بذلك تنتهي سريعاً .
- لا ، لا تشربي . انتظري الشامانيا .

فقال في غيظ : - يجب ان التهم ذلك ، فاني اريد ان أتسلى .
وانقلبت الى خلاف وهي تُدني الكأس من شفيتها ، وافرغت كل
محتواها في فيها ؛ وكانت تبدو وكأنها تملأ ابريقاً . وظلت كذلك لحظة
لا تجرؤ على الجرع ، وفي جوف حلقها تلك البحيرة النارية الصغيرة .
وكان ماتيو يتألم من اجلها .
وقال لها بوريس :

- لاجرعي ! تخيلي انه ماء : فليس هناك الا هذا .
وانفخ عنق ايفيش ، ووضعت الكأس وعلى وجهها كزازة فظيعة ؛
وكانت عينها مملوءتين بالدمع . وكان من شأن السيدة السمراء ، جارتهم ،
ان تركت لحظة حلمها الجذل ، واسقطت عليها نظرة مليئة بالتوبيخ .
وقالت ايفيش :

- اوه ! انه يحرق ... هذا نار !

قال بوريس : - سأشترى لك زجاجة من اجل ان تتدربي .
وفكرت ايفيش لحظة :

- خير لي ان اتدرب بعصير الفاكهة ، فهو اقوى .
واضافت في شيء من ضيق : - احسب اني سأستطيع الآن ان
أتسلى .

فلم يجبها احد . والتفتت بحوية الى ماتيو : وكانت هذه هي المرة
الاولى التي تنظر اليه :

- انت ، هل تقاوم الحمرة جيداً ؟

قال بوريس : - هو ! انه فظيع ! لقد شرب سبعة اقداح من

الويسكي حين كان ذات يوم يحدثني عن « كانت » . وانتهى الامر بي الى اني بت لا اسمع ، فقد نملت بدلاً منه .

وكان ذلك صحيحاً : ان ماتيو لم يكن يستطيع ان يضع نفسه ، حتى في مثل هذه الحالة . ففي الوقت كله الذي كان يشرب فيه ، كان يتعلق بأي شيء . واستعاد فجأة غوغان ، بسحته الضخمة المتقعة ذات العينين الفارغتين ؛ وفكر : « بكرامتي الانسانية . » وكان يحشى ، اذا هو استسلم لحظة ، ان يجد في رأسه فجأة فكرة ذبابة او صرصور ، تائهة عائمة كغيمة من الحر . وقال موضحاً في ذل :
- انني استفزع ان أتمل . انني اشرب ، ولكني ارفض السكر بكل قواي .

فقال بوريس بإعجاب : - الحقيقة انك في هذا عنيد ، بل اعند من

بغل !

- لست عنيداً ، ولكني متوتر : فأنا لا أحسن التراخي والاستسلام .

يجب عليّ دائماً ان افكر بما يحدث لي ، وهذا سلاح للدفاع .

واضاف في سخرية ، كأنما يحدث نفسه :

- انني قصبة مفكرة .

كأنما يحدث نفسه . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً ، انه لم يكن صادقاً : لقد كان يود في الحقيقة ان لا يروق لايفيش . وفكر : « أتراني اذن بلغت هذا ؟ » لقد بلغ ان يغتم فرصة انهيارها ، ولم يكن يحقر ان يستغل من ذلك فوائد دقيقة ، وكان يستخدمها ليتقدم من الفتيات الصغيرات بحركات متأدبة . « ذنيء ! » ولكنه توقف مدعوراً : فحتى حين كان يصف نفسه بالدناءة ، لم يكن كذلك صادقاً ؛ انه لم يكن مغتاضاً حقاً . لقد كانت هذه طريقة ليستدرك نفسه ؛ كان يظن انه يتقد نفسه من الاحتقار بـ «الصفاء» ، ولكن هذا الصفاء لم يكن يكلفه شيئاً ، بل كان بالاحرى يسليه . وهذا الحكم نفسه الذي كان يحمله

عن صفائه ، هذه الطريقة في ان يتسلق على كفيه هو بالذات ...
« يجب ان أتغير حتى العظام . » ولكن لم يكن ثمة ما يستطيع
ان يعينه على ذلك : فقد كانت افكاره جميعاً ملوثة منذ مولدها . وفجأة ،
انفجر ماتيو كالجرح ، رأى نفسه كلّه منتفخاً : افكار ، افكار على
افكار ، افكار على افكار على افكار ، كان شفافاً حتى اللانهاية ،
وفاسداً حتى اللانهاية . ثم انطفأ ذلك ، فالقى نفسه جالساً تجاه ايفيش
التي كانت تنظر اليه نظرة غريبة . وسألها :

— هل درست اذن في المدة الاخيرة ؟

فهزت ايفيش كتفها في غضب :

— لا اريد ان يحدثني احدٌ في هذا ! لقد مللت ذلك ، وانا هنا

لأنسلى .

— لقد قضت نهارها متجمعة على الديوان ، وعيناها تشبهان

صحنين !

واضاف بوريس باعتزاز ، من غير ان يهتم بالنظرة السوداء التي

كانت اخته ترميه بها :

— انها طريفة ! يمكن لها ان تموت برداً في ابان الصيف .

وكانت ايفيش قد ارتعشت ساعات طويلة ، ولعلها بكّت . اما الآن ،

فلم يكن شيء ليبدو عليها : كانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على

جفنيها ، وحمرة فريزية على شفثيها ، وكانت الحمر يلهب وجنتيها ،

وكانت كلها نابضة متفجرة . وقالت :

— اودّ لو اقضي امسية عظيمة ، لأن هذه آخر امسية لي .

— انك مضحكة .

فقالت بعناد : — بلى ، سوف اسقط ، اعرف ذلك ، وسأرحل

على الفور ؛ فلن استطيع ان ابقى يوماً واحداً بعد في باريس ،

والآ ...

والأ...

— لا شيء . ارجوك ، لا تتحدث بعد هذا ، فانه يذلّني . آه !
(واضافت بمرح) هي ذي الشمبانيا .

ورأى ماتيو الزجاجاة ففكر : « ٣٥٠ فرنكاً » . ان الرجل الذي
لحقه بالأمس ، في شارع فرسانجيتوري ، كان هو ايضاً هالكاً ، ولكن
بكل تواضع ؛ من غير شمبانيا ولا حماقات جميلة ؛ ثم ان فوق ذلك
كان جائعاً . واشمأز ماتيو من الزجاجاة ، كانت ثقيلة وسوداء ؛ وكان
لها حول عنقها منديل ابيض . وكان الخادم منحنيّاً فوق دلو الثلج بتكلف
ووقار واحترام ، يديره بطرف أصابعه في براعة . وكان ماتيو ما يزال
ينظر الى الزجاجاة ، وما يزال يفكر برجل الأمس ؛ فيحس قلبه منقبضاً
بضيق حقيقي ؛ ومن قبيل الصدف انه كان ثمة تلك اللحظة ، على
المنصة ، شاب رصين يغني في بوق . ثم كانت هناك تلك الزجاجاة
التي كانت تدور بأناقة تحت الاصابع الصفرة ، وجميع اولئك الاشخاص
الذين كانوا يتألمون في عصيرهم من غير ان يفعلوا مثل هذه المشاكل .
وفكر ماتيو : « ان رائحة الخمر الأحمر تنبعث منها ، والواقع انها
تشبهها . ثم انني لا احب الشمبانيا » وبدا له المرقص كله جحياً صغيراً
خفيفاً كفقاعة صابون ، وابتسم .

وسأله بوريس وهو يضحك مقدماً : — لماذا تتلوّتى من الضحك ؟
— تذكرت انني انا ايضاً لا أحب الشمبانيا .
واخذوا جميعاً يضحكون . وكانت ضحكة ايفيش ثابتة ؛ وقد
ادارت جارتها رأسها وحدجتها . وقال بوريس : « اننا مغتبطون » ثم
اضاف :

— بوسعنا ان نفرغها في دلو الثلج حين يذهب الخادم .
فقال ماتيو : — كما تشاء .
قالت ايفيش : — كلا . اريد ان اشرب ، انا . وسأشرب الزجاجاة

كلها اذا كنتما لا تريدان ان تشربا منها .
وسكب الخادم الحمره ، وحمل ماتيوا كأسه الى شفثيه في كآبة .
وكانت ايفيش تنظر الى كأسها في تبرّم . وقال بوريس :
- لن يكون شيئاً رديئاً اذا كان قد قدّم لنا وهو يغلي .
وانطفأت اللمبات البيض ، واضيئت اللمبات الحمر مرة اخرى ،
وانبعثت ضربات طبل . وقفز الى المنصة رجلٌ قصير اصلع مكتنز
الجسم يرتدي السموكغ واخذ يتشم في بوق :
- سيداتي وساداتي ، يسر ادارة « سومطرا » ان تقدم لكم الآنسة
الينور (وكرّر) الآنسة ال - ل - - ينو - ر . ها !
ودخلت الى القاعة ، لدى اول نغمات رقصة شعبية ، فتاة طويلة
شقراء . وكانت عارية ، وكان جسمها يبدو ، في الهواء الأحمر ،
قطعة قطن كبيرة . والنفت ماتيوا الى ايفيش : كانت تنظر الى الفتاة
العارية بعينيهما الكبيرتين الصفراوين على سعتها ؛ وكانت قد اتخذت
مظهرها القاسي الأهوس . وهمس بوريس :
- انني اعرفها .

وكانت الفتاة ترقص ، وقد استخفتها رغبة مجنونة بان تروق للجمهور ؛
وكانت تبدو غير بارعة ، وكانت تقذف بقوة ساقيهما الى امام ، واحدة
بعد الاخرى ، وكانت قدماها تبرزان في نهاية ساقيهما كالأصابع . وقال
بوريس :

- سوف تهدم نفسها ، وستندم !
والواقع انه كان في اطرافها الطويلة رخاصة مقلقة ؛ وكانت حين
تضع رجليها على الارض ، تأخذ ساقيهما رعشات تهزهما من الأخص
الى العجز . واقتربت من المنصة والتفت ، ففكر ماتيوا : « والآن ،
ستشغل بردفيها » وكانت ضجة الأحاديث تغطي الموسيقى في موجات .
وقالت جارة ايفيش وهي تزوى شفثيهما :

انها لا تحسن الرقص . وحين يكون ثمن المشروب خمسة وثلاثين فرنكاً ، فيجب الاعتناء بالبرنامج .
وقال الرجل السمين : - ان عندهم « لولا مونتيرو »
- هذا لا يغير الحقيقة . انه لأمر معيب ، فقد لموا هذه من الشارع .

وشربت جرعة من كأسها الممزوج واخذت تلعب بخواتمها . واجال ماتيو نظره في القاعة فلم يلتق الا بسحنات قاسية رصينة . وكان الناس يتلذذون بغيظهم : فقد كانت الفتاة تبدو لهم عارية مرتين ، لأنها كانت عديمة الخدق . وكأنها كانت تشعر بعداوتهم وكانت تأمل ان تعطفهم عليها . ودهش ماتيو لارادتها المصممة المتفانية : فقد كانت تمد لهم ساقها المنفرجتين في موجة من حماسة تمزق القلب . وقال بوريس :

- ما أشد ما تنفق نفسها !

فقال ماتيو : - انها لن تنجح ، فالناس يريدون ان يحترموا .

- بل يريدون خاصة ان يروا إستات .

صحيح ، ولكن يجب إحاطة ذلك باطار من الفن .

وذاث لحظة ائنتت ساقا الراقصة تحت وهن رديها الجذلين ، فنهضت وهي تبتسم ورفعت ذراعيها في الهواء وهي تهزها ، فسقطت منها رعشات انزلت الى الراسلين ، وجاءت تتلاشى في ثنية الاصلاب ، وقال بوريس :

- ما أصلب وركيها . ان هذا لعجيب !

فلم يجب ماتيو ، وكان يفكر في ايفيش . ولم يكن يجرؤ على النظر اليها ، واكنه كان يتذكر مظهرها القاسي ؛ ان هذه الصبية المعونة كانت ، في آخر المطاف ، كجميع الناس : كانت تلتهم بعينيها ، في احساس من الفظاظة ، هذا اللحم المسكين العاري ، وهي محمية بجالها ،

بشبابها الرصينة . وصعدت الى شفتي ماتيو موجة من الحقد سمتت فـه :
« لم يكن الامر يستحق ما اخذت نفسي به من تكآف وحذر ، في
هذا الصباح . » ولوى رأسه قليلاً ، فرأى قبضة ايفيش متشنجة فوق
الطاولة . وكان ظفر الإبهام القرمزي الرهيف يتجه الى الحلبة كأنه سهم
للإشارة . وفكر « انها متوحدة ، وهي تخفي وراء شعرها وجهها
المضطرب ، وهي تضم ساقها ، انها تلتذ ! » وكانت هذه فكرة لا
يحتها ، وقد اوشك ان ينهض ويمضي ، ولكنه لم يكن يقوى على
ذلك ، فاكتفى بأن فكر : « انما احبها لطهارتها » . وكانت الراقصة
ويدها على خاصرتيها ، تنتقل على عقبيها ، فلامست طاولتهم بجنبها .
وودّ ماتيو لو يشتهي هذه الوسادة ليتلهى عن افكاره ، وليمثل مع
ايفيش فصلاً جميلاً . وكانت الفتاة قد قرفصت ، مباعدةً ما بين
ساقها ، وكانت تؤرجح رديفها على مهل من امام الى وراء ، كأحد
هذه المصاييح الصفراء التي تنوس ليلاً في المحطات الصغيرة وهي معلقة
بذراع غير مرئية . وقالت ايفيش :

— تفه ! اني لا اريد بعد ان اراها .

فالتفت اليها في دهشة ، ورأى وجهاً مثلثاً متحلاً بالغضب والاشمزاز .
وفكر في عرفان « انها لم تتأثر » . وكانت ايفيش ترتعش ، وودّ ان
يبتسم لها ، ولكن رأسه امتلاً بالجلال ، وتسلسل بوريس وايفيش
والجسد الداعر والغيمة الحمراء خارج متناول يده ، فاذا هو وحيد ،
واذا في البعيد نار من بنغال ، وفي الدخان مسخ بأربع سيقان يستعرض
براعته ، وكانت موسيقى حفلة تلبقه في قفزات عبر ضجيج اوراق
رطبة . وتساءل : « ماذا دهاني ! » كان ذلك كالصباح : فانه لم
يكن حوله بعد الا مشهد ، وكان ماتيو في مكان آخر .

وكفت الموسيقى فجمدت الفتاة مولية وجهها شطر القاعة . وكان لها
فوق بسمتها عينان جميلتان يائستان . ولم يصفق احد ، وندت بعض

ضحكات جارحة . وقال بوريس :

– متوحشون !

وصفتى بيديه في قوة ، فالتفتت اليه وجوه دهشة ، وقالت ايفيش غاضبة :

– اتريد ان تكف ؟ انك لن تصفتى لها .

فقال بوريس وهو يصفى : – انها تفعل ما تستطيع .
وهذا أولى !

فهز بوريس كتفيه وقال : – انني اعرفها . لقد تعشيت معها ومع

لولا ، وهي فتاة طيبة ولكنها قاصرة الخيال .

واختفت الفتاة وهي تبتمس وترسل القبلات . وغمر القاعة نور ابيض ؛

فكانت اليقظة : كان الناس مسرورين ان يتلاقوا فيما بينهم بعد ان اخذت

العذالة مجراها ، واشعلت جارة ايفيش سيكارة وبسطت وجهها لنفسها

وحدها . ولم يكن ماتيوليستيقيظ ، وانما كان غارقاً في كابوسه الابيض .

وكانت الوجوه تتفتح حوله في اكتفاء ضاحك رخو ، ولم يكن يبدو

على معظمها انها مسكونة . اما وجهي فلا بد انه كذلك ، ولا بد انه

يملك ملاءمة العينين وزوايا الفم ، ومع ذلك ، فلا بد ان يرى انه

كان أجوف .. كان وجه كابوس ، ذلك الرجل الذي كان ينطنط على

المنصة ويقوم بحركات يطلب فيها السكوت ، وعليه مظهر من يتلذذ

سلفاً بالدهشة التي سوف يحدثها ، بأن يتصنع انه يسقط إسقاطاً في

البوق ، من غير تعليق ، وبكل بساطة ، الاسم الشهير :

– لولا مونتيرو !

واهتزت القاعة مشاركة وحاسة ، وانفجر التصفيق وبدا بوريس

مفتوناً .

– انهم منشرحون تماماً ، وسوف يمشي الحال .

وكانت لولا قد التصقت بالباب ؛ وكان وجهها المسطح الحرب

يشبه من بعيد فم أسد ، وكان كتفاها في بياضها الراعش ذي الاشعاعات
الخضراء تشبهان ظلال شجرة في مساء عاصف تحت اضواء سيارة .
وتمت ايفيش :

ما اجملها !

واقربت بخطى واسعة هادئة ، في يأس مليء بالارتياح ، وكانت لها
يدا سلطانة صغيرتان ومحاسنها المثقلة ، ولكنها كانت تضي على مشيتها
سخاء رجل .

وقال بوريس في اعجاب :

— انها نثر حولها الرضى ، فهم لن يحاولوا ان يجعلوها تتعثر .

وكان هذا صحيحاً : فان جلوس الصف الاول كانوا قد تقهقروا
على كراسيهم مستشعرين الرهبة ، يكادون لا يجرؤون على النظر عن
كتب الى هذا الوجه المجيد . وجه خطيب كبير شعبي ، عليه ظل
من الأهمية السياسية : كان الفم يدرك عمله ، وكان قد ألف التثاؤب
العريض ، وكانت الشفتان بارزتين لتقيئا الفظاعة والاشمئزاز ولتقلبا
الصوت الى بعيد . وتجمدت لولا فجأة ، فتنهدت جارة ايفيش عجباً
وإعجاباً ، وفكر ماتيو « لقد استولت عليهم » .

واستشعر الضيق : لقد كانت لولا في صميم ذاتها شائخة ومهوسسة ،
غير ان وجهها كان يكذب فيمثل الشموخ والهوس . وكانت تتألم ،
لان بوريس كان يوثسها ، غير انها كانت تغنم دورها في الغناء ، خمس
دقائق في اليوم ، لتألم في فن ! « حسناً ! وانا ؟ أألم في فن ،
وامثل دور الشخص الهالك بمرافقة الموسيقى ؟ (وفكر) ومع ذلك ،
فانا حقاً شخص هالك . » وكان الوضع حوله شبيهاً : كان ثمة اشخاص
غير موجودين على الاطلاق ، أنجرة ، ثم كان هناك اشخاص موجودون
أكثر مما ينبغي . كصاحب الحانة مثلاً . لقد كان الساعة يدخن سيكارة
يبدو غامضاً شاعرياً كأنه شجرة لبلاب ، اما الآن فقد استيقظ ، فاذا

هو صاحب حانة اكثر مما ينبغي ، كان يهزّ الدلو ويفتح الزجاجه ويدلق منها زبدًا اصفر في كؤوس بحركات ذات دقة مبالغ فيها : كان يمثل دور صاحب الحانة . وفكر ماتيو في برونيه . « لعل المرء لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ولعل عليه ان يختار : اما ان لا يكون شيئاً او ان يمثل ما هو . (وقال في نفسه) سيكون هذا مريعاً ، لان المرء سيكون مزوراً بطبيعته . »

وأجالت لولا نظرها في القاعة ، على غير ما عجل . وكان قناعها المتألم قد قسا وتجمّد ، فكان يبدو منسياً على وجهها . ولكن ماتيو حسب انه يفاجيء في جوف عينيها ، ووحدهما كانتا حيتين ، وشعلة من فضول مرّ ومهدّد لم يكن فيه تمثيل . ورأت اخيراً بوريس وايفيش فبدت مطمئنة . وابتسمت لها بسمة كبيرة مليئة بالطيبة ، ثم أعلنت بلهجة ضائعة :

— اغنية بحار : جوني بالمر .

وقالت ايفيش : — احبّ صوتها ، لكأنه قطعة مخمل كبيرة مضلعة .

— نعم .

وفكر ماتيو : « جوني بالمر ايضاً ! »

وبدأت الموسيقى ، ورفعت لولا ذراعيها الثقيلتين . هكذا اذن ، انها تصلّب ، ورأى فأ دامياً يفتح :

من هو قاس ، حسود ، مرير ؟

ومن يغشّ في اللعب ، حين يخسر ؟

ولم يعد ماتيو يصغي ، وكان خجلاً امام هذه الصورة للألم . كان يدرك جيداً انها لم تكن الا صورة ، ولكن مع ذلك ...
« لست اعرف ان اتألم ، اني لا اتألم ابداً بما فيه الكفاية . »
كان أشقّ ما في العذاب ، أنه كان شبحاً ، وان المرء يقضي وقته في

الجري خلفه ، وبحسب دائماً انه سيدركه ويرتمي في داخله ويتعذب حقاً وهو يكثر على اسنانه ، ولكنه ما ان يسقط فيه حتى يفرّ ، فلا يجد المرء بعد الا نثاراً من كلام وألوفاً من المحاكيات العقلية المجنونة تضح بدقة « ان ذلك يثرثر في رأسي ، ولا يني يثرثر ، واني اعطي ايّ ثمن لاستطيع ان اصمت . » ونظر الى بوريس في غيرة ، لا بد ان وراء هذا الجبين المصدوم ألواناً عظيمة من الصمت .

من هو قاس ، حسود ، مريّر ؟

انه جوني بالمر !

« اني اكذب ! » كان انهياره ، وانتحابه اكاذيب وفراغاً ؛ كان قد قذف نفسه في الفراغ ، على سطح نفسه ، ليفلت من ضغط عالمه الحقيقي ، هذا الضغط الذي لا يحتمل . عالم اسود شديد الحرارة يُستن الاثر . في ذلك العالم ، لم يكن ماتيو شخصاً هالكاً - على الاطلاق ، بل كان اسوأ من ذلك : كان جذلاً - جذلاً ومدنباً ، وكانت مارسيل هي التي ستكون هالكة اذا لم يجد خمسة آلاف فرنك قبل اليوم التالي . ستكون هالكة حقاً . من غير غنائية ؛ لان ذلك يعني انها ستبيض الطفل او انها ستموت بين يدي امرأة عقاقيرية . في ذلك العالم لم يكن العذاب حالة نفسية ، ولم تكن ثمة حاجة الى الكلمات للتعبير عنه : وانما كان مظهرأ للاشياء . « تزوجها انها البوهيمي المزيف ، تزوجها يا عزيزي ، لماذا لا تتزوجها ؟ » وفكر ماتيو في اشمئزاز : « اراهن انها ستموت من ذلك . » وصدق الجميع وتنازلت لولا فابتسمت ، وانحنت وقالت :

- اغنية من اوبرا « الفلوس الاربعة » : خطيبة القرصان .

« لا احبها حين تغني هذا . لقد كانت مارغوليون ابرع منها . اشد غموضاً . اما لولا فهي عقلانية ، وهي بلا غموض . ثم انها طيبة اكثر مما ينبغي . انها تكرهني ، ولكن كراهية كبيرة صريحة ، وهذا

امر سليم ، كراهية انسان شريف . « وكان يستمع بشرود الى هذه الافكار الخفيفة التي كانت تركض كالفئران في مستودع حبوب . وكان تحت ذلك نعاس ثقيل حزين ، عالم ينتظر في صمت : لا بد ان يسقط فيه ماتيو عاجلاً ام آجلاً . وتمثل مارسيل ، تمثل فيها القاسي وعينيها الشاردتين : « تزوجها ايها البوهيمي المزيف ، تزوجها ، لقد بلغت سن الرشد ، يجب ان تتزوجها . »

سفينة حربية

ذات ثلاثين مدفعاً في الكوى

ستدخل المرفأ

« كفى ، كفى ! سأجد المال ، لا بد ان اجده والا تزوجتها ، هذا مفهوم ، فلست دنيئاً جباناً ، ولكن هذا المساء ، هذا المساء فقط ، دعوني من هذا كله ، اريد ان انسى ؛ ان مارسيل لا تنسى ، انها في الغرفة ، متمددة فوق السرير ، انها تتذكر كل شي ، وهي « تراني » وتصغي الى ضججات جسمها ، وبعد ذلك ؟ سيكون لها اسمي ، وحياتي كلها عند اللزوم ، ولكن هذه الليلة لي . » والتفت الى ايفيش ، وارتمى نحوها ، فابتسمت له ، ولكنه صدم انفه بجدار زجاجي بينها كان الناس يصفقون ، ويطلبون « اغنية اخرى ، اغنية اخرى . » فلم تبال لولا هذه الابتهالات : فقد كان لها دور غنائي آخر ، عند الساعة الثانية صباحاً ، وكانت ترفق بنفسها . وحيث الجمهور مرتين ، واقتربت من ايفيش ، فالتفتت رؤوس الى طاولة ماتيو ، ونهض ماتيو وبوريس :

— مرحباً يا صغيرتي ايفيش ، كيف الحال ؟

وقالت ايفيش بلهجة رخوة : — مرحباً لولا .

ولامست لولا ذقن بوريس بيد خفيفة :

— مرحباً ايها اللثيم .

وكان صوتها الهادئ الرصين يضيف على كلمة « لثيم » لونا من الجدارة ؛ وكان يبدو ان اولاً تقصّدت اختيارها من الكلمات الرديئة المؤثرة التي تطفح بها اغانيها . وقال ماتيو :
- تحية يا سيدتي .

فقال : - آه ! انت هنا ايضاً ؟
وجلسوا . والتفتت لولا الى بورييس ، وكان يبدو انها مرتاحة كل الارتياح .

- يظهر انهم طاردوا الينور ؟
- انهم يتكلمون عنها .
- لقد جاءت تبكي في غرفتي . وكان سارونيان غاضباً ، فهذه هي المرة الثالثة منذ ثمانية ايام .

وسأل بورييس في قلق : - انه لن يسرحها ؟
- كان راغباً في ذلك : فليس بينهما تعاقد . فقلت له : اذا ذهبت ، ذهبتُ معها .
- وماذا قال ؟

- ان بوسعها ان تبقى اسبوعاً آخر .
وأجالت نظرها في القاعة وقالت بصوت مرتفع :
- ان الجمهور قذر ، هذا المساء .

قال بورييس : - عجباً ! ليس هذا رأيي !
وكانت جارة ايفيش التي كانت تلتهم لولا بعينها في وقاحة قد ارتعشت . وأخذت ماتيو رغبة في الضحك ، وكان يجرد لولا قربية جداً الى القلب . وقالت لولا :

- ذلك انك غير معتاد . حين دخلت رأيت فوراً انهم ارتكبوا عملاً رديئاً ، فقد كان مظهرهم سيئاً . (وازافت) هل تعلم ؟ اذا فقدت بالفتاة مكانها ، لم يبق لها الا ان تكون فتاة رصيف .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة ، وكان الشرود بادياً عليها ، فقالت
في عنف :

- لا يهمني ان تكون فتاة رصيف ، ان ذلك يناسبها اكثر من
الرقص .

وكانت تجهد في ان يظل رأسها مستقيماً وعيناها الورديتان الحائلتان
مفتوحتين . وفقدت شيئاً من اطمئنانها ، فأضافت في لهجة مصالحة
عاجلة :

- طبعاً ، انني ادرك ان عليها ان تكسب قوتها .
فلم يجب احد : فتألم ماتيو من اجلها : لقد كان شاقاً عايتها ان
تبقى رأسها مستقيماً . وكانت لولا تنظر اليها في سكينه ، كما لو انها
كانت تفكر : « طفلة ثري » . وضحكت ايفيش ضحكة صغيرة
وقالت بلهجة خبيثة :

- لست بحاجة الى الرقص .
وانكسرت ضحكتها وهوى رأسها . وقال بوريس في هدوء :
- ما اشد ما تقاوم !
وكانت لولا تتأمل رأس ايفيش في فضول . وبعد لحظة ، مدت
يدها الصغيرة السمينة ، فتناولت شعر ايفيش في قبضتها ورفعت لها رأسها ،
وكان يبدو عليها مظهر المرضية :

- ماذا دهاك يا صغيرتي ؟ هل افرطت في الشرب ؟
وكانت تزريح خصلات ايفيش الشقراء ، كأنها تزريح ستاراً ، كاشفة
عن خدين ممتعبين بارزيع . وفتحت ايفيش عينين محضرتين ، وتركت
رأسها يهوي الى خلف . وفكر ماتيو من غير انفعال : « سوف تقيء » .
وكانت لولا تشد شعر ايفيش شدات صغيرة .

- افتحي عينيك ، افتحي عينيك ! هل تريدان ان تنظري اليّ ؟
فانفتحت عينا ايفيش على سعتهما ، وكانتا تلتمعان بالكراهية ، وقالت

بصوت واضح مثلج :

— حسناً ! هأنذا انظر اليك !

قالت لولا : — عجباً ! لست ثملة الى الحد الذي ظننت ! X

وتركت شعر ايفيش . فرفعت ايفيش يديها بحويية وردت خصلاتها على خديها ، وكانت تبدو وكأنها تسوي قناعاً ، والواقع ان وجهها المثلث عاد فظهر تحت اصابعها ، ولكن بقي حول فها وفي عينيها شيء ما لزج ومنهوك . وظلت لحظة بلا حراك ، تشبه السائر في النوم ، بينما كانت الجوقة تعزف رقصة « سلو » . وسألت لولا :

— هل تدعوني للرقص ؟

فنهض بوريس وأخذنا يرقصان . وتابعهما ماتيو بنظره ، ولم يكن راغباً في الكلام . وقالت ايفيش بلهجة غامضة :

— ان هذه المرأة توبختي .

— لولا ؟

— كلا . جارتني . انها توبختي .

فلم يجب ماتيو . واستلت ايفيش :

— كنت اود كثيراً ان اتسلى هذا المساء ... وهكذا ! اني اكره

الشمبانيا .

« لا بد انها تكرهني ايضاً ، لأنني انا الذي حملتها على شربها . »

وأدهشه ان يراها تتناول الزجاجاة من الدلو وتملاً قدها ، فسألها :

— ماذا تفعلين ؟

— اعتقد اني لم اشرب قدرأ كافيا منها . هناك درجة يجب باوغها ،

وبعدها يكون المرء في حالة جيدة .

ففكر ماتيو بأنه كان عليه ان يمنعها من الشرب ، ولكنه لم يفعل

شيئا . وحملت ايفيش القدح الى شفيتها فارتمت على وجهها كزازة

اشمزاز وقالت وهي تضع القدح :

— كم هو رديء !
ومرّ بوريس ولولا قرب طاولتهما ، وكأنا يضحكان . وصاحت
لولا :

— كيف الحال ، ايتها الفتاة الصغيرة ؟
فقال ايڤيش ببسمة ودبة : على خير ما يرام الآن .
واخذت قدح الشمبانيا وافرغته دفعة واحدة من غير ان تغادر لولا
بعينيهما . فبادلتها لولا بسمتها ، وابتعد الراقصان . وكان يبدو على
ايڤيش انها مفتونة ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— انها تشده اليها ، وهذا ... مضحك . فهي تشبه الغولة .
وقال ماتيو في نفسه : « انها تغار ، ولكن من ايها ؟ »
كانت نصف سكرى ، وكانت تبتسم بسمة مهووسة وهي منشغلة
ببوريس ولولا . وكانت تهتم به كما تهتم بشجرة كرز ، وكان فقط
وسيلةً تمكنها من ان تتكلم بصوت مرتفع : فان ابتساماتها ومظاهرها
وجميع الكلمات التي تقولها ، انما كانت توجهها لنفسها عبره هو . وفكر
ماتيو : « لا بد ان ذلك امرٌ لا احتمله ، وهو يدعني بارداً
تماماً . »

وقالت ايڤيش فجأة :

— لرقص .

فانتفض ماتيو :

— ولكنك لا تحبين ان ترقصي معي .

قالت ايڤيش : — لا بأس ، اني سكرى .

ونهضت وهي تترنح ، وكادت تسقط ولكنها امسكت بطرف
الطاولة . وأخذها ماتيو بين ذراعيه وحملها ، فدخلوا في حتام بخاري ،
فانطبق الجمع عليهما ، مظلاً معطراً . وذات لحظة ابتلع ماتيسو ،
ولكنه سرعان ما وجد نفسه ، وكان يسير خلف زنجي ، وكان وحيداً ،

اذ كانت ايفيش قد طارت منذ الخطوات الاولى فهو لا يحس بها بعد .
- كم انت خفيفة !

واخفض عينيه فرأى اقداماً وفكر : « هناك كثيرون لا يرقصون
خيراً مني » وكان يمسك بايفيش بعيدة عنه ، في طرف ذراعه تقريباً ،
ولم يكن ينظر اليها . وقالت :

- انت ترقص بدقة . ولكن الظاهر ان ذلك لا يروق لك .

قال ماتيو : - انه يخيفني .

وابتسم : - انت مذهشة . كنت منذ لحظة لا تزالين تستطيعين
السير . وما انت ترقصين الآن كأنك محترفة .

فقال ايفيش : - استطيع ان ارقص وانا سكرى ميتة ، واستطيع
ان ارقص طول الوقت ، فهذا لا يُتعبني .

- حبذا لو كنت كذلك .

- انك لن تستطيع .

- اعرف ذلك .

وكانت ايفيش تنظر حولها في عصبية ، وقالت :

- اني لا ارى بعد الغولة .

- لولا ؟ هي الى اليسار خلفك .

قالت : - لنذهب نحوهما .

وصدما زوجاً من الراقصين هزياً ، فاعتذر منهما الرجل وقذفتهما
المرأة بنظرة سوداء ؛ وكانت ايفيش ، ورأسها مستدير الى الخلف ،
تسحب ماتيو القهقري . ولم يرها بورييس ولا لولا قادمين ؛ وكانت
لولا تغمض عينيها ، وكانت جفونها لطختين زرقاوين في وجهها القاسي ؛
وكان بورييس يبتسم وهو ضائع في عزلة ملائكية .

وسألها ماتيو : - والآن ؟

- لنبق هنا ، فالمكان ارحب .

وكانت ايفيش قد اصبحت ثقيلة تقريبا ، وكانت لا تكاد ترقص وعيناها مسمرتان على اخيها وعلى لولا . ولم يكن ماتيو يرى بعد الا طرف اذن بين خصلتين . واقرب بوريس ولولا وهما يستديران على نفسيهما ، وحين اصبحا قريبين جداً ، قرصت ايفيش اخاها فوق مرفقه :

— مرحباً يا « بوسيه » الصغير .

فحملت بوريس بعينيه في دهشة وقال :

— ايه ! لا تهربي يا ايفيش ! لماذا تسميني هكذا ؟

فلم تجب ايفيش ، بل حملت ماتيو على الانفتال وأولت بوريس ظهرها . وكانت لولا قد فتحت عينيهما ، فسألها بوريس :

— أفهمين لماذا تسميني « بوسيه » الصغير ؟

قالت لولا : — اظن اني افهم السبب .

وقال بوريس بضع كلمات اخرى ، ولكن ضجة التصفيق غطت صوته ، وكان الجاز قد صمت ، وكان الزوج يستعجلون الذهاب ليفسحوا المجال للجوقة الارجنتينية .

وعادت ايفيش وماتيو الى طاولتهما . وقالت ايفيش :

— اني اتسلى بصورة جنونية .

وكانت لولا قد جلست ، فقالت لايفيش :

— انك ترقصين ببراءة كبيرة .

فلم تجب ايفيش ، وكانت تحدّد في لولا نظراً ثقيلاً . وقال بوريس

لماتيو :

— لقد كنت ظريفاً ، وكنت احسب انك لم تكن ترقص .

— ان اختك هي التي ارادت .

فقال بوريس : — ان من كان قوياً مثلك ينبغي ان يقوم بالرقص

البهلواني .

وساد صمت ثقيل . وكانت ايفيش معتصمة بالسكوت ، متوحدة
متطلبة ، ولم تكن لأحد رغبة في الكلام . وكانت سماء محلية صغيرة قد
تكوّنت فوق رؤوسهم ، مستديرة جافة ، خانقة . وأضيئت اللمبات
من جديد . وعند انغام التانغو الاولى ، انحنى ايفيش نحو لولا وقالت
بصوت ابح :

- تعالي .

فقال لولا : - لا اعرف ان اقود .

قالت ايفيش : - انا التي اقود .

وأضافت بلهجة رديئة وهي تكشف عن اسنانها :

- لا تخافي ، فاني اقود كالرجل .

ونهمزتا ، فضمت ايفيش اليها لولا في وحشية ودفعتها نحو الحلبة .

وقال بوريس وهو يحشو غليونه :

- انهما ظريفتان .

- نعم .

وكانت لولا خاصة ظريفة : فقد كانت تبدو عليها هيئة فتاة صبية .

وقال بوريس :

- انظر .

وأخرج من جيبه سكيناً ضخماً ذا مقبض عاجي ووضع على الطاولة .

وقال موضحاً :

- انه سكين باسكي .

وأخذ ماتيو السكين في ادب وحاول ان يفتحه ، فقال له بوريس :

- لا يُفتح بهذه الطريقة ايها الشقي ! انك توشك ان تذبح نفسك !

واستردّ السكين ففتحه ووضعه بالقرب من قدحه وقال :

- انه سكين قائد . هل ترى هذه اللطخات السمراء ؟ لقد اقسام

لي الشخص الذي باعني إياه ان هذا دم .

وصمتا . وكان ماتيو ينظر من بعيد الى رأس لولا المأساوي الذي كان ينزلق فوق بحر مظلم . « لم اكن ادري انها كانت طويلة الى هذا الحد . » وصرف عينيه فقراً على وجه بوريس سروراً ساذجاً انقطر له قلبه . وفكر في ندم : « انه مسرور لأنه معي ، وانا لا اجد قط شيئاً اقوله له . » وقال بوريس :

— انظر الى هذه المرأة التي وصلت ، الى اليمين ، عند الطاولة

الثالثة .

— الشقراء ذات المجوهرات ؟

— نعم ، انها مجوهرات مزيفة . هيا . انها تنظر الينا .

فأراق ماتيو نظرة خفية نحو فتاة طويلة وجميلة ذات مظهر بارد .

— كيف تجدها ؟

— بين بين

— كان لي معها اتصال يوم الثلاثاء الماضي ، وكانت محشوة ،

وكانت تريد طوال الوقت ان تدعوني للرقص . وبالإضافة الى ذلك ،

اهدت اليّ علبة سكاثرها الفضية . وقد جنّ جنون لولا . فأعادتها لها

مع الخادم .

واضاف باقتضاب :

— كانت من فضة ، وكانت مطعمة بأحجار كريمة .

قال ماتيو : — انها تأكلك بعينها

— افهم ذلك .

— وماذا ستفعل بها ؟

فقال باحتقار : — لا شيء . انها خلية احدهم .

فسأله ماتيو عجباً : — يعني ؟ ها انت ذا فجأة متطهر !

فقال بوريس ضاحكاً : — ليس الامر كذلك . ولسكن البغايا

والراقصات والمغنيات متشابهات في آخر المطاف . فاذا ملكت احدهن

ملكتهنّ جميعاً . (ووضع غليونونه وقال بجد) ثم انني انسان طاهر ،
ولست مثلك .

قال ماتيو : - هكذا اذن !

فقال بوريس : - سترى ، سترى فسوف ادهشك : ساعيش
كالرهبان حتى تنتهي علاقي بلولا .

وكان يفرك يديه فيما بينهما بهيئة اغتباط . وقال ماتيو :

- لن تنتهي بمثل هذه السرعة .

- في اول تموز . بم تراهن ؟

- بلا شيء . انك تراهن كل شهر بأنك ستقطع علاقتك في الشهر

القادم ، ثم تخسر في كل مرة . انت مدين لي قبل الآن بمئة فرنك ،

وبزوج من نظارات السباق ، وخمس علب سكاير والسفينة التي رأيناها

في شارع السين وهي داخل زجاجة . انك لم تفكر قط في القطيعة ،

لأنك احرص على لولا مما ينبغي .

قال بوريس : - انت تؤذيني في صميم قلبي .

فأضاف ماتيو من غير ان يضطرب : - غير ان ذلك اقوى منك .

انك لا تستطيع ان تشعر انك ملتزم . ان هذا يثير جنونك .

قال بوريس بلهجة غضب مرح : - آن لك ان تصمت . وبوسعك

ان تتأكد من انك لن تحصل على سكايرك وعلى سفينتك !

- اعلم ذلك ، فأنت لا تسدد قط ديونك الشرفية : انك شقي

صغير .

فأجاب بوريس : - وانت ... انت انسان متوسط .

واشرق وجهه : - الا ترى انها اهانة فظيعة ان تقذف انساناً

بقولك : ياسيدي ، انت شخص متوسط .

قال ماتيو : - لا بأس .

- او ان تقول له ، وهذا افضل : - انت يا سيدي إمعة !

فقال ماتيو : - كلا ، ليس هذا ؛ فانك تضعف به مركزك .
فأقره بوريس على فكرته وقال : - انت على حق . انك كريبه ،
لأنك دائماً على حق .

وأشعل غليونه مرة اخرى بعناية ، وقال بلهجة مختلطة مهووسة :
- سأصارك برأيي : اود ان تكون لي امرأة من النساء المشهورات .
قال ماتيو : - عجباً ، ولماذا ؟

- لست ادري . اعتقد ان ذلك لا بد ان يكون طريفاً ، وانهم
لا بد ان تكون لمن تصرفات كثيرة . ثم ان ذلك مثير للغرور ، فمنهن
من تذكر اسمائهن في مجلة « فوغ » وانت تدرك معنى ذلك . تشتري
« فوغ » وتنظر الى الصور فترى الكونتيس مدام دوروكامادور مع
كلاهما الستة ثم تفكر : لقد ضاجعت هذه المرأة مساء امس . لا شك
ان ذلك يروعك .

قال ماتيو : - ألاحظ انها تبسم لك الآن ؟

- نعم . انها ثملة . وانها لو تدري خبيثة ، فهي تريد ان توقع
بيني وبين لولا لأنها لا تطيقها . (وقال مصمماً) اريد ان اوابها
ظهري .

- ومن هو الشخص الذي يجالسها ؟

- زميل . انه يرقص في « الالكازار » . هو جميل ، اليس
كذلك ؟ انظر الى سحنه . انه في حدود الخامسة والثلاثين ، وهو يشبه
شخصية « شاروبين »^١

قال ماتيو : - وماذا في ذلك ؟ ستصبح انت هكذا حين تبلغ
الخامسة والثلاثين .

فقال بوريس باقتضاب : - سأكون قد مت منذ وقت طويل حين

(١) بطل من ابطال « زواج الفيغارو » لبورماشييه ، نموذج المواق الذي يتفتح للحب - المترجم .

ابلق الخامسة والثلاثين .

- يروقك ان تقول ذلك .

قال بوريس : - اني مسلول .

- اعرف ذلك (كان بوريس ذات يوم قد جرح لثتيه وهو ينظف

اسنانه فبصق دماً) اعرف ذلك . وبعد ؟

قال بوريس : - سيّان لدي ان اكون مسلولاً . كل ما في الامر

اني اشمئز من العناية بنفسى . واري ان على الانسان الا يتجاوز الثلاثين ،

لأنه يصبح بعد ذلك طرحاً عجوزاً .

ونظر الى ماتيو وأضاف :

- انا لا اعنيك في هذا القول .

قال ماتيو : - نعم . ولكنك على حق ؛ ان المرء بعد الثلاثين

طرح عجوز .

- اود لو أعطي عامين اضافيين ، ثم ابقى طوال حياتي في تلك

الس . سيكون ذلك ممتعاً .

فنظر الى ماتيو في ود مدهوش . لقد كان الشباب بالنسبة لبوريس

مزياً قابلة للاستهلاك ومجانية . وينبغي ان يُفاد منها بوقاحة ، وكان في

الوقت نفسه فضيلة اخلاقية ينبغي للمرء ان يبدو جديراً بها . بل كان

اكثر من ذلك ، كان الشباب في نظره تبريراً . وفكر ماتيو « لا بأس ،

انه يعرف ان يكون شاباً . » ربما كان هو وحده ، بين جميع هؤلاء

الناس ، موجوداً هنا حقاً ، في هذا المرقص ، على كرسيه . « ليس الامر

سخيفاً الى هذا الحد : ان يعيش المرء شبابه بعمق ثم ينفجر في الثلاثين .

مهما يكن من امر ، فان المرء بعد الثلاثين ميت : »

قال بوريس : - يبدو عليك انك متضايق جداً .

فانتفض ماتيو : لقد كان بوريس محمراً من فرط الاضطراب ،

ولكن كان ينظر الى ماتيو في رغبة بالمساعدة قلقة . وسأله ماتيو :

- هل يُرى ذلك عليّ ؟
- وكيف ! انه يُرى جيداً جداً .
- انني في ضيق مادي .
- فقال بوريس بقسوة : - انك تسيء الدفاع عن نفسك . لو كنت اتقاضى مثل راتبك لما احتجت الى الاستدانة . هل تريد المئة الفرنك التي استدنتها من صاحب الحانة ؟
- شكراً . انني بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .
- فصفر بوريس صفرة مسموعة وقال :
- اوه ، معذرة ! هل سيقدمها لك صديقك دانيال ؟
- انه لا يستطيع .
- وأخوك ؟
- لا يريد .
- فقال بوريس حزيناً : - اوه ! طز ... (واضاف بارتباك) اذا كنت تريد ...
- اذا كنت اريد ماذا ؟
- لا شيء . كنت افكر : شيء مزعج . ان لولا تملك محفظة محشوة ، وهي لا تفعل بها شيئاً .
- اريد ان استدين من لولا .
- ولكني ما دمت اقسم لك انها لا تفعل بها شيئاً . لو كان الامر بحسابها في المصرف لما قلت ذلك : انها تشتري اسهماً ، وتضارب في البورصة ، فلنقل انها بحاجة الى مالها . ولكنها تحتفظ في بيتها بسبعة آلاف فرنك منذ اربعة اشهر ، وهي لم تمسّ منها فلساً ، بل هي لم تجد الوقت لإيداعها في البنك . اكرر لك انها قابعة في جوف محفظة .
- فقال ماتيو منزعجاً :
- انك لا تفهم . لا اريد ان استدين من لولا لأنها لا تطيقني .

فأخذ بوريس يضحك وقال :
- هذا صحيح . انها لا تطيقك .
- اترى اذن .

قال بوريس : - غير ان ذلك مزعج . انك متضايق جداً بسبب
خمسة آلاف فرنك ، حتى اذا كانت في متناول يدك عدلت عن اخذها.
واذا طلبتها لحسابي انا ؟
قال ماتيو بحموية : - كلا ، كلا ، لا تفعل شيئاً ، فلا بد ان
تعرف الحقيقة يوماً . (وأضاف بلحاح) أتعدني حقاً ؟ سوف يزعجني
ان نطلب منها .

فلم يجب بوريس . وكان قد تناول سكينه بين اصبعيه ورفعها على
مهل الى مستوى جبينه ، موجهاً رأسه الى اسفل . واستشعر ماتيو
الضيق وفكر : « انه ذنيء . انه لا يحق لي ان اتلبس صورة الرجل
الشريف على حساب مارسيل . » والتفت الى بوريس ، وكان يريد ان
يقول له : « هيا ، اطلب المال من لولا . » ولكنه لم يستطع ان ينتزع
كلمة واحدة ، ونقر الدم الى خديه . وباعد بوريس اصابعه فسقط
السكين ، وانغرزت الشفرة في الارض الخشبية وأخذ مقبضها يهتز .
وعادت ايفيش ولولا الى مكانهما . ولم بوريس السكين ووضعها
على الطاولة ثانية .

وسألت لولا : - ما هذا الشيء الفظيع ؟
قال بوريس : - انه سكين قائد . وقد جلبته لأجعلك تمشين في
استقامة .

- انك مسخٌ صغير .
وكانت الجوقة قد بدأت تانغو آخر . ونظر بوريس الى لولا نظرة
غامضة وقال بين اسنانه :
- تعالي نرقص .

قالت لولا : - ستميتونني جميعاً .
وكان وجهها قد اشرق ، وأضافت ببسمة سعيدة :
- انك لطيف .

ونهض بوريس ، وفكر ماتيو : « سيطلب منها المال مع ذلك »
وكان مسحوقاً بالحجل ، ولكنه كان يشعر بارتياح جبان . وجلست ايفيش
الى قربه ، وقالت بصوت ابح :
- انها عظيمة .

- نعم . انها جميلة .
- اوه ... ثم هذا الجسم ! كم هو مؤثر ذلك الوجه الخرب على
هذا الجسد المتفتح . لقد كنت اشعر بالزمن يمضي ، وأحس بأنها
سوف تدبل بين ذراعي .

وكان ماتيو يتابع بعينه بوريس ولولا . ان بوريس لم يبدأ الموضوع
بعد ، كان يبدو وكأنه يمازح لولا ، وكانت هي تبسم له . وقال ماتيو
بشروء :

- انها قريبة الى القلب .

فقال بلهجة جافة : - قريبة الى القلب ؟ اوه ، كلا ، انها انثى
قدرة .

واضاف في فخر : - لقد كنت اخيفها .

قال ماتيو : - لقد رأيت .

وكان يشبك ساقيه ثم يفكهما . وسألها :

- هل تريدان ان ترقصي ؟

قالت ايفيش : - لا . اريد ان اشرب (وملأت قدحها الى منتصفه
وأضافت موضحة) من الخير ان يشرب المرء حين يرقص ، لأن الرقص
يمنع السكر والخمر يجعلك ضامداً .
وأضافت بلهجة متوترة :

— عجيب كم انا مسرورة !

وفكر ماتيو : « هذا هو . انه يتحدثها » وكان بوريس قد اتخذ لهجة الجدد ، وكان يتكلم من غير ان ينظر الى لولا . ولم تكن لولا تقول شيئاً . وذات لحظة حجب كنفها زنجي عملاق رأس لولا عنه ، ثم ظهرت ثانية في هيئة غامضة ، ثم كفت الموسيقى ، وانفرج الجمع فخرج منه بوريس متغرساً مستاء . وكانت لولا تتبعه عن كثب . ولم يكن يبدو عليها السرور . وانحى بوريس على ايفيش وقال بسرعة : — أدتي لي هذه الخدمة : ادعها للرقص .

فنهضت ايفيش من غير ان تظهر دهشة وهرعت للقاء لولا . وقالت لولا :

— اوه ، كلا ، يا صغيرتي ايفيش ، اني متعبة جداً .

وتشاورتا لحظة ، ثم اقتادتها ايفيش . وسأل ماتيو :

— ألا تريد ؟

— كلا . وستدفع ثمن ذلك غالباً .

وكان ممتعاً ، وكانت هيئته الحاقدة المسترخية تكسبه شيئاً بأخته .

وكان ذلك شيئاً يثير القلق والاستياء . وقال ماتيو خائفاً :

— لا ترتكب اية حماقة .

وسأله بوريس : — انك عاتب عليّ ، اليس كذلك ؟ لقد منعني

من ان احدثها ...

— سوف اكون قدراً اذا كنت عاتباً عليك : فأنت تعلم اني تركتك

تحدثها ... ولماذا رفضت ؟

قال بوريس وهو يهز كتفيه :

— لا ادري ، فقد بدت بهيئة قدرة . وقالت انها كانت بحاجة الى

مالها . هكذا اذن ! (قال بلهجة اندهاش) للمرة الاولى اطلب منها

شيئاً ... لقد اضاعت رشدها ! يجب ان تدفع الثمن ، امرأة في مثل

سنتها ، حين تريد ان تحصل على شخص مثلي !

— وكيف صورت لها الامر ؟

— قلت لها ان المال من اجل صديق يريد ان يشتري مرأباً . وقلت لها اسمه : بيكار . وهي تعرفه . وصحيح انه يريد ان يشتري مرأباً . — لا بد انها لم تصدقك .

قال بوريس : — لا ادري ، ولكن الذي ادريه انها ستدفع ثمن ذلك على التو .

فصاح به ماتيو : — احتفظ بهدوئك .

فقال بوريس بلهجة عدائية : — اوه ... حسناً ! هذا من شأني . ومضى ينحني امام الشقراء الطويلة التي توردت قليلاً ثم نهضت . وحين اخذا يرقصان مرت لولا وايفيش بالقرب من ماتيو . وكانت الشقراء تصنع المرح على وجهها ، ولكن بسمتها كانت تخفي الحذر . وكانت لولا تحتفظ بهدوئها ، وتتقدم بعظمة فيبتعد الناس لمرورها تعبيراً منهم عن الاحترام . اما وايفيش فكانت تسير القهقري وعيناها في السماء ، بلا شعور . وتناول ماتيو سكين بوريس من شفرتها وضرب مقبضها بالطاولة ضربات صغيرة جافة . وفكر : « سيسيل الدم » . وكان غير مكترث بذلك على الاطلاق . كان يفكر بمارسيل . وفكر : « مارسيل ، امرأتي . » وانغلق شيء ما عليه ، هادراً . امرأتي ، وستعيش في منزلي . هكذا . وكان هذا طبيعياً ، طبيعياً جداً ، كما لو ان المرء يتنفس ، وبيتلع ريقه . وكان ذلك يلامسه من كل مكان ، إمضٍ ، لا تتشجج ، كن مرناً ، كن طبيعياً . في بيتي . سأراها كل يوم من ايام حياتي . وفكر « كل شيء واضح . ان لي حياة . »

حياة . كان ينظر الى جميع تلك الوجوه المحمرة ، وهذه الاقمار الحمراء التي كانت تنزلق على وسائد من غيوم : « ان لهم حيوات . جميعاً . لكل حياته . وهي تمتطى عبر جدران المرقص ، عبر شوارع

باريس ، عبر فرنسا ، وتلتقي متشابكة ، وتتقاطع وتبقى كل منها مع ذلك شخصية خاصة كفرشاة اسنان ، كموسى حلاقة ، وكأشياء الزينة التي لا تُعار . كنت اعرف ذلك . كنت اعرف أنه كان لكل منهم حياته . ولم أكن اعرف انه كانت لي انا ايضاً حياة . كنت افكر : انني لا افعل شيئاً . وسوف افلت منها . والحقيقة اني كنت ألجها . ووضع السكين على الطاولة ، واخذ الزجاجه فحنأها فوق قدحه : كانت فارغة . وكان باقياً بعض الشمبانيا في قدح ايفيش ، فتناول القدح وشرب .

« لقد نثاءبت ، وقرأت وضاجعت . وكان هذا يترك طابعه وأثره . كانت كل حركة من حركاتي تثير ، خارجاً عنها ، في المستقبل ، انتظاراً صغيراً عنيداً كان ينضج . وهذه الانتظارات هي انا ، وانا الذي انتظر نفسي في المنعطفات وفي ملتقيات الطرق ، وفي قاعة مختارية الدائرة الرابعة عشرة الكبرى ، انا الذي انتظر نفسي هناك ، على اريكة حمراء ، انتظر ان آتي الى هناك ، مرتدياً ثوباً اسود ، مع ياقة مستعارة قاسية ، ان آتي الى هناك لأموت من فرط الحرّ واقول : نعم ، نعم ، اوافق على ان اتخذها زوجة . » وهز رأسه بعنف ، ولكن حياته كانت تصمد جيداً حوله . « بهدوء ودفقة ، ووفقاً لاهوائي ولكسلي ، فرزت محارتي . وقد انتهى الآن كل شيء . انني مسور من كل مكان ! في الوسط يقوم منزلي وانا في داخله ، وسط ارائكي الجلدية الخضراء ، وفي الخارج يقوم شارع « الغيتيه » ذو الاتجاه الواحد لانني اهبطه دائماً ، وجادة « مين » وباريس كلها مستديرة حولي ، الشمال من امام ، والجنوب من خلف ، والبانتيون الى اليمين ، وبرج ايفل الى اليسار ، وباب غلينيانكور تجاهي ، وفي وسط شارع فيرسينجيتوري ثقب صغير مصقول باللون الوردى ، غرفة مارسيل ، امرأتي ، ومارسيل في داخلها ، عارية ، تنتظرني . ثم حول باريس

كلها ، تقوم فرنسا تحترقها الشوارع ذات الاتجاه الواحد ، ثم بحور مرقشة بالازرق او الاسود ، البحر المتوسط بالازرق ، وبحر الشمال بالاسود ، والمانش بلون قهوة مع الحليب ، ثم بلاد ، المانيا ، ايطاليا - اسبانيا بالابيض لانني لم اذهب لاقاقل فيها - ثم مدن مستديرة ، على مسافات محدّدة من غرفتي ، تومبوكتو ، تورنتو ، كازان ، نييجي - نوفغورد ، جامدة كأنها انصاب . واذهب ، وامضي ، وانتزه ، وأتية ، ومهما تبت : فهذه عطلة جامعي ، فأينا ذهبت حملت معي محارتي ، وابقى في غرفتي بالمنزل ، وسط كتبي ، ولا اقرب ستمتراً واحداً من مراکش او من تومبوكتو . حتى ولو كنت استقل القطار ، او الباخرة ، او الاوتوكار ، لو ذهبت اقضي عطلتي في مراکش ، ولو وصلت فجأة الى مراکش العاصمة ، فاني سأكون باقياً ابدأ في غرفتي ، بمنزلي . واذا مضيت اتنزه في الساحات والاسواق ، واذا شددت على كتف عربي ، لألمس فيه مراکش ... فان هذا العربي هو الذي سيكون في مراکش ، لا انا . اما انا ، فسأظل دائماً جالساً في غرفتي ، هادئاً متأملاً كما اخترت ان اكون ، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من المراكشي ومن برنسه . وفي غرفتي . الى الابد ، الى الابد عشيق مارسيل القديم ، والآن زوجها الاستاذ ، الى الابد ذلك الذي لم يتعلم الانكليزية ، ولم يدخل الحزب الشيوعي ، والذي لم يكن في اسبانيا ، الى الابد .

« حياتي » . كانت تحيط به . كانت شيئاً غريباً لا بدء له ولا نهاية ، وليس هو مع ذلك لالمحدوداً . كان يتابعها بنظرة من مختارية الى اخرى ، من مختارية الدائرة الثامنة عشرة حيث قضى في اكتوبر ١٩٢٣ مدة المحكمة الادارية ، الى مختارية الدائرة الرابعة عشرة حيث سيتزوج مارسيل في شهر آب او ايلول ٣٨ ؛ كان لها معنى مبهم وحائر كالاشياء الطبيعية ، وتقمه لزج ، ورائحة غبار وبنفسج .

وفكر : « لقد قضيت حياة درداء ، حياة درداء . لم اعض قط . كنت انتظر ، كنت احفظ نفسي لما بعد - وهأني الاحظ انه لم تبق لي اسنان . فما العمل ؟ أحطّم المحارة . هذا يسير في القول . ومن جهة اخرى ، ما الذي سوف يبقى ؟ قطعة صغيرة من الصمغ اللزج سوف يزحف في الغبار مخلّفاً وراءه اثراً برافاً . »

ورفع عينيه فرأى لولا ، وكان على شفيتها بسة خبيثة . ورأى ايفيش : كانت ترقص ، ورأسها مرتد الى الخلف ، ضائعة ، لا عمر لها ولا مستقبل : « ليست لها محارة » كانت ترقص ، وكانت ثملة ، ولم تكن تفكر في ماتيو . على الاطلاق . ليس اكثر مما لو كان غير موجود . وكانت الجوقة قد اخذت تعزف تانغو ارجنتينياً . وكان ماتيو يعرفه جيداً ، هذا التانغو ، انه « ميو كبالو موريو » ولكنه كان ينظر الى ايفيش . وكان يخيل اليه انه كان يسمع هذه النغمة الحزينة القاسية للمرة الاولى . « انها لن تكون لي ابدأ ، لن تدخل ابدأ ، لن تدخل ابدأ في محارتي » وابتسم ، وكان يحسّ أماً صغيراً منعشاً ، وتأمل بحنان هذا الجسم الصغير الغضوب الدقيق الذي رست فيه حرите : « عزيزتي ايفيش ، عزيزتي الحرية » وفجأة اخذ يخلّق فوق جسمه الوسخ ، فوق حياته ، وعي نقي ، وعي بلا انا ، بعض هواء حار فحسب : كان يخلّق ، وكان نظراً ، ينظر الى البوهيمي المزيف ، البورجوازي الصغير المتشبّث بأهوائه ، المثقف الفاشل الذي ليس هو ثورياً ولا نائراً » الحالم التجريدي الذي تحيط به حياته الدبقة ، وكان يحكم : « ان هذا الشخص هالك ، انه لم يسرقها . » اما هو ، الوعي ، فلم يكن متضامناً مع احد ، كان يدور في الحبيب الدائر ، مسحوقاً ، ضائعاً ، متألماً هناك على وجه ايفيش المرتنة بالموسيقى ، الحزينة ، الزائلة . وعي احمر ، شكوى صغيرة غامضة ، ميو كبالو موريو ، وكان قادراً على كل شيء ، على ان ييأس حقاً من

اجل الاسبانيين ، وعلى ان يقرّر اي شيء . ليت ذلك يدوم هكذا ...
ولكن ذلك لا يمكن ان يدوم : كان الوعي ينتفخ وينتفخ ، وكفّت
الجوقة ، فانفجر . وألقى ماتيو نفسه وحيداً مع نفسه ، في قعر حياته ،
جافاً وقاسياً ، وكفّ عن ان يديسن نفسه ، وعن ان يقبل نفسه ،
وكل ما هناك انه كان ماتيو : « نشوة اخرى . وبعد ذلك ؟ » وعاد
بوريس الى مكانه ، ولم يكن يبدو عليه كثير من الاعتزاز . وقال
لماتيو :

— اوه لا ، لا !

فسأله ماتيو : — ماذا هناك ؟

— الشقراء . انها امرأة قدرة .

— ماذا فعلت ؟

— فقطّب بوريس حاجبيه وارتعش من غير ان يجيب . وعادت ايفيش
تجلس بالقرب من ماتيو . وكانت وحيدة . واجال ماتيو نظره في القاعة
فاكتشف لولا بالقرب من الموسيقين ، وكانت تتحدث مع سارونيان .
وكان يبدو على سارونيان انه دهّش ، ثم رمى نظرة خفية باتجاه
الشقراء الطويلة التي كانت تهزّ المروحة باهمال . وابتسمت له لولا
وعبرت القاعة . وحين جلست ، كان يبدو عليها مظهر غريب . وفظّر
بوريس الى حدائه الأيمن في تصنّع ، وساد صمت ثقيل . وصاحت
الشقراء :

— ان هذا مبالغ فيه ، فليس لك الحق ، وانا لن اذهب .

وانتنفض ماتيو ، والتفت الجميع . كان سارونيان قد انحنى باكرام
مفرط فوق الشقراء كخادم في مطعم يتلقى طلب الزبون . وكان يحدّثها
بصوت منخفض بلهجة هادئة قاسية . ونهضت الشقراء فجأة وقالت
لرفيقها :

— تعال .

فقال سارونيان : لا ، لا ، انا الذي ادفَع .
فدعكت الشقراء ورقة من فئة المئة فرنك ورمتها على الطاولة . وكان
رفيقها قد نهض ، وكان ينظر الى الورقة المالية في توبيخ . ثم اخذت
الشقراء ذراعه ومضى الاثنان مرتفعي الرأس ، وهما يهزان كشحيهما
هزّة واحدة .

واقرب سارونيان من لولا وهو يصفر فقال في بسمة راضية :
- سيُحرّ الجوّ حين تعود .
قالت لولا : - شكراً . لم اكن اتوقع ان يكون الامر بهذه
السهولة .

وكانت الجوقة الارجنتينية قد غادرت القاعة ، فعاد الزوج يدخلون
بآلاتهم واحداً اثر الآخر . وحدّد بوريس بلولا نظر غضب واعجاب ،
ثم التفت فجأة نحو ايفيش وقال :
- تعالي لمرقص .

ونظرت اليهما لولا نظرة ساكنة بينما كانا ينهضان . ولكن وجهها
نخلل فجأة حين ابتعدا . وابتسم لها ماتيو قائلاً :
- انك تفعلين ما تشائين في المرقص .
فقالت بلامبالاة : - اني اجذبهم . ان الاشخاص يأتون الى هنا
من اجلي .

وظلت عيناها قلقتين ، واخذت ترتب على الطاولة في عصبية . ولم
يعد ماتيو يعرف ما يقول لها . ومن حسن الحظ انها نهضت بعد لحظة
وهي تقول : « المعذرة . »

ورآها ماتيو تجتاز القاعة وتختفي . وفكر : « انها ساعة المخدر »
وكان وحيداً . كانت ايفيش وبوريس يرقصان في صفاء يشبه صفاء
لحن موسيقي ويكادان لا يقلان عنه قسوة . وأدار رأسه ونظر الى قدميه .
ومرّ زمن . ولم يكن يفكر بشيء . وانتفض لنوع من الشكوى

المبحوحة . كانت لولا قد عادت ، وكانت عيناها منغلقتين ، وكانت تبسم . وفكر : « لقد اخذت حسابها . » وفتحت عينيها وجلست . دون ان تكف عن الابتسام .

– أكنت تعلم ان بوريس كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟
فقال : – كلا . لم اكن اعرف . كلا . هل هو بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

وكانت لولا ما تزال تنظر اليه ، وكانت تهتز من خلف الى امام . وكان ماتيو يرى حدقتين كبيرتين خضراوين مع بؤبؤين دقيقين . وقالت لولا :

– لقت رفضت ان اعيره اياها . هو يقول انها لبيكار ، وكنت اظن انه في هذه الحالة سيتوجه اليك .

فأخذ ماتيو يضحك :

– هو يعرف اني لا املك درهماً قط .

وسألت لولا بلهجة من لا يصدق :

– اذن لم يكن لديك علم بهذا ؟

– طبعاً ، لا .

قالت : – عجباً ! ان هذا غريب .

وكان يخيل لمن يراها انها ستسقط ، بما هي هيكل في الهواء ، كأنه حطام قديم ، او ان فيها سيتمزق ويطلق صرخة رهيبية . وسألته :

– هل أتى الى بيتك منذ حين ؟

– نعم ، حوالى الساعة الثالثة .

– ولم يحدثك عن شيء ؟

– ما الذي يُدهش في ذلك ؟ ربما التقى ببيكار بعد ظهر اليوم .

– هذا ما قاله لي .

– واذن ؟

فهزت لولا كتفيها :

— ان بيكار يعمل طوال النهار في « ارجانتوي » .

فقال ماتيو بلامبالاة :

— كان بيكار في حاجة الى مال ، ولا بدّ انه مرّ على بوريس في

الفندق . فلم يجده ، ثم التقى به وهو يهبط جادة سان ميشال .

فنظرت اليه لولا باستهزاء :

— هل تتصور ان يأتي بيكار ليطلب خمسة آلاف فرنك من بوريس

الذي لا يملك الا ثلاثمئة فرنك شهرياً كنفقات جيب ؟

فقال ماتيو مغتاضاً : — اذن لا ادري .

وكانت به رغبة لأن يقول لها : « ان المال لي . » فبهذا سينتهي

الامر على الفور . ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب بوريس . « انها

ناقة عليه نقمة رهيبية ، فهو يبدو وكأنه ضالغٌ معي . » وكانت لولا

تربت على الطاولة بطرف اظافرها القرمزية ، وكانت زاويتا فمها ترتفعان

فجأة فترتجان قليلاً ثم تسترخيان . وكانت ترصد ماتيو في إلحاح قلق ،

ولكن ماتيو كان يُحسّ ان تحت هذا الغضب المتربص فراغاً كبيراً

معتكراً . وكانت به رغبة للضحك . وادارت لولا عينها وسألته :

— اليس في الامر ، على الارجح ، امتحان ؟

فرددت بدهشة : — امتحان ؟

— أنساء .

— امتحان ؟ اية فكرة غريبة .

— ان ايفيش تقول له دائماً اني بخيلة .

— ومن اخبرك ذلك ؟

فقالت لولا في لهجة انتصار : — ايدمشك ان اعرفه ؟ الحقيقة انه

طفل وفيّ . ينبغي الا تتصور ان بالامكان ان يحدثه احد عني بالسوء

من غير ان يبلغني ذلك . اني ادرك هذا في كل مناسبة ، مكثيفة

بالطريقة التي ينظر اليّ بها . او انه يطرح عليّ اسئلة في لهجة تنقصد
عدم المسّ بالموضوع . يكفي ان اراه آتياً من بعيد . ان هذا اقوى
منه ، فهو يريد ان يكون قلبه صافياً .
- واذن ؟

- لقد اراد ان يرى ان كنت حقاً بخيلة ، فاخترت قضية بيكار
هذه . الا ان يكون هناك من اوحى له بذلك .
- ومن تريد ان يكون قد اوحى له ؟
- لست ادري . ان هناك كثيرين يفكرون بأنني عجوز وانه طفل .
يكفي ان ترى وجوه سمكات هذا المرقص حين ترانا معاً .
- أتتصورين انه يهتمّ بما يقلنه له ؟
- لا ، ولكن هناك من يحسبون انهم يعملون لصالحه حين يملأون
رأسه غروراً .

فقال ماتيو : - اسمعي ، لا حاجة بك الى لبس القفاز : ان كنت
تقصدينني بهذا الكلام ، فانك مخطئة .
قالت لولا ببرودة : - آه ! هذا ممكن (وساد صمت ثم سألت
فجأة) كيف يتفق ان تحدث هنا مشاكل حين تأتي معه ؟
- لا ادري ، ولا افعل شيئاً لهذه الغاية . لم اكن اريد اليوم ان
آتي ... وانا اتصور انه يجب كلاً منا بشكل مختلف ، وان اعصابه
تثور حين يرانا نحن الاثنين في وقت واحد .
وكانت لولا تنظر امامها باستقامة نظرة غامضة متوترة . وقالت
اخيراً :

- اسمع هذا جيداً : اني لا اريد ان يؤخذ مني . انا متأكدة اني
لا اسيء اليه . وحين يملتي يستطيع ان يتركني ، وسوف يأتي ذلك
عما قريب . ولكني لا اريد ان يأخذه الآخرون مني .
وفكر ماتيو : « انها تكشف بضاعتها . » وكان ذلك طبعاً بتأثير

المخدر . ولكن هناك شيء آخر : كانت لولا تكره ماتيو ، ومع ذلك فان ما تقوله له هذه اللحظة لم تكن تجرؤ على ان تقوله لسواه . لقد كان بينها وبينه ، بالرغم من الكراهية ، نوع من التضامن . وقال : لا اريد ان آخذه منك .

فقال لولا بلهجة مغلقة : - لقد كنت اظن .
- يجب اذن الا تظني ذلك . ان علاقاتك ببوريس لا تعينني . ولو كانت تعينني لوجدت ان وضعكما هكذا جيد جداً .
- كنت اقول لنفسني : يظن انه مسؤول لانه استاذة .
وصمت ففهم ، ماتيو انه لم يقنعها . كانت يبدو وكأنها تبحث عن كلماتها .
واضافت بمشقة :

- اعرف ... اعرف انني امرأة مسنة .. وانا لم انتظر لك للاحظ ذلك . ولكن من اجل هذا بالذات استطيع ان اساعده (وازافت في تحد) هناك اشياء استطيع ان اعلمها اياها . ثم ما الذي ينبئك بانني كبيرة عليه ؟ انه يحبني كما انا ، وهو سعيد معي اذا لم توضع في رأسه جميع هذه الافكار .

وكان ماتيو صامتاً . وصاحت لولا بعنف غير موثوق :
- ولكن لا بد انك تعرف انه يحبني . لا بد انه ابغلك ذلك ، ما دام يقول لك كل شيء .

قال ماتيو : - اعتقد انه يحبك .
فأدارت لولا نحوه عينيها الثقيلتين :
- لقد رأيت الواناً كثيرة من الرجال ، ولا انكر ذلك ، ولكنني اقول لك : ان هذا الطفل هو حظي الاخير : وبعد هذا ، افعلوا ما شئتم .

ولم يجب ماتيو على الفور . كان ينظر الى بوريس وايضش اللذين كانا يرقصان ، وكانت به رغبة لان يقول للولا : « لا نتنازع ، فانت

ترين جيداً اننا متشابهان . « ولكن هذا الشبه كان يثير اشمزازه قليلاً ؛ فقد كان في حب لولا ، بالرغم من عنفه ، وبالرغم من صفاته ، شيء ما رخوٌ وشبهه . ومع ذلك ، فقد قال من طرف شفثيه :

– تقولين هذا لي ... انني اعرفه مثل معرفتك له .
– ولماذا مثل معرفتي له ؟

– اننا متشابهان .

– وماذا يعني هذا ؟

فقال : – انظري الينا ، وانظري اليها .

فانخذت لولا مظهر الازدراء وقالت :

– لسنا متشابهين .

وهز ماتيو كتفيه ثم صمتا ، وهما على خلاف . وكان كلاهما ينظر الى بوريس وايفيش . وكان بوريس وايفيش يرقصان ، وكانا قاسيين من غير ان يعرفا ذلك . او ربما كان يعرفانه قليلاً . وكان ماتيو جالساً بالقرب من لولا ، ولم يكونا يرقصان لان الرقص لم يكن يناسب سنهما كثيراً . وفكر : « لا بد ان الناس ينظرون الينا كعاشقين . » وسمع لولا تتمم لنفسها وحدها : « ليتني اتأكد من ان ذلك هو حقاً لبيكار . »

وكان بوريس وايفيش عائدتين نحوهما . ونهضت لولا في جهد . وحسب ماتيو انها ستسقط ولكنها تشبثت بالطاولة واخذت نفساً طويلاً . وقالت لبوريس :

– تعال ، اريد ان احدثك .

فبدأ الضيق على بوريس :

– الا تستطيعين ان تحدثيني هنا ؟

– لا .

– حسناً . انتظري حتى تستأنف الموسيقى وترقص .

قالت لولا - لا . اني متعبة . وسوف تأتي الى غرفتي . المعذرة
يا صغيرتي ايفيش .

قالت ايفيش بتودد : اني سكرى .

وقالت لولا : سنعود عما قليل . ثم ان دوري في الغناء وشيك .
وابتعدت لولا فتبعها بوريس على مضض . وتراخت ايفيش على

مقعدها ، وهي تقول :

- صحيح اني سكرى . ولقد شعرت بذلك وانا ارقص .

فلم يجب ماتيو . وسألت ايفيش :

- لماذا ذهبا ؟

- سوف يتحادثان . ثم إن لولا قد اخذت مخدراً . وانت تعلمين

ان من يأخذ الجرعة الاولى لا يفكر بعد الا بأخذ الثانية .

وقالت ايفيش حاملة :

أظن اني احب ان آخذ مخدراً .

- طبعاً .

فقالت مغتظة :

- ولم لا ؟ اذا كان علي ان ابقى طوال حياتي في « لاون » ،

فيجب ان أشغل نفسي .

وصمت ماتيو فقالت :

- آه فهمت ! انك غاضب علي لأنني سكرى .

- كلا .

- بلى ، انت توبخني .

- كيف ذلك ؟ ثم انك لست سكرى الى هذا الحد .

فقالت ايفيش في سرور :

- اني سكرى الى - ابعد - حد .

وبدأ الناس يذهبون . وكانت الساعة حوالي الثانية صباحاً . وكانت

لولا في غرفتها ، وهي حجرة صغيرة قدرة مفروشة بالمخمل الأحمر ،
تتهدد وتبتهل : بوريس ! بوريس ! بوريس ! انك تجنني ، فيخفف
بوريس رأسه خائفاً وعنيداً . وكان ثوب طويل اسود يتطاير بين الجدران
الحمراء ، فينعكس بريقه الاسود في المرأة مع انبثاق الذراعين الجميلتين
البضاوين اللتين كانتا تتلويان في تأثير بالغ . ثم ان لولا ستختفي فجأة
خلف حاجز ، وهناك ستنتشق في استسلام ، ورأسها مرتد كما لو انها
تريد وقف نزيف دموي من انفها ، نشقتين من مسحوق ابيض وكان
جبين ماتيوي يسيل عرقاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ على مسحه ، وكان خجلاً
من ان يعرق امام ايفيش ؛ لقد رقصت من غير توقف ، وظلت
ممتعة الوجه ، ولكنها لم تكن ترشح عرقاً . وكانت قد قالت صباح
اليوم نفسه : « اني اشتهز من جميع هذه الايدي اللزجة » ؛ وهو
لا يعرف بعد ما يفعل بيديه . وكان يستشعر الضعف والتعب ، ولم
تكن به اية رغبة بعد ، ولم يفكر بشيء بعد . وبين لحظة واخرى ،
كان يقول ان الشمس لن تلبث طويلاً حتى تشرق ، وان عليه ان
يستأنف مساعيه ويخاير مارسيل ، وساره ، ويعيش نهراً آخر بطوله .
وكان هذا يبدو له امراً لا يصدق . انه يود لو يبقى الى الابد امام
هذه الطاولة ، تحت هذه الانوار الاصطناعية . بالقرب من ايفيش .
وقالت ايفيش بصوت ثمل :

— اني مسرورة جداً .

ونظر اليها ماتيو : كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان
شيء تافه كافياً لإحالتها الى غضب . وقالت ايفيش :

— طز في الامتحانات ، واذا سقطت فساكون مسرورة . اني هذا
المساء ادفن حياتي كطفلة .

وابتسمت وقالت في حماسة .

— انها تلتنع كلؤلؤة صغيرة !

- مالذي يلتصع كلؤلؤة صغيرة ؟
 - هذه اللحظة . انها مستديرة ، معلقة في الفضاء كلؤلؤة صغيرة .
 اني خالدة .
 وتناولت سكين بورييس من مقبضها ، وأسندت صفحة الشفرة على
 جانب الطاولة واخذت تتسلى بمحاولة طيها ، ثم سألت فجأة :
 - ما بالها ، تلك ؟
 - من ؟
 - المرأة ذات الثوب الاسود ، الى جانبي . انها لم تكف منذ
 مجيئها توبخني .
 وأدار ماتيو رأسه : وكانت ذات الثوب الاسود تنظر الى ايفيش
 من طرف عينها .
 وسألت ايفيش : - الا ترى ؟ اليس صحيحاً .
 - اظن ان نعم .
 ورأى وجه ايفيش الصغير الكزّ وعينها الغامضتين الحاقدين وفكر :
 « كان خيراً لي ان اصمت . » وكانت ذات الثوب الاسود قد فهمت
 جيداً انها كان يتحدثان عنهما : ذلك انها اتخذت مظهرأ متغطراً ،
 وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر الى ايفيش بعينيه الكبيرتين . وفكر
 ماتيو « كم يبدو هذا مضجراً ! » وكان يستشعر الكسل والجن ، وكان
 مستعداً لإعطاء كل شيء ليحول دون حدوث شيء .
 وتمتمت ايفيش وهي تخاطب السكين :
 - هذه المرأة تحقرني لأنها محتشمة . اما انا فلست محتشمة : اني
 اتسلى وأتمل ، وسوف أسقط في شهادتي (وازافت فجأة بصوت
 قوي) اكره الحشمة !
 - اسكتي يا ايفيش ، ارجوك .
 فنظرت اليه ايفيش نظرة مثلجة وقالت :

- اظن انك تكلمني ؟ صحيح . انت ايضاً محتشم . لا تخف :
فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين امي وابي ، فسأكون اكثر
احتشاماً منك .

وكانت مسترخية على مقعدها ، وكانت تسند بعناد شفرة السكين
على الطاولة وتثنيها بحركة مجنونة . وساد صمت ثقيل ثم التفتت ذات
الثوب الاسود الى زوجها وقالت :

- اني لا افهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع .

فنظر الزوج بخوف الى كفتي ماتيو وهمهم : « نعم »

واضافت المرأة : - ليس الخطأ كله خطأها ، وانما المذنبون هم
الذين ساقوها الى هنا .

وفكر ماتيو : « هكذا ! هذه هي الفضيحة ! » ولا شك في ان
ايفيش قد سمعت ، ولكنها لم تقل شيئاً ، وكانت عاقلة . عاقلة اكثر
مما ينبغي : كانت تبدو وكأنها ترصد شيئاً ، وكانت قد رفعت رأسها
واتخذت مظهراً غريباً مهووساً وجدلاً .

وسألها ماتيو في قلق : - ماذا هناك ؟

وكانت ايفيش قد امتنعت تماماً .

- لا شيء . وانما أرتكب عملاً آخر غير محتشم ، لكي أسلتي
السيدة . اريد ان ارى كيف تحتمل منظر الدم .

واطلقت جارة ايفيش صرخة خفيفة وخفقت اجفانها . ونظر ماتيو
بسرعة الى ايدي ايفيش : كانت تمسك السكين بيدها اليمنى وتشق
باطن يدها اليسرى بعناية . وكانت بشرتها قد انفلقت ما بين ربله
الابهام حتى جذر الاصبع الصغير . وكان الدم يقطر على مهل . وصاح
ماتيو :

- ايفيش .. يدك المسكينتان .

وكانت ايفيش تقهقه في غموض ، وسألته :

— هل تظنّ انها سوف تدبر عينيهما ؟
ومدّ ماتيو يده فوق الطاولة فتركته ايفيش يأخذ السكين بلا مقاومة .
وكان ماتيو ضائعاً ، وكان ينظر الى اصابع ايفيش الهزيلة التي كان
الدم قد لوثها ، وكان يفكر بان يدها كانت تؤلمها . وقال :
— انت مجنونة ! تعالي معي ، فان سيّدة المغسلة سوف تضمد
جرحك .

وندت عن ايفيش ضحكة خبيثة :
— تضمد جرحي ؟ هل انت مدرك لما تقول ؟
فنهض ماتيو : — تعالي يا ايفيش ، ارجوك ، تعالي بسرعة .
فقال ايفيش من غير ان تنهض :
— انه شعور لذيذ جداً . لقد كنت اظنّ ان يدي كانت قطعة من
الزبدة .

وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى انفها ونظرت اليها بعين فاحصة .
وكان الدم يسيل في كل ناحية ، فكأنه ذهاب نمل واياه . وقالت :
— انه دمي . احبّ كثيراً ان ارى دمي .

قال ماتيو : — كفى ، كفى !
وامسك ايفيش من كتفها ، ولكنها تخلصت منه بعنف فسقطت
نقطة دم كبيرة على الحوان . وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين
تلتمعان كراهية . وسألته :

— ما زلت تسمح لنفسك بان تلمسني ؟ (وازدافت في ضحكة
شامتة) كان عليّ ان اوقن بانك ستجد ذلك مبالغاً فيه . انه يثرك
ويغضبك ان يتسلّى المرء بدمه .

وكان ماتيو يشعر بأنه يمتنع من فرط الغضب . فعاد يجلس ، وبسط
يده اليسرى على الطاولة وقال بتلذذ :
— مبالغ فيه ؟ يا ايفيش ، بل اني أجده جذاباً . اظنّ ان ذلك

لعب" تمارسه فتيات الطبقة النبيلة ؟
وزرع السكين دفعة واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريباً :
وحين ترك السكين ، ظلت مركوزة في لحمه ، مستقيمة ، ومقبضها
في الهواء . وقالت ايفيش مشمثة :
- آه ! آه ! إنزعها ! إنزعها !
فقال ماتيو وهو يكثر على اسنانه :
- اترين ؟ ان هذا في متناول جميع الناس .

واستشعر العذوبة والكثافة ، وخشي قليلاً ان يغمى عليه . ولكن
كان في داخله نوع من الرضى المصدوم وارادة سرطان رديئة وخبيثة .
لانه لم يفعل ضربة السكين هذه في باطن كفه ازدراء لايفيش فحسب ،
بل كان ذلك ايضاً تحدياً لجلك ، وبرونيه ، ودانيال ، وحياته .
وفكر : « اني حمار ، وان برونيه على حق اذ يقول بانى طفل عجوز . »
ولكنه لم يكن يستطيع ان يمنع نفسه من ان يكون مسروراً . وكانت
ايفيش تنظر الى يد ماتيو التي كانت تبدو مسمرة على الطاولة ، والى
الدم الذي كان يتدفق من حول الشفرة . ثم نظرت الى ماتيو ، وكانت
هيئتها قد تغيرت تماماً . وقالت على مهل :
- لماذا فعلت ذلك ؟

فسألها ماتيو في صلابة : وانت ؟
والى يسارهما ، كانت ثمة ضجة مهددة : كان ذلك للرأي العام .
وكان ماتيو يسخر منه ، وكان ينظر الى ايفيش . وقالت ايفيش :
- آه اني ... اني آسف جداً .

وتضخمت الضجة ، واخذت ذات الثوب الاسود تنقق :
- انها ثملان ، وسيدبح احدهما الآخر ... يجب ان يُمنعا من
ذلك . اني لا استطيع ان ارى هذا .
والتفتت بعض الرؤوس ، وهرع الخادم :

— هل تريد السيدة شيئاً ؟
وكانت ذات الثوب الاسود تضغط مندبلاً على فمها ، وأشارت الى ايفيش وماتيو من غير كرامة . ونزع ماتيو بسرعة السكين من الجرح فأحدث له ذلك ألماً شديداً .

— لقد جرحنا ايدينا بهذا السكين .
وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك ، فقال من غير ان يفعل :
— اذا شاء السيد والآنسة ان يتوجها الى المغسلة ، فان السيدة هناك تملك كل ما يلزم .

ونفضت ايفيش هذه المرة بوداعة ، فاجتازا الحلية وراء الخادم ، وكل منهما يرفع احدى يديه في الهواء ؛ وكان هذا مشهداً هزلياً لم يستطع ماتيو معه ان يمتنع عن الانفجار بالضحك . ونظرت اليه ايفيش نظرة قلقة ثم أخذت تضحك هي ايضاً . وكانت من شدة الضحك بحيث ان يدها قد ارتجفت ، فسقطت نقطتا دم على البلاط .

وقالت ايفيش : — اني اتسلى كثيراً .
وصاحت سيدة المغسلة :

— يا الهي ! يا آنستي المسكينة ، ماذا فعلت بنفسك ؟ والسيد المسكين ؟
فقالت ايفيش : — لقد لعبنا بسكين .

فقالت سيدة المغسلة حانقة : — هكذا ! ان الحادث يقع بسرعة .
وهل كان سكين منزل ؟

— كلا .

— آه ! كنت احداث نفسي .. (وازافت وهي تفحص جرح ايفيش) ما اعظمه ! ولكن لا تقلقي . سوف اسوي كل شيء .

وفتحت خزانة فاخفتفي فيها نصف جسمها . وتبادل ماتيو وايفيش بيسمة . وكانت ايفيش تبدو وكأنها صحت من سكرها ، وقالت لماتيو :

— ما كنت اصدق ان بوسعك ان تفعل هذا .

قال ماتيو : - ترين اذن ان كل شيء لم يضع .
فقال ايڤيش : - لقد بدأ هذا يؤلني الآن .

قال ماتيو : - وانا كذلك .

وكان سعيداً . وقرأ كلمة « للسيدات » ثم « للسادة » بأحرف
من ذهب على باين ملبعين بالرمادي المصفر ، ونظر الى الارض ذات
المربعات البيضاء ، واستنشق رائحة معطرة بالأنيسون المطهر ، فتمدد
قلبه ، وقال بان دفاع :

- ليس من الرديء جداً ان يكون المرء سيدة مغسلة !

فقال ايڤيش في تفتح : - طبعاً لا !

وكانت تنظر اليه في هيئة وحشية رقيقة ، وترددت لحظة ، ثم
اطبقت فجأة باطن كفتها اليسرى على كف ماتيو المجروحة ، فندت
عن ذلك اصطفاقاً مبلل . وقالت موضحة :

- ان هذا اختلاط الدمين .

فشدت ماتيو على يدها من غير ان يقول كلمة ، واحس بالأم حي ،
وكان لديه إحساس بأن فأ كان يفتح في يده . وقالت ايڤيش :

- انك تؤلني كثيراً .

- اعرف ذلك .

وكانت سيدة المغسلة قد خرجت من الخزانة وهي تشعر ببعض عسر
هضم . وفتحت علبة حديدية وقالت :

- هذا هو العلاج .

ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود ، وإبراً ومقصات ولفافات .
فقال :

- انت مجهزة تجهيزاً جيداً .

فهزت رأسها في جد . وقالت :

- آه ! هناك ايام لا مجال فيها للمزاح . امس الاول ، التقت امرأة .

قدحها على رأس واحدٍ من خيرة زبائننا . وكان هذا السيد يسيل دمه ويسيل ، فخشيت على عينيه ، وانتزعت من حاجبه شظية كبيرة من الزجاج .

وكانت سيدة المغسلة تشغل نفسها حول ايفيش :
- بعض الصبر يا جميلتي ، أن ذلك سيحرقك قليلاً ، انها صبغة اليود ، حسناً ، انتهى .

وسألت ايفيش بصوت منخفض :

- هل تصارحني ... اذا بدوت قليلة الرصانة ؟

- نعم .

- اودّ ان اعلم بمَ كنت تفكر حين كنت ارقص مع لولا .

- منذ لحظة ؟

- نعم ، حين دعا بوريس الشقراء . كنت وحيداً في ركنك .

قال ماتيو : - اظنّ اني كنت افكر بنفسي .

- كنت انظر اليك .. لقد كنت ... جميلاً تقريباً . ليتك تستطيع

دائماً ان تحتفظ بتلك الهيئة .

- ليس بوسع المرء دائماً ان يفكر بنفسه .

وضحكت ايفيش :

- اما انا ، فأعتقد اني افكر دائماً بنفسي .

وقالت سيدة المغسلة : - اعطني يدك يا سيدي . انتبه ، سوف

يحرقك قليلاً . حسناً ، لن يكون هذا شيئاً ذا بال .

وأحسّ ماتيو بحرقٍ شديد . ولكنه لم يكثر له ، وكان ينظر

الى ايفيش التي كانت تسرح شعرها بلا حذق امام المرأة ، وهي تمسك

خصلاتها بيدها المضمّدة . وردّت شعرها الى خلف فبدا وجهها العريض

عاربياً . واحسّ ماتيو بأنه يمتليء برغبة قاسية ويائسة ، وقال :

- انك جميلة .

فقالت ايفيش وهي تضحك :
- كلا ، اني على العكس بشعة الى حد فظيح . وهذه هي هيثي
الخفية .

قال ماتيو : - اعتقد اني احبها اكثر من تلك .
قالت : - سأمرّح شعري غداً على هذا النحو .
فلم يجد ماتيو ما يجيب به ، فأحسني رأسه وصمت . وقالت سيده
المغسلة :

- انتهى الامر .
ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رمادي .
- شكراً كثيراً يا سيدتي ، انك بارعة كمرضة .
فاحمرّ وجه سيده المغسلة من السرور وقالت :
- اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيراً من الاعمال التي تتطلب
الدقة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران
في رضی الى يديهما الصقعتين المضممتين . وقالت ايفيش :
- كأنّ لي يداً من خشب .
وكان الرقص قد خلا تقريباً . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي
واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالساً على طاولتها ، وكان
ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان
باقياً على طاولتها قدحان نصف ممتلئين وديزينة من السكاير في علبة
مفتوحة .

وقال ماتيو : - انه ضلال .
قالت ايفيش : - اجل ، لقد ضللت .
ونظر اليها بوريس نظرة جذل :
- ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : - انه سكينك القدر .

فقال بوريس وهو ينظر الى يديها نظرة فنّان :

- يبدو أنه يقصّ جيداً .

وسأله ماتيو : - ولولا ؟

فاغمّ بوريس :

- إن الامر قد ساء كثيراً . لقد نطقتُ بحقيقة .

- ماذا ؟

- قلت ان بيكار قد جاءني وقد استقبلته في غرفتي . يبدو اني

قلت شيئاً آخر في المرة الاولى ، الشيطان يدري ماذا !

- لقد قلت انه التقى بك في جادة سان ميشال .

قال بوريس : - هكذا اذن !

- وهل غضبت وصاحت ؟

- اوه ! كالحنزير . حسبك ان تنظر اليها .

ونظر ماتيو الى لولا . وكانت لها سحنة جهمة وقائمة . وقال ماتيو :

- اعذرني .

- ليس لك ان تعتذر : انها غلطتي . ثم ان الامر يُسوّى ، لقد

ألفت ذلك . انه يسوّى دائماً في آخر الامر .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر الى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان

النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسرّبت الى القاعة ، على غير

احساس ، وكان المرقص يبعث برائحة الصباح . وفكر ماتيو : «لؤلؤة،

لقد قالت لؤلؤة صغيرة . » وكان سعيداً ، ولم يكن يفكر بعد بأي

شيء عن نفسه ، وكان يُحسّ انه جالسٌ في الخارج على مقعد : في

الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك

ايضاً : اني خالدة »

واخذت لولا تغنّي .

« في الدوم ، الساعة العاشرة » واستيقظ ماتيو . وهذه الأكمة الصغيرة من الشفّ الأبيض ، على السرير ، كانت يده اليسرى . وكانت تؤله ، ولكن جسمه كله كان متعشاً . « في الدوم الساعة العاشرة . » وكانت قد قالت : « سأكون هناك قبلك ، فلن أستطيع ان اغمض عيني طوال الليل . » وكانت الساعة التاسعة ، وقفز من السرير وفكّر « ستغيرّ تسريحتها . »

ودفع المصراعين : كان الشارع خالياً ، وكانت السماء واطئة رمادية ، وكان الطقس اقل حرارة من الأمس ، كان صباحاً حقيقياً . وفتح صنبور المغسلة وغطّس رأسه بالماء : انني انا ايضاً من الصباح . وكانت حياته قد سقطت الى قدميه ، في ثنيات ثقيلة ، وكانت ما تزال تحيط به ، وكانت تُربك كعبيه ، ولكنه سيتجاوزها ، وسيخلفها وراءه كجلد ميت . السرير ، المكتب ، المصباح ، الأريكة الخضراء : انها ليست بعد شريكاته ، وانما كانت اشياء مغلقة من حديد وخشب ، ادوات . وكان قد قضى الليلة في غرفة فندق . وارتندى ثيابه وهبط السلم وهو يصفر . وقالت البوّابة :

— هناك رسالة مستعجلة لك .

مارسيل ! وأحسّ ماتيو بمذاق مرّ في فمه : كان قد نسي مارسيل

ومدّت له البوابة مغلفاً أصفر : كان من دانيال . وقد كتب دانيال يقول :

« عزيزي ماتيو ، لقد بحثت حولي ، ولكني لا استطيع حتماً ان اجمع المبلغ الذي تطلبه . صدقني اني آسف . هل لك ان تمرّ عليّ ظهرأ ؟ إن عندي ما احدثك به عن قضيتك . ولك ودي . »
وفكر ماتيو « حسناً ، سأذهب لرؤيته . إنه لا يريد ان يترك المال ، ولكنه ربما وجد حلاً . »

وكانت الحياة تبدو له هيئته ، وكان ينبغي ان تكون هيئته : مهما يكن من امر ، فان ساره ستكلف أمر اقناع الطبيب بالانتظار بضعة ايام ؛ وعند الإلحاح يُرسل له المال الى اميركا .
وكانت ايفيش هناك ، في زاوية مظلمة . وقد رأى اولاً يدها المضمدة . وقال في عدوية :

— ايفيش .

فرفعت عينها اليه ، وبدا وجهها الكاذب المثلث ، وطهارتها الصغيرة الرديئة . وكانت خصلاتها تخفي نصف وجهها : لم تكن قد رفعت عينها كما وعدت . وسألها ماتيو بحزن :

— هل نمت قليلاً ؟

— ابدأ .

وجلس . ورأت انه كان ينظر الى يديها المضمدين ، فسحبت يدها بهدوء وأخفتها تحت الطاولة . واقترب الخادم ، وكان يعرف ماتيو جيداً ، فسأله :

— كيف الحال يا سيدي ؟

قال ماتيو : — لا بأس . اعطني فنجان شاي وتفاحتين .
وساد صمتٌ انتهزه ماتيو ليكفّن ذكريات الليل . وحين أحس بان قلبه كان خالياً رفع رأسه :

— انك لا تبدين مرتاحة . ايكون السبب ذلك الامتحان ؟
فلم تجب ايفيش الا بانقباض ازدرء ، وصمت ماتيو ، وكان ينظر الى
المقاعد الفارغة . وكانت امرأة راكمة تغسل البلاط بماء كثير . وكان
« الدوم » يستيقظ رويداً رويداً ، وكان الصباح . لا بدّ من مرور
خمس عشرة ساعة قبل ان تستطيع النوم . وأخذت ايفيش تتحدث
بصوت منخفض ، وبلهجة برمة ، وقالت :
— الساعة الثانية . والآن هي الساعة التاسعة . اني احسّ الساعات
تنهار تحتي .

وعادت تشدّ على خصلاتها شدّاً مهووساً . وكان هذا غير محتمل .
وقالت :

— اتعتقد ان هناك من يقبلي ان اكون بائعة ، في مخزن كبير ؟
— لا تفكّري بهذا يا ايفيش ، فانه قاتل .
— وعارضة ازياء ؟
— انك قصيرة بعض الشيء ، ولكن بوسعك ان تجرّبي ...
— سأفعل كل شيء حتى لا ابقي في لاون . سأكون غاسلة اوان
(وازدافت بلهجة مهمومة مسنة) في مثل هذه الحالات . الا يضع
الناس اعلانات في الصحف ؟
— اسمعي يا ايفيش ، ان امامنا الوقت للتفكير في الموضوع ، وانت
لم تسقطي بعد ، على اية حال .

وهزت ايفيش كتفيها فاستطرد ماتيو بحوية :
— ولكن حتى لو سقطت ، فلن تصبحي ضائعة . فانت تستطيعين
مثلاً ان تعودي الى بيتك لمدة شهرين ، وفي هذه الاثناء سأبحث حتى
أجد لك شيئاً .

وكان يتكلم بلهجة اقتناع طيبة ، ولكن لم يكن له اي امل : فحتى
لو حصل لها على عمل ؛ فانها لن تلبث اسبوعاً حتى تُطرد منه .

وقالت ايفيش في غضب :

– شهران في لاون .. من الواضح انك تتكلم بلا معرفة . إن هذا ..
ان هذا لا يحتمل !

– مهما يكن من امر ، فانك ستقضين هناك العطلة .

– صحيح .. لكن كيف يستقبلونني الآن ؟

وصمتت . ونظر اليها من غير ان يقول كلمة : وكان لها وجهها
الصباحي الممتقع . وكان يبدو أن الليل قد انزلق عليها . وفكر

« ليس هناك ما يطبعاها » ولم يستطع ان يمتنع عن ان يقول لها :

– انك لم ترفعي شعرك ؟

فقالت ايفيش بجفاء : – انت ترى ان لا .

وقال في شيء من الغيظ : – ولكنك وعدتني بذلك مساء امس .

قالت : – كنت ثملة (وردت بقوة كما لو كانت تريد ان تخفيه)
كنت ثملة تماماً .

– لم يكن يبدو عليك انك كنت ثملة الى هذا الحد حين وعدتني
بذلك .

فقالت في نقاد صبر : – طيب ! وماذا في ذلك ؟ ان الناس
مدهشون بعودهم .

فلم يجب ماتيو . وكان لديه احساس " بأن اسئلة عاجلة كانت تُطرح
عليه بلا هوادة : كيف السبيل الى ايجاد خمسة آلاف فرنك قبل المساء؟
كيف السبيل الى اعادة ايفيش الى باريس في السنة القادمة ؟ اي موقف
يجب ان يتخذه الآن تجاه مارسيل ؟ ولم يكن لديه الوقت للتفكير ،
ولأن يعود الى الأسئلة التي كانت اساس افكاره منذ عشية الامس : من
انا ؟ ماذا فعلت بجيأتي ؟ واذا كان يلفت رأسه لينفض هذا الهم الجديد ،
رأى في البعيد طيف بوريس الطويل المتردد الذي كان يبدو عليه انه
كان يبحث عنهما على السطحة . وقال منزعجاً :

- هوذا بوريس (ثم سألها وقد اخذه شك مزعج) أنت التي قلت له ان يأتي ؟

فقالت ايفيش مندهشة : - كلا . كان عليّ ان القاه ظهراً لأنه .. لأنه كان يقضي الليل مع لولا . فانظر الى هيئته ! وكان بوريس قد رأهما ، فأقبل عليهما . وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما وثابتتين ، وكان قبيحاً . وكان يتسم . وصاح ماتيو : « مرحباً » فرفع بوريس اصبعين نحو صدغيه ليحيي تحيته المألوفة ، ولكنه لم يستطع ان ينجز حركته . والقي بيديه الاثنتين على الطاولة وأخذ يتأرجح على عقبه من غير ان يقول كلمة . وكان ما يزال يتسم . وسألته ايفيش :

- ما بالك !؟ إنك تشبه فرنكشتين !

قال بوريس : - ماتت لولا .

وكان ينظر امامه باستقامة نظرة بلهاء . وبقي ماتيو بضع لحظات من غير ان يفهم ، ثم غمره ذهول مندهش :

- ماذا ؟

وكان ينظر الى بوريس : ولم يكن ينبغي التفكير بسؤاله على الفور فأمسك بذراعه وقسره على الجلوس بالقرب من ايفيش . وكرر بآلية :

- ماتت لولا .

وأدارت ايفيش الى اخيها عينين منفرجتين . وكانت قد تراجعت قليلاً وهي على المقعد ، كما لو انها كانت تخاف ان تلمسه ، وسألته :

- هل انتحرت ؟

فلم يجب بوريس ، وأخذت يدها ترتجفان . فرددت ايفيش بعصبية :

- تكلم ! هل قتلت نفسها ؟ هل قتلت نفسها ؟

فاسعت بسمة بوريس اتساعاً مقلقاً ، وكانت شفتاه ترقصان . وكانت

شفتاه ترقصان . وكانت ايفيش تنظر اليه باحداد وهي لا تني تشد على عضلاتها . وفكر ماتيو في غيظ : « انها لا تفهم . » وقال :
- حسناً . ستخبرنا فيما بعد . لا تتكلم .
فبدأ بوريس يضحك وقال :
- لو كنا .. لو كنا ...

فصفحه ماتيو صفقة جافة وصامتة ، من طرف اصابعه . فكف بوريس عن الضحك ونظر اليه وهو يرتجف ثم تجمع قليلاً والتزم الهدوء ، فاغر الفم ، بليد الهيئه . وكان الثلاثة صامتين ، وكان الموت بينهم ، مغفلاً مقدساً . ولم يكن ذلك حدثاً ، بل كان وسطاً ، مادة معجزة كان ماتيو يرى عبرها فنجان الشاي وطاولة المرمر ووجه ايفيش اللثيم . وسأل الخادم :
- وماذا يطلب السيد ؟

وكان قد اقترب وهو ينظر الى بوريس في سخرية . فقال ماتيو :
- اعطه كأس كونيالك بسرعة (واطاف بلهجة طبيعية) ان السيد مستعجل .

وابتعد الخادم وما لبث ان عاد يحمل زجاجة وقدحاً : فأحس ماتيو انه رخو ومفرغ ، وشعر آنذاك فقط بمتاعب الليل . وقال لبوريس :
- اشرب .

فشرب بوريس بوداعة . ووضع القدح وقال ، كأنما يحدث نفسه :
- ليس الامر طريفاً !

قالت ايفيش وهي تقرب منه : - يا عزيزي ، يا صغيري العزيز .
وابتسمت له بخنان ، ثم امسكت بشعره وهزت رأسه ، فتنفس بوريس في تأس وقال :
- انت هنا .. ان يدبك جارتان .

قالت ايفيش : - والآن ، إحك لنا . هل انت واثق من انها

ماتت ؟

فقال بوريس في مشقة : - لقد تناولت المخدر هذه الليلة ، ولم تكن الامور حسنة بيننا .

فقالت ايفيش بحوية : - فكان ان سممت نفسها .

قال بوريس : - لا ادري .

وكان ماتيو ينظر الى ايفيش في ذعر : كانت تلاطف يد اخيها في حنان ، ولكن شفقتها العليا كانت تنكفيء بصورة غريبة فوق اسنانها الصغيرة . وعاد بوريس يتكلم بصوت اضم . ولم يكن يبدو انه يوجه اليها الحديث :

- لقد صعدنا الى غرفتها ، فتناولت المخدر . وكانت قد تناولته في المرة الاولى في مقصورتها ، حين تنازعنا .

قال ماتيو : - الواقع ان هذه لا بد ان تكون المرة الثانية . وأظن انها قد تناولته بينما كنت ترقص مع ايفيش .

قال بوريس في تعب : - حسناً . اذن ثلاث مرات . ولم يسبق لها ان تناولت هذا القدر من قبل . وقد نمنا من غير ان نبادل الكلام . وكانت تقفز في السرير ، فلم اكن استطيع النوم . ثم هدأت فجأة ، فنمت .

وأفرغ كأسه واستطرد :

- واستيقظت هذا الصباح لأنني كنت اختلف . وكانت ذراعها ممتدة فوقتي ، فقلت لها : « انزعي ذراعك ، انك تخنقيني . » فلم تنزعها ، فظننت انها تفعل ذلك رغبة في المصالحة . فتناولت ذراعها ، فاذا هي باردة ، وقلت لها : « ما بالك ؟ » فلم تقل شيئاً . وعند ذلك دفعت ذراعها بكل قوتي ، فاوشكت ان تسقط على الارض . وخرجت من السرير فتناولت معصمها وضغطت عليها لأعيدها الى استقامتها . وكانت عيناها مفتوحتين . (واضاف في شيء من الغضب) لقد رأيت عينيها

ولا يستطيع ان انساها .

قالت ايفيش : - يا عزيزي الصغير .
وكان ماتيو يجهد ليشفق على بوريس ، ولكنه لا يوفق الى ذلك .
كان بوريس يبرمه اكثر من ايفيش ؛ فكأنه كان عاتباً على لولا ان
تموت .

واضاف بوريس بلهجة رقيقة :

- واخذت ثيابي فارتديتها ، ولم ارد ان يجدونني في غرفتها . ولم
يروني اخرج . ولم يكن ثمة احد على الصندوق . واستقلت تاكسي
وأتييت .

وسألته ايفيش في عذوبة : - هل انت مهموم ؟
وكانت قد انحنت عليه ، من غير تعاطف مبالغ فيه ، وكان يبدو
وكأنها تسأله توضيحاً :

- انظر الي ، هل انت مهموم ؟

قال بوريس : - اني ... (ونظر اليها وقال فجأة) اني استنقع
ذلك .

ومر الخادم فناده : - اريد قدحاً آخر من الكونياك .

فسأله الخادم وهو يتسم : - وهل هو مستعجل كالقدح الاول ؟
فقال ماتيو بجفاء : - هيا ، لبّ الطلب بسرعة .

وكان بوريس يثير اشمئزازه قليلاً ، فانه لم يكن قد بقي له شيء
من جماله الجاف الصلب . وكان وجهه الجديد يشبه وجه ايفيش اكثر
مما ينبغي . واخذ ماتيو يفكر في جسد لولا متمدداً على سرير في غرفة
فندق ، وكان بعض رجال يلبسون القبعات يوشكون ان يدخلوا الغرفة
وان ينظروا الى هذا الجسم الضخم في مزيج من الشهوة والهلم المهني ،
وسيردون عليه الغطاء ويرفعون قميص النوم بحثاً عن الجروح ، وهم
يفكرون بأن مهنة المفتش لا تخلو احياناً من مزايا . وارتعش وقال :

— أهي وحدها هناك ؟

قال بوريس باهتمام : — نعم ، واعتقد أنهم سيجدونها حوالي الظهر ، اذ ان الخادمة دائماً توقظها في مثل هذه الساعة .

قالت ايفيش : — اي بغد ساعتين .

وكانت قد استعادت هيئة الاخت الكبيرة ، وكانت تلاطف شعر اخيها بشفقة وانتصار . وتركها بوريس تدلّه ، ثم صاح فجأة :

— يا إلهي !

فانتفضت ايفيش وسألته قلقة :

— ماذا فعلت ؟

قال بوريس : — رسائلي !

— ماذا ؟

— رسائلي . كنت غيباً فتركتها عندها .

ولم يكن ماتيو يفهم :

— رسائل كتبتها لها ؟

— نعم .

— واذن ؟

— سيأتي الطبيب ، وسيعرفون انها ماتت مسمومة بالمخدرات .

— وهل كنت تتكلم في رسائلك عن المخدرات ؟

فقال بوريس في كآبة : — نعم .

وكان لدى ماتيو شعور بان بوريس كان يمثل ، فسأله :

— وهل تناولت مخدراً انت ؟ (وكان منزعجاً ان بوريس لم

يصارحه بذلك من قبل)

— اني ... لقد حدث لي ذلك . مرة او مرتين ، بداعي الفضول ،

ثم اني اتحدث عن شخص يبيع المخدرات ، شخص من « البول —

بلانش » كنت قد اشتريت منه كمية للولا . ولا اريد ان يتضرر بسببي .

قالت ايفيش : - انت مجنون يا بوريس ... كيف استطعت ان تكتب هذه الاشياء ؟

فرغ بوريس رأسه : - هل تريدن هذا المغطس ؟
قال ماتيو : - ولكن قد لا يجدونها ؟
- انها اول شيء يجدونه . فاذا فرضنا احسن الفروض ، فسوف أستدعي كشافه .

قالت ايفيش : - اوه ! كم سيغضب الوالد !
- قد يستدعيني الى لاون ويلصقني في مصرف .
فقالت ايفيش بصوت حزين : - ستكون رفيقاً لي اذن .
ونظر ماتيو اليهما في اشفاق : « هما كذلك اذن ! » وكانت ايفيش قد فقدت هيئتها المنتصرة : وكانا ، وهما قابعان احدهما ازاء الآخر ، ممتعين واهنين ، يشبهان عجوزين . وساد صمت ، ثم لاحظ ماتيو ان بوريس كان ينظر اليه من طرف عينيه ، وكان حول فـه ظلٌ من الخبث ، خبثٌ فقير ضعيف ، وفكر ماتيو منزعجاً « ان هناك مؤامرة . »

وسأله : - تقول ان الخادمة تأتي ظهراً لإبقاظها ؟
- نعم ، انها تدق الباب حتى تفتح لها لولا .
- حسناً ، انها الساعة العاشرة والنصف ، وامامك الوقت لتعود الى هناك هدهد وتلم رسائلك . خذ تاكسي ، بل بوسعك ان تستقل الاوتوبيس .

وأدار بوريس عينيه وقال :
- لا استطيع ان اعود الى هناك .
ففكر ماتيو : « ها نحن قد وصلنا الى المقصود . » وسأله :
- هل هذا مستحيل عليك حقاً ؟
- لا استطيع .

ورأى ماتيو ان ايفيش كانت تنظر اليه ، فسأله :

- اين هي رسائلك ؟

- في صندوق صغير اسود امام النافذة . وفوق الصندوق محفظة ليس عليك الا ان تدفعها ، وسترى هناك ركاباً من الرسائل ، ورسائلي مربوطة بشريط اصفر .

وانتظر لحظة ثم اضاف بلهجة لامبالاة :

- وهناك ايضاً رزم مالية .

رزم مالية . وصفر ماتيو بهدوء ، وكان يفكر : « ان الصبي ليس مجنوناً ، فقد فكر في كل شيء ، حتى في ان يدفع لي . »

- وهل الصندوق مقفل بالمفتاح ؟

- نعم ، والمفتاح في محفظة لولا ، والمحفظة على الطاولة . ستجد رزمة فيها مفتاح صغير مسطح . وهذا هو .

- وما رقم الغرفة ؟

- ٢١ ، الطابق الثالث ، الغرفة الثانية الى اليسار .

قال ماتيو : - طيب . اني ذاهب اليها .

ونفض ، وكانت ايفيش ما تزال تنظر اليه ، وكان يبدو الارتياح على بوريس . وقد رد شعره الى خلف في رشاقة ، وقال وهو يبتسم :

- اذا أوقفت ، فليس لك ان تقول انك ذاهب الى « بوليفار » وهو زنجي مرقص « كامتشاتكا » ، وانا اعرفه . انه يسكن ايضاً في الطابق الثالث .

قال ماتيو : - انتظراني هنا .

وكان قد اتخذ بالرغم منه لهجة آمرة ، وأضاف بهدوء :

- سأعود بعد ساعة .

قال بوريس : - سنتظرك .

ثم اضاف بلهجة اعجاب وعرقان : - انك شخص من ذهب .

وخطا ماتيو بضع خطى في جادة مونبارناس ، مسروراً بأن يكون وحيداً . وخلفه ، كان بوريس وايڤيش على أهبة ان يتهامسا ، وان يشكلاً من جديد عالمها الثمين الذي لا يمكن تنشُّقه . غير انه لم يكن يكثر لذلك . فقد كانت حوله شظايا هموم الامس : حبه لإيڤيش ، جبل مارسيل ، المال ، ووسط ذلك لطحه عمياء : الموت . وارسل بضع مرات تنهدة « أف » وهو يمر يديه على جبينه ويفرك خديه . وفكر : « مسكينة لولا ، كنت احبها كثيراً . » ولكن لم يكن له هو ان يأسف عليها : لقد كان هذا الموت ملعوناً لأنه لم يتلق اية عقوبة ولم يكن له هو ان يعاقبه . لقد سقط ثقيلاً في نفس مستهامة وكان يحدث فيها دوائر . وعلى هذه النفس الصغيرة وحدها كانت تقع تبة التفكير بهذا الموت وافتدائه . ليت بوريس أحسن بوميض من الحزن ... انه في الحقيقة لم يستشعر الا الفظاعة . وسوف يبقى موت لولا ابدأ على هامش العالم . مبعداً ابدأ عن مكانه الطبيعي ، كأنه عتاب . « لقد ماتت كالكلب » وكانت هذه فكرة لا تطاق . وصاح ماتيو :

— تاكسي !

وحين استقر به المقام في السيارة ، احسن انه اصبح اهدأ من ذي قبل . بل هو قد شعر باحساس من الرفعة المطمئنة كما لو انه غفر لنفسه فجأه ان لا يكون بعد في سن ايڤيش ، او كما لو ان الشباب فقد فجأة قيمته . وقال في اعتزاز مر : « انها يتوقفان علي . » وكان افضل الا يقف التاكسي بالقرب من الفندق .

— الى ملتقى شارعي نافارين ومارتير .

وكان ماتيو ينظر الى صف البنائيات الكبيرة الحزينة في جادة راسباي . وردد : « انها يتوقفان علي . » وكان يحس انه صلب بل وكثيف بعد الشيء . ثم اظلم زجاج النوافذ ودلفت السيارة الى

مدخل شارع « باك » الضيق . وفجأة ادرك ماتيو ان لولا قد ماتت ،
وانه داخل على غرفتها ليرى عينيها مفتوحتين على سمعتها وجسمها
الابيض . وعزم قائلاً : « لن انظر اليها » كانت ميتة . كان
وجدانها قد تلاشى ، لا حياتها . كل ما هنالك ان هذه الحياة الحالية
قد توقفت بعد ان غادرها الوحش الطري الرقيق الذي سكنها طويلاً
جداً ، وكانت ترفرف وهي ملأى بصرخات لا اصداء لها ، وبآمال
غير مجدية ، وبروق مظلمة ، وبأشكال وروائح باطلة ، كانت
ترفرف على هامش العالم ، بين هلالين ، نهائية لا تُنسى ، وليست
دون المعدن قابلية للهدم ، ولم يكن ثمة ما يمنع من ان تكون قد
وجدت ، وانها قد بلغت درجة تغيرها القسوى : ان مستقبلها قد
تخثر . وفكر ماتيو : « ان حياة انسان ما تُصنع بالمستقبل ، كما تُصنع
الاجسام بالفراغ . » وخفض رأسه : وكان يفكر بحياته نفسها . كان
المستقبل قد اخترقها حتى الصميم . وكان كل شيء فيه معلقاً ،
مؤجلاً . ان ابعد ايام طفولته ، اليوم الذي قال فيه : سأكون حراً ،
واليوم الذي قال فيه : سأكون كبيراً ، كانت تبدو له حتى اليوم ،
بمستقبلها الخاص ، كساء شخصية صغيرة صريحة فوقها ، وهذا المستقبل
انما كان هو : هو كما هو الآن ، متعباً أخذاً في النضج ، وكان لتلك
الايام حقوق عليه ، عبّر هذا الزمن الطويل المنصرم ، وكانت تتمسك
بمتطلباتها ، وكان يأخذها غالباً ندم ساحق ، لأن حاضره اللامبالي المشمئز
من كل شيء ، انما كان المستقبل القديم لهذه الايام المنصرمة . لقد
كان هو الذي انتظرته عشرين عاماً ، ومنه ، من هذا الانسان المتعب ،
طلب طفل قاس ان يحقق له آماله ؛ وكان يتوقف عليه ان تظل هذه
الجهود الطفولية طفولية الى الأبد او ان تصبح الإرهاصات الاولى لقدر .
ان ماضيه لم يكن يكف عن ان يتعرض لتعديلات الحاضر ، وكان
كل يوم يزيد احلام العظمة هذه القديمة خيبة ، وكان لكل يوم

مستقبل جديد ؛ ومن إنتظار الى إنتظار ، ومن مستقبل الى مستقبل ، كانت حياة ماتيو تتسرب على مهل ... نحو ماذا ؟

نحو لا شيء . وفكر في لولا : لقد ماتت ولم تكن حياتها الا إنتظاراً ، كحياة ماتيو . وقد وُجدت هناك بكل تأكيد ، في صيف قديم ما ، طفلةٌ صغيرة ذات خصلات حمراء ، اقسمت ان تكون مغنية كبيرة ، وحوالى ١٩٢٣ ايضاً ، مغنية شابة نفذ صبرها في إنتظار ان تصبح نجمة مشهورة . وحبها لبوريس ، هذا الحب العظيم الذي تكته عجوز ، والذي عانت منه كثيراً ، كان معلقاً منذ اليوم الاول . لقد كان ، حتى الامس ، ينتظر وهو غامض مترنح وجهة مستقبله ، حتى الامس كانت تفكر انها ستعيش ، وبأن بوريس سيحبها يوماً ؛ ولم تكن اللحظات الاكثر امتلاء ، والاوفر ثقلاً ، ولم تكن ليالي الحب التي بدت لها اشدّ خلوداً - كل ذلك لم يكن الا انتظارات .

ولم يكن ثمة ما يُنتظر : كان الموت قد ارتدّ الى خلف ، نحو جميع هذه الانتظارات فأوقفها ، فاذا هي جامدة خرساء ، لا معقولة ، ولا هدف لها . لم يكن ثمة ما يُنتظر : ان احداً لن يعرف ابداً اذا كانت لولا ستنجح آخر الامر في حمل بوريس على حبها ، ولم يكن للقضية معنى . لقد ماتت لولا ، فلم يبق ثمة اية حركة تُعمل ، ولا اية ملاطفة ، ولا اي ابتهاج ؛ لم يبق ثمة الا انتظاراتُ انتظارات ، الا حياة منفضة ذات الوان مختلطة ، حياة تسترخي على نفسها . وفكر ماتيو فجأة : « اذا متّ اليوم ، فلن يعرف احدٌ ابداً اذا كنت هالكاً او اذا كنت ما ازال احتفظ بفرص لانقاذ نفسي . »

وتوقف التاكسي فهبط ماتيو وقال للسائق : « انتظرنى » وعبر الرصيف موارباً ودفع باب الفندق ، ودلف الى ممرّ مظلم مغمم بالعطر . وفوق باب زجاجي ، الى اليسار ، كان ثمة مستطيل منقش بالمينا : « الاتجاه » ، والقي ماتيو نظرة عبر الزجاج : كانت القاعة تبدو خالية ،

ولم يكن يسمع الا تكنكة ساعة كان زبائن الفندق من مغنيات وراقصين
وزنوج جاز يعودون في ساعة متأخرة ، ويستيقظون في ساعة متأخرة :
فكان كل شيء ما يزال ينام . وفكر ماتيو : « ينبغي الا اصعد
بأسرع مما يجب » وكان يشعر بان قلبه يخفق ، وكانت ساقاه رخوتين .
وتوقف عند مصطبة الطابق الثالث ونظر فيما حوله . كان المفتاح في
الباب « واذا كان ثمة احد ؟ » وأرشف أذنه لحظة ثم طرق ، فلم
يجب احد . وفي الطابق الرابع ، شدّ احدهم على مُفرغ الماء ، فسمع
ماتيو هديرأ متتابعاً اعقبته ضجّة صغيرة مائعة وصافرة . ودفع الباب
ودخل .

كانت الغرفة مظلمة ، وكانت ما تزال تحتفظ برائحة النوم الدبقة .
وحدّق ماتيو بنظره في الظلام ، وكان مشوقاً لان يقرأ الموت على
ملامح لولا ، كما لو ان ذلك كان عاطفة انسانية . وكان السرير قائماً
الى اليمين ، في داخل الغرفة . ورأى ماتيو لولا ، بيضاء كلها ، تنظر
اليه ، فهمس : « لولا ؟ » فلم نجب لولا . وكان لها وجه معبر
تعبيراً مدهشاً ؛ ولكنه كان ممتنعاً على الفهم ، وكان نهداها عارين ،
وكانت احدى ذراعيها الجميلتين ممتدة في تصلب فوق السرير ، وكانت
الاحرى غارقة تحت اللحاف . وردّد ماتيو وهو يقترب من السرير :
« لولا ! » ولم يكن يستطيع ان ينزع بصره عن ذلك الصدر المعتزّ ،
وكانت به رغبة لأن يلمسه . وبقي لحظات عند حافة السرير متردداً
قلقاً ، تسمّم جسمه رغبةً حريفةً ، ثم انقل وتناول بسرعة محفظة
لولا عن الطاولة . وكان المفتاح المسطح في المحفظة : فأخذه ماتيو
وانجه الى النافذة . وكان نهاراً رمادي يتسلل عبر الأستار ، وكانت
الغرفة ملامى بحضور جامد : وركع ماتيو امام الصندوق ؛ وكان
الحضور الذي لا يُردّ هناك ، في ظهره ، كأنه نظرة . وادخل المفتاح
في القفل ، ورفع الغطاء فأغرق كلنا يديه في الصندوق ، فاندعكت

اوراق تحت اصابعه . وكانت اوراقاً مالية . وكان ثمة عدد وافر منها ،
اوراق من ذوات الألف فرنك . وتحت ركام من الايصالات والحسابات ،
كانت لولا قد اخفت رزمة من الرسائل معقودة بشرائط اصفر . ورفع
ماتيو الرزمة الى النور وتفحص الخط وقال هامساً : « هذه هي » ثم
وضعها في جيبه . ولكنه لم يكن يستطيع ان يذهب ، وظل على
ركبته ، ونظره محدد في الاوراق المالية . وبعد لحظة ، عيث بعصبية
في هذه الاوراق واختار بعضها من غير ان ينظر اليها . وفكر : « هذه
اجرتي » . وكانت خلفه هذه المرأة الطويلة البيضاء ذات الوجه
المندهش ، وكان يبدو على الذراعين ان بوسعها ان تمتد ابعد ، وعلى
الاطراف الحمراء ان تخمش بعد . ونهض يمسح ركبته بظاهر يده
اليمنى . وكانت يده اليسرى تقبض على رزمة من الاوراق
المالية . وفكر : « لقد حُلت مشكلتنا » وكان يتأمل الاوراق في
قبرم « لقد حُلت مشكلتنا ... » وكان يرهف اذنه بالرغم منه ،
وكان يصغي الى جسم لولا الصامت ، وكان يشعر انه مسمّر في مكانه ،
وتتم في استسلام : « حسناً ! » وانفجرت اصابعه فسقطت الاوراق
المالية مستديرة في الصندوق . وعاد ماتيو يغلق الغطاء واقفل القفل ثم
وضع المفتاح في جيبه وخرج من الغرفة في خطى ذئب .

وبهره النور ، وقال في ذعر « لم آخذ المال . » وظل جامداً
ويده على حاجز السلم ، وكان يفكر : « اني ضعيف ! » كان
يفعل ما بوسعهم ليرتجف غضباً ، ولكن المرء لا يستطيع ابداً ان يغضب
حقاً على نفسه . وفكر فجأة في مارسيل ، وفي العجوز الكريمة ذات
اليدين الخانقتين فأخذه خوف حقيقي : « لم يكن ثمة الا حركة تُعمل
للحيلولة دون أن تتألم ، ولتجنيبها مشكلة قدرة لا بد ان تطبعا . ولم
استطع : اني أدق مما ينبغي . هيا ايها الصبي الشاطر ! (وفكر وهو
ينظر الى يده المعصوبة) ولكنني استطعت بعد هذا ان اطعن يدي

بالسكن لأتظاهـر بأني المشؤوم الكبير امام الاوانس : انني لن ابلغ أبداً ان آخذ نفسي بالجد . « سوف تقصد العجوز ، ليس ثمة مخرج آخر وسيكون عليها هي ان تبدو رابطة الجأش ، وان تصارع الضيق والفضاعة ، وفي هذه الاثناء ، سيمالك نفسه وهو يشرب اقداح الروم في حانة . وفكر مذعوراً : « كلا ، لن تذهب . سوف اتزوجها ، ما دمت لا اصلح الا لهذا . » وفكر : « سأتزوجها . » وهو يضغط بشدة يده المجروحة على الحاجز . وخيل اليه انه كان يغرق . وتمتم : « كلا ! كلا ! » وهو يرتد برأسه الى خلف ، ثم تنفس بقوة ، واستدار حول نفسه فعبـر الممر وعاد الى الغرفة . واستند الى الباب كما فعل في المرة الاولى وحاول ان يعود عينيه على الظلام . ولم يكن واثقاً حتى من انه يستطيع ان يسرق . وخطا بضع خطوات مترددة وتميـز اخيراً وجه لولا الرمادي وعينها المفتوحتين اللتين كانتا تنظران اليه .

وسألت لولا : من هناك ؟

وكان صوتاً ضعيفاً ولكنه شرس . وارتعش ماتيو من الرأس حتى القدمين ، وفكر : « ذلك الأبله ! »
- انا ماتيو .

وساد صمت طويل ثم سألت لولا :

- كم هي الساعة ؟

- الحادية عشرة الا الربع .

قالت : - ان بي صداعاً .

ورفعت غطاءها حتى ذقتها وظلت جامدة ، وعيناها تحقدان في ماتيو . وكان لا يزال يبدو عليها انها ميتة . وسألته :

- اين بوريس ؟ وماذا تفعل هنا ؟

فقال ماتيو موضعاً بسرعة : - لقد كنت مريضة .

- وماذا حدث لي ؟
- كنت متصلبة مفتوحة العينين . وكان بوريس يحدثك فلا تجيبين . وقد خاف .
- ولم يكن يبدو على لولا أنها تسمع . ثم نددت عنها فجأة ضحكة كريهة سرعان ما خنقتها . وقالت في جهد :
- لقد حسب اني مت ؟
- فلم يجب ماتيو .
- اليس كذلك ؟ لقد حسب اني مت ؟
- فقال ماتيو متهرباً : - لقد خاف .
- فنفخت لولا قائلة :- أوف .
- وعاد الصمت من جديد . وكانت قد اغضت عينيها ، وكان فكأها يرتجفان . وكان يبدو انها تبذل جهداً عنيفاً لتسترد حواسها . وقالت وما تزال عيناها مغمضتين :
- ناولني محفظتي ، فهي على طاولة الليل .
- فدّت لها ماتيو المحفظة ، فأخرجت منها علبة بودرة ونظرت الى مرآتها في نفور ؛ وقالت :
- صحيح اني ابدو بهيئة الميتة .
- ووضعت المحفظة على السرير وهي ترسل تنهدة لإرهاق واضافت :
- والواقع اني لا اساوي خيراً من ذلك .
- هل تشكين شيئاً ؟
- اشكو . غير اني اعرف ما هو ، وسوف يزول في النهار .
- هل انت بحاجة لشيء ؟ اتريدني ان استقدم الطبيب ؟
- لا ، احتفظ بهدوئك . ان بوريس هو الذي ارسلك اذن ؟
- نعم . لقد كان يجن .
- وسألت لولا وهي تستوي قليلاً : - هل هو تحت ؟

- لا .. كنت ... كنت في « الدوم » .. اعني .. انه جاء يبحث عني هناك ، فقفزت الى تاكسي ، وهأنذا .
وسقط رأس لولا مع جديد على الوسادة .
- شكراً على كل حال .
واخذت تضحك . ضحكة لاهثة شاقة .
- على العموم حصل الملاك الصغير على القسيهات ، وقد افرقع من غير ان يسأل عن الباقي . ثم انه اوفدك الى هنا لتتأكد من اني قد مت حقاً .

قال ماتيو : - لولا !
فقالت لولا : - حسناً . لا حاجة الى الشعورات !
وعادت تغمض عينيها فحسب ماتيو انها سيغمى عليها . ولكنها استطردت بجفاف بعد لحظة :
- اتريد ان تدعوه الى ان يطمن . فأنا لست في خطر ، وانما هي توقعات تأخذني احياناً ... على كل حال سيعرف هو لماذا .
انه القلب الذي يرتخي قليلاً . قل له ان يأتي الى هنا فوراً . اني انتظره . وسأبقى هنا حتى المساء .
فقال ماتيو : - حسناً . الست حقاً بحاجة الى اي شيء ؟
- كلا ، سأشفى حتى المساء ، وسأذهب لأغني هناك .
واضافت :

- انه لم ينته معي بعد .
- اذن ، الى اللقاء .
وتوجه الى الباب ولكن لولا نادته . وقالت بصوت مبتهل :
- هل تعيدني بان تحمله على المجيء ؟ لقد ... لقد تخاصمنا قليلاً مساء امس ، فقل له اني لست عاتبة عليه بعد ، وانه لن يكون ثمة اية قضية . ولكن ليأت ! ارجوك ، ليأت ! اني لا استطيع ان

انحمل فكرة ان يظنني قد مت .

وكان ماتيو متأثراً وقال :

— حسناً ، سأرسله لك .

وخرج ؛ وكانت رزمة الرسائل التي كان قد وضعها في جيب سترته الداخلي تثقل على صدره . وفكر ماتيو : « كيف سيستقبل النبأ ! وينبغي ان يعيد له المفتاح ، وسوف يتدبر امره ليضعه من جديد في المحفظة . » وحاول ان يردد بجذل : « لقد كنت متبصراً اذا لم آخذ المال ! » ولكنه لم يكن جذلاً ، فسيان ان يكون جبينه قد اعقب نتائج مرضية : المهم انه لم يستطع ان يأخذ المال . وفكر . « مهما يكن ، فاني مسرور انها لم تمت . »

وصاح السائق : — هيه ! من هنا ياسيدي !

فالتفت ماتيو شارداً :

— ماذا ؟ آه ، ها انت ؟ (وتذكر السائق) حسناً ! تُخذني

الى « الدوم » .

وجلس فأقلع التاكسي . . وكان يود ان يطرد فكرة هزيمته المذلة . فأخذ رزمة الرسائل وفك عقدها وأخذ يقرأ . وكانت كلمات صغيرة جافة كتبها بوريس من « لاون » في اثناء عطلة الفصح ؛ وكان الحديث يجري فيها احياناً عن الكوكابين ، ولكن بعبارات بلخ من تسترها ان ماتيو قال في نفسه مندهشاً : « لم اكن اعلم انه كان حذراً . » وكانت جميع الرسائل تبدأ بعبارة « حبيبتي لولا » ثم كانت مختصرات مقتضبة عن ايام بوريس . « اني اسبح . لقد تخصصت مع ابي . تعرفت الى مصارع قديم سيعلمني المصارعة الحرة . دخنت سيكاره « هنري كلاي » حتى آخرها من غير ان اسقط رمادها . » وكان بوريس ينهي رسائله كلها بهذه الكلمات : « احبك حباً قوياً وأقبلك — بوريس . » وتخيل ماتيو بغير مشقة الظروف التي كانت تقرأ فيها هذه

الرسائل ، وخيبتها المتوقعة دائماً ، والجديدة دائماً مع ذلك ، والجهد الذي كان عليها ان تبذله كل مرة لتقول في اندفاع : « انه في صميمه يجني ، وكل ما هنالك انه لا يعرف ان يقول ذلك . » وفكر : « ومع ذلك فقد احتفظت بهذه الرسائل . » وعاد يعقد الرسائل ويضع الرزمة في جيبه : « ينبغي ان يتدبر بوريس الامر باعادتها الى الصندوق من غير ان تراه . » وحين توقف التاكسي ، كان يخيل لماتيو انه كان حليف لولا الطبيعي . ولكنه لم يكن يستطيع ان يفكر فيها الا على النحو الذي يفكر فيه بالماضي . وحين دلف الى « الدوم » كان لديه احساس بأنه قادم ليدافع عن ذكرى امرأة ميتة .

وكان يخيل للمرء ان بوريس لم يأت حركة واحدة منذ ذهاب ماتيو . كان جالساً في ركن ، مقوس الكتفين ، فاغر الفم ، مقروص المنخرين . وكانت ايفيش تمس في اذنيه بجيوية ، ولكنها صمت حين رأت ماتيو داخلاً . واقرب ماتيو ورمى رزمة الرسائل على الطاولة وقال :

— هذه هي .

فتناول بوريس الرسائل وأخفاها بسرعة في جيبه . وكان ماتيو ينظر اليه بلا ود وسأله بوريس :

— هل كان الامر اصعب مما ينبغي ؟

— لم يكن صعباً على الاطلاق ولكن اسمع : ان لولا لم تمت .

فرجع بوريس عينيه نحوه ، وكان يبدو عليه انه لم يفهم ، فردد ببلادة :

— لم تمت لولا .

وزاد استرخاؤه ، وكان يبدو مسحوقاً ، وفكر ماتيو : « عجباً !

لقد ابتداءً يألف فكرة موتها . »

وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين ينبعث منهما الشرر ، وقالت :

– لقد قررت ذلك . مم كانت تشكو ؟
فأجاب ماتيو بتصلب : – مجرد اغماء .
وصمتوا . وكان بوريس وايفيش يأخذان وقتهما ليهضما النبأ . وفكر
ماتيو : « انها مهزلة . » ورفع بوريس رأسه اخيراً وكانت له عينان
زجاجيتان ، فسأله :

– وهي ... هي التي اعطتك الرسائل ؟
– كلا ، كانت ما تزال غائبة الحس حين اخذتها .
فشرب بوريس جرعة كونياك ثم وضع القدرح على الطاولة ، وقال
كأنما يحدث نفسه : /
– هكذا اذن !

– هي تقول ان هذا يحدث لها احياناً حين تتناول المخدر . وقالت
لي انك لا بد تعرف ذلك .
فلم يجب بوريس وكان يبدو على ايفيش انها تمالكت وعيها فسألته
في فضول :

– ماذا قالت ؟ لا بد انها اضطربت حين رأتك امام سريرها ؟
– لم تضطرب اكثر مما ينبغي . قلت ان بوريس خاف وانه قد
أنى يطلب معونتي . وبالطبع ، قلت اني قد جئت لأرى ماذا هناك .
(وقال لبوريس) سوف تذكر ذلك طويلاً . حاول الا تتناقض في
اقوالك . ثم انك ستتدبر الامر لإعادة الرسائل حيث كانت من غير ان
تلاحظ هي ذلك .

وأمر بوريس يده على جبينه وقال :
– ان ذلك اقوى مني . فأنا أمثلها ميتة .
ونقد صبر ماتيو :
– انها تريدك ان تذهب لرؤيتها في الحال .
فردد بوريس كأنما يعتذر :

— كنت ... كنت اظن أنها ماتت ،

فقال ماتيو مغتاضاً :

— كلا ! انها لم تمت . خذ تاكسي واذهب للقائها .

فلم يتحرك بوريس ، فسأله ماتيو :

— أسمع ؟ انها شقيّة كالصخور ، تلك المرأة الطيبة .

ومد يده ليمسك بذراع بوريس ، ولكن بوريس تخلص بهزّة عنيقة ، وصاح بصوت شديد لفت اليه نظر امرأة كانت على السطّيحة :
« كلا ! » ثم اضاك بصوت منخفض في عناد رخو لا يقهر : « لن اذهب . »

قال ماتيو مندهشاً :

— ولكن .. لقد انتهت مشاكل الامس : لقد وعدت الا تُثار

مرة اخرى .

قال بوريس وهو يهز كتفيه : — اوه ! مشاكل الامس ...

— واذن ، ماذا ؟

فنظر اليه بوريس نظرة استياء :

— اني اشمئز منها !

لأنك ظننت بأنها قد ماتت ؟ اسمع يا بوريس : تمالك نفسك .

ان هذه حكاية تهريج . لقد اخطأت ، والآن ، انتهى الامر .

قالت ايفيش في حاسة :

— اني ارى ان بوريس على حق .

وأضافت بلهجة كانت تحمل قصداً لم يدركه ماتيو :

— اني ... لو كنت مكانه لفعلت مثله .

— ولكنني أراك لا تفهمين ! انه سيجعلها تقتل نفسها حقاً !

فهزت ايفيش رأسها ، وكانت تبدو بوجهها الصغير الكئيب الحانق .

ورماها ماتيو بنظرة كره وفكر : « انها تجعله يركب رأسه . »

قالت ايفيش :

- اذا رجع اليها ، فانما يكون ذلك بدافع الشفقة . وانت لا تستطيع ان تطلب ذلك منه : فليس ثمة ما هو ادعى للاشمزاز ، حتى بالنسبة اليها .

- ليحاول على الاقل ان يراها . وسوف يرى .

فبدت على وجه ايفيش ملامح نقاد الصبر وقالت :

- هناك اشياء لا تحس بها .

فظل ماتيو مشدوهاً ، وانتهاز بوريس الفرصة وقال بصوت مضدوم :

- لا اريد ان اراها ثانية . لقد ماتت ، في نظري .

فصاح ماتيو : - ولكن هذا موقف سخيف !

فنظر اليه بوريس نظرة كثيبة :

- لم اكن اريد ان اقولها لك ، ولكن اذا رأيتها وجب عليّ ان

المسها (واضاف بنفور) وهذا ... ما لا اطيقه .

وأحس ماتيو بعيجه . وكان ينظر في تعب الى هذين الوجهين

المعاديين ، وقال :

- حسناً ! اذن انتظر قليلاً ... ريثما تتمحي هذه الذكرى ... قل

لي انك ستراها غداً او بعد غد .

فبدا الانفراج على بوريس وقال بلهجة مزيفة :

- هو كذلك . غداً .

وأوشك ماتيو ان يقول له : « على الاقل تلفن لها بأنك لا تستطيع

ان تذهب اليها . » ولكنه امسك ، وفكر : « لن يفعل ذلك . سأتلفن

انا نفسي . » ونهض وهو يقول لإيفيش :

- يجب ان اذهب لأرى دانيال . متى ستعلن النتائج ؟ الساعة

الثانية ؟

- نعم .

- اتريدين ان اذهب لأراها ؟
- لا ، شكراً . سيذهب بوريس .
- ومتى أراك ؟
- لا ادري .
- ارسلي كلمة عاجلة على التو اذا نجحت .
- نعم .
- وابتعد ماتيو وهو يقول :
- لا تنسي . الى اللقاء .
- فأجابا معاً :
- الى اللقاء .

وهبط ماتيو الى الطابق الارضي من « الدوم » وفتح دليل التلفون . مسكينة لولا ! ان بوريس سيعود غداً بلا شك الى « سومطرا » . « ولكن هذا اليوم الذي ستقضيه في انتظاره ... اني لا اتمنى ان اكون مكانها ! »

وسأل عاملة التلفون السميئة :

- هل تريدين ان تعطيني « ترودين .. - ٣٥ » ؟
- فأجابت : - الغرفتان محجوزتان . يجب ان تنتظر .
- وانتظر ماتيو ، وكان يرى من بابين مفتوحين بلاط المغاسل الابيض . مساء امس ، امام « مغاسل » اخرى ... ذكرى غرام طريفة !

واحس بأنه يفيض حقداً على ايفيش . وقال في نفسه : « انهما يخافان الموت . انهما لا يكفيهما ان يكونا نضرين نظيفين ، فان نفسيهما كثيبتان ، لأنهما خائفان . خائفان من الموت ، من المرض ، من الشيخوخة . إنهما يتشبان بشبابهما كما يتشبث محتضر بالحياة . كم مرة رأيت ايفيش تربت على وجهها امام مرآة : انها ترتجف منذ الآن خشية

التجاعيد . انهما ينفقان وقتهما في اجترار ثيابهما ، ولا يرسمان مشاريع
الا للمدى قصير ، كما لو ان ليس امامهما الا خمسة اعوام او ستة .
وبعد ذلك ... بعد ذلك ، تتحدث ايفيش عن عزمها على الانتحار ،
ولكني مطمئن ، فهي لم تجرؤ ابدأ : انما هما سيحركان رماداً . لقد
تجمعت وجهي ، في آخر المطاف ، ولي جلد تمساح ، وخصلات تتعقد ،
ولكن لا تزال امامي انا سنوات اعيشها .. لقد بدأت اعتقد اننا نحن
الذين كنا شباناً . كنا نريد ان نصبح رجالاً ، وكنا مضحكين ،
ولكني أتساءل عما اذا كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الشباب هي ان لا
ينسأ المرء . « ولكنه ظل على قلق ، وكان يحسهما فوق ، رأساً الى
رأس ، متهامسين ضالعين ، وقد كانا مع ذلك ساحرين . وسأل :

— هل جاء دوري ؟

فأجابت المرأة السمينة باستياء :

— لحظة يا سيدي . عندي زبون قد طلب « امستردام » .

وانفتل ماتيو وخطا خطوات : « لم استطع ان آخذ المال ! »
وكانت امرأة تهبط السلم ، منتعشة خفيفة ، من هاتيك اللواتي يقطن
بوجوه فتيات صغيرات : « اريد ان ابول ! » ورأت ماتيو فترددت
ثم استعادت مشيتها بخطى واسعة ، ينبعث منها العطر والجلد . ودخلت
الى المغاسل . « لم استطع ان آخذ المال : ان حريتي اسطورة . اسطورة
— كان برونيه على حق — وحياتي تنبني تحتها في دقة آلية . عدم ،
الحلم الفخور الكئيب بالأا اكون شيئاً ، بأن اكون دائماً شيئاً آخر غير
ما انا . انما انا اتصنع الطفولة مع هذين الصغيرين منذ عام ، حتى لا
اكون في سني الحقيقية . عبث : فاني رجل ، شخص كبير ، انه
شخص كبير ، سيد ؛ ذلك الذي قبل ايفيش الصغيرة في تاكسي .
وانما انا اكتب في صحف يسارية حتى لا اكون في طبقتي . عبث :
فاني بورجوازي ، لم استطع ان آخذ مال لولا ، لقد اخفاني مقدساتهم .

وحى افلت من حياتي ، اهنس ذات اليمين وذات اليسار ، بعد استئذان
مارسيل ، بأني ارفض في عناد ان اقصد المختارية ؛ عبث : فأنا
متزوج ، واعيئ حياة زواج . « وكان قد تناول الدليل ، وكان
يقلب صفحاته في شرود وقرأ : « هوليبك : مؤلف مسرحي ، الشمال
٧٧ - ٨٠ » وكان يحس بألم في معدته ، وقال : « هكذا . ان
ارادتي بأن اكون ما أنا ، هي الحرية الوحيدة الباقية لي . حريتي
الوحيدة : ارادة الزواج بمارسيل . » وكان متعباً جداً بأن يحس نفسه
متأرجحاً بين تيارات متضادة حتى انه استشعر من ذلك بعض العزاء .
وضغط على قبضتيه ، ولفظ داخلياً برصانة شخص كبير ، بورجوازي ،
سيد ، رب اسرة : « اريد ان اتزوج مارسيل . »

تفه ! كانت كلمات ، وكان اختياراً طفولياً عابثاً . وفكر :
« هذا ايضاً ، هذا ايضاً كذب : لست بحاجة الى ارادة لكي اتزوجها ؛
فليس لي الا ان ادعني امضي . » واغلق الدليل ، وكان ينظر مرهقاً
الى بقايا كرامته الانسانية . وفجأة خيل اليه انه كان يرى حريته .
كانت خارج المتناول ، قاسية جامحة كالجمال : وكانت تأمره بصراحة
ان يتخلى عن مارسيل ، . ولم تدم الا لحظة ، هذه الحرية التي لا
تُشرح ، والتي كانت تأخذ مظاهر الجريمة ؛ لقد لمحها لمحاً : وكانت
تخفيه ، ثم انها كانت بعيدة . وظل مستنداً الى ارادته الانسانية اكثر
ما ينبغي ، الى هذه الكلمات الانسانية اكثر مما ينبغي : « سوف
اتزوجها . »

قالت عاملة التالفون :

- هذا دورك يا سيدي خذ الغرفة الثانية .

قال ماتيو : - شكراً ؛

ودخل الغرفة .

- ارفع الساعة يا سيدي .

- فرغ ماتيو السماعه بوداعة :
- آلو ؟ توودين ١٠ - ٣٥ ؟ انها مخابرة للسيدة مونثيرو . كلا ، لا تزعجوها . وانما يصعد من يقول لها بعد حين ان المخابرة من السيد بوريس : انه لا يستطيع ان يأتي .
- قال الصوت السيد موريس ؟
- كلا ، ليس موريس ، وانما بوريس . لا يستطيع ان يأتي . نعم . هكذا . شكراً . الى اللقاء يا سيدتي .
- وخرج ، وفكر وهو يحك رأسه : « لا بد ان مارسييل تروح الآن وتجيء حائرة ، وعليّ ان اتلفن لها ما دمت هنا . » ونظر الى عاملة التلفون نظرة مترددة فسألته :
- هل تريد رقماً آخر ؟
- نعم . اعطيني « مسيغير ٢٥ - ٦٤ »
- وكان رقم ساره . وقال :
- آلو ساره ، انا ماتيو .
- فقال صوت ساره الحشن :
- آلو صباح الخير . ما الاخبار ؟ هل دبّرت الامر ؟
- فقال ماتيو : - على الاطلاق . ان الناس لا يعطون المال الا بشق النفس . والحق اني اريد ان اسألك : الا تستطيعين ان تقصدي ذلك الرجل وترجيه ان يمهلني في الدفع حتى آخر الشهر ؟
- ولكنه يكون قد سافر ، في آخر الشهر .
- سأرسل له المال الى اميركا .
- وكانت لحظة صمت قصيرة ، وازافت ساره في غير حماسة :
- استطيع ان احاول على اي حال ، ولكن ذلك لن يتم بسهولة . انه عجوز شحيح جداً ، ثم انه يجتاز الآن مرحلة حساسية صهيونية

- شديده ، فهو يكره كل ما ليس يهودياً منذ طردوه من فيينا .
- حاولي على اي حال ، اذا كان هذا لا يزعجك .
 - هذا لا يزعجني على الاطلاق . سأقصدته فوراً بعد الفطور .
 - قال ماتيو : - شكراً يا ساره . انت شخص من ذهب .

قال بوريس : - انه غير منصف على الاطلاق .
 قالت ايفيش : - اجل ، اذا كان يتصور انه ادى خدمة للولا !
 وضحكت ضحكة قصيرة جافة ، وصمت بوريس راضياً : لم يكن
 ثمة من يفهمه خيراً من ايفيش . ولفت رأسه الى سلم المغاسل وفكر
 في قسوة : « الحق انه قد تجاوز حدوده . ان على المرء الا يتحدث
 انساناً على النحو الذي حدثني به . انا لست هورتيغير » وكان ينظر
 الى السلم ، وكان يأمل ان يسم لها ماتيو وهو صاعد . وظهر ماتيو
 مرة اخرى ، وخرج من غير ان يوجه لها بسمه ، فشق ذلك على
 بوريس .

وقال : - انه يبدو فخوراً جداً .

- من ؟

- ماتيو . لقد خرج اللحظة .

فلم تجب ايفيش بشيء . وكان يبدو عليها مظهر الحياء ، وكانت
 تنظر الى يدها المعصوبة .

وقال بوريس : - انك عاتب علي . وهو يجد اني لست اخلاقياً .

قالت ايفيش : - نعم ، ولكن هذا سيزول عنه سريعاً . (وهزت

كتفيها) اني لا احبه حين يكون اخلاقياً .

فقال بوريس : - اما انا ، فأحبسه . (واضاف بعد تفكير)
ولكني اكثر اخلاقية منه .

قالت ايفيش : - بف ! (وتأرجحت قليلاً على المقعد الصغير ،
وكانت تبدو ساذجة سمينة الخدين ، وقالت بلهجة ماجنة) اني انا لا
اكثرث بالاخلاق . لا اكثرث بها .

واحسن بوريس بأنه وحيد جداً . وقد كان يودّ لو يقترب من
ايفيش ، ولكن ماتيو كان لا يزال بينهما . وقال :

- انه غير منصف . فهو لم يدع لي الوقت لأشرح موقفني .

فقالت ايفيش بلهجة عادلة :

- هناك اشياء لا يمكن ان تُشرح له .

فلم يحتج بوريس . وكان ذلك بدافع العادة ، ولكنه كان يعتقد
بأن من الممكن شرح كل شيء لماتيو حين يكون هادئ المزاج . وكان
يخيل اليه دائماً انها لم يكونا يتحدثان عن الـ « ماتيو » نفسه : فان
« ماتيو » ايفيش كان أنفه .

وضحكت ايفيش ضحكة خفيفة وقالت :

- كم انت عنيد ، ايها البغل الصغير !

فلم يجب بوريس ، وكان يمضغ ما كان لا بدّ ان يقوله لماتيو :
بأنه لم يكن وحشاً صغيراً انانياً ، وانه اصيب بهزة عنيفة حين اعتقد
بان لولا قد ماتت . بل هو قد استشعر ذات لحظة بأنه سيتألم وان ذلك
قد ادهشه . كان يجد الألم لااخلاقياً ، ثم انه لم يكن يطيق حقاً ان
يتحمّله . واذا ذاك بذل جهداً لنفسه ، بدافع الاخلاق . فسُدّ شيء
ما ، وحدث انقطاع ، وكان لا بدّ من الانتظار لعودة الامر الى
نصابه .

ضحكت ايفيش ضحكة صغيرة جرحت بوريس . فأضاف بدافع
من عدالة :

- لا بدّ أنها في هذه اللحظة تتألم .

- هذا صحيح .

قال : - انا لا اريد ان تتألم .

فقالت ايفيش بصوت مغنٍ : - ليس عليك اذن الا ان تذهب

فراها .

ففهم انها كانت تنصب له شركاً واجاب بحوية :

- لن اذهب . انها اولاً ... انني ما زلت أراها ميتة . ثم اني لا

اريد ان يتصور ماتيو انه يستطيع ان يعتبرني جاهلاً بليداً .

انها لن تستسلم ، بصدد هذا ، فانه لم يكن هورتيغير . وقالت

ايفيش في عدوبة :

- صحيح بعض الشيء انه يعتبرك جاهلاً بليداً .

وكان هذا لؤماً ، ادركه بوريس من غير غضب : كان قصد

ايفيش وجيهاً . فقد كانت تريد ان يقطع علاقته بلولا ، وكان هذا

من اجل صالحه . وكان الجميع ينظرون الى صالح بوريس . ولكن هذا

الصالح كان يتغير وفق الاشخاص . واجاب في هدوء :

- انني اناظهر بهذا امامه . وهذه هي خطي معه .

ولكنه كان قد أصيب في صميمه ، وكان غاضباً على ماتيو . وتلملم

قليلاً على المقعد فنظرت اليه ايفيش نظرة قلقة وقالت :

- انك تفكر اكثر مما ينبغي يا عزيزي . ليس عليك ان تتصور

الا انها ماتت حقاً .

فقال بوريس : - سيكون هذا موافقاً لي ، ولكني لا استطيع .

فراق ذلك لايفيش وقالت :

- غريب .. اما انا فاستطيع ، حين اكف عن رؤية الناس ، فانهم

لا يوجدون بعد .

فتأمل بوريس اخته باعجاب وصمت : انه لم يكن يستشعر مثل هذه

القوة الروحية . وقال بعد لحظة :

- انني اتساءل عما اذا كان قد اخذ المال . سيزيد الطين بلة لو فعل !

- اي مال ؟

- مال لولا . كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .

- عجباً !

وبدا على ايفيش الاستياء والدهشة . وتساءل بوريس عما اذا لم يكن من الافضل ان يمسك لسانه . صحيح ان العهد كان ان يتصارحا بكل شيء ، ولكن كان بالامكان ، بين الفينة والفينة ، ان يُجرى استثناء على القاعدة . وقال :

- يبدو انك ناقمة على ماتيو .

فزمت ايفيش شفيتها وقالت :

- انه يثير اعصابي : كان هذا الصباح يعتبرني رجلاً .

قال بوريس : - نعم ...

وكان يتساءل عما كانت ايفيش تعني ، ولكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك : كان عليها ان يتفاهما بالكلام القليل ، والآن بطل السحر . وحلّ بينهما صمت ، ثم اضافت ايفيش فجأة :

- لترحل . انني لا استطيع ان اطيق « الدوم » .

قال بوريس : - وانا كذلك .

ونفضا وخرجا . واخذت ايفيش ذراع بوريس . وكانت لدى

بوريس رغبة خفيفة وعنيدة بان يقيء . وسألها :

- اتظنين انه سيظلّ غاضباً وقتاً طويلاً ؟

قالت ايفيش نافذة الصبر : - كلا ، كلا .

فقال بوريس في خبث :

- انه غاضب عليك ايضاً .

فأخذت ايفيش تضحك :
- هذا ممكن جداً ، ولكني سأسف لذلك فيما بعد . ان في رأسي
هموماً اخرى .

قال بوريس باضطراب : - صحيح ، انك منزعجة .
- جداً .

- بسبب امتحانك ؟

فهزت ايفيش كتفيها ولم تجب . وسارا بضع خطوات صامتتين .
وكان يتساءل عما اذا كان ذلك حقاً بسبب امتحانها . وكان يتمنى لو
كان ذلك كذلك : فان هذا اوفر اخلاقية .

ورفع عينيه ، فرأى ان جادة مونبارناس كانت عظيمة تحت هذا
النور الرمادي . ان المرء ليحسب نفسه في تشرين الاول . وكان بوريس
يجب كثيراً شهر تشرين الاول . وفكر : « في تشرين الماضي ، لم
أكن اعرف لولا . » وفي اللحظة نفسها احس بأنه متحرر : « انها
حيّة » وللمرة الاولى ، منذ ترك جثتها في الغرفة المظلمة ، كان يحس
بانها حيّة ، وكان ذلك بمثابة البعث . وفكر : « ليس من الممكن ان
يظل ماتيو ناقماً عليّ مدة طويلة ما دامت لم تمت . » وحتى هذه
الدقيقة ، كان يعلم انها كانت تتألم ، وانها كانت تنتظره في الضيق ،
ولكن ذلك الالم وهذا الضيق كانا يبدوان له غير قابلين للمعالجة
وثابتين كألم الذين ماتوا يائسين . ولكن كان هناك خطأ : كانت لولا
على قيد الحياة ، وكانت ترتاح في سريرها مفتوحة العينين ، وكان
يعمر صدرها غضباً صغيراً جيّ ، كذلك الذي كان يعمره حين كان
يصل متأخراً الى الموعد المضروب . غضب لم يكن دون غضب الآخرين
احتراماً او اكثر منه . ربما كان اقوى . ولم يكن له ازاءها تلك
الواجبات المخيفة التي يفرضها الاموات ، بل واجبات رصينة ، واجبات
عائلية على العموم . وهكذا استطاع بوريس ان يبتعث وجه لولا من

غير اشمزاز او استفظاع . ولم يكن وجه ميته ، ذلك الذي استجاب للنداء ، وانما كان ذلك الوجه النضر الغاضب السذي ادارته نحوه ليلة الامس حين كانت تصرخ به : « لقد كذبت علي » ، فانت لم ترَ بيكاره » وفي الوقت نفسه ، استشعر حقداً صلباً ضد هذه الميثة المزيفة التي خلقت كل هذه الكوارث . وقال :

- لن اعود الى فندي . فهي جديرة بان تقصده .

- اذهب فم لدى كلود .

- نعم .

وخطرت لايفيش فكرة :

- عليك ان تكتب لها . سيكون ذلك أنسب .

- اكتب للولا ؟ اوه ! كلا .

- بلي .

- لن اعرف ماذا اقول لها .

- سأكتب لك هذه الرسالة ، ايها الابله الصغير .

- ولكن ماذا تقولين فيها ؟

فنظرت اليه ايفيش بدهشة :

- الا تريد ان تقطع علاقتك بها ؟

- لا ادري .

فبدا الانزعاج على ايفيش ، ولكنها لم تلح . وكانت لا تلح قط ، وكان هذا يناسبها . ولكن مها كان الامر ، فان على بوريس ان يكون دقيقاً حذراً بين ماتيو وايفيش : اما الآن فان رغبته في فقد لولا لم تكن اشد منها في رؤيتها من جديد . وقال :

- سنري . لن يجدي التفكير بذلك الآن .

وكان "بحس" بالرضى في هذه الجادة ، وكان للناس وجوه طيبة ، وكان يعرفهم كلهم تقريباً بالنظر ، ثم انه كان ثمة شعاع شمس مرع

بلامس زجاج « حانوت الليلك » وقالت ايفيش :

- اني جائعة . وسوف اتناول الفطور .

ودلقت الى مقهى « ديماريا » فانتظرها بوريس في الخارج . واحس انه ضعيف واهن العاطفة كأنه ناقه ، وكان يتساءل عما يمكنه ان يفكر به ليحصل على لذة صغيرة . ووقع اختياره فجأة على « القاموس التاريخي والاشتقائي للغة العامية » فابتهج . كان القاموس الآن على طاولته الليلية ، ولم يكن يرى سواه . وفكر باغتياب : « انه قطعة اثاث . لقد كانت ضربة معلم . » ولما كانت السعادة لا تأتي وحدها ، فقد فكر ايضاً بالسكين ، فأخرجه من جيبه وفتحه : « اني محظوظ ! » كان قد اشتراه ليلة امس ، وقد اصبح لهذا السكين تاريخ ، فهو قد شق بشرة كائنين هما اعز الكائنات لديه . وفكر : « انه يقطع جيداً » . ومرت امرأة فنظرت اليه في الحاح . وكانت مرتدية ثياباً غاية في الاناقة . والتفت ليراها من ظهرها . وكانت قد التفتت هي ايضاً ، فتبادلا نظرة ود .

وقالت ايفيش : - هأنذا .

وكانت تحمل تفاحتين كبيرتين من تفاح كندا . وفركت احداهما على مؤخرتها ، حتى اذا اصبحت ملتمة جداً ، عضتها بيئها مدت الأخرى لبوريس : فقال بوريس :

- لا ، شكراً . لست جائعاً . (واضاف) انك تثيرين نفوري .

- لماذا ؟

- انك تفركين تفاحتك على قفاك .

فقالت ايفيش : - ذلك لألمعها .

قال بوريس : - انظري الى المرأة الذاهة . لقد احسست نحوها

بانجذاب .

وكانت ايفيش تأكل بطريقة ساذجة ، فقالت وفيها ممتلئ :

— وهذه ايضاً ؟

قال بوريس : — ليس من هذه الجهة ، وانما خانك .
فالتفت ايفيش ورفعت حاجبها وقالت ببساطة :
— انها جميلة .

— هل رأيت ثيابها ؟ ان حياتي لن تنقضي قبل ان تكون لي امرأة
كهنه . امرأة من الوسط الراقي . ولا بد ان ذلك ممتع .
وكانت ايفيش ما تزال تنظر الى المرأة التي كانت تبعد . وكان
في كل يدٍ من يديها تفاحة ، وكان يبدو كأنها تبسطها لها . وقال
بوريس في كرم :

— وحين اتعب منها ، اعطيك اياها .

وعضت ايفيش تفاحتها مرة جديدة وقالت :
— هكذا اذن .

وتناولت ذراعه وجذبتة فجأه . وكان على الجانب الأخر من جادة
مونبارناس مخزن ياباني . فعبرا الرصيف ووقفا امام المعروضات . وقالت
ايفيش .

— انظر الى الاقداح الصغيرة .

قال بوريس : — انه « للساكي »

— وما هذا !

— عصير الارز الياباني .

— سأتي لأشترى بعضها ، واجعلها فناجين شاي .

— انها اصغر مما ينبغي .

— سأملأها عدة مرات بالتالي .

— او انك تستطيعين ان تملئي ستة دفعة واحدة .

فقالت ايفيش مفتونة .

— نعم . سيكون امامي ستة اقداح مربعة . فأشرب تارة من احدها ،

وقارة من الآخر .

وتراجعت قليلاً وقالت بلهجة هوس ، وهي تكثر بأسنانها :
- اوه ! اود لو اشترى الخانوت كله .

وكان بوريس ينتقد ذوق اخته في اختيار هذه التحف . ومع ذلك فقد اراد ان يدخل الخانوت ولكن ايفيش امسكته .

- ليس اليوم . تعال .

وعادا يصعدان شارع دانفير - روشرو ، وقالت ايفيش :

- لكي احصل على مثل هذه الاشياء الصغيرة - ما يملأ غرفة

كاملة - ربما بعث نفسي لشيوخ عجوز !

فقال بوريس بقسوة : - لن تستطيعي ذلك . فهذه مهنة ، وهي

تحتاج الى تعلم .

وكانا يسيران ، وكانت هذه لحظة سعادة ؛ وكانت ايفيش قد

نسيت ، بالتأكيد ، امتحانها ، اذ كانت تبدو جدلة . في هذه اللحظات ،

كان بوريس يحس بأنهما لا يشكّان بعد الا شخصاً واحداً . وكان

في السماء قطع كبيرة زرقاء وسحاب بيضاء تعلي : كانت اوراق الشجر

مثقلة بالمطر ، وكان ذلك يبعث رائحة نار الحطب . كما في شارع

قرية كبير . وقالت ايفيش وهي تشرع في التهام تفاحتها الثانية :

- احب هذا الطقس . صحيح ان هناك بعض الرطوبة ، ولكنه

لا يديق . ثم انه لا يؤذي العيون . اني احسني قادرة على السير

عشرين كيلومتراً .

وتذكر بوريس في خفاء انه كان ثمة مقاه مجاورة . وحين تتحدث

ايفيش عن قدرتها على السير عشرين كيلومتراً ، فما لا ريب فيه انها

ستطلب الجلوس بعد ذلك توأ .

ونظرت الى اسد « بلفور » وقالت في نشوة :

- هذا الاسد يعجبني . انه ساحر .

قال بوريس : - يعني ...
وكان يحترم ذوق اخته حتى ولو لم يكن يقاسمها اياه . والحق ان
ماتيو قد كفل ذلك ، فقد قال له يوماً : « ان لأختك ذوقاً رديئاً ،
ولكنه افضل من اوثق ذوق : انه ذوق رديء عميق . » ولم يكن ثمة
 مجال للمناقشة في هذه الظروف . ولكن بوريس كان شخصياً ميالاً الى
الجمال الكلاسيكي . وسألها :

- هل نسيت جادة « ارغو » ؟

- وايتها هي ؟

- هذه .

فقالت ايفيش : - أحبذ ذلك . فانها شديدة البريق .

ومشيا في صمت . ولاحظ بوريس ان اخته كانت تتجههم وتصبح
عصبية ، وكانت تتقصّد ان تمشي وهي تلوي قدميها ، ففكر في ذعر
متطامن : : « سيبدأ الاحتضار ! » وكانت ايفيش تدخل في الاحتضار
كلما كانت تنتظر نتائج احد الامتحانات . ورفع عينيه ورأى اربعة عمال
قادمين في اتجاههما وهم ينظرون اليهما ضاحكين . وكانت ايفيش خافضة
الرأس فلم ترهم على ما يبدو . وحين وصل الشبان الاربعة اليهما ،
افترقوا : فمر اثنان منهما الى يسار بوريس ، والآخران الى يسار
ايفيش .

وقال احدهم مقترحاً : - هل نعمل « سندويش » ؟

فقال بوريس بلطف : - قبحك الله يا وجه الضراط !

وفي تلك اللحظة قفزت ايفيش في الهواء وارسلت صرخة ثاقبة
سرعان ما خففتها وهي تضع يدها امام فمها . وقالت وقد احمرت
خجلاً :

- اني اقف كفتاة مطبخ . لقد كان العمال الشبان بعيدين .

فسألها بوريس دهشاً : - ماذا هناك ؟

قالت ايفيش في اشمزاز : - لقد لمسني . يا للقدر !
واضافت في قسوة : - لا بأس . كان ينبغي الا اصرخ .
فسألها بوريس مُهاناً : - أيتهم ؟
فأمسكته ايفيش :

- ارجوك ، احتفظ برباطتك . انهم اربعة . ثم انه يكفيني ما
اصابني من هزؤ .

وقال بوريس موضعاً : - ليس ذلك لأنه لمسك . ولكني لا
استطيع ان اتحمل ان يفعلوا لك ذلك حين اكون معك . حين تكونين
مع ماتيو ، لا يمسك احد . فكيف تراني ابدو ؟
قالت ايفيش بحزن : - هكذا يا عزيزي الصغير . وانا كذلك لا
احميك . اننا لا نوحى بالاحترام .

وكان هذا صحيحاً . وكان بوريس يعجب لذلك غالباً : حين كان
ينظر الى نفسه في المرأة ، كان يجد ان هيئته مرعبة . وردد :

- نعم ، اننا لا نوحى بالاحترام .

وضمّ احدهما الآخر ، واحسّاً بأنهما يتيمان .

وبعد لحظة سأله ايفيش : - ما هذا ؟

وكانت تشير الى جدار طويل اسود عبر خضرة شجر الكستناء .
فقال بوريس :

- انه « السانتيه » . سجن .

قالت ايفيش : - عظيم . اني لم أر في حياتي اكأب منه . هل يفر
منه السجناء ؟

فقال بوريس : - هذا نادر . لقد قرأت ان سجيناً قفز مرة من

فوق الجدار فتعلق في غصن ضخّم لشجرة كستناء ثم هرب .

وفكرت ايفيش ثم اومأت بأصبعها الى شجرة كستناء وقالت :

- لعلها هذه . ما رأيك بأن نجلس على المقعد هناك ؟ اني متعبة .

فربما رأينا سجيناً آخر يقفز .

فقال بوريس على غير اقتناع :

- ربما . ولكنهم يفعلون ذلك ليلاً على ما اعتقد .

واجتازا الرصيف وراحا يجلسان . وكان المقعد مبتلاً ، وقالت

ايفيش في رضى :

- انه رطب .

ولكنها ما لبثت ان بدأت تتململ وتشد على خصلاتها . وكان على

بوريس ان يربّت على يدها حتى لا تنتزع شعرها . وقالت ايفيش :

- للمس يدي . انها مثلجة .

وكان هذا صحيحاً . وكانت ايفيش قبيحة ، وكان يبدو انها

تتألم ، وكان جسمها كله يهتز بالانتفاضات الصغيرة . وراها بوريس

حزينة جداً حتى انه حاول ان يفكر بلولا ، بدافع الود .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة : وكانت تبدو عليها هيئة العزم المظلم .

وسألته :

- هل معك زهرك ؟

- نعم .

وكان ماتيو قد اعطى ايفيش ورق لعب في محفظة جلدية صغيرة ،

فأهدته ايفيش الى بوريس ، وكانا يلعبان به غالباً . وقالت :

- لنلعب .

فأخرج بوريس الزهر من المحفظة . واضافت ايفيش :

- « مانشان » و « جميلة » ابدأ .

وابتعد احدهما عن الآخر . واقعد بوريس الحجر ودحرج الزهر

على المقعد . وكان قد سحب بوكر ملوك ، وقال :

- ضربة موفقة .

قالت ايفيش : - اني اكرهك .

وَقَطَّبَتْ حَاجِبِيهَا وَقَبْلِ أَنْ تُحْرِكَ الزَّهْرَ تَفَحَّتْ عَلَى أَصَابِعِهَا وَهِيَ
تَدْنِدُنُ . وَكَانَ ذَلِكَ تَضَرُّعًا . وَفَكَرَ بُوْرِيْسُ : « أَنْ الْأَمْرَ جَدٌ ، فَهِيَ
تَرَاهُنْ عَلَى نَجَاحِهَا فِي الْأَمْتِحَانِ » وَرَمَتْ إِيْفِيْشُ الزَّهْرَ فَخَسِرَتْ : أَدَّ
حَصَلَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَيِّدَاتٍ . وَنَظَرَتْ إِلَى بُوْرِيْسٍ بَعِيْنِيْنِ يَتَطَايِرُ
مِنْهَا الشَّرْرَ وَقَالَتْ :
- إِلَى الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ .

وَسَحَبَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ ثَلَاثَةَ آسَاتٍ وَصَرَخَتْ : « ضَرْبَةٌ مُوَفَّقَةٌ » .
وَقَذَفَ بُوْرِيْسُ الزَّهْرَ وَكَانَ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى بُوْكَرِ آسٍ .
وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَا غَايَةَ سِبَاقِهِمَا ، مَدَّ يَدَهُ بِحِجَّةٍ أَنَّهُ يَلْمُ الْوَرَقَ ، ثُمَّ
دَفَعَ وَرَقَتَيْنِ دَفْعَةً خَفِيَّةً بِطَرَفِ سِبَاتِهِ وَأَصْبَعَهُ الْوَسْطَى ، فَجَاءَ مُلْكَانُ
مَكَانَ الْآسِ وَالْبُوْكَرِ ، فَإِذَا هُوَ يَعلَنُ بِلَهْجَةٍ غِيْظٍ :
- زَوْجَانِ .

فَقَالَتْ إِيْفِيْشُ مُنْتَصِرَةً : - لَقَدْ جَاءَنِي أَنَا « مَانِشُ » آخِرًا .
وَكَانَ بُوْرِيْسُ يَتَسَاعَلُ عَمَّا إِذَا كَانَتْ قَدْ رَأَتْهُ يَغْشَى . وَلَكِنْ ذَلِكَ
كَانَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ بِدُونِ أَهْمِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ : أَنْ إِيْفِيْشُ لَمْ تَكُنْ تَهْتَمُ إِلَّا
بِالنَّتِيْجَةِ . وَقَدْ رَجَحَتْ بِزَوْجِيْنِ مُقَابِلِ زَوْجٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَدَخَلَ :
وَقَالَتْ بِبَسَاطَةٍ :

- طَيِّبٌ !

- هَلْ تَرِيْدِيْنِ أَنْ تَلْعَبِيْ بَعْدَ ؟

فَقَالَتْ : - لَا ، هَذَا حَسَنٌ . أَنْتِ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ الْعَبَّ لِأَعْرِفُ
أَنْ كُنْتُ سَائِجِحٌ .

قَالَ بُوْرِيْسُ : - لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ؛ حَسَنًا : لَقَدْ نَجَحْتِ :

فَهَزَّتْ إِيْفِيْشُ كَتْفَيْهَا وَقَالَتْ :

- لَا أَوْمَنْ بِذَلِكَ .

وَصَمَتَا وَظَلَا جَالِسِيْنِ مُتَقَارِبِيْنِ ، خَافِضِي الرُّأْسِ . وَلَمْ يَكُنْ بُوْرِيْسُ

ينظر الى ايفيش ولكنه كان يشعر بأنها ترنجف . وقالت ايفيش :
- ان الحر يضايقي ، اية فظاعة : ان يدي دبتان ، وانا دبة
من فرط الضيق .

والواقع ان يدها اليمنى التي كانت منذ لحظة باردة جداً ، اصبحت
ملتهبة . اما اليسرى فقد كانت تستريح جامدة معصوبة على ركبتيها .
وقالت :

- ان هذا الضهاد يثير اشمزازي . اني أشبه احد مشوهمي الحرب ،
وانا شديدة الرغبة في انتزاعه .

فلم يجب بوريس . ودقت ساعة في البعيد دقة . فانفضت ايفيش
وسألت بصوت شرود :

- انها الثانية عشرة والنصف ؟

فقال بوريس وهو يراجع ساعته :

- انها الواحدة والنصف .

وتبادلا النظر فقال بوريس :

- لقد آن الوقت لأن اذهب الى الجامعة .

فالتصقت به ايفيش وأحاطت كتفيه بذراعيها :

- لا تذهب يا عزيزي بوريس . اني لا اريد ان اعرف شيئاً .

- مأسافر الى لاون هذا المساء و ... لا اريد ان اعرف شيئاً .

فقال لها بوريس في لطف :

- انك تستسلمين . يجب ان تعلمي الحقيقة قبل ان تواجهي الاهل .

فتركت ايفيش ذراعيها تسترخيان وقالت :

- اذن اذهب . ولكن عد بأسرع وقت ممكن . اني انتظرك هنا :

فقال بوريس مشدوهاً :

- هنا ؟ الا تفضلين ان نقطع الطريق معاً ؟ سنتنظريني في مقهى

من مقاهي الحي اللاتيني .

قالت ايفيش : - لا ، لا ، بل سأنتظر هنا .
- كما تريدن . واذا هطل المطر ؟
- بوريس ، ارجوك ، لا تعذّبي . اسرع . سأبقى هنا ، حتى
ولو هطل المطر ، حتى ولو زلزلت الارض . انني لا استطيع ان
انهض على ساقي ، وليست لدي القوة بعد لأرفع إصبعاً واحدة .
ونهض بوريس وراح يسير على عجل . وحين عبر الطريق التفت
مرة اخرى . وكان يرى ايفيش من ظهرها : كانت مسترخية على
مقعدتها ، وقد غرق رأسها في كتفيها ، وكانت تشبه شحاذة مسنة :
وقال في نفسه : « لعلها ستكون ناجحة ، بالرغم من كل شيء » .
وخطا بضع خطوات ، وتمثل فجأة وجه لولا . وجهها الحقيقي . وفكر :
« انها شقية ! » واخذ قلبه يخفق خفقاً عنيفاً .

بعد لحظة . بعد لحظة يواصل بحثه الذي لا طائل تحته ؛ بعد لحظة ، تلاحقه عينا مارسيل الحاقدتان المتعبتان ، ووجه إيفيش الهارب ، وقناع لولا الجنائزي ، سيجد مرة أخرى مذاق حمى في جوف فمه ، وسيأتي الضيق ليسحق معدته . بعد لحظة . واستغرق في أريكته واشعل غليونه ؛ وكان خالياً وهادئاً ، وكان مستسلماً لرطوبة الحانة المظلمة . وكان هناك ذلك البرميل المبرنق الذي كان بمثابة طاولة ، وصور اولئك المثلاث وقبعات البحارة تلك المعلقة بالجدران ، وذلك الجهاز اللاسلكي الذي لا يرى والذي كان يوشوش كنافورة ماء ، واولئك السادة الضخام الاثرياء الجميلون الذين يدخنون السيجار في جوف القاعة وهم يشربون البورتو - الزبائن الآخرون ، رجال اعمال ، اذ كان الآخرون قد ذهبوا ليفطروا منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة في حوالى الواحدة والنصف ، ولكن كان من اليسير ان يتصور المرء انه كان الصباح وان النهار كان هناك ، هادئاً ، كبحر وديع ، وكان ماتيو يدوب نفسه في هذا البحر الذي لا حماسة له ولا موج ، ولم يكن بعد الا نغمة لا تكاد تُسمع ، ضججة من اصوات متميزة ، نوراً ذا لون صديء وهدهدة لجميع هذه الايدي الجميلة الجراحية التي كانت تتأرجع وهي تحمل السيجار ، كقوافل تحمل التوابل . وكان يعلم جيداً انهم

أما يعرفونه هذه القطعة الضئيلة من الحياة الفاعرة ، وان عليه أن يرد
بعد حين ، ولكنه كان يفيد منها بلا جشع : ان العالم ما يزال يحتفظ
للاشخاص الهالكين بكثير من المباهج الصغيرة المتواضعة ، بل هو يحتفظ
لهم بمعظم نعمه العابرة ، شريطة ان يستمتعوا بها في تواضع . وكان
دانيال جالساً الى يساره بأبهة وصمت . وكان ماتيو يستطيع على هواه
ان يتأمل وجهه الجميل ، وجه شيخ عربي ، وكانت تلك ايضاً بهجة
صغيرة للعيون .

ومدّ ماتيو ساقيه وابتسم لنفسه . وقال دانيال :
- اني اوصيك خيراً بخمر « كزيريس » الذي يشربونه .
- حسناً ، ولكنك ستقدم لي منه قدحاً : فأنا لا املك فلساً .
فقال دانيال : - اقدمه لك . ولكن قل لي : اتريد ان اعيرك
معي فرنك ؟ اني خجل من أن أعرض عليك هذا المبلغ الضئيل ...
قال ماتيو : - لا ، لا حاجة الى ذلك .
وكان دانيال قد أدار نحوه عينيه الكبيرتين اللطفتين . وألح :
- أرجوك . ان معي أربعمئة فرنك حتى آخر الأسبوع : وسوف
نتقاسها .

وكان ينبغي ان يتجنب قبولها ، فان ذلك لم يكن من قواعد اللعبة .
فقال ماتيو :

- لا ، لا . أوكد لك . انك لطيف جداً .

وكان دانيال يتنقل عليه نظرة مساعدة كثيفة :

- أأست حقاً محتاجاً الى شيء ؟

قال ماتيو : - بلى ، أنا محتاج الى خمسة آلاف فرنك ، ولكن
ليس في هذه اللحظة . في هذه اللحظة أنا محتاج الى قدح كزيريس
والي محادثتك .

فقال دانيال : - أتمنى ان تكون محادثتي في مستوى الكزيريس :

ولم يكن قد أشار أية إشارة الى رسالته المستعجلة ، ولا الى الاسباب التي حملته على استدعاء ماتيو . والحق أن ماتيو كان يحمده له ذلك : فلا بد ان هذا آت عما قريب . وقال :
- إسمع : لقد رأيت برونيه ، أمس .
فقال دانيال بتأدب : - صحيح ؟
- أعتقد جيداً ان الامر قد انتهى بيننا هذه المرة .
- هل تنازعنا ؟

- لم نتنازع فقط ، بل فعلنا ما هو اسوأ .
وكان دانيال قد اتخذ مظهر الاسف ، فلم يستطع ماتيو أن يمتنع عن الابتسام ، وسأله :

- أترأى لا تكثر برونيه ، أنت ؟
فقال دانيال : - انني لم أكن حميمي الصداقة معه ، كما هو شأنك .
إنني أحترمه كثيراً ، ولكن لو كنت الحاكم لحشوته قشاً ووضعته في
« متحف الانسان » فرع القرن العشرين .
قال ماتيو : - إنه لن يبدو فيه وجهاً رديئاً .

وكان دانيال يكذب : فقد سبق له أن أحب برونيه كثيراً .
وتدوّق ماتيو الكزيريس .
وقال : - إنه لذيذ .

فقال دانيال : - نعم ، هذا أفضل ما عندهم . ولكن مؤونتهم تنفذ ، ولا يستطيعون أن يجدّوها بسبب حرب اسبانيا .
ووضع قدحه الفارغ وأخذ زيتونة من صحن وقال :
- أنعلم أني سأطعمك على سر ؟

وانتهى الامر : لقد تسلّت تلك السعادة المتواضعة الخفيفة في الماضي . ونظر ماتيو إلى دانيال من زاوية عينه : كان دانيال يتخذ مظهر النبالة والغموض . وقال ماتيو :

- هياً .
فقال دانيال بصوت مردّد : - إنني أتساءل عما سيخلف ذلك
في نفسك . إنني سأسّف إذا كنت ستحقق عليّ .
فقال ماتييو باسمّاً : - ليس لك إلا أن تتكلّم فتعلم تأثير ذلك .
- حسناً ، احزر من رأيت مساء أمس ؟
فردّد ماتييو خائباً : - من رأيت مساء أمس ؟ لست أدري ، فربما
رأيت جماعة كبيرة من الناس .

- مارسيل دوفيه .
- مارسيل ؟ عجباً .
ولم يندهش ماتييو كثيراً : صحيح أن دانيال ومارسيل لم يكونا قد
اجتمعا كثيراً ، ولكن كان يبدو على مارسيل أنها تكنّ الودّ لدانيال .
وقال :

- إنك محظوظ . هي لا تخرج أبداً . أين التقيت بها ؟
فقال دانيال مبتسماً : - في بيتها . فأين تريد أن يكون ذلك ، ما
دامت لا تخرج أبداً ؟
وأضاف وهو يخفض جفنيه بتواضع :

- اصارحك بأننا نتلاقى بين وقت وآخر .
وساد صمت ، وكان ماتييو ينظر الى جفون دانيال الطويلة السود
التي كانت تخفق قليلاً . ودقت ساعة الثانية ، وكان صوت زنجي
يغني على مهل : « هناك سرير في كارولين » إننا نتلاقى بين وقت وآخر .
وأدار ماتييو رأسه وثبتت نظره في الباقة الحمراء لقبعة بحار . وردّد
من غير أن يفهم :

- انكما تتلاقيان . ولكن ...
فقال دانيال في شيء من الانزعاج :
- في بيتها ، لقد قلت لك ذلك .

- في بيتها . أتعني انك تقصدها هناك ؟

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

- أية فكرة هذه ؟ وكيف حدث ذلك ؟

- الامر بكل بساطة اني كنت دائماً أكنّ ودّاً كبيراً لمارسيل

دوفيه . وكنت شديد الإعجاب بشجاعتهما وكرم نفسها

وصمت لحظة ، فردّد ماتيو في اندهاش : « شجاعة مارسيل وكرم

نفسها . » لم تكن هذه هي الصفات التي كان أكثر تقديرها لها لدى

مارسيل . وتابح دانيال :

- كنت ذات يوم ضجرأ ، فأخذتني الرغبة بأن أذهب فأدقّ بابها ،

واستقبلتني بترحاب . هذا كل ما في الامر : ومنذ ذلك الحين استمررنا

في اللقاء . وكانت غلظتنا الوحيدة أننا أخفينا عنك ذلك .

وغرق ماتيو في العطور الكثيفة ، وفي جوّ الغرفة الوردية : كان

دانيال جالساً على الكرسي ذي الوسادة ، ينظر إلى مارسيل بعينيه

الكبيرتين الوعليتين فتبتسم مارسيل بارتباك كما لو ان هناك من يريد

تصويرها . وهزّ ماتيو رأسه : إن ذلك لم يكن معقولاً ، كان

مستحيلاً وباعثاً على النفور ، لأن هذين الشخصين لم يكن يربطهما شيء

مشترك ، فلا يعقل ان يتفاهما .

- كنت تقصدها ، وقد أخفت عني ذلك ؟

وأضاف بهدوء :

- هذا مزاح .

فرفع دانيال عينيه وتأمّل ماتيو في غموض ، وقال بصوت عميق :

- ماتيو ، انت تعرف أنني لم أسمح لنفسني قط بأيّ مزاح حول

علاقاتك مع مارسيل ، فهي علاقات ثمينة جداً .

قال ماتيو : - انا لا أنكر ذلك . لا أنكر ذلك . ولكن هذا لا

يمنع أن يكون الامر مزاحاً .

فترك دانيال ذراعيه تسقطان ، ثابت الهمة ، وقال في أسي :
- حسناً . لنبق اذن عند هذه النقطة .
قال ماتيو : - لا ، لا . تابع . فانت طريف للغاية : كل ما
هنالك اني لا اصدق .
فقال دانيال في عتاب :
- ولكنك لا تيسر لي المهمة . انه يشق علي كثيراً ان اتهم
نفسي تجاهك . وهذا حسبي (وتنهدي) وكنت اود لو تصدق كلامي .
ولكن ما دمت بحاجة الى ادلة ...
وكان قد اخرج من جيبه محفظة محشوة بالاوراق المالية . ورأى
ماتيو الاوراق وفكر : « الدنيء ! » ولكن بكسل ، وشكلياً . وقال
دانيال :
- انظر .

ومد رسالة الى ماتيو ، فتناولها : كان خط مارسيل . وقرأ :
- « كنت على حق » ، شأنك دائماً ، يا ملاكي . كان هو الزهر
الذي ذكرت . ولكني لا افهم كلمة واحدة مما كتبت لي . موافقة
ليوم السبت ، ما دمت مشغولاً غداً . ان امي تقول بانها ستوتجحك
بشدة ، من اجل السكاكر . تعال بسرعة يا ملاكي ، سنتنظر زيارتك
بفارغ الصبر . مارسيل . »

ونظر ماتيو الى دانيال وقال :

- اذن ... هذا صحيح ؟

فاوماً دانيال برأسه : وكان متصباً مقطباً كشاهد مبارزة . واعاد
ماتيو قراءة الرسالة ، وكان تاريخها العشرين من نيسان . « لقد كتبت
هذا . » وكان هذا الاسلوب المصطنع لا يتم عنها . وفرك انفه في
تلمل ، ثم انفجر ضاحكاً :
- ملاك ، انها تدعوك ملاكاً ، وهذا ما لا يخطر على بالي .

انصوره ملاكاً سقط من السماء ، شخصاً من فئة «لوسيفير» . ثم انك ترى العجوز : لقد اكتملت الصورة .

فبدا دانيال مضطرباً ، وقال بجفاف :

– اقتنعت اخيراً ... لقد كنت اخشى ان تغضب ...

فأدار ماتيو رأسه اليه ونظر اليه في تردد ؛ وكان يرى جيداً ان دانيال كان يتوقع غضبه .

وقال : – هذا صحيح ، كان عليّ ان اغضب ، وهذا طبيعي .

ولكن اسمع : ربما جاء ذلك فيما بعد . اما الآن فانا مذهول .

وافرغ قدحه ، وقد اخذته الدهشة – بدوره – لأنه لم يغضب .

– وهل تراها غالباً ؟

– بصورة غير منتظمة . مرتين تقريباً في الشهر .

– ولكن ما عساكما تجدان للكلام ؟

فانتفض دانيال والتمعت عيناه . وقال بصوت اعذب مما ينبغي :

– انكون لديك موضوعات للتحدث تقترحها علينا ؟

فقال ماتيو بصوت مصالح :

– لا تغضب . ان هذا جديدٌ جداً ، غير متوقّع قط بالنسبة

إليّ ... حتى انه يسليّني تقريباً . ولكن ليست لي مقاصد سيئة . اذن ،

هذا صحيح ؟ انكما تجدان ان تتحدثا فيما بينكما ؟ ولكن – لا تصرخ ،

ارجوك ، فأنا اطلب الفهم ، باي شيء تتحدثان ؟

فقال دانيال في برودة :

– بكل شيء . ان مارسيل لا تنتظر مني بالطبع احاديث رفيعة

جداً ، ولكن ذلك يُريحها .

– ان هذا لا يصدّق ، فانها مختلفان جداً .

ولم يكن ينجح في التخلص من تلك الصورة اللامعقولة : مارسيل

في أهبّة ، وهو في محاسنه الخفية النبيلة ، ومظاهر «الكاغليسترو» لديه ،

وبسمته الافريقية الطويلة ، ومارسيل ، تجاهه ، متصلبة ، مرتبكة
امينة ... امينة ؟ متصلبة ؟ انها ليست متصلبة الى هذا الحد : « تعال
ايها الملاك ، فنحن ننتظر زيارتك . » كانت مارسيل هي التي كتبت
ذلك ، وكانت هي التي تحاول ان تتعود على هذه اللطافات الكثيفة .
وللمرة الاولى احس ماتيو بان نوعاً من الغضب يلامسه ، وفكر :
« لقد كذبت عليّ انها تكذب عليّ منذ ستة اشهر . » واستطرد :
- يدهشني كثيراً ان تكون مارسيل قد اخفت عني شيئاً .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

- اتكون انت الذي طلبت اليها ان تصمت ؟

- نعم انا . لم اكن اريدك ان تقود علاقتنا . اما الآن ، فاني
اعرفها منذ وقت بعيد ، ولم يبق للقضية كبير اهمية .

وردّ ماتيو وقد هدأ قليلاً :

- أنت الذي طلبت اليها ذلك ؟

واضاف : - وهي لم تبد اية صعوبة ؟

- لقد ادهشها ذلك كثيراً .

- نعم ، ولكنها لم ترفض .

- كلا . لا بدّ انها لم تجد ذلك شديد الإجرام . لقد ضحكت كما

اذكر وقالت : « انها حالة ضميرية » وهي تعتقد اني احب ان احيط
نفسي بالاسرار (واطاف بسخرية محجبة استاء لها ماتيو كثيراً) في

البدء كانت تسميني « لوهنجران » . وبعد ذلك ، وقع اختيارها كما
تري عليّ « ملاك » .

قال ماتيو : - نعم .

وكان يفكر : « انه يسخر منها » واستشعر اللذلّ لمارسيل . وكان

غيلونه قد انطفاً فهدّ يده وتناول بألية حبة زيتون . وكان الأمر خطيراً :

انه لم يكن يحسّ نفسه خامداً بما فيه الكفاية ، وانما كان يأخذه خبل

فكري ، كمن اكتشف انه انما كان مفضلاً علي طول الخط .. ولكن لو كان الامر قد حدث في السابق ، لكان الشيء الحي الذي في داخله قد نرف . وقال في بساطة ، بصوت كئيب :

— كنا نتصارع بكل شيء ...

قال دانيال : — كنت تتصور ذلك . ايستطيع الانسان ان يقول

كل شيء ؟

فرفع ماتيو كتفيه في غيظ ، ولكنه كان خصوصاً غاضباً على نفسه.

وقال :

— وهذه الرسالة ! اننا ننتظر زيارتك ! نجعل اليّ اني اكتشف

« مارسيل » اخرى .

فيدا دانيال مذعوراً :

— « مارسيل » اخرى .. انك تذهب بعيداً ! اسمع .. انك ، مقابل

عمل طفولي ، لن ...

— لقد كنت تأخذ عليّ الساعة ، انت نفسك ، اني لا آخذ الامور

مأخذاً جدياً بما فيه الكفاية ...

فقال دانيال :

— ذلك انك تنتقل من النقيض الي النقيض (واطاف بلهجة تفهم

ودية) الامر هو انك تثق اكثر مما ينبغي باحكامك على الناس . ان

هذه الحكاية الصغيرة تثبت ببساطة ان مارسيل اكثر تعقيداً مما كنت

تظنّ .

قال ماتيو : — ربما . ولكن هناك شيئاً آخر .

لقد اخطأت مارسيل ، وكان يخشى ان يحقد عايبها : كان لا ينبغي

ان يفقد ثقته بها اليوم — اليوم إذ لعله سيكون مجبراً على ان يضحّي

لها بحريته . كان بحاجة الي ان يحترمها ، والاّ كان ذلك اقسى من

ان يُحتمل . وقال دانيال :

— والواقع اننا كنا دائماً على نية ان نخبرك بذلك ، ولكن كان طريقاً جداً ان تقوم بالتأمر ، حتى اننا كنا نؤجل ذلك من يوم الى آخر .

حتى اننا ! كان يقول : اننا ؛ لقد كان بوسع امريء ان يقول « نحن » وهو يتحدث الى مارسيل عن ماتيو . ونظر ماتيو الى دانيال بلا صداقة : كانت تلك لحظة الحقد عليه . ولكن دانيال كان يدّعه بلا سلاح ، كما هو شأنه دائماً . وقال له ماتيو فجأة :
— دانيال ، لماذا فعلت ذلك ؟

فأجاب دانيال : — لقد اجبتك : لأنني رجوتها أن تفعل . ثم
انه كان يسليها — ولا بدّ — ان يكون لها سرّ .
فهز ماتيو رأسه

— كلا . هناك شيء آخر . لقد كانت تعرف جيداً ما كانت تفعله .
فلماذا فعلته ؟

قال دانيال : ولكن ... اتصور انه لا ينبغي ان يكون من المناسب دائماً ان تعيش في دائرة اشعاعك . لقد بحثت لنفسها عن زاوية ظلّ .

— ها هي تجدني طاغياً كاسحاً ؟
— انها لم تقل لي ذلك بصراحة ، ولكن هذا ما حسبت اني افهمه ،
(واضاف مبتسماً) ماذا تريد ، انك قوة ! تأكد انها معجبة بك ،
انها معجبة بطريقتك في ان تعيش داخل بيت من الزجاج وان تصيح
من على السطوح بما ألفت الناس ان يحتفظوا به لأنفسهم : غير ان ذلك
يستنفدها . انها لم تحدثك عن زيارتي ؛ لانها خشيت ان تفسر عواطفها
نحوي ، وان تضغط عليها لتعطي هذه العواطف اسماً ، وان تحللها
لتحويلها قطعاً صغيرة . أتدري ؟ انهم بحاجة الى الظلام والغموض ...
ان ذلك شيء متردد وغير محدد اطلاقاً ...

— هل صارحتك بذلك ؟

— نعم ، صارحتني . لقد قالت لي : ان ما يسأليني معك هو انني لا اعرف قط اين انا ذاهبة . اما مع ماتيو ، فاني اعرف دائماً ذلك . مع ماتيو ، اعرف دائماً ذلك . وايضاً : « ان المرء لا يخشى معك ما ليس متوقِعاً » . واحس ماتيو بشيء من الغثيان .

— لماذا تراها لم تحدثني قط ؟

— هي تزعم انك لا تسألها عن ذلك .

وكان هذا صحيحاً ، وخفض ماتيو رأسه : لقد كان كلما اراد ان يسبر عواطف مارسيل يأخذه كسل لا يُقهر . وحين حسب مرة انه يلاحظ طيفاً في عينيها ، هزّ كتفيه : « لو كان ثمة شيء لقالته لي . انها تقول كل شيء . » وهذا ما كنت اسميه : ثقفي بها . لقد افسدت كل شيء .

وانتفض وقال فجأة :

— لماذا تجبرني بذلك اليوم ؟

— لا بدّ ان تُجبرَ بذلك اليوم او غداً .

وكانت هذه اللهجة الفرارية مقصودة لإثارة الفضول : ولكن ماتيو لم ينخدع بها ، فأضاف يقول :

— لماذا اليوم ، ولماذا انت ؟ لقد كان اكثر طبيعية ... ان تحدثني هي بذلك اولاً .

فقال دانيال بارتباك مصطنع :

— يبدو اذن انني اخطأت ... ولكني حسبت ان هذا كان في صالحكما انما الاثنين .

حسناً . وتصلب ماتيو : « حذار من الضربة القاسية . ان هذه هي البداية فقط . » واطاف دانيال :

— سأقول لك الحقيقة : ان مارسيل تجهل اني تحدثت اليك ، وحتى

الامس لم تكن تبدو عازمة على إطلاعك على الحقيقة في هذا الوقت المبكر . سأكون شاكرآ لك اذا اخفيت عنها محادثتنا بعناية .

فضحك ماتيو بالرغم منه :

- هكذا اذن ايها الشيطان ! انك تبذر الاسرار في كل مكان . بالامس فقط كنت تتآمر مع مارسيل عليّ ، واليوم تطلب مني ان اضلع معك ضدها . فأني نوع طريف من الخونة انت !

فابتسم دانيال وقال :

- ليس فيّ شيء من الشيطان . ان ما حملني على الكلام قلق حقيقي استولى عليّ مساء امس . فقد خيّل اليّ انه كان بينكما سوء تفاهم خطير . ومن الطبيعي ان تكون مارسيل من العزة بحيث تمتنع عن ان تحدثك هي نفسها بذلك .

فضغط ماتيو قدحه بقوة في يده : لقد بدأ يفهم .

- الامر هو بصدد ... (وانهى دانيال العبارة بحشمة) بصدد

حادثتك .

قال ماتيو : - آه ، هل قلت لها انك كنت عالماً بذلك ؟

- لا ، لا ، لم أقل شيئاً . هي التي تحدثت اولاً .

- هكذا اذن !

« امس كانت تبدو على التلفون خائفة من ان احدها بالموضوع .

وفي المساء ، قالت له كل شيء مهزلة اخرى . » وأضاف :

وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك .. ان هناك شيئاً غير لائق .

فسأله ماتيو منقبض الحنجرة :

- ما الذي يتيح لك أن تقول ذلك ؟

- ليس هناك شيء واضح .. وانما هي الطريقة التي قدّمت لي بها

الاشياء ؟

- ماذا هناك ؟ هل هي حاقدة عليّ لأنني جعلتها تحمل ؟
- لا اظن . ليس هذا هو الامر . وانما هو بشأن مسلكك امس .
لقد حدثني عنه بمحدد .
— ما الذي فعلته ؟
- لا استطيع ان اقول لك على الضبط . اسمع ، هذا ما قالته لي ضمن اشياء اخرى : « انه هو الذي يقرر دائماً ، فاذا لم أكن متفقه معه ، فمن المفهوم ان احتج . ولكن ذلك لصالحه هو لأن له رأيه الناجز ، وهو لا يترك لي الزمن ابداً لتكوين رأي » . اني لست متأكداً من العبارات .
فقال ماتيو مشدوهاً :
- ولكن لم يكن امامي قراراً اتخذه . لقد كنا دائماً على اتفاق حول ما ينبغي ان تفعله في مثل هذه الحالة .
- نعم ، ولكن هل حرصت على معرفة رأيها امس الاول ؟
قال ماتيو : — كلا . كنت متأكداً من انها كانت تفكر مثلي .
- نعم ، الواقع انك لم تسألها عن شيء . متى واجهتما للمرة الاخيرة ... هذه الامكانية ؟
- لا ادري ، منذ عامين او ثلاثة .
- عامان او ثلاثة ... او لا تظن انها يمكن ان تكون قد غيرت رأيها في هذه الاثناء ؟
- وفي جوف القاعة ، كان السادة قد نهضوا ، وكانوا يتبادلون التهاني وهم يضحكون ، واثامهم خادماً بقبعاتهم ، فخرجوا وهم يحيون صاحب الحانة بحركة ودية ، واوقف الخادم الراديو . وعادت الحانة تسقط في صمت جاف ، وكان في الجو مذاق كارثة . وفكر ماتيو :
- « سينتهي الامر نهاية سيئة . » ولم يكن يعرف جيداً ما الذي سينتهي نهاية سيئة : هذا النهار العاصف ، ام قصة ذلك الإجهاض ، ام علاقته

بمارسيل ؟ كلا ، كان شيئاً أشدّ غموضاً واعرض : حياته ، اوروبا
هذا السلام التافه المشؤوم . وتمثل شعر برونيه الاشقر : « ستقع
الحرب في ايلول . » وفي هذه اللحظة ، كان من في الحانة الخالصة
المظلمة يكاد يصدق ذلك . لقد كان في حياته شيء ما قد فسد ، في
هذا الصيف . وسأله :

— هل هي خائفة من العملية ؟

فقال دانيال بلهجة باردة : — لا ادري .

— هل ترغب في ان اتزوجها ؟

فأخذ دانيال يضحك :

— لست ادري . انك تسألني اكثر مما اطيق الجواب عليه . مهما

يكن من امر ، فليست القضية من السهولة بهذا المكان . اتسمعني ؟
يجب ان تحدّثها هذا المساء . من غير ان تذكرني طبعاً : كما لو ان
بعض الوسواس قد استولت عليك . وسوف يدهشني الا تقول لك كل
شيء ، بالنسبة للوضع الذي رأيتها فيه امس : كان يبدو عليها انها
شقية جداً .

— حسناً . سأحاول ان احملها على الكلام .

وساد صمت ، ثم اضاف دانيال بلهجة انزعاج :

— هكذا : لقد اخبرتك .

قال ماتيو : — نعم ، شكراً على كل حال .

— هل انت حاقد عليّ ؟

— على الاطلاق . ان هذا هو نوع الخدمة الذي يمكنك ان تؤديه ،

ان يسقط على رأسك كالقرميذة .

فانفجر دانيال ضاحكاً : وكان يفغر فيه على سعته ، فترى اسنانه

الباهرة وجوف حلقه .

ما كان لي ان افعل ذلك ، اليد موضوعة على الساعة ، كانت
 تفكر ، ما كان لي ان افعل ذلك ، لقد كنا نتصارع بكل شيء ،
 وفكر : كانت مارسيل تكاشفني بكل شيء ، آه ! وفكر ، انه
 يعرف ، الآن يعرف ، خبل مرهق في رأسها وهذا الصوت الصغير
 في رأسها ، كانت مارسيل تقول لي دائماً كل شيء ، ، والامر الآن في
 رأسها ، هذا غير محتمل ، افضل مئة مرة ان يكرهني ، ولكنه كان
 هناك ، جالسا على مقعد المقهى ؛ متباعد الذراعين ، كما لو انه ترك
 شيئاً ما يسقط ، وعينه محددة في الارض كما لو ان شيئاً ما قد تحطم
 عليها . لقد تم الامر ، وتمت المحادثة . لم أر ، ولم اسمع ، ولم أكن
 هناك ، ولم اعلم شيئاً ، وقد كانت هي ، وقد قبلت الكلمات وانا لا
 اعرف شيئاً ، وكان الصوت الرصين يرتفع كالدخان نحو سقف المقهى ،
 سوف يأتي الصوت من هناك ، الصوت الجميل الرصين الذي كان
 يُرْعش دائماً صفيحة السماعه ، وسيخرج من هناك وسيقول انتهى
 الامر ، يا إلهي يا إلهي ؛ ما الذي سيقوله ؟ اني عار ، اني
 ممتليء وهذا الصوت سيخرج مجلبياً من الصفيحة البيضاء ، ما كان ينبغي
 لنا ، ما كان ينبغي لنا ، لقد كانت موشكة على ان تغضب من
 دانيال ، اذا كان ممكناً ان تغضب منه ، لقد كان كريماً جداً وطيباً .
 وكان الوحيد الذي اهتم بي ، واخذ قضيتي بيده ، ذلك الملاك ، ومنح
 قضيتي صوته الرائع . امرأة ، امرأة ضعيفة ، ضعيفة يدافع عنها في
 عالم الرجال والاحياء صوت غامض حار ، وسيخرج الصوت من
 هناك وسيقول : كانت مارسيل تقول لي كل شيء ، مسكين ماتيو ،
 يا ملاكي الحبيب ! وفكرت : الملاك تبلّلت عيناه ، دمعٌ عذب، دمع
 غزارة وخصوبة ، ومع امرأة حقيقية بعد ثمانية ايام محرقة ، ومع
 امرأة عذبة مدافع عنها . لقد اخذني بين ذراعيه فلافني ودافع
 عني ، ماء العينين الراقص والملاطفة الملتوية على الخدين ، وارتجافة

الشفيتين ، طوال ثمانية ايام نظرت في البعيد الى نقطة ثابتة ، وعيناها جافتان خاليتان : انهم سيمقتلونه لي ، وطوال ثمانية ايام كانت مارسيل الدقيقة ، مارسيل القاسية ، مارسيل العاقلة ، مارسيل الرجل ، انه يقول بأنني رجل ، وهذا هو الماء ، المرأة الضعيفة ، المطر في العينين ، فلماذا اقاوم ، غداً سأكون قاسية وعاقلة ، مرة ، مرة واحدة ، الدموع ، الندم ، الاشفاق المعذب على النفس ، والذل الاعذب ايضاً ، هاتان اليدان المخمليتان على خاصرتي ، على فخذتي ، كانت راغبة بأخذ ماتيو بين ذراعيها وطلب الصفح منه ، الصفح وهي راحة : ماتيو المسكين ، يا عزيزي الكبير . مرة ، مرة واحدة ، ما اجمل ان يُدافع عنها ، وان يُصفح عنها . وارهقتها فكرة مفاجئة . وكان خلّ يسيل في عروقها ، هذا المساء ، حين يدخل الى بيتي ، وحين احيط عنقه بذراعي ، وحين اقبله ، سيعرف كل شيء ، وعليّ انا ان اتظاهر بأنني لا اعرف انه يعرف . آه ! اننا نكذب عليه ، هكذا فكرت في يأس ، ولا نزال نكذب عليه ، اننا نقول له كل شيء ، ولكن صراحتنا مسمومة . انه يعرف ، وسيدخل هذا المساء ، وسأرى عينيه الطيبتين ، وسأفكر ، انه يعرف ، وكيف تراني استطيع ان اتحمل ذلك ، يا عزيزي ، يا عزيزي الكبير ، للمرة الاولى في حياتي سببت لك حزناً ، آه ! سأقبل كل شيء ، سأذهب الى العجوز ، سأقتل الطفل ، انني خجولة ، سأفعل ما يشاء ، كل ما يشاء .

ورن جرس التلفون تحت اصابعها ، فشنجت يدها على السماعة ، وقالت :

— آلو ! آلو ! انت دانيال ؟

قال الصوت الجميل الهادىء : — نعم ، من يكلمني ؟

— انا مارسيل .

— صباح الخير يا عزيزتي مارسيل .

قالت مارسيل : - صباح الخير . (وكان قلبها يخفق بشدة)
- هل نمت نوماً هنيئاً ! (وكان الصوت الرصين يصدي في
جوفها ، وكان هذا للذيداً وغير محتمل) لقد تركتك في ساعة متأخرة
جداً مساء امس ، ولا بد ان توبخني السيدة دوفيه على ذلك ؛ ولكن
أمل الا تكون قد عرفت شيئاً .

فقالت مارسيل لاهته :

- كلا ، لم تعرف شيئاً . كانت غاطسة في نومها حين خرجت...
وألحّ الصوت العذب يقول : - وانت ، هل نمت نوماً هائناً ؟
- انا ؟ لا بأس ... اني نائبة الاغصاب قليلاً كما تعلم .
فأخذ دانيال يضحك ، وكانت ضحكة مترفة جميلة ، هادئة وقوية .
وانفجرت مارسيل قليلاً . وقال :

- ينبغي الا تثور اعصابك . لقد سارت الأمور جيداً .

- سارت ... صحيح ؟

- صحيح . بل احسن مما كنت آمل . الحق اننا يا عزيزتي مارسيل
لم نعرف قدر ماتيو تماماً .

واحسن مارسيل ان ندماً مرّاً بعضها ، فقالت :

- اليس كذلك ؟ اننا لم نعرف قدره .

قال دانيال : - لقد اوقفني منذ الكلمات الاولى . وقال لي انه
ادرك جيداً ان شيئاً ما غير طبيعي ، وان هذا قد آلمه طوال نهار امس .

فسألت مارسيل بصوت محتق :

- هل قلت ... هل قلت له اننا كنا نتقابل ؟

فقال دانيال في دهشة : - طبعاً ! ألم نتفق على ذلك ؟

- بلى ... بلى ... بلى ... وكيف تلقى هذا النبأ ؟

فبدا على دانيال التردد وقال :

- بصورة جيدة . جيدة جداً بالنتيجة . لم يرد اولاً ان يصدق...

- لا بد انه قال لك : كانت مارسيل تخبرني كل شيء .
 - قال ذلك في الواقع (وبدا انه مسرور) قاله حرفياً .
 قالت مارسيل : - اسمع يا دانيال : انني نادمة !
 وسمعت من جديد الضحكة العميقة الجذلة :
 - هذا هو وضعه ايضاً . لقد ذهب ممتلئاً بالندم . آه ! فاذا كننا
 معاً في هذا الوضع ، فاني اود لو اختبئ في مكان ما من غرفتك
 حين يأتي للقائك : فسيكون ذلك شيئاً لذيذاً !
 وضحك من جديد ، ففكرت مارسيل في عرفان متواضع : « انه
 يسخر مني . » ولكن الصوت كان قد اصبح رصيناً ، وكانت السماعة
 تهتز كالأرغن :
 - لا ، الحقيقة يا مارسيل ان كل شيء يسير على ما يرام ، وانا
 مسرور من اجلك كما تعلمين . انه لم يتركني اتكلم ، وواقفني منذ
 الكلمات الاولى ، وقال لي : « يا لمارسيل المسكينة ، انني مجرم كبير ،
 وانا احتقر نفسي ، ولكني سأصلح خطئي ، اتظن اني استطيع بعد
 ان اصلحه ؟ » وكانت عيناه متوردتين . فما اشد ما يحبك !
 وكانت مارسيل تقول :
 - اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال !
 وساد صمت ، ثم اضاف دانيال :
 - لقد قال لي انه يريد ان يحدثك هذ المساء بكل صراحة :
 « سنفقأ الدمل . » فكل شيء هو الآن بين يديك يا مارسيل . سيفعل
 كل ما تشائين ؟
 - اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال ! (ثم تمالكت نفسها قليلاً
 وازافت) لقد كنت طيباً جداً و ... اود ان اراك في اقرب فرصة
 ممكنة ، فعندي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولا استطيع ان اكلمك من
 غير ان اري وجهك . هل تستطيع غداً ؟

فبدا لها الصوت أكثر جفافاً كأنما قد فقد اوتاره التوافقية :
- آه ! غداً ، لا ! انسي طبعاً متشوق لرؤيتك ... اسمعي
يا مارسيل ، سأخبرك .
قالت مارسيل : - حسناً ، خابرني بسرعة . آه يا دانيال ،
يا عزيزي دانيال ...
قال دانيال : - الى اللقاء يا مارسيل . كوني بارعة هذا المساء .
وصاحت : - دانيال ...

ولكنه كان قد اغلق التلفون . ووضعت مارسيل الساعة وأمرت
منديلها على عينيها الرطبتين : « الملاك ! لقد افلتت بسرعة ، خشية
ان اشكره . » واقربت من النافذة ونظرت الى المارة : نساء وسوقة
وبضعة عمال ، فوجدت ان هيئة السعادة كانت بادية عليهم . وكانت
امرأة شابة تعدو وسط الشارع ، وكانت تحمل ابنها بين ذراعيها ؛
وتحدثه وهي تعدو لاهثة وتضحك في وجهه . وتابعتها مارسيل بعينيها
ثم اقربت من المرأة فنظرت فيها الى نفسها باندهاش . وكان على خشبة
المغسلة ثلاث وردات حمراء في قديم اللسان . وتناولت مارسيل احداها
في تردد وأدارتها بنجمل بين اصابعها ، ثم اغمضت عينيها وغرزت
الوردة في شعرها الاسود . « وردة في شعري ... » وفتحت اجفانها ،
ونظرت الى نفسها في المرأة ، وربت على شعرها ثم ابتسمت لنفسها في
تأثر .

قال الرجل القصير :

— تفضل وانتظر هنا يا سيدي .

وجلس ماتيوي على مقعد صغير ، وكانت غرفة انتظار صغيرة تنبعث منها رائحة الملقوف ؛ والى اليسار كان باب زجاجي يلمع لمعاناً ضعيفاً . ودُقّ الجرس فذهب الرجل القصير ليفتح . ودخلت امرأة شابة وهي تلبس ثياباً ذات احتشام بائس .

— تفضلي واجلسي يا سيدتي .

ورافقها وهو يمسه مساً خفيفاً حتى المقعد الصغير ، فجلست وهي تطوي ساقها تحتها . وقالت المرأة الشابة :

— لقد سبق لي ان جئت ؛ والقضية هي قضية قرض .

— نعم ، يا سيدتي ، بكل تأكيد .

وكان الرجل القصير يحدثها في وجهها :

— هل انت موظفة ؟

— انا لا ، وانا زوجي .

وأخذت تفتش في محفظتها ؛ ولم تكن قبيحة ، ولكن كانت لها هيئة قاسية مذعورة ؛ وكان الرجل القصير ينظر اليها في نهم . وأخرجت من محفظتها ورقتين او ثلاثاً مطوية بعناية ، فأخذها واقترب من الباب

الزجاجي ليتبين ما فيها بوضوح وتفحصها طويلاً . وقال وهو يردّها لها :

— حسناً ، حسناً جداً . ولدان ؟ انك تبدين صبيّة بعد ... انا ننتظر الاولاد بفارغ الصبر ، اليس كذلك ؟ ولكن حين يصلون ، تختلّ ميزانية البيت . هل انتم متزعجون قليلاً في هذه الفترة ؟ فاحمر وجه المرأة الشابة وفرك الرجل القصير يديه ، وقال في طيبة : — حسناً ، سنتدبر كل شيء . فانما نحن هنا من اجل ذلك .

ونظر اليها نظرة تفكر باسمه ثم ابتعد . واقتت المرأة الشابة نظرة عداة لماتيو واخذت تداعب قفل محفظتها . واحس ماتيو بالانزعاج : لقد دخل عند الفقراء الحقيقيين ، وهو سيأخذ ما لهم ، مالاّ رمادياً كالحاّ يبعث رائحة الملقوف . وخفض رأسه ونظر الى الارض الخشبية بين قدميه ، فاذا هو يتذكر الاوراق المالية الحريرية المعطرة في صندوق لولا ؛ ان ذلك ليس هو هذا المال نفسه .

وفتح الباب الزجاجي وبدا رجل طويل ذو شارين ابيضين . وكان له شعر فضي مسرّح بعناية الى خلف وتبعه ماتيو في المكتب . ودلّه السيد بلطف على مقعد من الجلد المهترىء فجلس كلاهما . واسند السيد مرفقيه على الطاولة وضم يديه الجميلتين البيضاوين . وكان يضع ربطة عنق خضراء غامقة تُفرحها جوهرة . وسأله بلهجة ابوية :

— هل تريد ان تستفيد من خدماتنا ؟

— نعم .

ونظر الى ماتيو ؛ وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحان تجحطان قليلاً .

— السيد ... ؟

— دولارو .

— انك لا تجهل ان نُظّم شركتنا انما تقدم خدماتها للموظفين

وحدهم ؟

كان الصوت جميلاً وبيض ، سمياً بعض الشيء ، كاليدين .
فقال ماتيو :

— اني موظف . استاذ .

قال السيد مهتماً : — آه ، آه ! اننا سعداء بصورة خاصة بأن
تساعد الجامعيين . هل انت استاذ في ليسيه ؟

— نعم ، في ليسيه بوفون .

فقال السيد في انبساط :

ممتاز . والآن سننجز الشكليات الصغيرة المعتادة ... اود اولاً ان
اسألك ان كنت تحمل تذكرة هوية ، او اي ورقة مماثلة ، جواز سفر ،
دفترآ عسكرياً ؛ بطاقة انتخابية ...

فد له ماتيو اوراقه ، فتناولها السيد وتأملها لحظة في شروود وقال :

— حسناً ، حسناً جداً . وما هي قيمة المبلغ الذي تريده ؟

فقال ماتيو : — اريد ستة آلاف فرنك .

وفكر لحظة ثم اضاف :

— بل لنقل سبعة آلاف .

وكان قد سُرَّ بالمفاجأة ، وفكر : « لم اكن اظن ان الامر سيجري

بهذه السرعة . »

— هل تعرف شروطنا ؟ اننا نقرض لمدة ستة اشهر من غير تجديد

ممكن . اننا مضطرون لأن نطلب عشرين بالمئة فائدة ، لأن عندنا

نفقات باهظة ولأننا نتعرض لمجازفات كبيرة .

فقال ماتيو بسرعة : — حسناً ، حسناً !

فأخرج السيد ورقتين مطبوعتين من درجه :

— هل لك ان تتفضل فتملاً هذه الشكليات ؟ وتوقع في اسفل

الصفحتين ؟

وكان ذلك طلباً للإقراض على نسختين ، وكان عليه ان يذكر

الاسم والسن والحالة المدنية والعنوان . واخذ ماتيوي يكتب . وقال السيد وهو يجيل نظره في الورقتين :

- ممتاز . مولود في باريس .. عام ١٩٠٥ ... من اب وام فرنسيين .. حسناً ، هذا كل ما يجب الآن . وحين نسلمك السبعة الآلاف فرنك ، سنطلب منك ان توقع على ورقة ذات طابع اعترافاً بالدين . والطابع على نفقتك .

- حين التسليم ؟ الا يمكن ان تعطوني اياها على الفور ؟
فبدا السيد مندهشاً جداً :

- على الفور ؟ ولكننا بحاجة يا سيدي العزيز الى خمسة عشر يوماً على الاقل لنجمع معلوماتنا .

- اية معلومات ؟ لقد رأيت اوراقي ...

فتأمل الرجل ماتيوي بلطف مرح وقال :

- آه ! ان الجامعيين متشابهون جميعاً ! كلهم مثاليون . لاحظ

يا سيدي ، اني في هذه الحالة الخاصة لا اضع كلامك موضع الشك . ولكن بصورة عامة ، ما الذي يثبت ان الاوراق التي تقدم لنا ليست مزيفة ؟ (وضحك ضحكة صغيرة حزينة) : ان من يتصرف بالمال يتعلم الحذر . ان هذا شعور قبيح ، انا اوافقك على ذلك ، ولسكن لا يحق لنا ان نكون واثقين . (وانهى كلامه بقوله) هوذا اذن : يجب ان نقوم بتحقيقنا الصغير ، وسوف نتوجه مباشرة الى وزارتك . لا تخش شيئاً ، بكل السرية المرغوب فيها . ولكنك تعرف ما هي الشكليات الادارية : فانا اشك كثيراً في ان تستطيع انتظار مساعدتنا بطريقة معقولة قبل الخامس من تموز .

فقال ماتيوي وهو منقبض الحنجرة :

- هذا يستحيل علي . (وأضاف) : انني بحاجة الى المال هذا

المساء او صباح الغد على الابد ، فانا بحاجة عاجلة له . ألا تستطيع

ان ... بفائدة اكبر ؟
فبدت الدهشة والاستغراب على الرجل ، ورفع يديه الجميلتين
في الهواء :

– ولكننا لسنا مرايين يا سيدي العزيز ! لقد تلقت شركتنا تشجيع
وزارة الأشغال العامة . انها اذا صحّ لنا القول منظمة رسمية . اننا
نتقاضى فوائد عادية وُضعت بالنظر لنفقاتنا ولمجازفاتنا ، ولا نستطيع
ان نستجيب لمثل هذه المساومات .

وأضاف في قسوة :

– اذا كنت مستعجلاً ، فقد كان عليك ان تأتي قبل الآن . ألم
تقرأ ارشاداتنا ؟

قال ماتيو وهو ينهض :

– كلا . لقد فاجأني الوقت .

فقال الرجل برودة :

– انني اذن آسف ... هل يجب تمزيق الاوراق التي ملأها ؟
وفكر ماتيو في ساره : « لا بدّ انها ستقنعه بتأجيل القبض »

وقال :

– لا تمزقها . سأندبر امري حتى ذلك الحين .

فقال الرجل بلهجة ودّية :

– نعم ، ستجد بلا شك صديقاً يقترضك لمدة خمسة عشر يوماً ما
انت بحاجة اليه . (وقال وهو يوميء باصبعه الى الورقة) هذا إذن هو

عنوانك : ١٢ شارع هويغنز ؟

– نعم .

– حسناً ، في الايام الاولى من تموز سنرسل لك دعوة صغيرة .

ونهض فرافقه ماتيو حتى الباب . وقال ماتيو :

– الى اللقاء يا سيدي . شكراً .

فقال الرجل وهو ينحني :
- انى سعيد بان اؤدي لك خدمة . فالى اللقاء .
وعبر ماتيو غرفة الانتظار بخطى كبيرة . وكانت المرأة الشابة ما
تزال هناك ، وكانت تعض قفاها بهيئة شاردة . وقال الرجل من
خلف ماتيو :

- هل لك ان تدخلني يا سيدتي ؟
وفي الخارج ، كانت انوار نباتية ترتعش في الهواء الرمادي .
ولكن ماتيو كان يشعر الآن بأنه كان طوال الوقت مسجوناً داخل جدران .
وفكر : « هزيمة اخرى » ولم يكن لديه أمل بعد الا بساره .
وكان قد بلغ جادة سيياستوبول ، فدخل مقهى وطلب قسيمة من
المحاسبة :

- التلفون ، في الداخل الى اليمين .
وفيما هو يركب الرقم تتم : « المهم ان تكون قد نجحت . اوه !
المهم ان تكون قد نجحت »
وكان ذلك نوعاً من الصلاة المبتهلة . وقال :
- آلو ، آلو ساره ؟
فقال صوت : - آلو ، نعم . انا ويمولر .
قال ماتيو : - انا ماتيو دولارو . هل تستطيع ان اتكلم مع
ساره ؟

- لقد خرجت .
- آه ! هذا مزعج ... الا تدرى متى ستعود ؟
- لا ، لا اعرف . هل لديك شيء تريد ان تبلغها إياه ؟
- لا ، قل لها فقط انني اتصلت بها .
واعاد الساعة وخرج . إن حياته لم تكن بعد متوقفة عليه بل
كانت بين يدي ساره ؛ ولم يكن باقياً له الا ان ينتظر . وأشار الى

اوتوبيس وصعد يجاس بالقرب من امرأة عجوز كانت تسعل في منديلها. وفكر : « إن اليهود يتفاهمون فيما بينهم » سيقبل معها ، سيقبل بلا شك .

- دانفير - روشيرو ؟

فقال قاطع التذاكر : - ثلاث قسائم .

وأخذ ماتيو القسائم الثلاث وراح ينظر من النافذة ؛ وكان يفكر بمارسيل في حقد حزين . وكان الزجاج يرتجف ، وكانت العجوز تسعل ، وكانت الازهار ترقص على قبعتها القشبية السوداء . القبة ، الازهار ، العجوز ، ماتيو ، كل شيء كان محمولاً بالآلة الضخمة ؛ لم تكن العجوز ترفع أنفها عن منديلها ، ومع ذلك فقد كانت تسعل عند ملتقى شارع « الاورس » وجادة سيباستوبول ، وكانت تسعل في شارع ريومور ، وكانت تسعل في شارع مونورغوي ، وكانت تسعل على جسر « البونيف » فوق ماء رمادي هاديء . « واذا لم يقبل اليهودي ؟ » . ولكن هذه الفكرة لم تكن تنجح في اخراجه من خدره ، إنه لم يكن بعد الا كياساً من الفحم فوق اكياس أخرى ، في قلب شاحنة . « فليكن . سينتهي الأمر ، وسأقول لها هذا المساء اني أتزوجها . » وكان الاوتوبيس الضخم والطفولي يحمله ، ويميل به ذات اليمين وذات اليسار ، ويهزه ، ويصدمه ، وكانت الأحداث تصدمه بسند المقعد ، بالزجاج ، وكانت سرعة حياته تهدده ، وكان يفكر : « إن حياتي ليست بعد لي ، انها ليست بعد الا قدراً » ، وكان ينظر فيرى بنايات شارع « سان بير » السوداء تنبتق ، وكان ينظر الى حياته التي كانت تتوالى . اتزوجها ، لا اتزوجها : « ان هذا لا يعني بعد . القضية هي وجه الفلس او قفاه . »

وتوقف الاوتوبيس توقفاً عنيفاً مفاجئاً ، فانصب ماتيو ونظر الى ظهر السائق في قلق : لقد اتت حريره كلها ترتد عليه . وفكر :

« لا ، ليست القضية هي وجه الفاس او قفاه . ففها حدث ، فانما ينبغي ان يحدث بارادتي . » حتى ولو ترك نفسه موزعاً يائساً ، ولو ترك نفسه ككيس من الفحم ، فانما يكون قد اختار ضياعه : لقد كان حرأ ، حرأ في كل شيء ، حرأ في ان يكون أبله او يكون آلة ، حرأ ليقبل ، حرأ ليرفض ، حرأ ليتعلل او يتردد : كان بوسع ان يفعل ما يريد : ان يتزوج او يترك ، ان يجر جر طوال سنوات هذه الكرة المعلقة بقدمه ، فليس لأحد الحق في ان ينصحه ، ولن يكون له « خير » او « شر » الا ان يكون قد اخترعهما . كانت الاشياء حوله قد اصطفت في دائرة ، وكانت تنتظر من غير ان تعمل إشارة ، ومن غير ان تأتي اية اعماء . كان وحيداً ، وسط صمت شيطاني ، حرأ ووحيداً ، من غير عون ولا عذر ، محكوماً عليه ان يقرر من غير مساعدة ممكنة ، محكوماً عليه الى الابد ان يكون حرأ .

وصاح قاطع التذاكر : - دانفير - روشيرو .
 ونهض ماتيو وترجل ، ودلف الى شارع « فروادفو » وكان متعباً
 نائر الأعصاب ، وكان لايني يرى صندوقاً مفتوحاً وسط غرفة مظلمة ،
 وفي جوف الصندوق اوراق معطرة ناعمة ، وكان ذلك يشبه ندماً ،
 وفكر : « آه ! كان علي ان آخذها . »
 قالت البوابة :

- رسالة مستعجلة لك . لقد وصلت اللحظة .

وتناول ماتيو الرسالة فزق الظرف ، وللحال انهارت الجدران التي
 كانت تحاصره ، وخيّل اليه ان عالمه يتغير . كانت هناك ثلاث كلمات ،
 وسط الصفحة ، مكتوبة بخط كبير هابط :
 « سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش »

وسألت البوابة : - إنه ليس خبراً سيئاً ، على الاقل ؟

- كلا .

- آه ! حسناً . لأنك كنت مشلوها ؟

سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش

- انه تلميذ قديم من تلامذتي قد سقط في الامتحان .

- آه ! انهم يشددون في الامتحانات ، على ما قيل لي .

- يتشددون كثيراً .

قالت البوابة : - تأمل ! جميع هؤلاء الشبان الذين ينجحون .

وبعد ذلك ، ها هم اولاء يحملون الألقاب . فاذا تريد ان

يفعلوا بهم ؟

- هذا ما اتساءل عنه .

وقرأ للمرة الرابعة رسالة ايفيش ، وكان مصفوعاً بفخامه كلماتها

المقلقة . سقطت ، فاقدة الشعور ... وفكر : « انها الآن ترتكب حماقة

ما . وهذا واضح كالنهار . انها ترتكب حماقة ما . »

- كم هي الساعة ؟

- السادسة .

الساعة السادسة . لقد تلقّت النتيجة في الساعة الثانية . وها هي

اربع ساعات تمضي وهي مقذوفة في شوارع باريس . ووضع الرسالة

في جيبه ، وقال للبوابة :

- مدام غارنيه : أعيرني خمسين فرنكاً .

فقالت البوابة مندهشة :

- ولكني لا اعرف ان كنت أملكها .

وفتشت في درج طاولة عملها :

- خذ ، ليس معي الا مئة فرنك ، وستعيدها اليّ هذا المساء .

قال ماتيو : - حسناً . شكراً .

وخرج ، وكان يفكر : « اين عساها تكون ؟ » وكان رأسه

فارغاً ، وكانت يدها ترتجفان . وكانت سيارة تاكسي بطيئة مارة في شارع فروادفو ، فأوقفها ماتيو :

– بيت الطالبات . ١٧٣ شارع سان جاك . بسرعة .
قال السائق : – حسناً .

« اين عساها تكون ؟ في احسن الحالات تكون قد ذهبت إلى لاون ، وفي اسوأها ... وانا متأخر اربع ساعات » وكان منحنيًا إلى أمام ، وكان يضغط بشدة قدمه اليمنى على السجادة مستعجلاً السيارة .

وتوقف التاكسي ، فترجل ماتيو وقرع جرس البيت :

– هل الآنسة ايفيش سرغين موجودة ؟

فنظرت إليه السيدة في تحدٍ وقالت :

– اني ذاهبة لأرى .

وما لبثت ان عادت :

– إن الآنسة سرغين لم تعد منذ هذا الصباح . فهل هناك ما تود

إبلاغها إياه ؟

– لا .

وعاد ماتيو فاستقل السيارة :

– اوتيل بولونيا ، شارع سوميرار .

وبعد لحظة ، طرق على الزجاج وقال :

– هنا ، هنا ، الفندق هو إلى اليسار .

وقفز إلى الأرض ودفق الباب الزجاجي :

– هل السيد سرغين موجود ؟

وكان الخادم السمين الأحسب واقفاً عند الصندوق ، فعرف ماتيو

وابتسم له :

– إنه لم يعد هذه الليلة .

- وأخته ... فتاة شقراء هل مرّت هنا اليوم ؟
فقال الخادم : - اوه ، انني اعرف الآنسة ايفيش جيداً . لا .
انها لم تأت ، وليس هناك الا السيدة مونتيرو التي تلفنت مرتين تسأل
عن السيد بوريس وتطلب ان يذهب توأاً لرؤيتها فور عودته ؛ فاذا رأيته
أبلغه ذلك .

قال ماتيو : - حسناً .

وخرج . أين عساها تكون ؟ في السينما ؟ إن هذا غير محتمل قط .
تجرجر اقدامها في الشوارع ؟ لأنها على كل حال لم تترك باريس بعد ،
وإلاّ لمرّت ببيت الطالبات لتأخذ محافظتها . وسحب ماتيو الرسالة من
جيبه وتفحص الظرف : لقد أرسل من مكتب بريد شارع كوجاس ،
ولكن ذلك لم يكن يثبت شيئاً . وسأله السائق :

- اين نذهب ؟

فنظر اليه ماتيو نظرة مترددة وأشرقت في ذهنه فكرة : « لكسي
تكتب هذا لا بدّ انها قد ثملت . » وقال :

- إسمع : عليك ان تجتاز على مهل جادة سان ميشال مرة اخرى
ابتداءً من المحطة . انني أبحث عن إنسان ، ويجب ان أُلّمّ بجميع
المقاهي .

ولم تكن ايفيش في بياريتز ، ولا في « لامبورس » ولا في « داركور »
ولا في « البيار » ولا في « باليه دو كافيه » . وفي مقهى كابولاد ،
لمح ماتيو طالباً صينياً كان يعرفها . وتقدّم . وكان الصبي يشرب
البورتو وهو معتل كرسنيّ المشرب . وقال ماتيو وهو يرفع اليه رأسه :
- اطلب المخذرة . اظنّ انك تعرف الآنسة سرخين ، فهل رأيتهما

اليوم ؟

فقال الصيني وكان يتكلم بمشقة :

- كلا . حصلت لها مصيبة .

فصاح ماتيو : - ماذا ، حصلت لها مصيبة ؟
قال الصيني : - كلا ، وانما أسأل إن كانت قد حصلت
لها مصيبة .

فقال ماتيو وهو يوليه ظهره :

- لا ادري .

ولم يكن يفكر بعد حتى بأنه يحمي ايفيش من نفسها ؛ لم تكن
لديه الا حاجة مؤلة عنيفة لرؤيتها . وفكر في غضب . «واذا حاولت
ان تقتل نفسها ؟ لأنها سخيقة الى هذا الحد . » وبعد كل شيء ، ربما
كانت بكل بساطة في مونبارناس . وقال :

- الى مفرق « فافين » .

وصعد ثانية الى السيارة . وكانت يدها ترتجفان : فوضعها في جيبه ؛
واستدارت السيارة حول نبع مديسيس فلمح ماتيو ريناتا صديقة ايفيش
الايطالية . وكانت خارجة من اللكسمبورغ والمحفظة في يدها ، فصاح
ماتيو بالسائق :

- قف ، قف .

وقفز من التاكسي وعدا اليها :

- هل رأيت ايفيش ؟

فأخذت ريناتا مظهراً رصيناً وقالت :

- مساء الخير يا سيدي .

قال ماتيو : - مساء الخير ، هل رأيت ايفيش ؟

- ايفيش ، نعم ، رأيتها .

- متى ؟

- منذ ساعة تقريباً .

- اين ؟

- في حديقة اللكسمبورغ (واضافت ريناتا بانزعاج قليل) كانت

مع شخص غريب . هل عرفت ان المسكينة سقطت ؟
 - نعم . اين ذهبت ؟
 كانا يريدان الذهاب الى مرقص « لاتارنتول » على ما اعتقد .
 - واين هو ؟
 - شارع « مسيولوبرنس » انه كما سترى بائع اسطوانات ،
 والمرقص تحت الارض .
 - شكراً .
 وخطا ماتيو بضع خطوات ثم عاد يقول :
 - اعذريني ، نسيت ايضاً ان اقول لك الى اللقاء ؟
 قالت ريناتا : - الى اللقاء يا سيدي .
 وعاد ماتيو الى سائقه :
 - شارع « مسيولوبرنس » على بعد خطوتين . سرّ على مهل ،
 وسأوقفك .
 « المهم ان تكون ما زالت هناك ! انني سأجوب جميع مراقص
 بالحلي اللاتيني . »
 - قف . هنا . ستنتظرنني لحظة .
 ودخل ماتيو الى حانوت بائع اسطوانات وسأل .
 - مرقص « لاتارنتول » ؟
 - في الطابق الارضي . اهبط الدرج .
 وهبط ماتيو درجاً ، واستنشق رائحة رطبة عفنة ، ثم دفع مصراع
 باب من الجاد ، وثلقى ضربة في معدته : كانت ايفيش هناك .
 وكانت ترقص . واستند الى حاجز الباب وفكر : « انها هنا . »
 وكان كهفياً خالياً مضاداً للعفونة ، وبلا ظل . وكان ضوء
 مصفى يهبط من السقف ذي الورق المزيّن . ورأى ماتيو زهاء خمس
 عشرة طاولة ضائعة وسط هذا البحر الضوئي الميت . وكانت قد

ألصقت على الجدران البنية قطع ملونة من الورق المقوى كانت تمثل نباتات غريبة ، ولكنها كانت قد تقوّست والتوت بتأثير الرطوبة ، وكان الصبّار قد انتفخ تجعّدات . وكان ثمة حاك غير مرئي يذيع رقصة باسادوبل ، وكانت هذه الموسيقى المعلّبة تزيد القاعة عرياً .

كانت ايفيش قد أراحت رأسها على كتف مراقصها ، وكانت تلتصق به بشدة . وكان يجيد الرقص . وقد عرفه ماتيو : كان ذلك الشاب الطويل الأسمر الذي كان يصطحب ايفيش مساء امس في جادة سان ميشال . وكان يشمّ شعر ايفيش بين وقت وآخر ويقبّله . فكانت اذ ذاك تنذف رأسها الى خلف وتضحك ، وهي ممتعة ، مغمضة العينين ، فيما كان يهمس في اذنها ؛ وكانا وحدهما وسط الحلبة . وفي جوف القاعة ، كان اربعة شبان وفتاة طلت وجهها بالمساحيق يصفقون بأيديهم ويصرخون « اوليه » واقناد الشاب الطويل الأسمر ايفيش الى طاولته وهو يمسكها من قامتها ، فتجمع الطلاب حولها واحتفلوا بمقدمها ؛ وكانوا على مظهر طبيعي ومتصنع في الوقت نفسه ، وكانوا يحيطونها بحركات دائرية ولطيفة اما المرأة المزينة فكانت قائمة على حذر . كانت واقفة ، ثقيلة ومرنجية ، ونظرها محدد . وأشعلت سيجارة وقالت بتفكير :

— اوليه .

وانهارت ايفيش على كرسي بين المرأة الشابة وبين قصير أشقر ذي لحية قصيرة . وكانت تضحك بجنون . وقالت وهي تلوح بيدها امام وجهها :

— كلا ، كلا ! لا حاجة الى دليل ، لا حاجة الى دليل !

ونفض ذو اللحية على عجل ليتنازل عن مقعده للراقص الأسمر . وفكر ماتيو : « تمت اللوحة ، لقد اعترفوا له بحقه في الجلوس الى جانبها . » وكان يبدو على الأسمر الجميل انه يجد الأمر طبيعياً جداً ؛

والواقع انه الوحيد الذي كان يبدو راضياً مرتاحاً .

واومأت ايفيش باصبعها الى ذي اللحية ، وقالت ضاحكة ؟

— لقد فرّ لأنني وعدتُه بأن اقبله .

فقال ذو اللحية بكل رصانة :

— اسمحي لي ، انك لم تعديني بذلك ، بل هددتني به .

قالت ايفيش : — حسناً ! لن اقبلك ، بل سأقبل « ايرما » .

فقالت المرأة الشابة وقد ثارت دهشتها وغرورها :

— تريدن ان تقبليني يا صغيرتي ايفيش !

— نعم ، تعالي .

وجذبتها من ذراعها في تسلط . فابتعد الآخرون وقد أخذهم العجب ،

وقال احدهم : « ما هذا يا ايفيش ! » بصوت لا يخلو من تأنيب

لطيف . وكان الجميل الأسمر ينظر اليها برودة وهو يتسم بسمه

خفيفة ؛ كان يراقبها ، واستشعر ماتيو الذل ؛ ان ايفيش لم تكن ،

بالنسبة لهذا الشاب الأنيق ، الا فريسة ؛ لقد كان يعرفها بنظرة

شهوانية عارفة ، وقد كانت عارية امامها ، وكان يحزر نهديه وفخذها

ورائحة لحمها ... وانتفض ماتيو فجأة ، وتقدم من ايفيش ، مرتخي

الساقين : لقد لاحظ انه كان يشتهيها للمرة الاولى بنجمل ، عبر

شهوة شخص آخر .

وكانت ايفيش قد قامت بألف حركة متصنعة قبل ان تقبل جارتها.

واخيراً ، تناولت رأسها بين يديها ، وقبلتها في شفيتها ثم دفعها عنها

بعنف وهي تقول في تأنيب :

— ان رائحتك هي رائحة الكاد الهندي .

وانزوع ماتيو بالقرب من طاولتهم وقال :

— ايفيش !

ف نظرت اليه فاغرة الفم ، وتساءل عما اذا كانت قد عرفته . ورفعت

- على مهل يدها اليسري وأرته اياها وقالت :
- هذا انت ؟ عجباً ، انظر !
- كانت قد نزعت ضهادها ، فرأى ماتيو قشرة محمّرة دبقة مع صخور صغيرة من القيقح الاصفر .
- وقالت ايفيش خائبة :
- لقد احتفظت بضادك . صحيح ، انت متبصر .
- قالت المرأة بلهجة اعتذار :
- لقد نزعته بالرغم منا . انها شيطان صغير .
- ونفضت ايفيش فجأة ونظرت الى ماتيو نظرة مبهمة :
- خذني من هنا . اني اُذل نفسي .
- فتبادل الشبان النظرات ، وقال ذو اللحية لماتيو :
- اننا لم نجعلها تشرب . بل نحن حاولنا منعها من ذلك .
- فقالت ايفيش باشمزاز :
- هذا صحيح . انهم لؤماء .
- قال الراقص الجميل :
- الا انا يا ايفيش ، الا انا .
- وكان ينظر اليها نظرة مشاركة : فالتفت اليه ايفيش وقالت :
- الا هذا الذي هو انسان قدر !
- قال ماتيو على مهل :
- تعالي .
- واخذها من كتفيها وساقها ؛ وكان يسمع خلفه ضجة واجمة .
- وفي وسط الدرج ، تثاقلت ايفيش ، فابتهل قائلاً : « ايفيش ! »
- فنفضت خصلاتها مقهقهة وقالت :
- اريد ان اجلس .
- ارجوك .

فعدت ايفيش الى الضحك ثم رفعت تنورتها الى ما فوق - ركبتهما
وقالت :

- اريد ان اجلس هنا .

فتناولها ماتيو من قامتها وحملها . وحين بلغا الشارع تركها : ولم
تتخبط ، وطرفت بعينها ونظرت فيما حوله نظرة ضجيرة . وقال ماتيو
مقترحاً :

- هل تريدان ان تعودا الى بيت الطالبات ؟

فقالت ايفيش في صيحة : - كلا .

- اتريدان ان آخذك الى بوريس ؟

- انه ليس في البيت .

- واين هو ؟

- الشيطان يدري .

- اين تريدان ان تذهبي ؟

- ما يدريني انا ؟ عليك انت ان تجد ، فانت الذي اخذتني .

وفكر ماتيو لحظة وقال :

- حسناً .

وامسكها حتى التاكسي وقال :

- ٢٢ ، شارع هويغنز .

وقال : - اني آخذك الى بيتي . تستطيعين ان تتمددي على ديواني

وسأعد لك الشاي .

فلم تعترض ايفيش . وصعدت الى السيارة على مشقة وارتجت فوق

الوسائد .

- هل تشكين شيئاً ؟

- وكانت مزرقّة ، وقالت :

- اني مريضة .

قال ماتيو : - سأقول له ان يقف امام صيدلية .
فقلت بعنف : - كلا .

قال ماتيو : - اذن تمددي واغمضي عينيك . سنصل عما قليل .
فأنت ايفيش قليلاً . وفجأة اخضر لونها واطلت من الباب . وكان
ماتيو يرى ظهرها الهزيل يهزه التقيؤ . ومدّ يده فأمسك بلا ضجة
قفل الباب : كان يخشى ان يفتح . وبعد لحظة ، انقطع السعال ،
فارتدى ماتيو بحويوة الى خلف ، واخذ غليونه وحشاه وهو مستغرق .
وتركت ايفيش نفسها ترتدي على الوسائد ، واعاد ماتيو غليونه الى
جيبه . وقال لها :

- لقد وصلنا .

واستقامت ايفيش بمشقة وقالت :

- انني خجلة .

وترجل ماتيو قبلها ومدّ لها ذراعيه ليعينها ، ولكنها دفعته وقفزت
بحويوة الى الرصيف . واسرع يدفع للسائق والتفت اليها ، فاذا
هي تنظر اليه نظره محايدة ؛ وكانت رائحة قيء يسير تنبعث من فمها
النقي . واستنشقت ماتيو هذه الرائحة بهوس :

- هل تحسنت حالتك ؟

فقلت ايفيش بلهجة قائمة :

- لست بعد ثملة ، ولكن رأسي يخفق .

ودلّها ماتيو برفق على السلم . وقالت له بلهجة عدائية :

- عند كل درجة ، ضربة في رأسي .

وتوقفت لحظة عند السطح الثاني لتسردّ انفاسها .

- انني الآن اذكرك كل شيء .

- ايفيش !

- كل شيء . لقد تدرجت مع اولئك الاشخاص القذرين وجعلت

نفسى عرضة للانظار ... ثم اني ... سقطت في الشهادة .

قال ماتيو : - تعالي . لم يبق الا طابق واحد .

وصعدا في صمت . وقالت ايفيش فجأة :

- كيف عثرت عليّ ؟

فانحنى ماتيو ليدخل المفتاح في القفل ، وقال :

- كنت ابحث عنك ، ثم التقيت ريناتا .

ودمدت ايفيش خلف ظهره :

- كنت ارجو طوال الوقت ان تأتي .

قال ماتيو وهو يمتحي امامها : « ادخلي » فلامسته وهي تلمّ به ،
واستولت عليه الرغبة في ان يأخذها بين ذراعيه . وخطت ايفيش بضغ

خطى مترددة ودخلت الغرفة . ونظرت فيما حولها نظرة مقطّبة :

- هذا هو بيتك !

قال ماتيو : - نعم .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يستقبلها فيها عنده . ونظر الى المقاعد

الجلدية الخضراء والى طاولة عمله ؛ وراها بعيني ايفيش فداخله منها

الحجل وقال :

- هو ذا الديوان . تمدّدي عليه .

فارتمت ايفيش على الديوان دون ان تنبس بحرف .

- هل تريدن شايًا ؟

قالت ايفيش : - اني اشعر بالبرد .

وراح ماتيو يأتبها بغطاء الرجلين ويمدّه على ساقبها . واغمضت

ايفيش عينبها ووضعت رأسها على وسادة . وكانت تتألّم ، وكان على

جبببها ثلاثة تجعدات عمودية ، عند منبب الانف .

- هل تريدن شايًا ؟

فلم تجب . واخذ ماتيو المغلاة الكهربائية وراح يملأها من حنفية

المطبخ . ووجد في قفص الطعام نصف ليمونة قديمة قد تزججت بقشرها الجافة ، ولكن ربما كان من الممكن استقطار دمعة او دمتين منها اذا عُصرت جيداً . ووضعها على صحن مع فنجانين وعاد الى الغرفة يقول :

— وضعت الماء للغلي .

فلم تجب ايفيش : كانت نائمة . وسحب ماتيو كرسيّاً بازاء الديوان وجلس بلا ضجة . وكانت تجهّذات ايفيش الثلاثة قد اختفت ، وكان جبينها نقيّاً املس ؛ كانت تبتسم وعيناها مغمضتان . وفكر : « ما انصر شباهها ! » لقد وضع امله كله في طفلة . وما كان اشدّ ضعفها وخفتها وهي على هذا الديوان : لم تكن تستطيع ان تساعد احداً ، بل كان ينبغي ، بالعكس ، ان تُساعد لكي تحيا . ولم يكن ماتيو يستطيع ان يساعدها . ستهب ايفيش الى « لاون » وستوحش هناك شتاءً او شتاءين ، ثم يأتي شخص — شخص شاب — فيأخذها . « وانا سأتزوج مارسيل . » ونهض ماتيو وذهب يرى على مهل ان كان الماء يغلي ، ثم عاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر بحنان الى هذا الجسم الصغير الضعيف الملطخ الذي يظلّ شريفاً الى هذا الحدّ في النوم ، وفكر بأنه كان يحب ايفيش فدهش لذلك : ان الحب شيء لا يُحسّ به ، وهو لم يكن انفعالاً خاصاً ، ولا لوناً خاصاً من عواطفه ، وانما هو اشبه بأن يكون لعةً ثابتة في الأفق ، نذيراً معصيبة . واخذ الماء يغني في المغلاة ، وفتحت ايفيش عينيها ، فقال ماتيو :

— انني اعدّ لك شايّاً . هل تريدين ؟

قالت ايفيش بلهفة ضيق : — شاي ؟ ولكنك لا تحسن اعداد

الشاي .

واعادت كفها خصلاتها على وجنتيها ونهضت وهي تفرك عينيها ،

وقالت :

- اعطني علبة الشاي ، سأعده لك على الطريقة الروسية . ولكننا بحاجة الى مغلاة روسية .

فقال ماتيو وهو يمد لها علبة الشاي :

- ليس عندي الا مغلاة عادية .

- اوه ! ثم هذا شاي سيلاني . فليكن !

ووقف امام المغلاة :

- وابريق الشاي ؟

قال ماتيو : « صحيح » وانطلق يأتي بأبريق الشاي من المطبخ .

- شكراً .

وكانت هيئتها ما تزال قائمة ، ولكنها منتعشة . وصبت الماء في

ابريق الشاي وعادت الى الجلوس بعد لحظات وهي تقول :

- ينبغي ان نتركه لينقع .

وساد صمت ، ثم استطردت :

- اني لا احب بيتك .

قال ماتيو : - كنت اعتقد ذلك جيداً . واذا تحسنت حالتك قليلاً ،

كان بوسعنا ان نخرج .

فقالت ايفيش : - واين نذهب ؟ كلا . اني مسرورة بأن أكون

هنا . لقد كانت جميع تلك المقاهي تدور حولي ؛ ان الناس كانوا

كوابيس .. صحيح ان البيت هنا قبيح ، ولكنه هاديء . الا تستطيع

ان تسدل الستائر ؟ سنضيء بعد ذلك هذا المصباح الصغير .

فنهض ماتيو ، وذهب يغلق المصابيح ويحل الأريطة ، فالتقت

الستائر الثقيلة ، واضاء مصباح مكتبه . وقالت ايفيش مفتونة :

- هذا هو الليل .

- واستندت الى وسائد الديوان :

- ما انعم هذا ! لكأن النهار قد انتهى . اود ان يكون الظلام

- سائدا حين اخرج من هنا .
- قال ماتيو : - إبقى هنا ما شئت . فلن يأتي احد ، واذا جاء احد تركناه يدق من غير ان نفتح . اني حرٌ تماماً .
- ولم يكن هذا صحيحاً : كانت مارسيل تنتظره عند الساعة الحادية عشرة . وفكر في ضغينة : سوف تنتظر . وسألها :
- متى تذهبن ؟
- غداً . هناك قطار عند الظهر .
- وظل ماتيو لحظة دون ان يتكلم . ثم قال وهو يراقب صوته :
- سأصحبك الى المحطة .
- قالت ايفيش : - كلا . اني اكره هذا ، فذلك يقتضي وداعات مائة تمطط كالكاوتشوك . ثم اني سأكون ميتة من التعب .
- قال ماتيو : - كما تشائين . هل ابرقت لاهلك ؟
- كلا . كان بوريس يريد ان يفعل ذلك ، ولكي منعه .
- اذن ، ينبغي ان تبلغهم ذلك بنفسك ؟
- فخفضت ايفيش رأسها وقالت :
- نعم .
- وساد صمت وكان ماتيو ينظر الى رأس ايفيش المنحني وكتفها الهزيلتين : وكان يخيل اليه انها كانت تركه رويداً رويداً . وسألها :
- هذه اذن آخر امسية لنا في هذا العام :
- فقالت في ضحكة ساخرة : - ها ! في هذا العام ! ...
- قال ماتيو : - ايفيش ... لا ينبغي لك ... سأذهب اولاً لرؤيتك في « لاون » .
- لا اريد . ان كل ما يتعلق بلاون ملطخ .
- اذن ستعودين .
- كلا .

- هناك دورة في تشرين الثاني ، ولا يستطيع اهلك .
- انت لا تعرفهم .
- صحيح . ولكن ليس من الممكن ان يفسدوا حياتك كلها حقاباً
لك على انك سقطت في الامتحان .
قالت ايفيش : - انهم لن يفكروا في معاقبي . ولكن سيكون
الأمر اسوأ من ذلك ؛ سوف يهملوني ، وسأخرج من افكارهم بكل
بساطة . (واستخف بها الغضب فأضانت) وهذا ما استحقه فعلاً !
اني لست جديرة بتعلم اية مهنة ، وانا افضل ان ابقى في لاون طوال
حياتي على ان اعيد من جديد هذه الشهادة ...
فقال ماتيو قلقاً : - لا تقولي هذا يا ايفيش . لا تستسلمي منسد
الآن : انك تكرهين لاون .

فقال وهي متقبضة الاسنان :
- اوه ! نعم ، اني اكرهها بفضاعة .
ونفض ماتيو ليأتي بابرقي الشاي والفناجين . وفجأة صعد للدم الى
وجهه ، فالتفت اليها وتمتم من غير ان ينظر اليها :
- اسمعي يا ايفيش : ستهين غداً ، ولكني اعدك بأنك ستعودين
في نهاية تشرين الاول . وسوف اتدبر الامر حتى ذلك الحين .
فسألته ايفيش في دهشة متعبة :
- ستتدبر الامر ؟ ولكن ليس هناك مجال لتدبر الامر : قلت لك
اني غير جديرة بتعلم مهنة .
وجرو ماتيو على رفع نظره اليها ، ولكنه لم يستشعر الاطمئنان ؛
فأنتى له ان يجد الكلمات التي لا تنغصها ؟
- ليس هذا ما كنت أعنيه ... فلو .. لو انك اردت ان تسمحي
لي بأن اساعدك ...
وكان يبدو على ايفيش انها لم تفهم بعد ، فأضافت ماتيو :

- سيكون معي بعض المال .

فأخذت ايفيش غصنة وقالت :

- آه ! أهذا ما تعنيه ؟

ثم اضافت بحفاة :

- ان هذا مستحيل .

قال ماتيو في حرارة : - على الاطلاق ، ان هذا ليس مستحيلاً
على الاطلاق . اسمعي : في اثناء العطلة ، سأقتصد بعض المال ؛ ان
اوديت وجاك يدعوانني كل عام لقضاء شهر آب في مقصورتها في
« جوان لبيان » ، ولم ألب دعوتها حتى الآن ، ولكن لا بد من
ان ألبها ذات يوم . وسأذهب هذا العام ، فأصيب بعض التسلية
وأوفر بعض المال ... (وأضاف بحوية) لا ترفضني قبل ان تعرفي :
سيكون هذا قرصاً .

وتوقف . وكانت ايفيش قد تراخت ، وكانت تنظر اليه من تحت

نظرة سيئة :

- ولكن لا تنظري الي هكذا يا ايفيش !

فقال ايفيش بصوت مقطب :

- آه ، لا ادري كيف انظر اليك ، ولكني اعرف ان بي صداعاً .

وأسبلت عينيها واطافت :

- علي ان اعود الى البيت لأنام .

- ارجوك يا ايفيش : اصغي الي . سوف اجد المسال وستعيشين

في باريس ، ولا تقولي لا ، ابتهل اليك ، لا تقولي لا من غير ان

تفكري . ان هذا لا يمكن ان يزعجك : ستردين لي المال حين

تكسبين حياتك بالعمل .

فهزت ايفيش كتفيها ، واطاف ماتيو بحفاة :

- او ان بوريس هو الذي يرد المال .

فلم تجب ايفيش ، وكانت قد دفنت رأسها في شعرها ، وكان مانيو
ما يزال مزروعاً امامها ، مترعجاً وشقيماً .
- ايفيش .

وظلت معتمصة بصمتها . وكانت به رغبة بان يأخذها من ذقنها
ويرفع لها رأسها قسراً .

- ايفيش ! آن لك ان تجيبي علي . لماذا لا تجيبين ؟

وظلت ايفيش صامتة . وأخذ مانيو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً .
وكان يفكر : « سوف تقبل . لن اتركها قبل ان تقبل . سوف ..
سوف اعطي دروساً خصوصية ، او سأصحح المسودات . »
وقال : - ستقولين لي يا ايفيش لماذا لا تقبلين ؟

وكان ممكناً التغلب على ايفيش بالارهاق : ينبغي ارهاقها بالأسئلة
التي تتغير لهجتها بين فترة واخرى . وعاد يقول :
- لماذا لا تقبلين ؟ قولي لماذا لا تقبلين ؟

وتمت ايفيش اخيراً ، من غير ان ترفع رأسها :
- لا اريد ان اقبل مالك .

- لماذا ؟ انك تقبلين مال اهلك .

- ليس الامران سواء .

- صحيح : ليس الامران سواء . لقد قلت مئة مرة إنك كنت
تحتقرينه .

- ليس عندي مبرر لقبول مالك .

- وربما كان عندك مبرر لقبول ما لهم ؟

قالت ايفيش :

- لا اريد ان يكون الناس كرماء معي . اما اذا كان ذلك من ابي ،

فلست محتاجة معه الى العرفان .

فصاح مانيو :

— ما هذه الكبرياء يا ايفيش ؟ انه لا يحق لك ان تفسدي حياتك
من اجل قضية كرامة . فكري في الحياة التي ستعيشينها هناك . ستندمين
يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، لكونك قد رفضت .

فتحلت ايفيش وقالت :

— دعني ، دعني !

وأضافت بصوت منخفض خشن :

— اوه ! اي عذاب الا ان يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في
مواقف كريهة .

قال ماتيو على مهل :

— ولكني لا افهمك . لقد قلت لي في الشهر الماضي ان المال كان
شيئاً محترماً ، ولا ينبغي ان نوليها اي اهتمام . كنت تقولين : لا يهمني
من اين يأتي ، المهم ان املكه .

فرفعت ايفيش كتفيها ، ولم يعد ماتيو يرى منها الا اعلى رأسها
وطرفاً من رقبتها بين خصلاتها وباقة قبصها . وكانت الرقبة اشد سمرة
من بشرة الوجه .

— ألم تقولي لي ذلك ؟

— لا اريد ان تعطيني مالاً .

ففقد ماتيو صبره ، وقال في ضحكة متقطعة :

— آه ! ذلك اذاً لأنني رجل !

فسألته ايفيش : — ماذا تقول ؟

وكانت تنظر اليه في حقد بارد :

— ان هذا صفيق . وانا لم افكر في ذلك قط ، واني اسخر منه ،

ولم اكن اتصور ...

— واذن ؟ فكري : للمرة الاولى في حياتك ستكونين حرة

تماماً ؛ ستعيشين حيث تريدن ، وستفعلن كل ما يروق لك . لقد

سبق ان قلت لي انك تودين ان تُعدّي شهادة ليسانس في الفلسفة .
تستطيعين ان تجربي ، وسنساعدك انا وبوريس .
وسألته ايفيش : - لماذا تريد ان تعمل خيراً ؟ اني لم اعمل معك
شيئاً من ذلك قط .. بل لقد كنتُ معك غير محتملة ، وهأنت الآن
مشفقٌ عليّ .

- اني لست مشفقاً عليك .
- اذن لماذا تعرض عليّ مالا ؟
فتردد ماتيو ، ثم قال وهو يصرف عنها بصره :
- لا استطيع ان احتمل التفكير بألا اراك بعد .
وساد صمت ، ثم سأله ايفيش بلهجة غير واثقة :
- تريد ... تعني انك .. انما تفعل ذلك بدافع الانانية ؟
فقال ماتيو بجفاف : - بدافع انانية محضة . كل ما في الامر اني
راغب في رؤيتك .

وجرّو علي ان يلتفت اليها . وكانت تنظر اليه مقطبة الحاجب ،
فاغرة الفم . ثم بدا عليها فجأة انها تنفرج . وقالت في غير
اكتراث :

- اذن ربما . ان هذا يعينك ، في هذه الحالة . وسنرى . وانت
على حق ، في آخر المطاف : ان يأتي المال من هنا او من هناك .
وتنفس ماتيو وفكر : « حسناً ! » ولكنه لم يكن قط مطمئناً :
لقد كانت ايفيش بهيئتها الشرسة . وسألها ليزيدها إلزاماً :
- وكيف تراك ستحملين اهلك على ابتلاع هذا ؟

فقال ايفيش بغموض :
- سأقول اي شيء . فاما ان يصدقوني او لا يصدقوني ، وما أهمية
ذلك ما داموا لا يدفعون بعد ؟
وخفضت رأسها في هيئة قائمة وقالت :

- لا بد من العودة الى هناك :

فجهد ماتيو بأن يستر غيظه :

- ولكن ما دمت ستعودين ؟

قالت : - ان هذا غير واقعي .. اقول لا ، واقول نعم ، ولكنني لا انجح في ان اصدق ذلك . إنه بعيد . في حين اني سأكون في لاون مساء الغد .

ولست حنجرتها وقالت :

- انني احستها هنا . ثم انه يجب علي ان أهيب حقايتي ، وهذا ما يستغرق ساعات الليل بطولها .

ونفضت : - لا بد ان الشاي قد جهز . تعال لنشرب :

وصبت الشاي في الفناجين ، وكان اسود كالفهوة . وقال ماتيو :
- سأكتب لك .

قالت : - وانا ايضاً ، ولكن لن يكون لدي ما اقله لك .

- متصفين لي بيتكم ، وغرفتك : اني اود ان اتخيلك وانت هناك .

قالت : - اوه ، كلا . لا احب ان اتحدث في هذا كله . انه يكفيني ان اعيشه .

وفكر ماتيو في الرسائل القصيرة الجافة التي كان بوريس يعيها الي لولا . ولكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة : كان ينظر الي يدي ايفيش ، والى اظافرها الحمر المدببة ، والى معصمها الهزيلين وفكر :
« سأراها مرة اخرى . » وقالت ايفيش وهي تضع فنجانها :

- اي شاي غريب !

وانتفض ماتيو اذ سمع جرس الباب يرن . ولم يقل شيئاً : كان يأمل ان تكون ايفيش قد سمعت . وسألت :
- هجياً ! ألم يرن الجرس ؟

فوضع ماتيوا اصبعاً على شفتيه وهمس :
- لقد اتفقنا على ألا نفتح الباب .
فقالت ايفيش بصوت واضح :
- بلى ، بلى ربما كان ذلك هاماً . اذهب سريعاً فافتح الباب .
وتوجه ماتيوا الى الباب . وكان يفكر : « انها تكره ان تكون
ضالعة معي . » وفتح الباب فيما كانت تناره بهم بدقه ثانية . وقالت
ساره لاهثة :

- مرحباً ! انك تجعلني اركض كما ترى . لقد اخبرني الوزير
الصغير انك تلفنت ، فأنتيت . ولم اهتم بان اضع قبعتي .
ونظر اليها ماتيوا في ذعر : كانت مصبوبة في ثوبها البشع الاخضر ،
وهي تضحك عن اسنان نخرة وشعرها مشعث وهيتها هيئة طيبة مفتعلة .
كانت تفرز الكارثة . وقالت بحوية :

- مرحباً ! ترين انني ... مع ...
فدفعته ساره في ود ومدت رأسها من فوق كتفه وسألت في
فضول شره :

- من عندك ؟ آه ! انها ايفيش سرخين . كيف حالك ؟
ونهضت ايفيش وقامت بحركة احترام . وكانت الخيبة بادية عليها .
وكذلك كان شأن ساره . وكانت ايفيش هي الشخص الوحيد الذي لم
تكن ساره تحتمله . وقالت ساره :
- كم انت هزيلة ! انا متأكدة من انك لا تأكلين بما فيه الكفاية .
وانت في ذلك غير عاقلة .

ووقف ماتيوا في وجه ساره وهو ينظر اليها بإحدااد : وأخذت ساره
تضحك وقالت بجذل :
- ها هو ماتيوا يوسع لي عينيه . انه لا يريد ان احادثك هي
صحتك .

والتفتت الى ماتيو وقالت :

— لقد عدت في ساعة متأخرة من الليل . ولم اجد « والدمان » .
كان لم يمض على وجوده في باريس عشرون يوماً ، حتى غرق في
ركام من الاعمال المشبوهة . وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين
عثرت عليه .

قال ماتيو : — انك لطيفة يا سارة ، فشكراً .

ثم اضاف باندفاع : — ستحدث عن هذا فيما بعد . تعالي خذي
فنيجان شاي .

قالت : — لا ، لا ! بل لن اجلس ، فعليّ ان انجسه الى المكتبة
الاسبانية ، فهم يريدون ان يروني بصورة عاجلة . هناك صديق لغوميز
وصل الى باريس .

فسألها ماتيو ليكسب الوقت : — ومن هو ؟

— لا اعرف بعد . قالوا لي : صديق لغوميز ، قادم من مدريد .
ونظرت الى ماتيو في حنان ، وكانت عيناها تبدوان شاردتين من
فرط الطيبة .

— ان عندي نبأ سيئاً لك يا عزيزي ماتيو : انه يرفض .

— هم !

غير انه تأتى له ان يقول :

— تودين من غير شك ان تكلميني على حدة ؟

وقطب حاجبيه عدة مرات ، ولكن ساره لم تكن تنظر اليه .

وقالت في أسى :

— لا يحتاج الامر الى ذلك . فليس عندي ما اقوله لك تقريباً .

ثم اضافت بصوت مثلث بالسر :

— لقد ألححت ما وسعني ذلك . ولكن عتباً . يجب على الشخص

المعني ان يكون عنده صباح الغد ، ومعها المال .

قال ماتيو بحيوية : - حسناً ! لا تتكلم بعدُ بهذا .
وضغط على الكلمات الأخيرة ، ولكن ساره كانت حريصة على ان
تبرّر نفسها فقالت :

- لقد بذلت جهدي ، وابتهلت اليه ، لو تعلم . فقصّال لي ،
« هل هي يهودية ؟ » فقلت كلا . وعند ذلك قال : « انسي لا
أفرض احداً . اذا شاءت ان اخلصها فلتدفع . والا ، فان العبادات
غير مفقودة في باريس . »

وسمع ماتيو الديوان يفرقع خلفه . واستطردت ساره :
- لقد قال : « اني لا أفرضهم ابداً . لقد عذبونا هناك اكثر
ما ينبغي . » وهذا صحيح كما تعلم ، وانا اكاد افهم موقفه . لقد
حدثني عن يهود فيينا ، وعن معسكرات الاعتقال . ولم اكن اريد
ان اصدقه ... ولكن صوته اختنق : « لقد عذبوهم عذاباً شديداً . »
وصمتت ، وحلّ صمت ثقيل . ثم اضافت وهي تنفض رأسها :

- وإذن ، ما الذي ستفعله ؟

- لا ادري .

- ألا تفكر في ...

فقال ماتيو بحزن : - بلى ، انصوّر ان الأمر سينتهي الى هذا .
قالت ساره في انفعال : - يا عزيزي ماتيو !
ونظر اليها في قسوة ، فصمتت منزعجة . ورأى شيئاً ما يشرق في
عينها يشبه أشعة وجدانية ، ثم قالت بعد لحظة :
- حسناً . اني اذن أفرتقع . اتصل بي صباح الغد ، فانا اريد
ان اعرف .

قال ماتيو : - حسناً . الى اللقاء يا ساره .
وصاحت ساره وهي ازاء الباب : - الى اللقاء يا صغيرتي ايفيش .
قالت ايفيش : - مع السلامة يا سيدتي .

وحين ذهب ساره ، استعاد ماتيو مشيته عبر الغرفة . وكان يشعر بالبرد . وقال ضاحكاً :

— ان هذه المرأة الطيبة زوبعة . انها تدخل كالعاصفة فتلقي كل شيء ارضاً ثم تمضي كالريح .

فلم تقل ابفيش شيئاً . وكان ماتيو يعلم انها لن تجيب . واقبل يجلس بالقرب منها وقال من غير ان ينظر اليها :

— ابفيش : سوف اتزوج مارسيل .

وساد صمت آخر . وكان ماتيو ينظر الى الستائر الثقيلة الخضراء التي كانت تتدلى على النافذة . وكان متعباً . ووضح لابفيش ، وهو خافض الرأس .

— لقد اخبرتني امس الاول انها حامل . وعانت الكلمات مشقةً حتى تخرج : انه لم يكن يمرؤ على الالتفات الى ابفيش ، ولكنه كان يعلم انها كانت تنظر اليه . وقالت بصوت مثلوج :

— انني اتساءل لماذا تقول لي ذلك . فهذه شؤونك .

فهز ماتيو كتفيه وقال :

— كنت تعلمين جيداً انها كانت ...

قالت ابفيش في ترفع : — خليلتك ؟ اقول لك انني لا اهتم كثيراً

بهذه الامور .

وترددت لحظة ثم قالت بلهجة شاردة :

— انني لا افهم لماذا يبدو عليك الارهاق . اذا تزوجتها ، فهذا

يعنى انك راغب في ذلك . والا فان الوسائل ، على ما قيل لي ، غير مفقودة ...

قال ماتيو : — ليس معي مال . لقد بحثت في كل مكان ...

— ومن اجل هذا ، كتلفت بوريس بان يقترض خمسة آلاف فرنك

من لولا ؟

— آه ! تعلمين ! انني لم ... واخيراً نعم ، نعم ، من اجل هذا ،
اذا شئت .

قالت ايفيش بصوت ابيض :

— ان هذا شيء قدر .

— نعم .

وقالت ايفيش : — والواقع ان ذلك لا يعنيني . لا بد انك تعرف ما
عليك ان تفعله .

وأنت شرب فنجانها وسألته :

— كم الساعة ؟

— التاسعة الا ربعا .

— هل هبط الليل ؟

فتوجه ماتيو الى النافذة ورفع الستائر، فتسلل نهاراً قدر عبر الشقوق .
— لم يهبط بعد تماماً .

قالت ايفيش وهي تنهض : — اوه ! لا بأس ! انني مع ذلك

ذاهبة . (وازافت بلهجة انين) ان عليّ ان اعدّ جميع تلك الحقائق .

قال ماتيو : — اذن مع السلامة .

ولم تكن له رغبة في امساكها .

— الى اللقاء .

— هل اراك مرة اخرى في تشرين الاول ؟

لقد نددت هذه الكلمات عنه بالرغم منه . فانتفضت ايفيش

انتفاضة عنيفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها :

— في تشرين الاول ؟ في تشرين الاول ! آه ، كلا !

واخذت تضحك وقالت :

— اعذرني . ان هيئتك غريبة لو تعلم . انني لم افكر قط بان اقبل

مالك : انك لن تملك منه اكثر مما يحتاجه تأييث بيتك الزوجي .

قال ماتيو وهو يأخذ بذراعتها : - ايفيش !

فأطلقت ايفيش صرخة وتخلصت منه فجأة وقالت :

- دعني . لا تلمسني .

فترك ماتيو ذراعه تسقط . وكان يحس غضباً يائساً يتملكه . وتابعت

ايفيش لاهثة :

- لقد شككت في ذلك . صباح امس .. حين جرؤت على لمسي ...

قلت لنفسي : ان هذه تصرفات رجل متزوج .

قال ماتيو بخشونة :

- كفى ، لا حاجة الى الالحاح . لقد فهمت .

وكانت هناك ، معسكرة امامه ، محمّرة من الغضب ، وعلى

شفتيها بسمه غطرسة : وخائف من نفسه . فارتدى خارجاً وهو يدافعها ،

وصفق باب الدخول خلفه .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
وعبثاً أمدُّ ذراعيّ . »

كان مقهى «ايتروا موسكيتير» يتمتع بكل انواره في المساء الحائر .
وكان جمع "عاطل" قد تحلّق قرب الرصيف : عما قليل سينبسط فوق
باريس دانتيل الليل المضيء ، من مقهى الى مقهى ، ومن واجهة الى
واجهة ؛ كان الناس ينتظرون الليل وهم يستمعون الى الموسيقى ، وكان
مظهر السعادة بادياً عليهم ، وكانوا يتدافعون في ارتعاش امام هذا
الاحمرار الليلي الصغير الاول . واستدار ماتيو حول هذا الجمع الغنائي :
ان عدوبة المساء لم تكن له .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف

ابداً ، ابداً لن تعرف . »

شارع طويل مستقيم . وخلفه ، في غرفة خضراء ، كان وجدان
صغير حاقد يدفعه بكل قواه . وامامه ، في غرفة وردية ، كانت
تنتظره امرأة لا تتحرك ، وهي تبسّم املآ . سوف يدخل بعد ساعة
بخطى ذئبية في الغرفة الوردية ، سيدع نفسه ليبتلعه هذا الامل العذب ،
هذا العرفان ، هذا الحب ، طوال الحياة ، طوال الحياة . ان اناساً

يلقون بأنفسهم في الماء لأقل من هذا .

- ايها الحمار !

وارتمى ماتيو الى امام ليتجنب السيارة ؛ فاصطدم بالرصيف ووجد نفسه على الارض : كان قد سقط على يديه ، واطلق تجديفة . ونهض ، وكانت راحته تؤلمه ، وتأمل يديه الموحلتين في خطورة : كانت اليد اليمنى سوداء ، مع بعض الجروح ، وكانت اليسرى توجهه ، وكان الرجل يلطخ ضماده . وتمم بجد : « لم يكن ينقص الا هذا ، لم يكن ينقص الا هذا . » وسحب منديله وبلله ريقاً وفرك راحته في شيء من الخنان ؛ وكانت به رغبة للبكاء . وظل معلقاً لحظة ، وكان ينظر الى نفسه في دهشة . ثم انفجر ضاحكاً . كان يضحك من نفسه ، ومن مارسيل ، ومن ايفيش ، ومن ارتباكه المضحك ؛ ومن حياته ، ومن عواطفه المثيرة للشفقة . وكان يتذكر آماله القديمة فيضحك منها لأنها افضت الى ما هو عليه ، الى هذا الانسان المليء بالرصانة والذي كان يبكي لأنه سقط على الارض ؛ كان ينظر الى نفسه بلا خجل ، في تسلية باردة وضارية ، وكان يفكر : « من يقول اني كنت آخذ نفسي أخذاً جاداً ! » وتدفت الضحكة بعد بضعة ارتجافات : لم يكن ثمة من يضحك بعد .

فراخ . استعاد الجسم سيره وهو يجر قدميه ، ثقيلاً حاراً تتناهب الرعشات وحروق الغضب في الخنجره . وفي المعدة . ولكن لم يكن ثمة بعد من يسكنه . وقد أفرغت الشوارع كأنما سالت في نقوب البوايع . ولقد غاب منها شيء كان ما يزال يملأها منذ لحظات . وبقيت الاشياء هناك لم تمس . ولكن حزمها قد حلت ، فندلت من السماء كأنها تحجرات هائلة ، وصعدت من الارض كأنها « منبهرات » مُحالة : لقد تلاشت جميع اغراعاتها الصغيرة المألوفة ، وجميع اغنياتها الرقيقة في الرياح ، فهي صامئة خرساء . لقد كان ثمة في الماضي مستقبل انسان

كان يرتمي عليها فتعكسه في نُشارٍ من الإغراءات المختلفة . لقد مات المستقبل .

واستدار الجسم الى اليمين ، وغرق في مُخار مُشع راقص في اعماق شق متدرن ، بين قطع من الثلج مخططة بالأشعة . وكانت كتل داكنة تجر نفسها وهي تصر . وعلى مستوى ارتفاع العينين كانت ازهار زغباء تتأرجح . وبين هذه الازهار ، وفي جوف هذا الشق ، كانت تنسل شفافية تراقب نفسها في هوس مثلوج . « سأذهب لآخذها » وتشكل العالم من جديد ، صاحباً منهمكاً ، مع سيارات واناس وواجهات ؛ ووجد ماتيو نفسه في وسط شارع « ديار » . ولكن لم يكن بعد هو العالم نفسه ، ولا ماتيو نفسه تماماً . ففي نهاية العالم ، وراء البنايات والشوارع ، كان ثمة باب مغلق . وبحث في محفظته وسحب منها مفتاحاً . كان هناك ذلك الباب المغلق ، وكان هنا هذا المفتاح الصغير المسطح : كانت هذه هي اشياء العالم الوحيدة ؛ ولم يكن بينها الا ركام من العقبات والمسافات . « بعد ساعة . امامي وقت كاف لأذهب اليها سيراً على الاقدام . » ساعة : الوقت الكافي تماماً للذهاب الى ذلك الباب ولفتحه ؛ وفيما وراء هذه الساعة لم يكن ثمة شيء . وكان ماتيو يسير بخطى متساوية ، وهو في سلام مع نفسه ، وكان يُحس نفسه خبيثاً وهاذنأ . « واذا كانت لولا ما تزال في سريرها ؟ » واعاد المفتاح الى جيبه وفكر : « مهما يكن ، فسوف آخذ المال . »

كان المصباح يضيء إضاءة سيئة . وبالقرب من النافذة ، بين صورتني مارلين دياتريش وروبرت تايلور ، كان ثمة رزنامة تحمل مرآة صغيرة منقطة بالصدأ . واقرب منها دانيال وهو ينحني قليلاً وعاد يربط عقدة عنقه ؛ وكان مستمجلاً ليرقدي ثيابه كلها . وفي المرآة

خلفه ، رأى وجه رالف الهزيل القاسي يكاد يمحوه الظلّ ووسخ المرأة الابيض ، واخذت يدها ترتجفان : كانت به رغبة لأن يضغط هذا العنق الهزيل الذي كانت جوزته بارزة وان يفجّر به بين أصابعه . وكان رالف مديراً رأسه نحو المرأة ، ولم يكن يدري ان دانيال كان يراه فوجهه اليه نظرة غريبة ؛ وفكر دانيال وهو يرتعش رعشة كانت في حقيقة امرها رعشة لذة : « ان وجهه يشبه وجه القاتل ، وهو مهان ، وانه ليكرهني . » وأبطأ في ربط عقده . وكان رالف ما يزال ينظر اليه ، وكان دانيال يستمتع بهذا الحقد الذي كان يجمعها . حقدٌ مختمر يبدو ان عمره عشرون عاماً ، حقدٌ يمتلكها ، وكان يطهره . « ذات يوم سيأتي شخص مثله فيقتلني من الخلف . » سوف يكبر الوجه الفنيّ في المرأة ، ثم ينتهي الامر ، وسيكون الموت الشائن الذي يناسبه . واستدار على عقبه ، فخفض رالف عينيه بسرعة . وكانت الغرفة أتوناً .

— أليس لديك منشفة ؟

وكانت يدا دانيال مبلّتين .

— انظر في دلو الماء .

وكان في دلو الماء منشفة قدرة . فسح دانيال يديه بعناية :

— لم يعرف الماء ، دلو الماء هذا . ويبدو انكما ، انما الاثني ، لا

تغتسلان كثيراً .

فقال رالف بلهجة متقبضة : — اننا نغتسل بماء الحنفية الموجودة

في المر .

وساد صمت ثم قال موضعاً :

— وذلك انسب .

وكان يلبس حذاءه وهو جالس على طرف السرير ، وجسمه منحني ،

وركبته اليمنى مرتفعة . وكان دانيال يتأمل هذا الظهر الهزيل ، وهاتين

الذراعين الفتييتين ذواتي العضلات اللتين كانتا تخرجان من قيص ذي
كمتين قصيرين : وفكر في غير ما تعرّض : ان فيهما الجمالاً . ولكنه
كان يشمئز من هذا الجمال . بعد لحظة سيكون في الخارج ، وسيكون
هذا كله من الماضي . ولكنه كان يعلم ما كان ينتظره في الخارج .
وحين حمل معطفه تردد : كان كتفاه وصدرة غارقة بالعرق ، وكان
يفكر في خوف بأن ثقل المعطف سيُلصق قيصه الكتاني بلحمه الرطب .
وقال لراف :

- ان الجو عندك حار حرارة فظيعة .

- اننا تحت السقف .

- كم الساعة ؟

- التاسعة . لقد دقت هذه اللحظة .

لا تزال ثمة عشر ساعات للقتل قبل ان يطلع النهار . انه لن ينام .
حين كان ينام هنا ، كان الامر دائماً اعظم مشقة . ورفع رالف
رأسه :

- كنت اود ان اسألك يا لاليك ... أنت الذي نصحت لبوبي

ان يعود الى العمل لدى الصيدلي ؟

- نصحت ؟ كلا . وانما قلت له انه كان ابله اذ تركه .

-- آه ! حسناً . ان الامرين يختلفان . لقد جاءني هذا الصباح يقول

لي ذلك ، وانه سيقدم اعتذاره ، وانك انت الذي كنت تريده ، ولم
يكن يبدو عليه انه صريح .

قال دانيال : - لا اريد شيئاً على الاطلاق ، وانا لم اقل له

خصوصاً ان يقدم اعتذاراته .

وابتسم كلاهما في احتقار . وأراد دانيال ان يضع معطفه ولكنه لم
يجد الشجاعة لذلك وقال رالف وهو ينحني :

- لقد قلت له : افعل ما بدا لك . فليس هذا يعني . فما دام

السيد لاليك هو الذي ينضحك ... ولكنني ارى الآن ...

وقام بحركة غاضبة ليربط سير حذائه الايسر ، وقال :

- لن اقول له شيئاً . انه هكذا . ويجب ان يكذب . ولكن هناك

واحداً اقسم لك اني سأقبض عليه عند المنعطف :

- الصيدلي ؟

- نعم . لا اقصد الصيدلي العجوز ، بل الشاب .

- الصيدلي المتمرن ؟

- نعم . ذلك المحنون . كم قد روى عني وعن بوبي ... وليس

لبوبي ما يفخر به لأنه التحق بتلك الصيدلية. ولكن لا تخف ، سأذهب

يوماً وانتظر هذا المتمرن عند الباب .

وابتسم بنجث ، وكان يلتدّ في غضبه :

- سأقصده ويدي في جيبي ، وعليّ ذلك المظهر الذي تعرفه .

كيف الحال ؟ قل لي : ما الذي حكيتني عني ؟ ماذا ؟ ماذا حكيت

عني ؟ وستراه يقول : « لم اقل شيئاً ، لم اقل شيئاً . » آه ! لم

نقل شيئاً ؟ خذ اذن : ضربة في المعدة يسقط بعدها ارضاً ، فأقفز

فوقه وأدق عنقه في الرصيف .

وكان دانيال ينظر اليه في غيظ سافر ، وكان يفكر : « كلهم

متشابهون » . كلهم . ما عدا بوبي الذي كان متخنتاً . كانوا يتحدثون

دائماً ، فيما بعد ، عن عزمهم على دق عنق احد الناس : وكان رالف

يزداد حماساً ، وعيناه ملتفعتان ، واذناه مورّدتان ؛ كان بحاجة الى

ان يأتي حركات حيّة ومفاجئة . ولم يستطع دانيال ان يقاوم رغبته

في إذلاله اكثر من ذلك .

- ولكن الا تظن انه هو الذي سيهزمك ؟

- هو ؟ (كان رالف يقهقه قهقهة كريهة) بوسعه ان يأتي ،

وليس لك الا ان تسأل خادم « الاورينتال » فذلك واحد قد جرب

وفهم . شاب في الثلاثين ذو ذراعين هكذا . وكان يقول انه يريد ان يخرجني .

فابتسم دانيال بوقاحة وقال :

- وبالطبع التهمته بلقمة واحدة .

فقال رالف مجروحاً : - اوه ! ليس لك الا ان تسأل . كان هناك عشرة تقريباً يتفرجون علينا . قلت له : - «أتأتي الى الخارج؟» اسمع ، كان هناك بوبي وشخص طويل آخر رأيتك معه . وخرج صاحبنا وهو يقول : «أتريد ان تعلم رب اسرة كيف يعيش !» وماذا فعلت له ؟ بدأت بلقمة على عينه ، ثم لكمة بمرفقي على انفه ، هكذا في صفحة وجهه . وكان قد نهض مقلداً حركات القتال . واستدار حول نفسه ، مظهرأ فخذه الصغيرتين القاسيتين المصبوبتين في بتطلونه الازرق .

وأحس دانيال بأن الغضب ينال منه كل منال ، وقد ود لو يضربه.

وتابع رالف :

- كان يبول دماً . ثم هوب ! ضربة على الفخذين ، وسقط

ارضاً ! ولم يكن يدري بعد اين اصبح ، رب الاسرة ذاك !

وصمت قائماً متعجباً ، منطوياً على مجده . وكان يشبه حشرة .

وفكر : « سوف اقتله » ولم يكن يصدق هذه القصص كثيراً ، ولكن

كان يشعر بالذل ان يكون رالف قد هزم رجلاً في الثلاثين . واخذ

بضحك وقال بمشقة :

- انك تريد ان تتصنع الشجاعة . ولا بد ان تقع اخيراً على رجل

شجاع !

واخذ رالف بضحك هو ايضاً ، وتقاربا ، فقال :

- لا اريد ان اتصنع الشجاعة ، ولكن ليس السيمان هم الذين

يخيفونني .

قال دانيال : - انك اذاً لا تخاف احداً ؟ اليس كذلك ؟ ألا تخاف أحداً ؟

وكان رالف محمراً من الحجل ، وقال :

- ليس اسمن الناس اقواهم !

فقال له دانيال وهو يدفعه :

- وأنت ؟ أرنا ان كنت قوياً . أرنا ان كنت قوياً !

وظل رالف لحظة فاغر الفم ، ثم تطاير من عينيه الشرر ، وقال بصوت مصفّر :

- اما معك انت ، فأريد بكل تأكيد . على سبيل المزاح طبعاً . بلطافة . ولن تنتصر .

فقبض عليه دانيال من نطاقه :

- سوف اريك يا صغيري !

وكان رالف مرّناً وقاسياً ؛ وكانت عضلاته تنزلق تحت يدي دانيال . وقد تصارعاً في صمت ثم اخذ دانيال ينفخ ، وكان يشعر بغموض انه شخص طويل ذو شاربين . ونجح رالف في رفعه ، ولكن دانيال دفع يديه الاثنتين في وجهه فتركه رالف . وما لبث ان ألغيا نفسيهما وجهاً لوجه ، مبتسمين وحادقين . وقال رالف بصوت غريب :

- آه ! انك تريد ان تؤذي ؟ تريد ان تؤذي ؟

وارتمى فجأة على دانيال ، ورأسه الى امام . وتفادى دانيال ضربة رأسه وقبض عليه من رقبته . وكان مرهقاً لاهثاً ، بينما لم يكن يبدو على رالف انه متعب اطلاقاً . وتماسكا من جديد ، وبدأ يستديران على نفسيهما وسط الغرفة . وكان دانيال يشعر في جوف فمه بمذاق حامز محموم : « يجب ان ننتهي من ذلك ، والا انتصر عليّ . » ودفع رالف بكل قوة ، ولكن رالف صمد . واستولى غضب مجنون على

دانيال وفكر : « اني مضحك . » وانحنى فجأة . فأمسك رالف من جنبه ورفع ، ثم القاه على السرير ، وترك نفسه يسقط فوقه بمثل تلك الاندفاعية . وتخبط رالف وحاول ان يحمش ، ولكن دانيال قبض على معصميه والقاهما على الوسادة . وظلاً على هذا الوضع لحظات ، وكان دانيال اشدّ تعباً من ان يستطيع النهوض ثانية . وكان رالف مستمرّاً على السرير ، عاجزاً ، مسحوقاً تحت ثقل هذا الرجل ، رب الاسرة . وكان دانيال ينظر اليه في تلذذ ؛ وكانت عينا رالف طافحتين بجنون حاقد ، وكان جميلاً .

وسأله دانيال بصوت متقطع :

— من الذي انتصر ؟ من انتصر يا صاحبي الصغير ؟

فابتسم رالف على الفور وقال بصوت زائف :

— انك قوي يا سيد لاليك !

فتركه دانيال ونهض على قدميه . وكان قد فقد انفاسه واستشعر

المذلة . وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفجر . وقال :

— لقد كنت من قبل قوياً . اما الآن فان انفاسي تخونني .

وكان رالف قد نهض ، وكان يسوي ياقة قميصه ولم يكن يلهث .

وحاول ان يضحك ولكنه كان يتفادى نظر دانيال . وقال :

— ليس النقص شيئاً ذا بال ، انها الالعاب البارح . فما عليك الا

ان تتمرّن .

قال دانيال :

— انك تحسن المصارعة ، ولكن هناك فرق الوزن .

وقهقهه كلاهما بانزعاج . وكان دانيال يرغب في ان يأخذ بخناق

رالف وان يلكمه في وجهه بكل قواه . ولبس معطفه ، فالتصق قميصه

المبلل عرقاً ببشرته . وقال :

— هيا . اني ذاهب . مساء الخير .

— مع السلامة ، يا سيد لآليك.

قال دانيال : — لقد خبأت لك شيئاً في الغرفة . ففتش عنه .
جيداً تجده .

وانغلق الباب . وهبط دانيال السلم ، وساقاة مرتختين . وفكر :
« عليّ قبل كل شيء ان اغتسل من الرأس حتى القدمين . » واذ
كان يعبر عتبة الباب ، جاءتته فكرة اوقفته حالاً : لقد حلق
ذقته في الصباح قبل ان يخرج ، وكان قد ترك موسى الخلاقة على المدخنة ،
مفتوحاً .

حين فتح ماتيو الباب أثار جرساً خفيفاً ومليئاً . وفكر . « لم
ألاحظ هذا الصباح ، فلا بد أنهم وصلوا المجرى الكهربائي مساءً ؛
بعد الساعة التاسعة . » والقي نظرة مواربة ، عبر زجاج المكتب ثم رأى
ظلاً : كان هناك بعضهم . ومشى بغير عجلة الى لوحة المفاتيح .
الغرفة ٢١ . كان المفتاح معلقاً في مسار . فتناول ماتيو بسرعة ووضع
في جيبه ، ثم استدار وعاد الى السلم . وفتح باب خلف ظهره ،
ففكر : « سوف ينادوني » . ولم يكن خائفاً : فقد كان هذا متوقفاً .
وقال صوت قاس :

— هيه ! اين انت ذاهب !

فالتفت ماتيو . كانت امرأة طويلة هزيلة ذات نظارات . وكان
يبدو عليها الاهتمام والقلق . فابتسم لها ماتيو . ورددت سؤالها :
— اين انت ذاهب ؟ الا تستطيع ان تسأل عند الصندوق ؟
بوليفار . كان اسم الزنجي بوليفار . فقال ماتيو بهدوء :
— اني ذاهب لأرى السيد بوليفار ، في الطابق الثالث ،
فقالته المرأة مرتابة :

— حسناً . لأنني رأيتك واقفاً امام اللوحة .

- كنت انظر اذا كان مفتاحه هنا .
قال ماتيو : - كلا ، فهو موجود في غرفته .
واقتربت المرأة من اللوحة . حظاً على اثنين . وقالت في عزاء
خائب :

- نعم . انه موجود .
وأخذ ماتيو يرقى الدرج من غير ان يجيب . وتوقف لحظة عند
سطيحة الطابق الثالث ، ثم ادخل المفتاح في قفل الغرفة ٢١ وفتح
الباب .

وكانت الغرفة غارقة في الليل . ليل احمر كان يشعر بالحمى
والعطر . واغلق الباب خلفه بالمفتاح وتقدم نحو السرير . وقد مسد
يديه اولاً الى امام ليحتمي من العقبات ، ولكنه تعود بسرعة . وكان
السرير مدعوكاً ، وكان على الفراش وسادتان ما زالتا مجوفتين بوزن
الرؤوس . وركع ماتيو امام الصندوق وفتحه ؛ وأخذته رغبة خفيفة
بأن يقبض . وكانت الاوراق المallee التي تركها في الصباح قد سقطت
فوق رزم الرسائل : فأخذ ماتيو منها خمس اوراق ؛ انه لم يكن يريد
ان يسرق شيئاً لنفسه . « ماذا تراني سأفعل بالمفتاح ؟ » وتردد لحظة
ثم عزم على ان يتركه في قفل الصندوق . وحين نهض لاحظ في
جوف الغرفة ، الى اليمين ، باباً لم يكن قد رآه صباحاً . فذهب
يفتحه : كان غرفة توالت . وأشعل ماتيو عود ثقاب فرأى وجهه
المدهب بالأشعة ينبثق في مرآة . وظل ينظر الى نفسه حتى انطفأ العود ،
ثم تركه يسقط وعاد الى الغرفة . واصبح يميز بوضوح الاثاث ،
وثياب لولا ، ومنامتها ، وثوبها الليلي ، وتايورها ، كل ذلك مرتب
ومعلق على الكرسي والمشاجب : وضحك ضحكة شريفة وخرج .
وكان المر خالياً ، ولكن كان يُسمع وقع خطى وضحكات ،
وكان ثمة اشخاص يرقون الدرج . وهم بأن يعود الى الغرفة ؛ ولكن

لا ، فقد كان لديه سواء ان يقبض عليه ، وأدخل المفتاح في القفل وأغلق الباب وهو يدبر المفتاح مرتين . وحين نهض رأى امرأة يتبعها جندي . وقالت المرأة :

- في الطابق الرابع .

وقال الجندي :

- ذلك مرتفع .

وتركها ماتيوي عمران ؛ ثم هبط . وكان يفكر في مرح بأنه ما يزال عليه ان يقوم بأشق عمل : ان يُعيد المفتاح الى اللوحة . وعند الطابق الاول توقف وانحنى على الدربزون . وكانت المرأة على عتبة الباب الخارجي ، وكانت توليه ظهرها وتنظر الى الشارع . وهبط ماتيوي الدرجات الاخيرة بلا ضجة وعانق المفتاح بالمسار ؛ ثم صعد الدرج مرة اخرى بخطى خفيفة حتى سطيحة الطابق الاول ، وانتظر لحظة ؛ ثم هبط السلم بصخب . والتفتت المرأة فحيّاها وقال :

- الى اللقاء يا سيدتي .

فدمدمت : - ... اللقاء .

وخرج ، واحسّ نظر المرأة يثقل على ظهره ، وكانت به رغبة للضحك .

« مات الوحش . مات السم » . ومشى بخطوات واسعة وساقاه مرتخيتان . انه خائف ، وفه جاف . والشوارع شديدة الزرقة ، والجو عذب جداً . « الشعلة تلتهم الفتيل ، وبرميل البارود في نهايته . » وصعد الدرج اربع اربع . وكان شاقاً عليه ان يضع المفتاح في القفل . ان يده ترتجف وفرت قطتان بين ساقيه : انه الآن يخيفها . « مات الوحش ... »

كان الموسى هناك ، على طاولة الليل ، مفتوحاً . واخذه من مقبضه

ونظر اليه . المقبض أسود ؛ والشفرة بيضاء . « الشعلة تاتهم الفتيل... »
وأمرّ إصبعه على حدّ الشفرة ، فشعر في طرف إصبعه مذاقٌ جرح
حامزاً ، فارتعش : إن على يدي ان تفعل كل شيء . إن الموسى
لا يُساعد ، فهو ليس الا جموداً ، وهو يزن زنة حشرة في اليد .
وخطا بضع خطي في الغرفة ؛ وطلب معونة ، وكانت هذه إشارة
كل شيء جامد وصامت . الطاولة جامدة . الكرامي جامدة ، ساجحة
في نور جامد . وحده واقف ، وحده حيّ في النور الازرق . لن
يساعدني شيء ، لن يحدث شيء . القلط تخربش في المطبخ . وأسند يده
الى الطاولة ، فاستجابت لضغطه بضغطة مشابهة ، لا اكثر ولا أقل . إن
الأشياء عبيد . ودبعة . منقادة . ستفعل يدي كل شيء . وتناوب
ضيقاً وضجراً . إنه وحيد في الديكور . فلا شيء ، يدفعه للتقرير ،
ولا شيء يمنعه عنه : يجب ان يقرّر وحده . وليس عمله إلاّ غيبوبة .
تلك الزهرة الحمراء بين فخذه ، ليست موجودة ، وتلك البركة
الحمراء على ارض الغرفة ، ليست موجودة . ونظر الى ارض الغرفة .
إن ارض الغرفة موحد أملس : فليس ثمة مكان للطخة . « سأكون
راقداً على الارض ، جامداً ، مفتوح البنطلون قدراً ، وسيكون
الموسى على الأرض ، أحمر ، مثلماً ، جامداً . » إنه يسحر نفسه
على الموسى وعلى الارض ، لو كان بوسعه ان يتخيلها بقوة كافية ،
تلك البركة الحمراء ، وهذا الحرق ، بحيث يتحققان من تلقاء
نفسهما من غير ان يكون محتاجاً الى إثبات تلك الحركة . اني سوف
أتحمل الألم . اني اريدة ، وأدعوه . اما هذه الحركة ، هذه الحركة ...
ونظر الى الارض ، ثم الى الشفرة . عبثاً : الهواء عذب ، والغرفة
مظلمة بعدوبة ؛ والموسى يلتمع بعدوبة ويثقل بعدوبة في يده . حركة ،
لا بدّ من حركة ، والحاضر يسقط لدى اول نقطة دم . انها يدي ،
يدي التي يجب ان تعمل كل شيء .

وتوجهه الى النافذة ، ونظر الى السماء . وازاح الستائر . بيده اليسرى ، وأضاء الكهرباء . بيده اليسرى . ونقل الموسيقى الى يده اليسرى . وأخذ محفظة نقوده . فأخرج منها خمس اوراق من فئة الألف فرنك . وتناول مغلفاً من على مكتبه ، فوضع المال في المغلف . وكتب على المغلف : الى السيد دولاريو ، ١٢ شارع هويغنز . ووضع المغلف في مكان بارز على الطاولة . ونهض ، ومشى ، وحمل الوحش الملتصق ببطنه ؛ انه يمصه ، وهو يحسه . نعم . لقد أخذ في الشراك . طوال الليل . واستعادت يده اليمنى الموسيقى . انه يخاف يده ، وهو يراقبها . إنها متصلبة في طرف ذراعه . وقال : « هيا ! » وعبر به ارتعاش صغير ضاحك من الجنين الى الرقبة . « هيا . لنته من ذلك ! » ليته يجد نفسه مقطوع العضو ، كما يجد المرء نفسه واقفاً في الصباح : إذ يدق المنبه ، من غير ان يعلم كيف نهض . ولكن يجب اولاً ان يعمل هذه الحركة القذرة ، هذه الحركة المبولة ، ان يفك ازواره طويلاً ، وفي صبر . وصعد جمود الموسيقى الى يده ، والى ذراعه . جسم حي وحار ذو ذراع حجرية . ذراع صنيعة ضخمة ، جامدة ، مثلجة ، وفي طرفها موسى . وفك أصابعه ، فسقط الموسيقى على الطاولة .

الموسى هناك مفتوح : على الطاولة : لم يتغير شيء . ! انه يستطيع ان يمد يده ويأخذه . وسيطيع الموسيقى جامداً . ان الاوان لم يفت بعد ، ولن يفوت الوقت ، فان الليل بطوله لي . ومشى عبر الغرفة : انه غير حاقده على نفسه بعد ، انه لا يريد شيئاً بعد ، انه عائم . ان الوحش هنا ، بين فخذه ، مستقيم قاس ، قدارة ! ان كان ذلك ينفرك اكثر مما ينبغي يا صغيري ، فان الموسيقى هنا ، على الطاولة . « مات الوحش ... » الموسيقى . الموسيقى . ودار حول الطاولة ، من غير ان ينزع نظره عن الموسيقى . ألا يمنعني اذن شيء

من اخذه ؟ لا شيء . كل شيء جامد هاديء . ومد يده ، ولمس
الشفرة : ان يدي ستفعل كل شيء . وقفز الى خلف ففتح الباب
وقفز الى السلم . وهبطت احدى قططه السلم امامه مذعورة .
وكان دانيال يعدو في الشارع : وفوق ، كان الباب ما يزال
مفتوحاً على سعته ، والمصباح مضاء ، والموسى على الطاولة ، وكانت
القطط تائهة في السلم المظلم . ولم يكن ثمة ما يمنع من ان يعود
أدراجه . لقد كانت الغرفة تنتظره باستسلام . ولم يكن ثمة ما هو
مقرر ، ولن يتقرر شيء ما ابداً . كان ينبغي ان يركض ، ان يفر
الى ابعد مكان ممكن ، ان يغرق في الضجيج ، في الانوار ، وسط
الناس ، وان يعود فيصبح رجلاً بين البشر ، وان يلفت اليه نظر
الآخرين ، وعدا حتى بلغ « روا اولاف » فدفع الباب . يكاد يفقد
انفاسه . وقال وهو يلهث :

— اعطني كأس ويسكي .

وكان قلبه يخفق بشدة حتى اطراف اصابعه ، وكان له في فمه
مذاق حبر . وجلس في القاعة الداخلية . وقال له الخادم بلهجة
احترام :

— يبدو عليك التعب .

وكان نروجياً طويلاً يتكلم الفرنسية بلا لكمة . وكان ينظر في ود
الى دانيال ، فأحسن دانيال انه اصبح زبوناً غنياً احمق بعض الشيء
وهو يترك « بقشيشاً » سخياً . وابتسم واجاب موضحاً :
— ليس الامر على ما يرام . ان بي بعض الحمى .

فهز الخادم رأسه ومضى . وسقط دانيال من جديد في وحدثه .
كانت غرفته تنتظره ، هناك فوق ، متهيئة ، والباب كان مفتوحاً على
سعته ، وكان الموسى يلتصق على الطاولة . « لن استطيع ابداً ان اعود
الى بيتي . » وسوف يشرب ما وسعه ذلك . حتى اذا دقت الساعة

الرابعة ، اقبل الخادم بحمله بمعونة صاحب الحانة الى سيارة تاكسي .
كما يحدث كل مرة .
وعاد الخادم بكأس ممثلة الى النصف وزجاجة « بيريه » وقال :
- كما تحبّه تماماً .
- شكراً .

وكان دانيال وحيداً في هذه الحانة الهادئة . وكان النور الاشقر
يُزبد حوله : وكان خشب الحواجز الاشقر يلتمع بعدويسة ، وكان
مطايماً برنيق كثيف ؛ وحين كان المرء يمسه ، كان يدبّق . وصبّ
ماء البيريه في كأسه ، فاحتدم الويسكي لحظة ، وصعدت الى السطح
فقايق متحمسة ، فتزاحت كنساء ثرثرات ، ثم هدأ هذا الاضطراب
الصغير كله . ونظر دانيال الى المائع الاصفر حيث كانت اثاره زيد
عائمة : فكأنه بيرة طائشة . وعلى المشرب ، كان الخادم وصاحب
الحانة يتحدثان الزوجية ، وهما لا يظهران .
- كأس اخرى .

وكنس الكأس بضربة من يده وارسلها تتحطم على الارض . فصمت
صاحب الحانة والخادم فجأة ، وانحنى دانيال فوق الطاولة : كان السائل
يزحف متمهلاً على البلاط وهو يُرسل ذبولاً نحو رجل كرمي .
وكان الخادم قد هُرِع ، فقال دانيال وهو يتسم :
- انني عادم الحذق ...

فسأله الخادم : - هل اعطيك سواه ؟
وكان قد انحنى ، فانفخ جانباه ، ليمسح السائل ويـلم شظايا
الزجاج . قال دانيال فجأة :

- نعم ... كلا . (واضاف في لهجة مزاح) ان هذا انذار ..
يجب الا تناول الخمر هذا المساء . اعطني اذن نصف قدح بيريه مع
قطعة حامض .

فابتعد الخادم : واحسن دانيال ببعض الهدوء . وكان حاضرٌ كثيف يتشكّل حوله من جديد . رائحة الزنجبيل ، الضوء الاشقر ، الحواجز الخشبية ...
- شكراً .

وكان الخادم قد فضّ الزجاجة وملاً القدح الى نصفه . وشرب دانيال ثم وضع الكأس . وفكر : « كنت اعرف ذلك ! كنت اعرف اني لن افعله ! » حين كان يمشي بخطى واسعة في الشوارع وحين كان يصعد السلم اربع اربع ، وكان يعلم انه يمضي حتى النهاية . وكان يعرف ذلك حين اخذ الموسى في يده ، ولم ينخدع لحظة واحدة ، فاي ممثل رديء هو ! وكل ما هناك انه نجح في آخر الامر بان يخيف نفسه ، وعند ذلك هرب . واخذ كأسه وضغطها في يده : كان يريد بكل قواه ان يشمئز من نفسه ، وهو لن يجد قط مناسبة رائعة كهذه . « قدر ! جبان وممثل : قدر ! » وحسب ذات لحظة انه سيبلغ ذلك ، ولكن لا ، انما كانت تلك كلمات من الواجب ... آه ! اي انسان ، اي قاض ، كان يقبل اي قاض او اي حكم ، ولكن ليس هو نفسه ، ليس هذا الاحتقار القاسي لنفسه الذي لم يكن يملك قط قدرأ كافياً من القوة ، هذا الاحتقار الضعيف المحتضر الذي كان يبدو كل لحظة على وشك ان يتلاشى والذي لم يكن يمر . ليت احداً يعرف ، ليت بوسعه ان يحس الاحتقار الثقيل لإنسان آخر يضغظ عليه .. ولكنني لن استطيع ابداً ، اني افضل لو أخصني نفسي . ونظر الى ساعته ، الحادية عشرة ، ما يزال هناك ثمانني ساعات قبل الصباح . ان الوقت لم يكن ينقضي .

الحادية عشرة ! وانتفض فجأة : « ان ماتيو هو الآن عند مارسيل . انها تحدته ، في هذه اللحظة بالذات تحدته وتضع ذراعها حول عنقه ، وتجد انه لا يكتشفها بالسرعة الكافية ... هذا ايضاً ، انما فعلته انا . »

واخذ يرتجف بكل اعضائه : سوف يستسلم ، سينتهي به الامر الى الاستسلام . لقد افسدت له حياته .

وترك كأسه ووقف ونظره محدود ، انه لا يستطيع لا ان يحتقر نفسه ولا ان ينسى نفسه . انه يود لو يكون ميتاً وهو موجود ، انه يستمر بعناد في ان يوجد . يود لو يكون ميتاً ؛ يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ، يفكر بانه يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ... « ان هناك وسيلة . » وكان قد تكلم بصوت مرتفع ، فهرع اليه الخادم :

— هل ناديتني ؟

قال دانيال بشرود : — نعم . هذا لك .

ورمى مئة فرنك على الطاولة . هناك وسيلة . وسيلة لتسوية كل شيء ! ونهض واتجه بخطوة حية الى الباب . « وسيلة عظيمة » واخذته ضحكة صغيرة : كان يشعر دائماً بالجدل حين تتاح له الفرصة بان يمثل على نفسه دوراً ممثلاً .

اغلق ماتيو الباب على مهل وهو يرفعه قليلاً على رزاته ، حتى لا يحدث صريراً ، ثم رفع قدمه على الدرجة الاولى من السلم ، فانحنى وفكّ سير حذائه . وكان صدره يلامس ركبته . ونزع حذاءه فأخذه بيده اليسرى ، ثم نهض ووضع يده اليمنى على الحاجز ، وقد رفع نظره الى الغيمة الوردية الممتعة التي كانت تبدو معلقة في الظلمات . انه لم يكن يدين نفسه بعد . وصعد على مهل في الظلام وهو يتجنب ان يجعل الدرجات تصرّ .

وكان باب الغرفة مشقوقاً فدفعه . وكان الجو نقيلاً . وكانت حرارة النهار كله قد حطّت في جوف هذه الحجرة ، كأنها ثمالة . وكانت امرأة جالسة على السرير تنظر اليه مبتسمة : انها مارسيل . وكانت قد ارتدت « روبديشمبر » ابيض جميلاً ذا حزام مذهب ، وكانت قد تزوّنت بعناية ، وكان منظرها مرحاً وذا أهبة . واغلق ماتيو الباب خلفه ، وظلّ جامداً ، مرتخي الذراعين ، وقد اخذته في حلقه عذوبة الوجود التي لا تُحتمل . كان هناك ، كان يتفتح هناك ، بالقرب من هذه المرأة المبتسمة مستغرقاً كله في هذه الرائحة ، رائحة المرض والحلويات والحب . وكانت مارسيل قد ألقت رأسها الى خلف ، وكانت تتأمله في خبث بين جفونها المسبلة . وبادلها بسمتها وراح يضع حذاءه

في الخزانة . وتنفس في ظهره صوت يفيض حناناً :

- حبيبي .

فالتفت فجأة واستند الى الخزانة ، وقال بصوت منخفض :

- مرحباً .

فرفعت مارسيل يدها حتى صدغها وحركت اصابعها :

- مرحباً ، مرحباً .

ونهمت ، واقبلت تحيط عنقه بذراعيها وتقبّله وهي تزلق لسانها في فمه . وكانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على جفنيها ؛ وكان في شعرها زهرة . وقالت وهي تداعب رقبتة :

- انك تشكو الحرّ .

وكانت تنظر اليه من تحت الى فوق ، ورأسها مقلوب بعض الشيء ، وهي ترشق طرف لسانها بين اسنانها ، في هيئة انتعاش وسعادة . وكانت جميلة . وفكر ماتيو وهو منقبض القلب ببشاعة ايفيش الهزيلة . وقال :

- انت اليوم جدلى . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام امس ، كما ظهر في التلفون .

- كلا . كنت بليدة . اما اليوم ، فالامور على ما يرام تماماً .

- هل قضيت ليلة هانئة ؟

- نعمت كالربوع !

وقبّله مرة اخرى ، فأحس على شفّيته مخمل ذلك الفم الغني ثم ذلك العُري الأجرد ، الحارّ . الحاذق : لسانها . وتلفت منها على مهل . وكانت مارسيل عارية تحت « الروبديشمبر » فرأى نهدبها الجميلين وشعر بمذاق سكر في فمه وتناولت يده وجذبتة نحو السرير :

- تعال اجلس بالقرب مني .

وجلس بالقرب منها ، وكانت ما تزال تحتفظ بيده بين يديها ، وكانت تشده في انتفاضات صغيرة مرتبكة ، وكان يخيل لماتيو ان

حرارة هذه الايدي كانت تصعد حتى الإبط وقال :
- ما أشدّ الحرّ عندك .

فلم تجف ، وكانت تلتهمه بعينيها ، وشفتاها مفترتان ، في هيئة متواضعة وانفة . وامرّ يده اليسرى متمهلاً بالقرب من معدته ثم ادخلها خفية في جيبه اليمني ليأخذ تبغه . ففاجأت مارسيل هذه اليد وارسلت صبيحة خفيفة :

- ولكن ما بال يدك ؟

- لقد جرحتها .

وتركت مارسيل يد ماتيو اليمني ثم خطفت يده الاخرى ، وقلبتها كقرص من المعجنات ، وتأمّلت راحتها بعين ناقدة :

- ولكن ضهادك قدرٌ جداً ، وانك توشك ان تنتن الجرح ! ثم ان

عابه وحلاً ، فما هذا ؟

- لقد وقعت على الارض :

فأطلقت ضحكة لطيفة دهشة :

لقد جرحت يدي ، لقد وقعت على الارض . ما هذه الغفلة ! وماذا اخترعت ؟ انتظر سأربط لك ضهاداً آخر ، فانك لا تستطيع ان تبقى هكذا .

وفكّت يد ماتيو وهزّت رأسها :

- انه جرح بشع ، فكيف حسبت حسابك ؟

- حدث هذا مساء امس في « سومطرا » .

- في « سومطرا » ؟

خدّان عريضان ممتنعان ، وشعر ذهبي ، وغداً ، غداً سأسرح

شعري هكذا من أجلك . واجاب :

- انه هوى من أهواء بوريس . كان قد اشترى سكيناً ، فتحادثني

ان ازعه في يدي .

- و انت بالطبع عجلت في تنفيذه . انك مجنون تماماً يا حبيبي
المسكين . ان جميع هؤلاء الصبية سوف يستحمقونك ... انظر هذه اليد
المسكينة المعطلة !

وكانت يد ماتيو مرتاحة جامدة بين يديها الملتهبتين ؛ وكان الجرح
يثير الاشمزاز بقشرته الرطبة السوداء . ورفعت مارسيل اليد الى
وجهها ببطء ، ونظرت اليها باحداذ ثم انحنت فجأة فألصقت شفثيها
بالجرح في اندفاع ذليل . وتساءل : « ماذا دهاها ؟ » وجذبها اليه
وقبلها في اذنها . وسألته مارسيل :

- هل انت مرتاح معي ؟

- طبعاً .

- لا يبدو عليك ذلك .

فابتسم لها ماتيو من غير ان يجيب . ونهضت وراحت تأخذ حقيبتها
من الخزانة . وكانت توليه ظهرها ، وقد تناولت على رأس قدميها
ورفعت ذراعيها لتبلغ الطبقة العليا ؛ وكان كشحها قد تهدلاً على طول
ذراعيها . وكان ماتيو ينظر الى هاتين الذراعين العاريتين اللتين داعبها
غالباً وكانت شهواته القديمة تطوف حول قلبه . وعادت اليه مارسيل
بتناقل نشيط :

- اعطني يدك .

وكانت قد صبت مطهراً على سفنجة صغيرة ، فأخذت تغسل يده .
واحس عند جانبه دفء هذا الجسد الذي كان قد ألفه .

- إحس !

وكانت مارسيل تبسط له طرف نسيج مصمغ ، فدّ لسانه ولحس
القشارة الوردية بوداعة . واطبقت مارسيل طرف النسيج على الجرح ،
واخذت الضماد القديم فأمسكته لحظة بطرف اصابعها وهي تنظر اليه
باشمزاز مرح .

- ماذا تراني سأفعل بهذا الشيء الفظيع ؟ حين تذهب ، سألقيه في القمامة .

ثم لفّت يده بشف في حركة خفيفة :

- هكذا اذن : لقد تحدّك بوريس ؟ فأتلفت يدك ؟ اي طفل

كبير انت ! هل تراه فعل مثلك ، هو ؟

قال ماتيو : - كلا .

فضحكت مارسيل : - لقد تغلب عليك اذن !

وكانت قد وضعت في فيها دبوساً انكليزياً ، وكانت تمزق الشفّ

بكلتا يديها . وقالت وهي تشدّ على الدبوس بشفتيها :

- هل كانت ايفيش موجودة ؟

- حين جرحت يدي ؟

- نعم .

- لا ، كانت ترقص مع لولا .

وشكّت مارسيل الدبوس في الضماد : وكان قد بقي على عرقه

النحاسي اثر من احمر الشفاه .

- هكذا اذن ! لقد تسليّم كثيراً !

- لا بأس .

- ان مقهى « سومطرا » جميل ! أتعرف ماذا اريد ؟ ان تأخذني

اليه مرة .

فقال ماتيو منزعجاً : - ولكن ذلك سيتعبك .

- اوه ! مرة واحدة ... وستفعل ذلك في أهنة ، فقد مضى وقت

طويل لم اخرج به معك .

لم اخرج معك ! وكان ماتيو يردّد بغيظ هذه الكلمة الزوجية :

ان مارسيل لم تكن محظوظة مع الكلمات . وقالت مارسيل :

- هل تريد ؟

فقال : - اسمعي ، مهما يكن من امر ، فان هذا لا يمكن ان يتم قبل الخريف : يجب عليك في هذه الاثناء ان ترتاحي تماماً : ثم بعد ذلك يغلق المقهى ابوابه في عطلته السنوية . ان لولا سندهب في دورة الى افريقيا الشمالية .

- اذن سندهب في الخريف . اتعدني بذلك ؟

- أهدك .

وسعلت مارسيل في ارتباك ، ثم قالت :

- ارى جيداً انك غاضبٌ عليّ .

- انا ؟

- نعم ... لقد كنت مزعجةً امس الاول :

- ولكن لا ... لماذا ؟

- بلى . كنت ناثرة الاعصاب :

- كان من الممكن ان تكوني اقل ثورة اعصاب من ذلك . ولكن

الغلظة غلطتي يا صغيرتي .

قالت : - ليس هناك ما تؤاخذ به نفسك ، ولم يكن هناك قط ما

تؤاخذ به نفسك .

ولم يجرؤ على ان يلتفت نحوها ، فقد كان يتمثل تماماً هيئة وجهها ،

ولم يكن يستطيع ان يتحمل هذه الثقة التي لا تفسر ولا يستحقها .

وساد صمت طويل : وكانت تنتظر بكل تأكيد كلمة رقيقة ، كلمة

صفح . ولم يستطع ماتيو ان يتناسك بعد ، فقال :

- انظري .

واخرج محفظته من جيبه وبسطها على ركبتيها ، فدّت مارسيل

عنقها واسندت ذقنها على كتف ماتيو .

- ماذا عليّ ان انظر ؟

- هذا .

وسحب الأوراق المأليسة من المحفظة وقال وهو يفرقها بلهجة انتصار :

- واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة .
وكانت الأوراق محتفظة بعدُ برائحة لولا . وانتظر ماتيو لحظة والأوراق على ركبتيه ، واذ رأى مارسيل لا تنبس بحرف ، التفت إليها ، فاذا هي رافعة بصرها تنظر الى الأوراق وهي تطرف بعينها . ولم يكن يبدو عليها أنها تفهم . وقالت على مهل :
- خمسة آلاف فرنك .

وقام ماتيو بحركة متواضعة ليضع المال على طاولة الليل وقال :
- نعم ! خمسة آلاف فرنك . لقد عانيت حتى وجدتها .
ولم تجب مارسيل . وكانت تعض شفتها السفلى وتنظر الى الأوراق نظرة غير مصدقة . وكانت قد شاخت فجأة . ونظرت الى ماتيو بأسى ولكن بثقة ايضاً . وقالت :
- كنت اظن ...

فقاطعها ماتيو ، وقال بصراحة :
- سيكون بوسعك ان تقصدي اليهودي ، ويبدو انه عظيم . فقد مرت تحت يديه مئات النساء في فيينا . وكلهن من الطبقة الثرية . فانطفأت عيننا مارسيل وقالت :
- حسناً ، فليكن ، فليكن .
وكانت قد اخذت دبوساً انكليزياً من حقيبتها ، وكانف تفتحها وتغلقه بعصبية . واطاف ماتيو :

- اني اعطيك اياها . واطن ان ساره ستصحبك اليه فتدفعين له ، وهو يريد ان يأخذ المال مقدماً ، ذلك الخنزير .
وبعد لحظة صمت سألته مارسيل :
- اين وجدت هذا المال ؟

- قال ماتيو : - احزري !
 - دانيال ؟
 فهز كتفيه : كانت تعلم جيداً ان دانيال لم يرد ان يقرضه شيئاً .
 - جاك ؟
 - كلا . لقد قلت لك امس ، بالتلفون .
 قالت بجفاف : - اني عجزت . من ؟
 فقال : - لم يعطني اياها احد .
 فابتسمت مارسيل ابتسامة صفراء :
 - لن تقول لي مثلاً انك قد سرقتها ؟
 - بلى .
 فرددت في ذعر :
 - هل سرقتها ؟ ان هذا ليس صحيحاً ؟
 - بلى ، سرقتها من لولا .
 وساد صمت ، ومسح ماتيو عرق جبينه وقال :
 - ساروي لك .
 ورددت مارسيل في هدوء :
 - لقد سرقتها .
 وكان وجهها قد اصبغ رمادياً ؛ وقالت من غير ان تنظر اليه :
 - لا بد انك راغب في التخلص من الطفل .
 - اني راغب خصوصاً في الا تقصدي تلك العجوز .
 وكانت تفكر ، وكان فيها قد استعاد ثنيتسه القاسية الشرسة .
 وسألها :
- هل توبخيني لاني سرقتها ؟
 - لا يهمني ذلك .
 - اذن ، ماذا هناك ؟

فقامت مارسيل بحركة مفاجئة سقطت معها حقيبة الادوية على الارض . فنظرا اليها معاً ، ودفعها ماتيو بقدمه ، وأدارت مارسيل نحوه رأسها ، وكانت الدهشة بادية عليها . وردد ماتيو :

- قولي لي ماذا هناك ؟

فضحكت ضحكة جافة .

- لماذا تضحكين ؟

فقلت : - انني اسخر من نفسي .

وكانت قد نزعت الزهرة التي كانت تحملها في شعرها وأخذت

تقلبها بين اصابعها . وتمتمت :

- لقد كنت شديدة البلاهة .

وقست ملامح وجهها . وظلت فاغرة الفم كما لو انها كانت راغبة

في الكلام ، ولكن الكلام لم يكن يأتي . كانت تبادو وكأنها خائفة

مما ستقول . وتناول ماتيو يدها ولكنها تحللت منه ، وقالت وهي لا

تنظر اليه :

- أعلم انك رأيت دانيال .

- هكذا ! كانت قد انقلبت الى خلف وشنجت يديها على غطاء

السريير ؛ وكانت تبدو مذعورة ومتحررة . وكان ماتيو يحس ايضاً

انه متحرر : كانت جميع الاوراق على الطاولة ، وكان لا بد من

المضي حتى النهاية . وكان امامها الليل كله من اجل هذا . وقال ماتيو :

- نعم لقد رأيت . كيف عرفت هذا ؟ انك انت التي ارسلته

إذن ؟ لقد رتبنا كل شيء ، معاً ، أليس كذلك ؟

قالت مارسيل : - لا تتكلم بهذا الصوت المرتفع . انك توشك ان

توقظ امي . لم اكن انا الذي ارسلته ، ولكني كنت اعلم انه كان

يريد ان يراك .

قال ماتيو بحزن : - ان هذا شيء قبيح .

فقال مارسيل بمرارة : - اجل ، شيء فيصح .
وصمتا . كان دانيال موجوداً ، وكان قد قبع بينهما . وقال ماتيو :
- حسناً ، ينبغي ان نتصالح تماماً ، فلم يبق لنا شيء نعمله
غير هذا .

قالت مارسيل : - ليس هناك ما نتصالح بشأنه . لقد رأيت
دانيال . فقال لك ما كان يريد ان يقول ، وحين تركته ذهب فسرقت
خسة آلاف فرنك من لولا .

- نعم ، وانت منذ اشهر تستقبلين دانيال خفية . ترين اذن ان
هناك اشياء ينبغي تفسيرها (وسألها فجأة) اسمعي : ماذا حدث
امس الاول ؟

- امس الاول ؟

- لا تتصنعي عدم الفهم . لقد قال لي دانيال انك تأخذين عليّ
موقف امس الاول .

قالت : - اوه ! ادعك من هذا ولا تشغل به رأسك .

فقال ماتيو : - ارجوك يا مارسيل ، لا تنغلقني . اقسم لك ان نيتي
حسنة ، واني اعترف بجميع اخطائي . ولكن اخبريني ماذا حدث
امس الاول . ان الامور ستسير خيراً مما هي اذا استطعنا ان نسترد
بعض الثقة احدنا بالآخر .

وكانت تردد وقد افرخ روعها قليلاً . وقال لها وهو يأخذ
بيسدها :

- ارجوك ...

- حسناً ... كان ذلك كالمرات السابقة : انك تهزأ بما قد يكون

في رأسي من افكار :

- وماذا كان في رأسك ؟

- لماذا تريد ان تنطقني به ؟ انك تعرفه جيداً .

قال ماتيو : - صحيح ، اعتقد اني اعرفه .
وفكر : « انتهى الامر ، سأتزوجها . » وكان هذا هو البديهة
بعينها . « لا بد ان اكون قدراً جداً لأتحيل ان بوسعي ان اقطع
وحدني بالأمر . » كانت موجودة هنا ، وكانت تتألم ، وكانت شقية
وخبيثة ، ولم يكن عليه الا ان يفعل حركة واحدة حتى يرد لها
هدوءها . وقال :

- تريدان ان نتزوج ، أليس كذلك ؟
فنزعت منه يدها ونهضت بوثة واحدة . فنظر اليها مذعوراً :
كانت قد اصبحت شاحبة ، وكانت شفاتها ترتجفان :

- انك ... ايكون دانيال هو الذي قال لك ذلك ؟
قال ماتيو مشدوهاً : - كلا ، ولكن هذا ما فهمته .
فقال وهي تضحك : - هذا ما فهمته ! لقد قال دانيال اني
كنت منزعجة ، ففهمت انت اني اطلب الزواج . هذا ما تظنه بي ،
انت ماتيو ، بعد سبع سنوات .

وأخذت يدها ايضاً ترتجفان . واستولت على ماتيو الرغبة بأن يأخذها
بين ذراعيه ، ولكنه لم يجرؤ ، وقال :
- انت على حق ، فانه لم يكن لي ان افكر هذا التفكير .
ولم يكن يبدو عليها انها تسمع . وألح قائلاً :

- اسمعي : لقد كانت لي اعداري : لقد اخبرني دانيال بأنه كان
يراك من غير ان تعلميني ذلك .
وظلت على صمتها ، فقال على مهل :
- انما هو الطفل الذي تريدان ؟

قالت مارسيل : - ها ! ان هذا لا يعنيك . ان ما اريده لم يعد
يعنيك .

فقال ماتيو : - ارجوك . ان الاوان لم يفت بعد ...

فهزت رأسها : - هذا غير صحيح . لقد فات الاوان .
- ولكن لماذا ، يا مارسيل ؟ لماذا لا تريد ان تتحدثي معي
هدوء ؟ تكفيينا ساعة ، فيسوتى كل شيء ، ويتضح كل شيء ...
- لا اريد .

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟
- لأنني لم اعد اقدر كما فيه الكفاية . ثم لأنك لم تعد تحبني .
وكانت قد تكلمت بلهجة تأكيد ، ولكنها كانت مذعورة بما
قالته ؛ ولم يكن في عينيها بعد الا استفهام قلق . واستطردت بحزن :
- لكي تفكر بي كما فكرت ، فلا بد انك قد كفتت عن
حبي ...

وكان هذ شبه سؤال . فلئن اخذها بين ذراعيه ، ولئن قال لها
انه كان يحبها لأنك بعد كل شيء . سوف يتزوجها ويرزقان
الولد ، وسيعيشان جنباً الى جنب طوال الحياة . وكان قد نهض ؛
وكان يوشك ان يقول لها : « احبك » وترنح قليلاً وقال بصوت
واضح :

- هذا صحيح ... اني لم اعد احبك .
وكان قد نطق بالعبارة منذ وقت طويل ، منذ ان بدأ يستمع اليها ،
في ذعر . وفكر : « انتهى الامر . انتهى كل شيء . » وكانت
مارسيل قد ارتدت الى خلف وهي تطلق صيحة انتصار ، ولكنها
سرعان ما وضعت يدها على فيها وأومات له ان يصمت وتمتمت
بلهجة قلقة :

- امي .
فأرهما اذنيهما ؛ ولكنهما لم يسمعا الا صوت السيارات الجارية في
البعيد . قال ماتيو :

- مارسيل . اني ما زلت متعلقاً بك بكل قواي .

فأطلقت مارسيل ضحكة متعجرفة :

– طبعاً ... انك متعلق فقط ! أهذا ما تود ان تقوله لي ؟
وأخذ يدها وقال لها :

– اسمعي ...

فحررت يدها في انتفاضة جافة وقالت :

– كفى ، كفى . لقد عرفت ما كنت اود ان اعرفه .
ورفعت بعض خصلات مبللة بالعرق كانت متدلّية على جبينها ،
وابتسمت فجأة ، كأنها تذكرت امرأ وأضافت في اشارة فرح حاقد :

– ولكن اخبرني ، انك لم تقل لي هذا امس ، على التلفون . لقد
قلت لي بقوة : « احبك » ولم يكن احد يطلب منك ان تقول
ذلك .

فلم يجب ماتيو . وقالت بلهجة ساحقة :

– لا بد انك تحتقرني ...

قال ماتيو : – اني لا احتقرك .. انما ...

قالت مارسيل : – اذهب عني .

فقال ماتيو : – انك مجنونة . لا اريد ان اذهب ، ويجب ان
أشرح لك اني ...

فرددت بصوت اصم ، وهي مسبلة الجفنين :

– اذهب عني .

فصاح يائساً : – ولكني احتفظت لك بكل حناني ، واننا لا
افكر في ان امجرك . اريد ان ابقى بالقرب منك طوال حياتي ،
وسأتزوجك و ...

قالت : – اذهب عني ، اذهب ، ولا اريد ان اراك بعد .
اذهب والا فلست مسؤولة عما قد اصنع ، سوف آخذ في
الصراخ ...

وراحت ترتجف بكل جسمها . واقترب ماتيو خطوة منها ، ولكنها دفعته بعنف :

– ان لم تذهب ناديت امي .
وفتح الخزانة فتناول حذاءه ، وكان يشعر انه مضحك وكريسه وقالت من ورائه :
– إستعد مالك .

فالتفت ماتيو وقال : – كلا . ان هذا على حدة . ليس هذا سبباً لأن ...

فتناولت الاوراق المالية من على الطاولة وقذفتها في وجهه ، فتطايرت عبر الغرفة وسقطت على رجل السرير ، بالقرب من حقيبة الادوية . ولم يلمها ماتيو ؛ وكان ينظر الى مارسيل . وكانت قد أخذت تضحك ، في ارتعاش ، مغمضة العينين . وكانت تقول :

– ها ! ما اعجب هذا ! انا التي كنت اظن ...

واراد ان يقترب ولكنها فتحت عينيها وارتلدت الى خلف وهي نوميء الى الباب . وفكر : « اذا بقيت صاحت » واستدار على عقبه وخرج من الغرفة وحذاؤه في يده . وحين بلغ اسفل الدرج وضع حذاءه وتوقف لحظة ، ويده على مقبض الباب ، مرهفاً سمعه . وسمع فجأة ضحكة مارسيل ، ضحكة منخفضة كالحلقة كانت ترتفع صاهلة وتنخفض متقطعة . وصاح صوت :

– مارسيل ! ما بك ؟ مارسيل ؟

وكانت هي الام . وتوقفت الضحكة وسقط كل شيء في الصمت من جديد . وأصغى ماتيو لحظة اخرى ، حتى اذا لم يسمع بعد شيئاً ، فتح الباب على مهل وخرج .

كان يفكر : « انني دنيء » وكان هذا يدهشه كثيراً . ولم يكن فيه بعد الا التعب والحبل . وتوقف عند سطيحة الطابق الثاني ليلهث . وكانت ساقاه رخوتين ؛ لقد نام ست ساعات في ثلاثة ايام ، بل ربما اقل من ذلك : « انني ذاهب لأنام . » سوف يلقي ملابسه بلا نظام ، وسيترنح حتى يبلغ سريره فيسقط عليه . ولكنه كان يعلم انه سيظل مستيقظاً طوال الليل ، وعينه مفتوحتان على سعتهما في الظلام . وصعد : كان باب المنزل قد بقي مفتوحاً ؛ لا بد ان ايفيش قد هربت تائهة . وكان القنديل في المكتب ما يزال يشتعل . ودخل فرأى ايفيش . كانت جالسة على الديوان ، متصلبة جامدة . وقالت :

- انني لم اذهب .

فقال ماتيو بجفاء : - ارى ذلك :

وظلا لحظة صامتين ؛ وكان ماتيو يسمع صوت لهائه القوي المنتظم .

وقالت ايفيش وهي تدبر رأسها :

- لقد كنت لثيمة .

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى شعر ايفيش وكان يفكر :

« أتراني فعلت هذا من اجلها ؟ » وكانت قد خفضت رأسها ،

فتأمل رقبتها السمراء العذبة في حنان بالغ : كان بوده ان يشعر انه
كان متعلقاً بها اكثر من اي شيء في العالم ، ليكون لعمله على الاقل
هذا التبرير . ولكنه لم يشعر بشيء ، الا بغضب لا موضوع له ،
وقد كان العمل خلفه عارياً ، منزلقاً ، غير مفهوم : لقد سرق ،
وترك مارسيل حاملاً ، من اجل لا شيء .

وجهدت ايفيش لتقول في تودد :

— كان يجب عليّ ان ا تدخل لإعطاء رأيي ...

فهز ماتيو كتفيه وقال :

— لقد قطعت صلتي بمارسيل :

فرفعت ايفيش رأسها .

وقالت بصوت مبتدل :

— وهل تركتها .. بلا مال ؟

فابتسم ماتيو وفكر : « طبعاً ، لو فعلت ذلك ، لوجدت مأخذاً

عليّ الآن . »

— كلا ، لقد تدبرت الامر .

— وهل وجدت مالا ؟

— نعم .

— اين ؟

فلم يجب . ونظرت اليه في قلق :

— ولكنك لم ...

— بلى . لقد سرقته ، ان كان هذا ما تقصدينه . سرقته من لولا .

لقد صعدت الى غرفتها حين كانت غائبة عنها .

وطرفت ايفيش بعينيها وأضاف ماتيو :

— سأعيده لها طبعاً . انه قرض قسري . هذا كل ما في الامر .

وكانت البلادة تبدو على ايفيش ، فرددت على مهل ، كما فعلت

مارسيل منذ حين :

- لقد سرقت لولا .

فانزعج ماتيو لمظهرها المندھش ، وقال في حيوية :

- نعم ، ان هذا ليس عملاً مجيداً لو تعلمين كان هناك سلم

يرقى ، وباب يفتح .

- ولماذا فعلت ذلك ؟

فضحك ماتيو ضحكة موجزة :

- ليتني أعرف !

فنهضت فجأة وقد أصبح وجهها قاسياً متوحشاً كما كان يبدو اذ تلتفت في الشارع لتتابع بنظرها امرأة جميلة اوفتي ناضراً . ولكنها كانت تنظر هذه المرة الى ماتيو . وشعر ماتيو انه كان يحمر ، فقال في تردد :

- لم اكن اريد ان أنحلي عنها . وانما كنت اريد فقط ان أعطيها المال حتى لا اكون مجبراً على الزواج بها .

قالت ايفيش : - نعم ، فهمت .

ولم يكن يبدو عليها قط انها فهمت ؛ كانت تنظر اليه . وألح وهو يلفت رأسه :

- ولكن ما وقع قبيح : انها هي التي طردتني . لقد تلتقت ذلك باستياء كبير ، ولا ادري ماذا كانت تنتظر .

ولم تجب ايفيش ، فصمت ماتيو على ضيق . وكان يفكر :
« لا أريد ان تكافئني »

قالت ايفيش : - انك جميل .

وأحسن ماتيو في إرهاب ان حبه الحاد يولد فيه من جديد . وكان يخيل اليه انه كان يترك مارسيل للمرة الثانية . ولم يقل شيئاً ، وجلس بالقرب من ايفيش ، وتناول يدها . وقالت له :

- فظيع كم تبدو عليك الوحدة :

وكان خجلاً . وانتهى الى القول :

- انني اتساءل عما عساك تظنين يا ايفيش ؟ ان هذا كله مثير للشفقة . لقد سرقت ، لو تعلمين ، بدافع الذعر ، وهأنذا الآن اشعر بالندم .

قالت ايفيش وهي تبسم :

- ارى جيداً انك تشعر بالندم : واطنٌ اني كنت اشعر بمثله لو كنت في مكانك : ان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بذلك ، في اليوم الاول .

وكان ماثيو يشدّ بقوة على اليد الصغيرة الحرون ذات الأظافر المقرّنة . وقال :

- انك على خطأ ، فلست ...

قالت ايفيش : - اسكت .

وسحبت يدها بحركة مفاجئة ، وردّت شعرها كله الى خلف ؛ كاشفةً خديها وأذنيها . وكان يكفيها بضع حركات سريعة ، وحين خفضت يديها ، كان شعرها متماسكاً ، ووجهها عارياً . وقالت :
- هكذا .

وفكر ماثيو : « انها تريد ان تنزع مني حتى ندمي . » ومدّ ذراعه ، فجذب اليه ايفيش ، واستسلمت ؛ وكان يسمع في داخله لحناً صغيراً جذلاً كان يحسب انه أضاع منه حتى ذكراه . واهتزّ رأس ايفيش قليلاً على كتفه ، وكانت تبسم له ، مفترّة الشفتين . وبادلها بسمتها ، ثم قبلها قبلة خفيفة ، ثم نظر اليها فتوقف اللحن الصغير فجأة ، وقال في نفسه : « ولكنها ليست الا طفلة » . وكان يحسّ انه وحيدٌ وحدةً مطلقة . وقال بعذوبة :
- ايفيش !

ف نظرت اليه في دهشة .

– اي فيش ... لقد اخطأتُ .

وكانت قد قطبت حاجبيها ، وكانت انتفاضات صغيرة تهز رأسها وترك ماتيو ذراعيه تسقطان ، وقال في تعب :
– انني لا اعرف ما الذي اريده منك .

فانتفضت اي فيش وتخلصت بسرعة . وكانت عينها ترسلان الشرر ولكنها سترتها واتخذت هيئة حزينة عذبة . وبقيت يداها وحدهما غاضبتين : كانتا تتطايران حولها وتحطآن على رأسها وتشدآن شعرها . وكان ماتيو مُحسّ بالجناف في حلقه ، ولكنه كان ينظر الى هذا الغضب بلا اكتراث . كان يفكر : « لقد أفسدتُ هذا ايضاً . » وكان مسروراً تقريباً : لقد كان ذلك بمثابة تفكير . واستطرد يقول وهو يبحث عن النظر الذي كان يصرّ على الافلات منه :

– يجب ألاّ ألمسك .

فقالت محمّرة من الغضب :

– اوه ، ليس لهذا اهمية .

ثم اضافت بلهجة مغنيّة :

– كان يبدو عليك انك فخور جداً لكونك اتخذت قراراً ، وقد ظننت انك كنت قادماً لتبحث عن مكافأة .

وعاد يجلس بالقرب منها واخذ على مهل ذراعها ، ما فوق المرفق قليلاً ، ولم تتخلص منه .

– ولكني احبك يا اي فيش .

فتصلبت اي فيش ، وقالت له :

– اودّ ان تظنّ ...

– ان اظنّ ماذا ؟

ولكنه كان يحزر ما تفكر به . وترك ذراعها . وقالت اي فيش :

- اني ... اني لا اكن حباً لك .
فلم يجب ماتيو . وكان يفكر : « انها تأخذ بثأرها ، هذا مألوف . »
ولواقع ان ذلك كان على الأرجح صحيحاً : فلماذا تراها كانت تحبه ؟
انه لم يكن يتمنى شيئاً بعد ، الا ان يبقى فترة طويلة صامتاً بالقرب
منها ، وان تذهب في آخر الامر من غير ان تتكلم . ومع ذلك فقد
قال :

- هل تعودين العام القادم ؟

قالت : - سأعود .

وكانت تبسم له بسمة تكاد تكون رقيقة ، وكانت لا بدّ تقدّر ان
كرامته قد حفظت . وكان هذا هو الوجه نفسه الذي أدارته نحوه مساء
أمس ، فيما كانت سيدة المغاسل تضمد يدها . ونظر اليها في غير
وثوق ، وكان يشعر ان رغبته تولد من جديد ، تلك الرغبة الخزينة
المنطامنة التي لم تكن رغبة في شيء . واخذ ذراعها ، واحس تحت
اصابعه بتلك البشرة النضرة . وقال :

- اني ...

وصمت . كان ثمة من يدق الباب : دقة اولاً ، ثم دقتين ، ثم
جرساً غير منقطع . وأحس ماتيو بأنه مثلج ، وفكر : « مارسيل ! »
وكانت ايفيش قد امتعت ، لقد جاءت الفكرة نفسها بكل تأكيد .
وتبادلا النظر . وهمست :

- يجب ان تفتح .

قال ماتيو : - اعتقد ان نعم .

ولم يتحرك . وكان الدق على الباب قد اصبح عنيفاً . وقالت ايفيش
وهي ترتجف :

- فظيع ان يفكر المرء ان وراء هذا الباب احداً .

قال ماتيو : - نعم .. هل تريدن .. هل تريدن ان تدلفني الى

المطبخ ؟ سوف اغلق بابه فلا يراك احد .
فنظرت اليه ايفيش نظرة تسلط هاديء :
- كلا . سوف ابقى .
وذهب ماتيو ليفتح فرأى في الظل رأساً كبيراً منقبضاً يشبه القناع :
كانت لولا . ودفعت له لتدخل بسرعة وسألته :
- اين بوريس ؟ لقد سمعت صوته .
ولم يكن لماتيو الوقت حتى لإغلاق الباب فدخل الى المكتب على
عقبه . وكانت لولا قد تقدمت نحو ايفيش بلهجة تهديد :
- اخبرني اين بوريس !
فنظرت اليها ايفيش نظرة مذعورة . ومع ذلك فلم يكن يبدو على
لولا انها تتجه اليها - او الى اي شخص آخر - بل لم يكن مؤكداً
انها رأتها . ووقف ماتيو بينها :
- انه ليس هنا .
فأدارت لولا نحوه وجهها المتحلل . كانت قد بكت .
- لقد سمعت صوته .
قال ماتيو وهو يحاول ان يمسك نظرها :
- ان في المنزل ، الى جانب هذا المكتب ، مطبخاً وحماماً . فيوسعك
ان تبحي في كل مكان ان كان ذلك يروقك .
- اين هو اذن ؟
وكانت مرتدية ثوبها الحريري الاسود ومحتفظة بما كياجها المسرحي .
كان يبدو على عينيها انها متخترتان . وقال ماتيو :
- لقد ترك ايفيش حوالى الساعة الثالثة . ولا ندرى ماذا فعل
بعد ذلك .
واخذت لولا تضحك كامرأة عمياء . وكانت يداها تتشنجان على
محفظة مخرميلة صغيرة سوداء كان يبدو انها تحتوي شيئاً واحداً ، قاسياً

وثقيلاً . ورأى ماتيو المحفظة فأخذه الخوف ، وكان لا بدّ من ان يصرف ايفيش على التو .

وقالت لولا : - حسناً ، اذا كتبنا لا تعرفان ماذا صنع ، فبوسعي ان اخبركما . لقد صعد الى غرفتي حوالي السابعة اذ كنت قد خرجت ، ففتح بابي ونزع قفل صندوق وسرق مني خمسة آلاف فرنك . ولم يجرؤ ماتيو على ان ينظر الى ايفيش ، وقال لها على مهل ، وهو مطرق الى الارض :

- ايفيش ، من الخير ان تذهبي ؛ يجب ان اتحدث الى لولا . هل ... هل استطيع ان اراك مرة اخرى هذه الليلة ؟ وكانت ايفيش ممتعة فقالت :

- اوه ، كلا اريد ان اعود الى بيت الطالبات ، فان عليّ ان احزم حقائبي ، ثم اني اريد أن أنام . انني شديدة الرغبة في النوم . وسألت لولا :

- هل هي مسافرة ؟

قال ماتيو : - نعم . صباح الغد .

- وهل يسافر بوريس ايضاً ؟

- كلا .

واخذ ماتيو يد ايفيش :

- إذهبني فنامي يا ايفيش . لقد قضيت يوماً شاقاً الا تزالين مصرّة على الاّ اصحبك الى المحطة ؟

- نعم . افضل ان لا .

- اذن ، الى السنة القادمة .

وكان ينظر اليها ، وهو يرجو ان يجد في عينيها بريق حنان ، ولكنه لم يستطع ان يقرأ فيها الا الذعر . وقالت :

- الى السنة القادمة .

وقال ماتيو بحزن : - سأكتب لك يا ايفيش .

- نعم . نعم .

وكانت تهم بالخروج ، فسدت لولا عليها الطريق :

- عفواً ! الذي يثبت لي انها ليست ذاهبة لتلتقي ببوريس ؟

قال ماتيو : - وبعد ؟ أتصور انها حرة .

قالت لولا وهي تقبض بيدها اليسرى على معصم ايفيش :

- إبقني هنا .

فأطلقت ايفيش صرخة ألم وغضب وصاحت :

- دعيني ، لا تمسني ، لا اريد ان يمستي احد .

ودفع ماتيو لولا بقوة فتراجعت بضع خطى وهي تزجر . وكان

ينظر الى محفظتها . وتمت ايفيش بين اسنانها :

- يا للمرأة القدره !

وكانت تجس معصمها باهمها وسبابتها . وقال ماتيو من غير ان

ينزع نظره عن المحفظة :

- لولا ، دعيتها تذهب . ان لدي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولكن

دعيتها اولاً تذهب .

- وهل تقولين لي اين بوريس ؟

قال ماتيو : - لا ، ولكني سأشرح لك حكاية هذه السرقة .

قالت لولا : حسناً . اذهبي اذن . واذا رأيت بوريس قولي له

اني قدمت شكوى .

قال ماتيو : - سوف تُسحب الشكوى .

وظل ينظر الى المحفظة ، واطاف :

- وداعاً يا ايفيش .

فلم تجب ايفيش ، وسمع ماتيو في عزاء وقع قدميها الخفيف . ولم

يرها تذهب ولكن الصوت انطفاً : فأحس بانقباض في قلبه . وخطت

لولا الى امام وصاحت :

— قولي له إنه اخطأ العنوان . قولي له انه ما يزال أصغر من ان يتغلب عليّ .

والتفتت الى ماتيو : هذه النظرة المزعجة نفسها التي لم يكن يبدو عليها انها ترى . وسألته في قسوة :

— وإذن ، تفضل فاحك قصتك .

قال ماتيو : — اسمعي يا لولا .

ولكن لولا كانت قد عادت الى الضحك ، وقالت :

— اني لم اولد أمس . اوه ! كلا ! لقد قالوا لي كثيراً انني اكاد اكون بعمر أمه .

وتقدم ماتيو منها : — لولا !

— لقد قال لنفسه : « ان العجوز تخبني في جلدها ؛ وستكون سعيدة جداً بان تجمع ثروتها من جديد ، وسوف تشكرني على ذلك . »

إنه لا يعرفني ! إنه لا يعرفني !

وامسكها ماتيو من ذراعيها وهزها كأنها شجرة خوخ ، فيما كانت تصيح وهي تضحك :

— إنه لا يعرفني !

وقال مخشونة : — هل تراك ستصمتين ؟

فهدأت لولا ؛ وبدت وكأنها تراه للمرة الاولى :

— تفضل .

قال ماتيو : — أصحيح انك رفعت عليه شكوى ؟

— نعم . ما الذي تود ان تقوله لي ؟

قال — انا الذي سرقتك .

وكانت لولا تنظر اليه بلا اكتراث ، فكان عليه ان يردّد :

— انا الذي سرقت الخمسة الآف فرنك .

قالت — آه ! انت ؟

وهزت كنفها .

- لقد رأته صاحبة الفندق .

- كيف تكون قد رأته ، مادمت اقول لك اني انا الذي سرقت .
قالت لولا متزعجة :

- لقد رأته . فقد صعد حوالي الساعة السابعة وهو يتخفى ، وتركته يفعل لأنني كنت قد امرتها بذلك . ولقد انتظرته طوال النهار ، وكان قد انقضى على خروجي عشر دقائق . كان لا بدّ يترصدني عند زاوية الشارع ، فما ان رأني أذهب حتى صعد .

وكانت تتكلم بصوت قاتم سريع كان يبدو انه يعبر عن اعتقاد لا يتزعزع ، وفكر ماتيو بخيبة : « لكأنها بحاجة الى ان تؤمن بذلك » ، وقال :
- اسمعي : في اية ساعة عدت الى الفندق ؟
- المرة الاولى ؟ الساعة الثانية .

- حسناً ! كانت الاوراق المالية آنذاك لا تزال في الصندوق .

- اقول لك ان بوريس قد صعد عند الساعة السابعة .

- من الممكن ان يكون قد صعد ، وربما كان آتياً لرؤيتك .
ولكنك لم تنظري في الصندوق ؟

- بلى .

- هل نظرت فيه عند الساعة الثامنة ؟

- نعم .

قال ماتيو : - انك غير صادقة يا لولا . انا واثق من انك لم تنظري فيه . فعند الساعة الثامنة كان المفتاح معي ، وما كان بإمكانك ان تفتحيه . ولئن اكتشفت السرقة عند الساعة الثامنة ، فكيف تريد ان اصدق انك انتظرت منتصف الليل حتى تقصدي منزلي ؟ عند الساعة الثامنة تزيّنت بهدوء ، وارتديت ثوبك الجميل الاسود وذهبت الى « سومطرا » . اليس هذا صحيحاً ؟
فنظرت اليه لولا نظرة مغلقة :

— لقد رأته صاحبة الفندق يصعد .
— نعم ، ولكنك انت لم تنظري في الصندوق . وكان المال ما يزال فيه عند الساعة الثامنة . وقد صعدت عند الساعة العاشرة واخذته . وكان في المكتب عجوز رأيتي ؛ وبوسعها ان تشهد . اما انت فقد اكتشفت السرقة عند منتصف الليل .

قالت لولا في تعجب :

— نعم . عند منتصف الليل . ولكن الامر سواء . لقد اصبت بضيق في « سومطرا » فعدت الى الفندق . وتمددت ثم ادنيت الصندوق مني . كان هناك .. كان هناك رسائل كنت اود ان أعيد قراءتها .

وفكر ماتيو : « صحيح : الرسائل . لماذا تريد ان تخفي أمر سرقتها ؟ » وكان كلاهما صامتاً ؛ وبين الفينة والفينة ، كانت لولا تنوس من وراء الا الامام ، كمن ينام وافقاً . وبدت أخيراً وكأنها تستيقظ :

— أنت ، انت الذي سرقني ؟

— انا .

وضحكت مقتضبة ؟

— احتفظ بتدجيلاتك للقضاة اذا كان يروق لك ان تفضي ستة أشهر في السجن بدلاً منه .

— تماماً يا لولا : فما يُجديني أن أعرض نفسي للسجن بدلاً من

بوريس ؟

فلوت فيها :

— هل أدري ما الذي تفعله معه ؟

— إن هذا سخيف ! إسمعي : أقسم لك اني انا الذي سرت :

كان الصندوق امام النافذة ، تحت حقيبة . وقد أخذت المال وتركت

القفل في المفتاح .

وكانت شفتا لولا ترتجفان ، وكانت تدعك محفظتها في عصبية :

- أهذا كل ما تريد ان تقوله لي ؟ إذن دعني أذهب .

وارادت ان تمر ، فأوقفها ماتيو :

- لولا ، انك لا تريدان ان تدعي نفسك تقنعين .

فدفعته لولا بضربة من كتفها .

- الا ترى إذن في أية حالة أنا ؟ من نظنني بحكاية صندوقك

هذه ؟ (واضافت وهي تقلد صوت ماتيو) لقد كان الصندوق تحت

حقيبة امام النافذة . لقد جاء بوريس الى هنا ، وانت تحسب اني لا

اعرف ذلك ؟ لقد اتفقتما معاً على ما ينبغي ان يُقال للعجوز .

(وقالت بصوت مريع) دعني إذن أذهب ، دعني أذهب !

واراد ماتيو ان يأخذها من كتفيها ، ولكن لولا ارتمت الى خلف

وحاولت ان تفتح محفظتها ، فانترعها منها ماتيو وألقى بها الى الديوان.

وقالت لولا :

- يا لك من وحش

فقال ماتيو وهو يتسم :

- أهو كبريتات ام مسدس ؟

فأخذت لولا ترتجف بكل اعضائها . وفكر ماتيو : « هكذا :

انها نوبة الأعصاب » وكان يشعر بأنه يحلم حلماً مشؤوماً غريباً . ولكن

كان ينبغي إقناعها . وكفت لولا عن الارتجاج . كانت قد انزوت

بالقرب من النافذة وهي ترقبه بعينين تلتمعان بحقد عاجز . وأدار ماتيو

رأسه : إنه لم يكن يخاف حقدها ، ولكن كان على ذلك الوجه قحطٌ

بائسٌ لا يُحتمل .

وقال بتمهل : - « لقد صعدت الى غرفتك هذا الصباح ،

فأخذت المفتاح من حقيبتك . وحين استيقظت ، كنت على وشك ان

أفتح الصندوق . ولم يتح لي الوقت ان اعيد المفتاح الى مكانه ، وهذا ما جعلني افكر بالعودة الى غرفتك هذا الصباح .

قالت لولا : - عبث ما تقول . فقد رأيتك تدخل هذا الصباح .
وحين حدثتك لم تكن قد وصلت حتى الى سريري .

- كنت قد دخلت مرة اولى وعدت .

وقهقهت لولا فأضاف على مضمض :

- بسبب الرسائل .

فلم يكن يبدو عليها انها تسمع : كان لا فائدة إطلاقاً من ان يحدثها عن الرسائل ، انها لم تكن تفكر الا بالمال ، وكانت بحاجة الى التفكير به لتلهب غضبها ، وهو ملاذها الوحيد . وانتهت الى القول في ضحكة صغيرة جافة .

المصيبة انه طلب مني الخمسة آلاف فرنك مساء أمس ، أتفهم ؟
ومن أجل هذا بالذات تخاصمنا .

فأحس ماتيو بعجزه : كان الأمر بدسياً ، فان المذنب لا يمكن ان يكون الا بوريس . وقال في إرهاق : « كان عليّ ان افكر بهذا . » وقالت لولا في بسمة خبيثة :

- لا تجهد نفسك إذن . سوف أقبض عليه ، واذا نجحت في ان تضلل القاضي ، فأحصل عليه بطريقة اخرى . هذا كل ما في الأمر .

ونظر ماتيو الى المحفظة على الديوان ونظرت اليها لولا كذلك .
وقال :

- لقد طلبت منك المال لأجلي أنا .

- نعم . ومن أجلك ايضاً سرق كتاباً من احدى المكتبات بعد الظهر ؟ لقد افتخر بهذا بينما كان يرقص معي .
وتوقفت فجأة ثم أردفت بهدوء مهدد :

— حسناً ! انت الذي سرقني اذن ؟

— نعم .

— إذن ، أعدّ لي المال

فظل ماتيو مشدوهاً . وازافت لولا بلهجة انتصار ساخرة :

— أعدّه لي فوراً فأسحب شكواي .

فلم يجب ماتيو . وقالت لولا :

— كفى . لقد فهمت .

وأخذت محفظتها من جديد من غير ان يحاول منعها عن ذلك .

وقال في مشقة :

— لو كنت املكه في الحقيقة فاذا يثبت هذا ؟ ان بوسع بوريس

ان يستودعي اياه ، في رأيك .

— انا لا اطلب منك هذا . اطلب منك ان تردّه لي .

— ليس المال معي بعد .

— ايّ خلط هذا ! لقد سرقني عند الساعة العاشرة ، ولم يبق

معك شيء عند منتصف الليل ؟ تهاني .

— لقد أعطيت المال :

— لمن ؟

— لن اقول لك ذلك .

وأضاف بحوية :

— لم أعطه لبوريس .

فابتسمت من غير ان تجيب ، وتوجهت الى الباب فلم يوقفها .

وكان يفكر : : « ان دائرة الشرطة التي تتبع لها منطقتها تقع في شارع

مارتير . وسوف أقصدها لأشرح القضية . » ولكنه حين رأى ظهر

هذا الشبح الاسود الذي كان يسير في صلابة كارثة عمياء ، خاف

وفكر في المحفظة ، وبذل جهداً أخيراً :

– استطيع في آخر المطاف ان اخبرك لمن اعطيت المال : اعطيته للآنسة
دوفيه ، وهي صديقة لي .

وفتحت لولا الباب وخرجت . وسمعتها تصرخ في الغرفة الخارجية
فوثب قلبه . وبرزت لولا مرة اخرى ، وكانت تبدو عليها هيئة المجانين ،
وقالت :

– هناك شخص .

وفكر ماتيو : « انه بوريس . »

وكان دانيال . ودخل في شموخ وانحنى امام لولا . وقال وهو يمد

مغلفاً :

– هذه يا سيدتي هي الخمسة آلاف فرنك . تفضلي وتحققي من

نها مالك .

وفكر ماتيو في وقت واحد « ان مارسيل هي التي تُرسله » و « لقد

اصغى من وراء الباب » وكان دانيال يصغي من وراء الابواب ليتدبر
أمر دخوله . وسأله ماتيو :

– أتراها قد

فطمأنه دانيال بحركة وقال :

– كل شيء على ما يرام .

وكانت لولا تنظر الى المغلف نظرة حذرة تشبه نظرة الفلاحين .

وسألت :

– فيه خمسة آلاف فرنك ؟

– نعم .

– ما الذي يثبت لي انها اوراقى المالية ؟

فسألها دانيال : – ألم تسجلي أرقامها ؟

– اتظن ذلك ؟

قال دانيال في لهجة عتاب :

— آه ، ينبغي يا سيدتي ان تسجلي الارقام دائماً .
وجاء ماتيو وحي مفاجيء : لقد تذكر رائحة عطر (قرص)
الكثيفة التي انبعثت من الصندوق فقال :
— شئها .

فترددت لولا لحظة ، ثم خطفت المغلف ومزقتها وأدنت الاوراق
المالية من أنفها . وخشي ماتيو ان ينفجر دانيال ضاحكاً ؛ ولكن
دانيال كان رصيناً كأنه بابا ، كان ينظر الى لولا بعين متفهمة ؛
وسألت :

— اذن ؟ لقد أجبرت بوريس على إعادتها ؟
قال دانيال : — لا اعرف احداً يدعى بوريس . انها صديقة لماتيو
اعطني اياها لأردّها له . وقد اتيت ركضاً وسمعت نهاية حديثكما .
واعتذر من ذلك يا سيدتي .

وظلت لولا جامدة : وذراعاها متدلّيتان على جنبها ، تشد محفظتها
بيدها اليسرى ، بينما كانت اليمنى متشنجة على الاوراق المالية ؛ وكانت
هيئتها قلقة مشدوهة . وسألت فجأة :

— ولكن لماذا فعلت ذلك انت ؟ ما هي خمسة آلاف فرنك ، بالنسبة
اليك ؟

فابتسم ماتيو بلا مرح :

— يبدو انها شيء كثير .

ثم اضاف على مهل :

— يجب ان تفكري بسحب شكواك يا لولا . او اذا شئت قدمي
شكواك ضدّي أنا .

فأدارت لولا رأسها وقالت بسرعة :

— لم اقدم شكوى بعد .

وظلت مزروعة وسط القاعة ، تائهة . وقالت :

- كانت هناك ايضاً رسائل .
- ليست هي معي بعد . لقد اخذتها هذا الصباح له . اذ كنت
نظنك ميتة . وهذا ما اوحى لي بان اعود لأخذ المال .
- فنظرت لولا الى ماتيو من غير حقد ، وبقدر كبير من الدهشة
ونوعٍ من الاهتمام ، وقالت :
- لقد سرقت مني خمسة آلاف فرنك ! ان هذا ... هذا طريف !
ولكن سرعان ما انطقت عينها وقست ملامح وجهها ، وكان يبدو
عليها انها تتألم . وقالت :
- انني ذاهبة .
- فركاها تخرج في سكون . التفتت عند عتبة الباب :
- اذا لم يفعل شيئاً ، فلماذا لا يعود ؟
— لا ادري .
- فندت عن لولا شهقة قصيرة واعتمدت عارضة الباب . وخطا
ماتيو خطوة نحوها ، ولكنها تمسكت :
- اتعتقد انه سيعود ؟
- أظنّ : انها غير قادرين على ان يُسعدا الناس ، ولكنها مع
ذلك لا يستطيعان ان يتخليا عنهم ، فان ذلك أشقّ من ان يحملاه :
- قالت لولا : — نعم . نعم . هيا . وداعاً .
- وداعاً يا لولا . انك ... لا تحتاجين شيئاً ؟
— كلا .
- وخرجت وسمعا الباب ينغلق . وسأل دانيال :
- من هي هذه السيدة العجوز ؟
- لولا ، صديقة بوريس سرغين . انها « مخلوعة » .
فقال دانيال : — يبدو عليها ذلك .
- واحسن ماتيو بانزعاج ان يبقى معه وحيداً ؛ فقد كان يخيّل اليه

انه قد وضع فجأة في حضور خطيبته . كانت هناك ، تجاهه ، حية ، كانت تعيش في اعماق عيني دانيال ، والله يعلم اي شكل اتخذته في هذا الوجدان المدلل المزور . وكان يبدو على دانيال انه مستعد لاستغلال الموقف . فقد كان حفيظاً وقحاً سيء النفس كما كان يبدو في اردأ ايامه . وقسا ماتيو ورفع رأسه ؛ وكان دانيال بشعاً وقال دانيال في ابتسامة رديئة :

— انك تبدو كريهاً .

فقال ماتيو : — كنت أهمّ بان اقول لك مثل ذلك . اننا نضمران !

فهزّ دانيال كتفيه . وسأله ماتيو :

— هل انت قادم من لندن مارسيل ؟

— نعم .

وهي التي أعادت لك المال ؟

فقال دانيال متهرباً : — انها لم تكن بحاجة اليه .

— لم تكن بحاجة اليه ؟

— كلا .

— قل لي على الاقل ان كانت لديها الوسطة ...

قال دانيال : — ليست القضية هكذا بعد يا عزيزي . ان هذه قصة

قديمة :

وكان قد رفع حاجبه الأيسر وهو يتأمل ماتيو في سخرية ، كما لو

كان ذلك عبر نظارة خيالية . وفكر ماتيو : « اذا كان قصده ان

يدهشني ، فهو يُحسِنُ صنعاً كذلك اذا منع يديه من الارتجاف . »

وقال دانيال بلا اكتراث :

— انني اتزوجها . وسنحتفظ بالولد .

واخذ ماتيو سيكارة فأشعلها . وكان محته يهترّ كالجرس . وقال

في هدوء :

– لقد كنت تحبها إذن !

– ولمَ لا ؟

وفكر ماتيو : « ان المقصودة هي مارسيل » مارسيل ! ولم يكن
ينجح في ان يُقنع نفسه بذلك كل الاقتناع . وقال :

– اسمع يا دانيال : انني لا اصدقك .

– انتظر قليلاً ، وسترى جيداً .

– كلا ، اقصد انك لن تجعلني اصدق انك تحبها ، وانا اتساءل
عمّا وراء هذا كله .

وكان التعب يبدو على دانيال ، وكان قد جلس على حافة المكتب ،
واضعاً قدماً على الارض ، مؤرجحاً الاخرى غير في اكثرث . وفكر
ماتيو في غضب : « انه يتسلى »

وقال دانيال : – ستكون مندهشاً جداً اذا عرفت ماذا هناك .

وفكر ماتيو : « تفه ! لقد كانت خليلته ! » وقال في جفاء :

– اذا لم يكن عليك ان تقول لي ذلك ، فاسكت .

فنظر اليه دانيال لحظة كما لو كان يتسلى بأن يثير فضوله ، ثم نهض
دفعه واحده وأمرّ يده على جبينه وقال :

– ان الأمر يسوء .

وكان يتأمل ماتيو في اندهاش :

– لم أجيء لأحدثك في هذا . اسمع يا ماتيو ، انني ...

واغتصب ضحكة :

– ستعتبر نفسك رجلاً ذا أهمية إن قلت لك ذلك .

قال ماتيو : – حسناً . تكلم او لا تتكلم .

– إذن ، انني :

وتوقف ايضاً ، فأتمّ عنه ماتيو العبارة ، وقد نفذ صبره :

– انك عشيق مارسيل ، هذا ما كنت تود ان تقوله .

فباعد ماتيو ما بين عينيه وارسل صغرة خفيفة . واحس ماتيو ان وجهه يحمر . وقال دانيال بلهجة اعجاب :
- لقد وجدتها ببراعة ! انك لا تطلب الا هذا ، اليس كذلك ؟
كلا يا عزيزي . إنك لا تملك حتى هذا العذر .
فقال ماتيو ذليلاً : - وانت ايضاً ليس لك الا ان تتكلم .
قال دانيال : - انتظر . اليس لديك ما يُشرب ؟ ويسكي ؟
فقال ماتيو : - كلا . ولكن عندي « روم » ابيض .
(وأضاف) انها فكرة عظيمة : سوف نشرب قدهاً .
ومضى الى المطبخ ففتح الخزانة وفكر : « لقد كنت دنيئاً وعاذ
بقديحين وزجاجة « روم » . فأخذ دانيال الزجاجاة وملاً القديحين حتى
أترعها . وقال :

- انه من مصنع « الروم » المارتينيكي ؟

- نعم .

- الا تزال تقصده أحياناً ؟

قال ماتيو : - احياناً . نخبك !

فنظر اليه دانيال نظرة استقصاء ، كما لو ان ماتيو كان يخفي عنه شيئاً ما وقال وهو يرفع قدهه :

- نجب غرامياتي :

قال ماتيو مغتاضاً : - انك سكران .

فقال دانيال : - صحيح اني شربت قليلاً . ولكن اطمئن . كنت

صامتاً حين صعدت الى بيت مارسيل . وبعد ذلك ...

- وهل انت قادم من عندها ؟

- نعم . وقد توقفت قليلاً في « الفلاستاف »

- لا بد انك وجدتها ... فور ذهابي ؟

فقال دانيال مبتسماً : - كنت انتظر ان تخرج . وحين رأيتك

تنفتل في منعطف شارع صععدت .

فلم يتمالك ماتيو حركة انزعاج وقال :

- أكنت تترصدني ؟ اوه .. فليكن . وهكذا لم تبق مارسيل وحدها . حسناً ! ما الذي كنت تود ان تقوله لي ؟

قال دانيال في ودّ مفاجيء : - لا شيء على الاطلاق يا عزيزي- كنت اودّ ببساطة ان اعلن لك زواجي .

- أهذا كل شيء ؟

- هذا كل شيء ؛ نعم .. هذا كل شيء .

فقال ماتيو في برودة : - كما تشاء .

وصمنا لحظة ، ثم سأله ماتيو :

- كيف ... كيف حالها ؟

فسأله دانيال بسخرية : - انريد ان اقول لك انها سعيدة وفرحة ؟

وفرّ عليّ تواضعي .

فقال ماتيو بجفاء : - ارجوك . صحيح . ليس لي اي حق في

سؤالك .. ولكنك في الحقيقة قد جئت الى هنا ..

قال دانيال : - أجل ، كنت أظنّ أنّي سأجد مشقة اكبر لإقناعها :

ولكنها ارتمت على اقتراحي كما يرتمي الفقر على العالم .

ورأى ماتيو مايشبه الحقد يلتمع في عينيه ، فسارع يقول لكسي

يعذر مارسيل :

- لقد كانت ضائعة ...

فهز دانيال كتفيه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . ولم يكن ماتيو

يجرؤ على النظر اليه : كان دانيال يتلذذ بنفسه ، ويتكلم بعدوبة ،

ولكنه كان يبدو وكأنه مأخوذ . وشبك ماتيو يديه وحدّد نظره في

حذائه . وأضاف على مشقة ، كأنما يحدث نفسه :

- لقد كانت تريد الطفل إذن ؟ انني لم افهم هذا . ولو

قالته لي ...

وكان دانيال صامتاً ، فاستطرد ماتيو في جهد :
- كان الطفل . . سيولد . اني انا .. كنت اريد حذفه
وأفرض انه من الأفضل ان يولد .
فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :
- اني لن أراه أبداً ، وبالطبع ؟
ولم يكن يبدو على عبارته انها استفهام . فأضاف من غير ان ينتظر
الجواب

- واخيراً ، هذا هو الوضع . اعتقد ان بوسعي ان اكون مسروراً .
فانت تنقدها على نحو ما ... ولكني لا أفهم شيئاً في الأمر . لماذا
فعلت ذلك ؟

فقال دانيال بجفاء : - طبعاً ليس ذلك بداعي محبة البشر ، ان
كنت ترمي الى هذا . (واضاف) ان شرابك كرهه .. ومع ذلك ،
فأعطني قدحاً آخر .

فلأ ماتيو القدحين وشربا . وقال دانيال :

- وإذن ، ما الذي ستفعله الآن ؟

- لا شيء . لا شيء بعد .

- وتلك الصغيرة سرغين ؟

- كلا .

- بالرغم من انك تحتررت الآن ؟

- الأمر لدي سواء !

- قال دانيال وهو ينهض :

- مساء الخير . لقد جئت اريد لك المال واطمنثك قليلاً : ان مارسيل

لن تخشى شيئاً ، فهي تثق بي . لقد هزتها هذه القصة كلها هزاً

عنيفاً ولكنها ليست شقية على كل حال .

فردّد ماتيو : - سوف تتزوجها ! (واضاف بصوت منخفض)
انها تكرهني .

فقال دانيال بقسوة : - ضع نفسك موضعها !

- اعرف ذلك . لقد وضعت نفسي موضعها . هل حدثتكَ عني ؟
- قليلاً جداً .

قال ماتيو : - اتدري . ان لي رأياً في زواجكما .

- هل انت نادم ؟

- كلا . بل أجد ذلك مشؤوماً .

- شكراً .

- اوه ! بالنسبة لكل منكما . لا ادري لماذا !

- لا تقلق . سيسير كل شيء على ما يرام . فاذا رزقنا ذكراً
أسميناه ماتيو .

فنهض ماتيو وهو يشدّ قبضته وقال :

- إخرس !

قال دانيال : - هيتاً ، لا تغضب !

وردّد بلهجة شاردة : - لا تغضب ، لا تغضب .

ولم يعزم على الذهاب . فقال له ماتيو :

- بالاجال ، لقد جئت ترى هيتي بعد هذه القصة ؟

قال دانيال : - لا يخلو الأمر من هذا . بكل صراحة . لا يخلو

الامر من هذا .. إنك تبدو دائماً ... شديد الصلابة : وكنت تضايقتني
بذلك .

قال ماتيو : حسناً ، وقد رأيتَ اني لست صليلاً الى هذا الحد :

- نعم .

وخطا دانيال بضع خطوات الى الباب ، ثم عاد فجأة الى ماتيو :

وكان قد فقد هيبته الساخرة ، ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من الوضع ،

وقال :

— انني يا ماتيو لوطي .

فقال ماتيو : — ماذا تقول ؟

وكان دانيال قد ارتدّ الى خلف وهو ينظر اليه بعينين مدهوشتين

يتبعث منهما شرر الغضب .

— ان هذا يثير اشمزازك ، اليس كذلك .

فردّ ماتيو بهدوء ؛ — انت لوطي ؟ كلا ، ان هذا لا يثير

اشمزازي ، ولماذا تراه يثير اشمزازي ؟

قال دانيال : — ارجوك ، لا تظنّ انك مجبر على ان تظهر بمظهر

المتحررين الواسعي التفكير ...

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى دانيال ويفكر : « انه لوطي »

ولم يكن شديد الدهشة .

وتابع دانيال بصوت مصفّر :

— اراك لا تقول شيئاً . انك على حق . ان ردّ فعلك مناسب

تماماً ، وهو الذي يتميّز به كل رجل سليم ، ولكنك تحسن صنعاً

كذلك بان تحتفظ به لنفسك .

وكان دانيال جامداً ، وذراعاها ملتصقتان بجسمه ، وكان يبدو عليه

انه في ضيق . وتساءل ماتيو في قسوة : « ما الذي دهاه لكي يأتي

فيعذب نفسه عندي ؟ » وكان يفكر بانه لا بد قد وجد شيئاً يقوله ،

ولكنه كان غارقاً في لامبالاة عميقة شالّة . ثم ان ذلك كان يبدو له

طبيعياً جداً وعادياً جداً : لقد كان دنيئاً ، وكان دانيال لوطياً ،

وكان هذا في طبيعة الاشياء . وقال اخيراً :

— بوسعك ان تكون ما تريد . ان هذا لا يعنيني .

فقال دانيال وهو يبتسم في رفعة : — أتصور في الحقيقة ان هذا

لا يعنيك . فحسبك ما تعانیه مع ضميرك بالذات .

— اذن لماذا تأتي فتروي لي هذا ؟
فقال دانيال وهو يتنحج : — لقد اردت ان اعرف الاثر الذي
يُخلفه ذلك على شخص مثلك ... ثم اني — الآن وهناك من يعرف —
ربما توصلت الى تصديق ذلك ...
وكان اخضر اللون وهو يتكلم في صعوبة ، ولكنه كان مستمراً في
الابتسام . ولم يستطع ماتيو ان يتحمل هذه البسمة فأدار رأسه . وقهقهه
دانيال .

— أيد هسك هذا ؟ ويُزعج افكارك عن اللوطيين ؟

فرفع ماتيو رأسه بحوية وقال :

— لا تتحدلق . انك متعب . ولست بحاجة لأن تتحدلق معي . ربما
كنت تنفر من نفسك ، ولكن ليس اكثر مما انفر من نفسي ، فنحن
متساويان . (وفكر قليلاً واطاف) والواقع انك من أجل هذا تروي
لي حكاياتك . لا بد ان الاعتراف امام انسان ضعيف اقل مشقة ،
والمرء مع ذلك يملك ميزة الاعتراف .

فقال دانيال بصوت مبتدل لم يكن ماتيو يعهده فيه :

— انك خبيث صغير .

وصمنا . وكان دانيال ينظر امامه باستقامة وفي نظر محدد ، على
طريقة العجّز . واخترق ماتيو ندم " حاد " :

— اذا كان الامر كذلك ، فلماذا تتزوج مارسيل ؟

— ليس لهذا اية علاقة .

قال ماتيو : — اني ... اني لا استطيع ان ادعك تتزوجها .

فانتصب دانيال وانطبعت على وجهه ، وجه الغريقت ؛ لطخات
حمراء داكنة ، وسأل في عبوس :

— صحيح ، ألا تستطيع ؟ وكيف تفعل لتمنعي من ذلك ؟

فنهض ماتيو من غير ان يجيب . وكان التلفون على مكتبه ، فتناول

الساعة وركب رقم مارسيل . فنظر اليه دانيال في سخريه . وساد صمت طويل . وقال صوت مارسيل :

— ألو ؟

فانفض ماتيو وقال :

— الو ، انا ماتيو .. اسمعي .. لقد كنت ، لقد كنا أبلهين منذ ساعة . اودّ ... الو ! مارسيل ؟ هل تسمعي ؟ (وقال غاضباً)
مارسيل ؟ ألو !

ولم تكن تجيب ، ففقد صوابه وصاح في الجهاز :

— مارسيل ، اريد ان اتزوجك !

وبعد صمت قصير ، حدثت خربشة في آخر الخط ، ثم أغلق التلفون . واحتفظ ماتيو لحظة بالساعة في يده ، ثم وضعها بهدوء على الطاولة . وكان دانيال ينظر اليه من غير ان يقول كلمة ، ولم يكن يبدو عليه مظهر المنتصر . وشرب ماتيو جرعة « روم » وعاد يجلس في الاربكة وقال :

— حسناً !

فابتسم دانيال ، وقال على سبيل التعزية :

— ليطمئن بالك : فان اللوطيين هم دائماً ازواج ممتازون ، وهذا معهود .

— دانيال ! ان كنت تتزوجها لتقوم ببادرة طيبة ، فانك ستفسد حياتها .

قال دانيال : — انت آخر من ينبغي ان يقول لي ذلك . ثم اني لا اتزوجها لأقوم ببادرة طيبة . ثم ان ما تريده قبل كل شيء انما هو الطفل .

— وهل ... هل تعرف ؟

— كلا !

— لماذا تتزوجها ؟
— بدافع صداقتي لها .
ولم تكن اللهجة مقنعة . وصبّ أحدهما للآخر فشربا ، وقال ماتيو
في عناد :

— انني لا اريد ان تكون شقية .
— أقسم لك انها لن تكون شقية .
— وهل تؤمن بأنك تحبها ؟
— لا اعتقد . لقد عرضت عليّ ان أعيش بجانبها ؛ ولكن ذلك لا
يناسبني . انني سأدعوها للإقامة معي . وقد تفاهمنا على ان نترك العاطفة.
تأتي رويداً رويداً .

واضاف في سخيرية شاقة :
— انني مصممٌ على ان اقوم بواجباتي كزوج حتى النهاية .
— ولكن هل ...
واحمرّ وجه ماتيو بعنف :
— هل تحب النساء ايضاً ؟
فنخر دانيال نخرة غريبة وقال :
— ليس كثيراً .
— فهمت .

وتحفض ماتيو رأسه وامتلأت عيناه بدموع الحجل ، وقال :
— انني ازداد نفوراً من نفسي منذ عرفت انك ستتزوجها .
وشرب دانيال وقال بلهجة شاردة محايدة :
— نعم ، اعتقد انك تحسّ بأنك قدر بما فيه الكفاية .
فلم يجب ماتيو . وكان ينظر الى الارض بين قدميه : « انه لوطي »
وسوف تتزوجه . « وفتح يديه وصفق عقبه بالارض : كان يُحسّ .
انه مُطارّد . وثقل الصمت عليه فجأة فقال لنفسه : « ان دانيال ينظر

إليّ ، وسارع يرفع رأسه . وكان دانيال ينظر إليه حقاً ، وبهيئة
حقد القبض لها قلب ماتيو ، فسأله :

— لماذا تنظر إليّ هكذا ؟

قال دانيال : — انت تعلم ! هناك من يعلم !

— انك لمن تحتقر ان تطلق النار عليّ ؟

فلم يجب دانيال . واحترق ماتيو فجأة بفكرة لا يُتختمل فقال :

— دانيال : انك تتزوّجها لتعذب نفسك .

فقال دانيال بصوت ابيض :

— وبعد ؟ ان هذا لا يعني احداً سواي .

فوضع ماتيو رأسه بين يديه وقال : « يا إلهي ! »

واضاف دانيال بحوية : — ان هذا لا اهمية له على الاطلاق بالنسبة

اليها . لا اهمية له .

— هل تكرهها ؟

— كلا .

وفكر ماتيو في حزن . « كلا . انما يكرهني انا » .

واستعاد دانيال بسمته وسأله :

هل تُفرغ الزجاجاة ؟

فقال ماتيو : — لنفرغها .

وشربا ، ولاحظ ماتيو انه راغب في التدخين ، فتناول سيجارة من

جيبه واشعلها . وقال :

— لا يعنيني ما تكونه . حتى وبعد ان اخبرني ذلك . ومع هذا ،

يبقى شيء اريد ان اسألك عنه : لماذا تشعر بالحنج ؟

فضحك دانيال ضحكة جافة :

— كنت انتظرك هنا يا عزيزي . اني خجل من كوني لوطياً لأنني

لوطي . انا اعرف ما سوف تقوله لي : « لو كنت مكانك ، لما

استسلمت لهذا ، بل طالبت بمكاني تحت الشمس ، ان هذا ذوق
كالاذواق الاخرى السخ ، الخ ... » ولكن ذلك لا يؤثّر عليّ . انا
اعرف انك ستقول لي هذا كله ، وذلك لأنك لست لوطياً . ان جميع
اللوطيين يشعرون بالحجل ، وهذا في طبيعهم .

فسأله ماتيو في حياء : - ولكن أليس الافضل ان يقبل المرء نفسه؟
فبدا على دانيال الانزعاج وأجاب في قسوة :

- ستحدثني عن ذلك مرة اخرى ، يوم تقبل ان تكون دينياً .
كلا . ان اللوطيين الذين يتباهون او يتظاهرون او حتى يقبلون بكل
بساطة ... انهم اموات . لقد قتلوا انفسهم لفرط ما شعروا بالحجل .
وانا لا اريد هذا الموت .

ولكن كان يبدو وكأنه قد انفرج ، وكان ينظر الى ماتيو بلا حقد
وأضاف في عدوية :

- لقد قبلت نفسي اكثر مما ينبغي . اني اعرف نفسي في الزوايا .
ولم يكن ثمة ما يقال . واشعل ماتيو سيجارة اخرى . ثم انه كان
باقياً بعض « الروم » في قعر قلدحه فشربه . وكان دانيال يثير
اشمئزازه . وفكر : « بعد عامين ، بعد اربعة ... أتراني سأصبح
هكذا ؟ » وأخذته الرغبة فجأة بأن يحدث مارسيل في هذا : فانما
كان يستطيع ان يحدثها وحدها عن حياته ، عن مخاوفه ، عن آماله .
ولكنه تذكر انه لن يراها بعد ابداً ، فتحوّلت رغبته المعلقة التي لم
يكن لها من اسم الى ضرب من الضيق . كان وحيداً .

وكان يبدو على دانيال انه يفكر : كان نظره ثابتاً وكانت شفتاه
بين الفينة والفينة تفتّران . واطلق تنهدة صغيرة ، وبدأ شيء ما
يتظامن في وجهه . وأمرّ يده على جبينه : كان يبدو عليه الدهشة .
وقال في صوت منخفض :

- ومع ذلك ، لقد فاجأت نفسي اليوم .

وابتسم بسمة غريبة ، تكاد تكون طفولية ، بسمة بدت في غير محلها على وجهه الزيتوني حيث كانت لحيته التي لم تحلق جيداً تخلف لطخات زرقاء . وفكر ماتيو : « صحيح ، لقد مضى الى النهاية ، هذه المرة . » وأنته فجأة فكرة انقبض لها قلبه : « انه حر » واختلط النفور الذي كان دانيال يوحيه له ، اختلط بالحسد وقال :

- لا بد انك في حالة نفسية غريبة .

قال دانيال : - نعم ، في حالة غريبة .

وكان ما يزال يتسم باخلاص . وقال :

- اعطني سيجارة .

فسأله ماتيو : - انك تدخن ، الآن ؟

- واحدة . هذا المساء .

وقال ماتيو فجأة :

- اود لو اكون في وضعك .

غردد دانيال في غير اندهاش كثير : - في وضعي ؟

- نعم .

فرغ دانيال كتفيه وقال :

- انك في هذه القصة رابع في جميع الميادين .

فضحك ماتيو ضحكة جافة . واوضح دانيال :

- انت حر .

قال ماتيو وهو يهز رأسه :

- كلا ، ليس المرء حرّاً لمجرد ان يترك امرأة .

فنظر دانيال الى ما ماتيو في فضول :

- ومع ذلك فقد كان يبدو عليك هذا الصباح انك مؤمن بهذا .

- لا ادري . لم يكن ذلك واضحاً . ليس ثمة ما هو واضح .

الحقيقة اني تركت مارسيل من اجل لا شيء .

وكان يحدد نظره في ستائر الناقد التي كانت تحركها ريح ليلية خفيفة . وكان متعباً . واضاف :

— من اجل لا شيء . في هذه الحكاية كلها لم اكن الا رفضاً ونقياً : صحيح ان مارسيل ليست بعد في حياتي ، ولكن هناك كل الباقي .

— ماذا ؟

فأشار ماتيوي الى مكتبه بحركة عريضة غامضة :

— كل هذا ، كل الباقي .

وكان مسحوراً بدانيال . كان يفكر : « أهذه هي الحرية ؟ لقد عمل ، وهو الآن لا يستطيع ان يتراجع الى خلف : ولا بد ان يبدو له غريباً ان يحس خلفه عملاً مجهولاً لم يعد يفهمه تقريباً وسيقلب حياته . اما أنا ، فان كل ما فعله ، افعله من اجل لا شيء ، فكأن الناس يسرقون لي نتائج اعمالهم ؛ وكل شيء يحدث كما لو اني كنت أستطيع دائماً ان استعيد ضرباتي . اني لا ادري ما بوسعي ان ابدل لكي اقوم بعمل لا يمكن اصلاحه » :

وقال بصوت مرتفع :

— مساء أمس الاول ، رأيت شخصاً كان يريد ان يتضوي في

حركة الميليشيا الاسبانية .

— وبعد ذلك ؟

— ولكن اخذه الخوف : فهو الآن هناك .

— ولماذا تقول لي ذلك ؟

— لا ادري . هكذا .

— وهل رغبت يوماً في الذهاب الى اسبانيا ؟

— نعم . ولكنها لم تكن رغبة ملحة بما فيه الكفاية .

وصمتا . وبعد برهة ، رمى دانيال سيجارته وقال :

— اودّ لو اكون أسنّ مما انا بستة أشهر .
قال ماتيو : — اما انا فلا . فيعيد ستة اشهر سأكون مشابهاً لما انا الآن .
قال دانيال : — وسيكون قد زال ندمك .

ونهبض :

— اني ادعوك الى قدح في مقهى كلاريس .
قال ماتيو : — كلا ، فليست بي رغبة لأن أتمل هذا المساء .
فأنا لا ادري ما الذي قد افعله اذا ثملت .
قال دانيال : — لن تفعل شيئاً هاماً . الا تأتي معي اذن ؟
— كلا . وانت ، الا تريد ان تبقى لحظة اخرى ؟
قال دانيال : — يجب ان أشرب . وداعاً .
— مع السلامة .. هل .. هل اراك قريباً ؟
فيبدأ دانيال مرتبكاً :

— اعتقد ان ذلك سيكون صعباً . لقد قلت لي مارسيل انها لا
تريد ان تغير شيئاً في حياتي ، ولكني أظنّ انه سيشتقّ عليها ان اراك
ثانية .

فقال ماتيو بحفاف : — آه ؟ حسناً . في هذه الحالة ادعو لك
بالحظ الطيب .

فابتسم دانيال من غير ان يجيب ، واضاف ماتيو فجأة :
— انك حاقدٌ عليّ .
فاقرب منه دانيال وأمرّ يده على كتفه بحركة صغيرة مرتبكة حيية :
— كلا . ليس في هذه اللحظة .

— اما غداً ...

فحنى دانيال رأسه من غير ان يجيب وقال ماتيو :

— مع السلامة :

وخرج دانيال ، فاقرب ماتيو من النافذة ورفع الستائر .
وكان ليلاً رائقاً ، رائقاً وأزرق ؛ وكانت الريح قد كنت الغيوم ،
وكانت النجوم تُرى فوق السطوح . وارتفق الشرفة وتشاءب طويلاً .
وفي الشارع ، تحته ، كان رجلٌ يسير بخطوة هادئة ؛ وتوقف عند
زاوية شارع هويغنز وشارع فراودفو ، فرفع رأسه ونظر الى السماء .
وكان هو دانيال . وكان نغمٌ موسيقي يأتي دفعات من جادة «مين» ،
وتسرب الى السماء ضوء منارة ابيض ، فتوقف فوق مدخنة ثم تدرج
خلف السطوح . وكانت سماء حفلة قروية ، متقطعة بالشرائط ، تذكر
بالعطل وبحفلات الرقص الحقلية . ورأى ماتيو دانيال يخفي ، وفكر :
« اني ابقى وحيداً . » وحيد ، ولكن ليس اكثر حرية من السابق .
وكان قد قال لنفسه عشية الامس : « ليت ان مارسيل غير موجودة »
ولكن هذه كانت اكدوية . « لم يعترض احد طريق حريتي ، وانما
حياتي هي التي شربتها . » وعاد يغلق النافذة ويدخل الى الغرفة .
وكانت رائحة ايفيش ما تزال تخفق فيها . وتنشق الرائحة واستعاد هذا
اليوم الصاحب . وفكر : « ضجة كثيرة من اجل لاشيء . » من اجل
لاشيء : لقد أُعطي هذه الحياة من اجل لاشيء ، ولم يكن شيئاً ،
ومع ذلك فهو لن يتغير أبداً : لقد كان مصنوعاً . ونزع نعليه وظل
جامداً ، وهو جالس على ذراع الاريكة ، ونعلٌ في يده ؛ وكان ما
يزال في جوف حلقه حرارة « الروم » المسكرة . وتشاءب : لقد
انهى يومه ، وقد انتهى من شبابه . وكان ثمة اخلاقياتٌ معاناةٌ
تعرض عليه خدماتها عرضاً خفياً : كان ثمة الابيقورية المتبصرة ،
والرحمة الباسمة ، والاستسلام ؛ وروح الرصانة ، والعزيمة الزينونية ،

وكل ما كان يتيح للمرء ان يتذوق تذوق العارف ، دقيقة فديقة ،
حياة نحابة . ونزع سترته ، واخذ بحل عقدة عنقه . وكان يردد
وهو يتأهب : « هذا صحيح ، هذا صحيح بالرغم من كل شيء :
انني في سن الرشد . »

انتهى الجزء الاول : سن الرشد

ويليه الجزء الثاني : وقف التنفيذ